الأسرة المسلمة في العالم المعاصر

(واقعها - تحدياتها)

تأليف

يوسف علي بديوي

أحمد خليل جمعة

اليمامة

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت

الأسرة المسلمة
في العالم المعاصر
(واقعها - تحدياتها)

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

رقم الموافقة : ٦٠٨٨٥

تاريخ الموافقة : ٢٢ / ١٠ / ٢٠٠١

اليمامة

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات - ص.ب ٣٧٧ - تلفاكس ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٣٢٤٥

بيروت - ص.ب ١١٣/٥٤٨٨ - تلفاكس ٤٧٥٨٥٧ ٠١ - جوال ٨٥٣٥٨٦ ٠٣

البريد الالكتروني: alyamama@scs-net.org

الأسرة المسلمة

في العالم المعاصر

(واقعها - تحدياتها)

تأليف

يوسف علي بديوي   أحمد خليل جمعة

اليمامة

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت

إهـــداء

* إلى كل أسرة مسلمة تسعى لتربية أبنائها على منهج القرآن الكريم والسنة النبوية الغرّاء.

* إلى كل أبناء المسلمين والجيل الناشىء؛ لعلَّ الله عز وجل أن ينُيرَ قلوبهم، ويهديهم سواء السبيل، فيشيدون المجتمع على أُسس متينة من الإيمان بالله ورسوله، ويبذلون ما بوسعهم من جهد واقتدار.

* إلى أبنائنا ـ فلذات أكبادنا ـ عسى أن يجدوا في هذا الكتاب ما يفيدهم، ويُوضِّح أبعاد المنهج الإسلامي في تربية المرأة والطفل، وإرشاد الأسرة؛ وَفْق هدي الكتاب والسُّنَّة.

* إليهم جميعاً نهدي هذا الكتاب.

يوسف ـ أحمد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمدُ لله العليِّ الأعلى؛ الذي خلق فسوَّى ، والذي قدَّر فهدى ، وخَلَق الزوجَيْن الذكر والأنثى ، وجَعَل منهما الأطفالَ في الحياة الدنيا ، ولله الآخرةُ والأولى. والصلاة والسلام الأتَمَّان الأكملان على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، والمبعوث رحمةً وهدايةً للناس أجمعين ، فأكمل به الدِّين ، وأتمَّ النعمة على عباده المؤمنين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، لا نبيَّ بعده.

أمَّا بعد:

فقد أرسل الله تعالى نبيَّه محمداً ﷺ بعدما بَعُدَتِ الشُّقَّةُ بين واقع الناس وهدي السماء ، فأصيب العالَمُ بسيلٍ جارف من الظلم ، والجهل ، والفساد ، فليس من نظام يهدي إلى الحق ، ولا قانون عادل يرتكز إليه البشر ، ولا وازع أو رادع يكفُّ سَدَنَةَ الباطل عن التمادي في الغي والطغيان ، فالعالَمُ ﴿ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحۡرٍ لُّجِّيٍّ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٌ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٌ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

وجاء رسولُ الله ﷺ ليخرجَ الناسَ من ظلمات الشك والجاهلية إلى نور اليقين والإسلام ، ومكث ثلاثاً وعشرين سنة يدعو إلى الله وحده ، وضرورة الإيمان

برسالته واليوم الآخر ، ويُربِّي النفوس تربيةً صادقةً عميقةً بالقرآن الكريم وهديه الربَّاني ، وبالسُّنَّة النبوية وسلوكها القويم؛ لتسموَ الأرواحُ ، وتتخلَّص القلوبُ من الآثام والشرور ، ويتحرَّر البشرُ من سلطان الماديات والشهوات ، ومن ثم يُبنى المجتمعُ الصالح بنفوسٍ جديدة ، يخشع فيها الفؤادُ لخالق السماء والأرض ، وتعنو الوجوهُ لمبدع الكون والحياة والأحياء.

واستطاع النبيُّ ﷺ أن يُنشىء أُمَّةً تحمل رسالةً خالدة ، وتشيد حضارةً متألقة ، وتصنع تاريخاً مجيداً تتحدَّث به الدنيا؛ إذ كان الجيلُ الذي ربَّاه ﷺ يتخرَّج في مدرسة النبوة؛ من الأمية إلى العلم ، ومن البداوة إلى الحضارة ، ومن الرذائل إلى الفضائل ، ومن التخلف إلى أن يكونَ خيرَ أمة أُخرجتْ للناس.

وما كان هذا ليتحقَّق لولا المنهج التربوي للقرآن الكريم ، والسُّنَّة النبوية الشريفة ، حيث تقوَّمتْ نفوسُ الأمم ، وبَدَتِ التطبيقاتُ العملية واضحةً للعيان في مضمار الواقع المُعاش. وأدرك الناسُ حقيقةَ رسالة الإسلام القائمة على الإيمان بالله ورسوله ، وتمثُّل العمل الصالح ، وصِدْق التوجُّه لله عز وجل ، وقراءة صفحات الحياة؛ لتعزيز الإيمان ، واكتشاف النواميس ، وعمارة الأرض.

هذا وإنَّ نظرة مقارنة بين المرأة المسلمة في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، وبين واقع المرأة المعاصرة ، يُظهر بوناً شاسعاً ، وهوّة سحيقة بينهما ، وذلك أن المرأة في هذا الزمن تحيا تناقضاً عجيباً ، وتعاني من مبالغات وشطط ، فنجد المرأة تصلي وتصوم لكنها تتهاون في لباسها ، فتخرج كاسية عارية!! كما أنَّ بعض النساء يخرجن بلباس محتشم ، لكنهن متهاونات في العبادات ، فلا يُصلِّين إلا لماماً ، ولا يكملن صيام شهر رمضان!!

ولا يقتصر الأمرُ على ميدان التناقض بين الفكرة والسلوك ، فثمة تحديات تعاني منها الأسرة المسلمة في المجتمع المعاصر ، إذ يُحاول أعداءُ الدين النيلَ من المرأة ، وتحطيم ثوابت الأسرة ، وجَعْل الواقع مريراً؛ عبر الغزو الفكري؛ الذي لم يهدأ منذ انطلاقته ، يناصب المرأة المسلمة العداء؛ بطرح مفاهيم مشوَّشة ، وأفكار مضلّلة ، كفكرة المساواة بين الرجل والمرأة ، وعدم الاقتصار على الشكل المعروف للأسرة المكوَّن من رجل وامرأة وأطفال ، فقد خرج «مؤتمر بكّين» ـ مثلاً ـ يتحدث عن حق المرأة والرجل في اختيار أسلوب الإنجاب

الملائم ، سواء أكان بالتلقيح الصناعي أم بتأجير الأرحام ، أم بغير ه
الوسائل ، مما يعارض الشرع الإسلامي ، ويضادّ الفكرة الإسلامية عن تكو
الأسرة ، علاوة عن دعواتٍ مشبوهة تنادي بملء فيها ليحلَّ الصديق مك
الزوج ، وفي هذا مخالفة للفطرة الطبيعية ، ومجاراة لمن يدعو إلى تحة
الرغبات الجنسية بأي طريق كان.

وتبقى الأسرة المسلمة النموذج الأمثل للعلاقات الصحيحة ، حيث تقوم ع
فكرة الزواج بين رجل وامرأة ، برضا الطرفين وقبولهما ، ومن ثم تتفرَّغ الم
لمهمتها الخاصة ، وهي الحمل ، والإرضاع ، وطاعة الزوج في غير معصية الله
وتربية الأولاد ، بينما يقودُ الرجلُ الأسرةَ؛ ليصل بها إلى بَرِّ الأمان.

والمطلوب من المرأة المسلمة أن تكون على مستوى الوعي المأمول ، ف
المهيأة لتربية الأجيال ، وغَرْس الفضائل والأخلاق الحميدة ، وتعزيز ال
العليا ، وإشاعة جوٍّ من المودة والمحبة والسكينة والرضا في البيت؛ بعيداً
لجج الأباطيل ، وترّهات الحياة المادية ، ولغوب المجتمعات الشاردة.

إن المرأة المسلمة لها حقوق صانها الإسلام ، وعليها واجبات ، كما للر-
حقوق وعليه واجبات ، وكلاهما مسؤول عن الأسرة ، فلهما ثواب المتابع
وتنضير الحياة ، وعليهما تبعة التقصير والتهاون.

وأمام التحديات المثارة ضد الأسرة المسلمة ، كان هذا الكتابُ
وتوجيهاً ، وإرشاداً وتوضيحاً للحقائق الإسلامية عن الأسرة ، ووظائفه
وأهدافها ، وقواعد تنظيم بنائها ، وإبراز الدور الحضاري؛ الذي تضطلع به ل
الفرد ، وإشادة صرح المجتمع.

ثم انطلق البحث للحديث عن الأسرة في مرحلة القدوة الصالحة ، والأ
الـحسنـة ، في عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة ، حيث برزت المرأة متألقة
العبادة والخُلُق والأدب وصناعة الرجال. . .

وتحدَّثنا عن التحديات التي تواجه الأسرة المسلمة في الزمن الراهر
ورأيناها متمثلة بغلاء المهور ، والثورة الجنسية العارمة ، والغزو الفكري

وتشويه بعض المفاهيم الإسلامية ، وذكرنا سُبُل التحصين منها ، والوقوف في وجهها لدحضها ، والتغلب عليها .

وأوضحنا رسالة الأسرة المسلمة اليوم ، وهي تتمثل في محورين اثنين :

الأول : غَرْس مفاهيم القرآن الكريم والسنة النبوية في نفوس الأطفال .

والثاني : التصدي للانحلال الخُلُقي ، وصون الجيل الناشىء من الانحراف .

ولا بُـدَّ من نجوى نهمسها ، حيث انتابنا شعور يثير الدهشة ، ونحن نعدُّ العدة للكتابة في هذا الموضوع ، إذ شعرنا برهبة تدفع إلى الإحجام ، وبرغبة تحثُّ على الإقدام .

أما الرهبة ، فمثارها أن الموضوع دقيق للغاية ، وشائك إلى أقصى حدّ ، وساحته المعرفية واسعة اتِّساع العلاقات الاجتماعية ، وعميقة عمق الأفكار الإنسانية ، فالمرأة أساس الأسرة ، والأسرة نواة المجتمع ، ويحتاج الطفل لعناية خاصة ومستمرة؛ وهنا تكمن الرهبة في دقة الموضوع ، وإشاراته التي تكاد لا تنتهي .

وأما الرغبة ، فكانت هاجساً وأمنية قديمة ، داعبت خواطرنا في أمسيات كثيرة ، تبادلنا فيها أطراف الحديث؛ بضرورة إخراج كتابٍ عن الأسرة في الإسلام ، وتجلية وجه المرأة المشرق ، ودورها الرائد في إعداد الفرد الصالح ، وتوجيه الشخصية الإنسانية نحو التمام والكمال؛ انطلاقاً من الدور الحضاري للأسرة . ولكن صوارف عديدة شغلتنا عن إتمام الموضوع ، على الرغم من تعلُّق القلب ، ووجود الإرادة والعزم ، إلى أن أذن الله عز وجل ، فكان هذا الكتاب ، راجين من المولى العلي القدير أن يكون لبنةً ذات فائدة ، تعطي النتائج الخيِّرة ، والثمرات اليانعة ، وتضيء درب المرأة المسلمة ، وتوضِّح خطوات الأسرة ، وهي تشقُّ طريقها عبر مسار الطريق القويم ، والهدي الرباني ، والسنة الوضَّاءة .

فإن نجح مسعانا ، فذلك توفيق من الله عز وجل ، وإن ندَّت هفوات ، فكلُّ بني آدم خطاء ، وخير الخطَّائين التوابون ، ورحم الله امرأً قَرَأَ فَأَرْشد ، ونصح بحقّ ، فأهدى العثرات إلى أصحابها ، وقلبه يدعو بالفلاح والسداد .

وقد راجعنا مئات المصادر والمراجع في المكتبات العامة والخاصة ، في

مختلف البلاد العربية ، وراسلنا مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، فأمدَّنا بقائمة مفصَّلة عن المصادر الموجودة فيه ، تلك التي تتعلق بموضوع الأسرة المسلمة ، فللقائمين عليه كل الشكر والتقدير .

كما أتحفنا المشرفون على الفهارس في مكتبة الأسد بدمشق ، بمستخرج تفصيلي عن المصادر المتعلقة بموضوع الأسرة ، فجزاهم الله خيراً .

ونُقدِّم خالص الدعوات لكلِّ مَنْ قَـدَّم نصيحةً ، أو أشار إلى مرجعٍ ما ، أهدانا ملاحظةً لها دورٌ في التوجيه والصواب .

اللهم تقبَّلْ أعمالنا ، واجعلْ مثل ثوابها في صحائف والدينا ، واجعل ـ يا ربَّنا ـ خيرَ أعمالنا خواتيمها ، يا أكرم الأكرمين .

اللهم علِّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علَّمتنا ، وزِدْنا عِلْماً يا أرحم الراحمين!

وآخر دَعْوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

دمشق فـي ٢٩/ ربيع الآخر/ ١٤٢٠ هـ — وكتبه

١١/ آب/ ١٩٩٩ م — يوسف بديوي — أحمد جمعة

الباب الأول

الأسس الشرعية لبناء الأسرة

الفصل الأول:

أهمية الأسرة وقيمتها في المجتمع ووظائفها وقواعد تنظيم بنائها

الفصل الثاني:

الحياة الزوجية: حقوق وواجبات

الفصل الأول

أهميـة الأسـرة وقيمتهـا فـي المجتمـع ووظائفـهـا وقـواعـد تنظيـم بـنـائهـا

المبحـث الأول: أهميـة الأسـرة وقيمتهـا فـي المجتمـع

حدَّد الإسلام مكانة الأسرة ، وأشار إلى أنها قاعدة التكوين الأولى لب
الإنسان ، فقال عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا
[النساء : ١].

فقاعدةُ الحياة البشرية هي الأسرة ، فقد شاءت إرادةُ الله عز وجل أن تبدأ
الحياة ، وتنمو انطلاقاً من رحاب الأسرة ، فَخَلَق ـ سبحانه ـ النفسَ الواحد
وخَلَق منها زوجها ، فكانت الأسرةُ من زوجين ، ثم انبثت الأُسَر ، و
المجتمعُ الإنساني.

واتجهت عنايةُ الله تعالى لإقامة الأُسَر ، وتعزيز البيوت ، ولنقرأ ذلك في ق
الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَ
بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : ٢١].

كما تحدَّث القرآنُ الكريم عن جاذبية الفطرة بين الذكر والأنثى ، فقال تبارك

أسماؤه: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال عز وجل: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

كما جَعَل تعالى البيوتَ موضعاً للسكن، يطمئن فيه المرءُ، ويأوي إليه، ويُقيم نظامَ الأسرة المتكامل، قال عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ [النحل: ٨٠]. فاللقاء بين الزوجين يُؤسِّس الذرية الطيبة، ويُنبت الغراس اليانعة؛ بموجب سُنن الفطرة، حيث يُلبِّي قيامُ الأسرة تلك الفطرة العميقة في الكون والإنسان، فتقوم الأسرةُ نظاماً طبيعياً منبثقاً من أصل التكوين، وفق معطيات خاصة، تتولى ربط الأسرة بخالق الكون، وبالنظام الذي أقامه الخالق للجنس الإنساني.

وعلى هذا تُعتبر الأسرةُ المحضنَ الطبيعي للأطفال الناشئين، حيث تقوم برعاية الأبناء، وتنمية مداركهم، وتنشئة عقولهم تنشئة صالحة، مع العناية بالأجسام وتغذية الأرواح.

أما الرأفةُ، والشفقة، والعطف، والحب، والرحمة، والتكافل، فعناوين بارزة، ولافتات مقروءة في محيط الأسرة، تطبع الجوَّ العام، وتُلازمه مدى الحياة، حيث يتفتح الأطفال، ويتعاملون وَفْـق مفاهيم الإسلام، وقيمه، ومُثُله، فتكون فترةُ الطفولة مرحلة إعداد، وتربية، وتدريب، وتهيُّؤ لما يُطلب من الإنسان في ميدان التعامل والتعاون مع الكون والأشياء والأحياء.

ومن هنا نركِّز على دور الأسرة، وضرورة أن تكون مستقرة، وتحافظ على هدوئها، وتلتزم الفطرة، وترنو ببصرها لإعداد الجيل، وتكوينه؛ ليأخذ دورَه الإيجابي في هذه الحياة.

ولا يستطيع أيُّ محضنٍ آخر غير الأسرة أن يُلبِّي حاجات الطفل، ويجعله يشبّ، ويتربّى نفسياً وفطرياً على وجه الخصوص؛ إذ تقوم الأم بدورٍ رائد في هذا المضمار، لا يستطيع أيُّ جهاز ـ مهما أوتي من عدَّة ومستلزمات ـ أن يُعوِّض الطفل، أو يكون بديلاً عن حضن الأم ودورها البنَّاء.

فالمحاضنُ الجماعية لا يمكن أن تُعوِّض الطفل عما فقده بعيداً عن أسرته؛

ففي ذلك شرود عن الفطرة ، ونأي جامح عن النظام الأُسري ، حيث يتركُ بع
الناس ، أو كثير منهم؛ أولادهم بعيداً عن رعايتهم وأنظارهم ، ويظنون
الآخرين سيقومون بالتعويض عن دور الأم في التربية والإعداد ، وخاب ظنُّه
إذ حُرِم الأطفالُ من حنان الأهل ، والاهتمام بشؤونه في ظل أسرته؛ مما ج
نتائج الحضارة السلبية ترخي بثقلها ، وتُشدِّد وطأتها ، فإذا بالطفل ينشأ ذا تكو
نفسي متقلب ، ويعاني من اضطرابات سلوكية متعددة ، إلى جانب ال
والتوترات ، نتيجة الانحراف عن فطرة الله ، والتضحية بالأطفال مقابل الحف
على العمل والوظيفة خارج المنزل ، فماذا جنى العالمُ من هذا السُّعار والجه
والفساد؟!

إن الأسرةَ في الإسلام متماسكة ، متراصَّة ، متعاونة ، متكاتفة ، تعتبر الط
نعمةً من عند الله ، فمن الواجب القيام بحق رعايته ، وتوظيف الجهد لإعالت
وزَرْع القيم الفاضلة في نفسه ، وتوجيهه التوجيه السليم؛ باعتباره أعزَّ رصيد لـ
الأسرة ، وأغلى ذخيرة في هذه الحياة.

ولا يمكن تجاهلُ نظام الأسرة القائم على الثبات ، والدقة ، والواقع
والاستقرار ، وكلُّ استنكاف عن هذه الحقائق يضرُّ بالحياة ، ويُعمِّق الهوَّة
التربية والفطرة ، ويوسِّع الشقة بينهما ، ويحرم الأطفالَ من حقهم في العيش
ذراعي الأم وعناية الأب تحت ظلال سقف واحد.

ومن هنا عني الإسلامُ بالأسرة ، وعزَّز الترابطَ بين أفرادها ، وسعى لر
الصدع ، ولمِّ الشمل ، وتنحية كل شبهة ودَخَل ، وتقوية أسباب السلام
وتأكيد ثوابت القوة والأساس؛ ليقوم بناء الأسرة الواحد ، والمجتمع النظ
المتماسك.

إن عنايةَ الإسلام بالأسرة عنايةٌ فائقة لا تُضارَع ، ولا يُتصوَّر معها أي ع
أخرى ، بل لا يقوى أي أمرٍ آخر على الوقوف إزاء تلك العناية ، ومواجهة
المنهج ، فبناءُ الأسرة في الإسلام يقوم على البناء في محيط الجماعة ، وتنظيم ذ
البناء تنظيماً جيداً مستقراً، حيث يقوم كل فرد في الأسرة بأداء دوره المنوط به؛
أساسٍ ثابتٍ من موحيات الفطرة ، وحمايتها من التداخلات والملابسات
وصونها من الوقوع في حمأة الفاحشة ، والمعاصي ، ووهن الروابط والعلائق

إنَّ نظام الأسرة في الإسلام يتمتع بخصال خاصة ، يمكن تلخيصها في نقطتين اثنتين :

(١) هو نظام رباني ، يتحدَّد بمقومات المنهج الإلهي ، فالأسرة في الإسلام تُشكِّل مجتمعاً مستقيماً عفيفاً ، يحافظ على أمانة الله تعالى في الأرض ، ويبني تفرُّعات المنهج باقتدار واندفاع وتلقائية ، مع بذل كل جهد مستطاع ، ومقاومة الانحراف مهما بدا واسعاً وقوياً.

ويبدأ نظامُ الأسرة في الإسلام بتربية الفرد ، وبناء الجماعة ، من خلال الواقع المعاش ، حيث يتم الترابط بين المؤسسة الأسرية والمنهج الإلهي في الإعداد والتربية ، فيدرك كل فردٍ ما له وما عليه من حقوق وواجبات ، فيسعى جاهداً لتجسيدها ، وتقرير قواعدها التنظيمية في مجراها الطبيعي الفطري ؛ حمايةً لجوِّ الأسرة ، وصوناً للحياة الزوجية ، ورعايةً لتربية الأبناء التربية الصالحة ، وإبعادهم عن كل فساد وانحراف وضلال.

ومن مظاهر ربانية النظام الأسري في الإسلام ، أنه ليس مُجرَّد أحكام وتكاليف ، بل هو إشاعةٌ لجوٍّ خاص ، حيث يُوصَل كل فردٍ في الأسرة بالخالق المولى ، وتنبثق أعماله ، وتترسَّخ قواعد أفعاله وَفْق قواعد المنهج الإلهي للحياة البشرية بأسرها ، فالإنسان موصولٌ بالثواب والعقاب ، وبعناية الله ورقابته؛ لإقامة الحياة على النحو الذي يُرضي الله عز وجل ، ويجعل الأسرة المسلمة تنشأ وتُعدّ للدور العظيم المقدَّر لها في هذا الوجود.

(٢) وهو نظام يتماشى مع الفطرة الإنسانية ، فهو نظام طبيعي ، طاهر من الفوضى والشرود والتعسف؛ فهو يحقق جاذبية الفطرة بين الجنسين الذكر والأنثى ، فتعمل الفطرةُ على إيجاد المودة والرحمة ، وإقامة البيوت على مقومات ثابتة ، ورؤى واضحة ، وقواعد أساسية ، تحمي الذرية ، وتتعامل مع الحياة معاملة طيبة ، على هدي مستقيم ، ونور ينطبع مدى الحياة في أضخم دور يُنفِّذه الإنسان ، ألَا وهو التربية وحُسْن الإعداد لمستقبل الأيام ، وفائدة الأمة.

ويرسم التعبيرُ القرآني بلطافةٍ شفّافة ، ورقـة هفهافة؛ تصويراً موحياً للعلاقة بين الرجل والمرأة في الأسرة ، ويؤكد أن الصلة بينهما سكنٌ للنفس ، وهدوءٌ

للأعصاب ، وأن العواطف تمتاز بالدوام والتوقد ، راحةً للروح ، وتـ
للفؤاد ، واستقراراً للحياة برمّتها ، وأنساً للضمير ، وبثّاً للطمأنينة في الـ
الزوجية. قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِ
وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

فمن حكمة[١] الخالق عز وجل أنه خلق كلاًّ من الجنسين على نحوٍ يـ
موافقاً للطرف الآخر ، وملبياً دائماً لحاجاته الفطرية؛ النفسية والعـ
والجسدية ، بحيث يجد عنده الراحة المستمرة ، والطمأنينة العميقة ، والاسـ
الثابت ، فيجد كلٌّ من الزوجين في اجتماعهما ضمن الأسرة: السكـ
والاكتفاء ، والمودة ، والرحمة؛ لأنَّ تركيبهما النفسي والعصبي والعضـ
ملحوظ فيه تلبية رغائب كلٍّ منهما في الآخر ، وائتلافهما وامتزاجهما في النهـ
لإنشاء حياة تتمثل في جيل جديد ، فالمرأة من نفس الرجل ، ﴿ جَعَلَ لَكُمْ
أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾.

إنها الفطرة التي فطر اللهُ الناسَ عليها ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَ
مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] ، فهي نفسٌ واحدة في طـ
تكوينها ، وإن اختلفت وظيفتها بين الذكر والأنثى ، وإنما هذا الاختلاف ليـ
الزوجُ إلى زوجه ، ويستريح إليها. وهذه هي نظرةُ الإسلام لحقيقة الإنسا
ووظيفة الزوجية في تكوينه.

والأصلُ في التقاء الزوجين هو السكن ، والاطمئنان ، والأنس ، والاستقـ
ليظلِّل السكونُ والأمنُ جوَّ المحضن الذي تنمو فيه الفراخ الزغب ، وينتج
المحصول البشري الثمين ، ويؤهّل فيه الجيل الناشيء لحمل تراث التـ
البشري ، والإضافة إليه ، ولم يجعل هذا الالتقاء لمجرَّد اللذة العابرة ، والـ
العارضة ، كما أنه لم يجعله شقاقاً ونزاعاً ، وتعارضاً بين الاختصاص
والوظائف ، أو تكراراً لها.

ولما كانت النفسُ الإنسانية واحدة في طبيعتها ، وخصائصها ، وتميز
فإن أفضل لقاء يجتمع فيه الرجل والمرأة؛ لا بد أن يكون في مؤسسة أسرية

---

(١) دستور الأسرة؛ لأحمد فائز (٥٨).

على النظافة والطهارة والمودة ، وفي هذا تيسير على الأمة ، وتنظيم للحياة البشرية ، ونَشْرٌ للحقوق والواجبات على قدم المساواة بين الطرفين.

ومن هنا نُعرِّج على فكرة أنَّ الزواجَ عبادة في الإسلام ، فقد ندب الشرعُ إلى النكاح ، وحثَّ عليه ، وجعله أمراً مستحباً؛ لأنه يعين على الدِّين ، ويقمع شهوات النفس ، ويُلجم تلبيس الشياطين.

قال الله عز وجل: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٢].

ورغَّب النبيُّ ﷺ بالزواج ، فقال: «النكاحُ سُنَّتي ، فمن أحب فطرتي فليستنَّ بِسُنَّتي»(١).

وقال ﷺ: «مَنْ رغب عن سُنَّتي فليس مِنِّي»(٢).

قال ابنُ حجر العسقلاني: «فليس مني»: أي: على طريقتي. وفي الحديث دلالةٌ على فَضْل النكاح ، والترغيب فيه(٣).

وقد ذمَّ رسولُ الله ﷺ الامتناع عن الزواج خشيةَ الفقر ، وعدم القدرة على الإنفاق ، فقال: «مَنْ ترك التزويجَ مخافةَ العَيْلَةِ فليس مِنَّا»(٤).

وقال النبيُّ ﷺ: «مَنِ استطاع منكم الباءةَ فليتزوَّجْ ، فإنه أغضُّ للبصر ، وأحصنُ للفَرْج ، ومَنْ لم يستطعْ فعليه بالصوم؛ فإنه له وِجاء»(٥).

ورغَّب عليه الصلاة والسلام في تزويج الشاب صاحب الدِّين والأمانة؛ وعلَّل الترغيب خشية الفساد ، فقال: «إذا أتاكم مَنْ ترضَوْن خُلُقَه ودِيْنَه فزوِّجوه؛ إلاَّ

---

(١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٢/ ٦٨٩).
(٢) رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).
(٣) فتح الباري (٩/ ١٠٦).
(٤) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٢/ ٦٩٠).
(٥) رواه البخاري (٥٠٦٥) ومسلم (١٤٠٠).
«الباءة»: أصلها في اللغة: الجِماع ، مشتقة من المباءة ، وهي المنزل. ثم قيل لعقد النكاح: باءة؛ لأنَّ مَنْ تزوَّج امرأة بوَّأها منزلاً. «وجاء»: هو رضُّ الخصيتين. والمراد ـ هنا ـ: أن الصوم يقطع الشهوة ، ويقطع شرَّ المني ، كما يفعله الوجاء.

تفعلوا تكنْ فتنةٌ في الأرض ، وفسادٌ عَريض»[1].

فالزواجُ عصمةٌ للرجل في دِينه ، ووقايةٌ له من الفساد ، وحِرْزٌ مكينٌ المخالفة ، قال ﷺ: «مَنْ تزوج فقد استكمل نصفَ الإيمان ، فَلْيَتَّقِ اللهَ النصف الباقي»[2].

وكان ترغيبُ الإسلام بالزواج لما فيه من آثار نافعة ، وأمور مُحبَّبة ، تعود ع الفرد والمجتمع بأفضل النتائج ، وأينع الثمرات ، ومن ذلك[3]:

أولاً ـ كَسْر حدَّة الشهوة.

ثانياً ـ طلب الولد.

ثالثاً ـ قيام المرء بنصيبه من الواجبات الاجتماعية.

فالزواجُ أفضلُ وسيلة لإنجاب الأولاد ، وإبقاء النَّسْل وتكثيره ، فالمتز يوافق محبة الله تعالى في تحصيل الولد؛ إبقاءً لجنس الإنسان ، كما يوافقُ طَ رسول الله ﷺ في مُباهاته بكثرة أُمَّته يوم القيامة.

قال عليه الصَّلاةُ والسلام: «خيرُ نسائكم الولودُ الودودُ»[4].

وقال ﷺ: «تزوَّجوا الودودَ الولودَ فإني مكاثرٌ بكم»[5].

وقال ﷺ: «تناكحوا تناسلوا فإني مُباهٍ بكم الأممَ يومَ القيامة»[6].

وهنا تعليلٌ للزواج ، وأنه بقصد كثرة النسل ، وفيه طَلَبُ تكثير الأولاد.

---

(١) رواه الترمذي (١٠٨٤) وابن ماجه (١٩٦٧).
«إذا أتاكم»: أي: خطب إليكم ابنتكم. «مَنْ ترضون خُلُقه»: لأن الخُلُقَ مدارُ حـ المعاش. «ودينه»: لأن الدين مدارُ أداء الحقوق. «إلا تفعلوا...»: أي: إنْ لم تُزَوِّ مَنْ ترضون دينه وخُلُقه ، وترغبوا في ذوي الحسب والمال ، تكن فتنة وفساد؛ الحسب والمال يجلبان الفتنة والفساد عادة.

(٢) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٤/ ٢٥٢) وفيض القدير (٦/ ١٠٣).

(٣) السعادة الزوجية؛ ليوسف بديوي (١٩).

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٨٢).

(٥) رواه أبو داود (٢٠٥٠) والنسائي (٦/ ٦٥).

(٦) ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة (٣٥٠) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٨٠).

ثم إنه عَبْرَ الزواج تنمو غريزة الأبوَّة والأمومة في ظلال وجود أطفال صغار ، وبالتالي تنمو مشاعرُ العطف ، وتتألق أحاسيسُ الودّ والحنان.

فالأطفالُ فلذاتُ الأكباد ، وعمادُ الظهور ، فلا بُدَّ من رعايتهم في جوٍّ أسريّ ، وتربيتهم تربيةً صالحة؛ شعوراً بالمسؤولية ، حيث أوجب الإسلامُ رعاية الصغار والإحسان إليهم ، بل وجعل ذلك حقّاً لهم ، وواجباً على آبائهم ، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ [التحريم: ٦].

وهذه الحقوقُ للطفل جاءت تلبيةً لحاجاته الجسمية ، والعقلية ، والوجدانية ، والاجتماعية ، والدينية... وهذا يقتضي وجودَ مُربِّين يمتازون بالأمانة ، وحُسْن الخُلُق ، ولهم حظٌّ وافرٌ من القيم الاجتماعية والأخلاقية ، بحيث يتمُّ تهيئةُ الأطفال في مجتمعهم بشكل مُتكامل.

ولنسمع ما يقوله الشاعر عمر بهاء الأميري ، وهو يُصوِّر صِدْقَ الحنان والشاعرية ، وعاطفة الأبوَّة الفيَّاضة العَذْبة ، فالأولادُ نعمة عظيمة تستحق الشكر العميم. يقول الشاعر لمَّا سافر أولادُه الثمانيةُ من المصيف إلى حلب:

أين الضَّجيجُ العذبُ والشَّغَبُ ... أين التدارسُ شابه اللَّعِبُ
أين الطفولةُ في توقُّدها ... أين الدُّمى في الأرضِ والكُتبُ
أين التَّشاكسُ دونما غَرَضٍ ... أين التشاكي ما له سَبَبُ
أين التباكي والتضاحكُ في ... وقتٍ معاً ، والحزنُ والطربُ
أين التسابقُ في مُجاورتي ... شَغَفاً إذا أكلوا وإن شربوا
يتزاحمون على مُجالستي ... والقُرب مني حيثما انقلبوا
يتوجَّهون بسَوْق فطرتهم ... نَحْوي إذا رَهبوا وإنْ رَغِبُوا
فنشيدُهم «بابا» إذا فرحوا ... ووعيدُهم «بابا» إذا غضبوا
وهُتافُهم «بابا» إذا ابتعدوا ... ونجيُّهم «بابا» إذا اقتربوا
إنّي أراهم أينما التفتتْ ... نَفْسي وقد سكنوا وقد وَثَبوا
في كل ركنٍ منهمُ أَثَرٌ ... وبكلِّ زاوية لهم صَخَبُ

ويرى الشاعر العطوفُ حِطّان بن المعلَّى أن بناته هُنَّ حياته ، يتـ
لمرضهن ، ويتضايق إن تَضايَقْنَ من النسيم ، يقول :

لــولا بُـنيَّــاتٌ كــزُغْــبِ القَطَــا   رُدِدْنَ مــن بعــض إلــى بعــ
لكـــان لـــي مُضطـــربٌ واســـعٌ   فـي الأرض ذات الطُّـولِ والعَـرْ
وإنَّمـــا أولادُنـــا بَيْننـــا   أكبـــادُنـــا تمشـــي علـــى الأر
لـو هَبَّـتِ الـريـحُ علـى بعضهـم   لامتنعــتْ عَيْنــي مــن الغمــ

ولولا الأسرُ المتماسكة لما سمعنا مثل هذا الشعر العذب ، فمن ربوع البيـ
تناهى ذاك النغم ، وانبثَّتْ تموُّجاتُه تتحدث عن الطفولة والأنس والاستـ
النفسي ، والأمْن الروحي .

(٣) ثم إن نظام الأسرة في الإسلام يُهذِّب المشاعر ، ويرفعها ، عوضاً
كَبْتها وقمعها ، فالشهوات تحتاجُ إلى ضبط وتوجيه ، لا انفلات أو استقذ
لأنها في الأصل موجودة بشكل طبيعي ، ولا يمكن إنكارها أو تجاهلها ،
عز وجل : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ
ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

والمهمُّ هو معرفة طبيعة هذه الشهوات ، والوقوف على بواعثها ، ووضـ
في مكانها المناسب الذي لا تجور فيه ، ولا تتعدى أفقه ، ولا تطغى على الـ
والمُثُل العليا . وإن اعترافَ الإسلام بالدوافع الفطرية ، والشهوات النفسـ
يعطي الموقفَ صراحة ووضوحاً ؛ إذ الإسلام يدعو إلى تنظيف الدوافـ
لا استنكارها ، وتوجيه دفَّتها ، لا إلغائها ، فليست العلاقةُ بين الرجل والـ
خطيئةً ، أو دافعاً شيطانياً ، أو شيئاً مُستقذَراً ، بل ذاك الاستمتاع يترقّى إلى مـ
التسامي ، ويعلو إلى معارج العبادة ، وهو بذلك يتهادى في حدود الاعتدال
متطلبات اللذة وأشواق التسامي والتحليق .

ويبقى التطهر الروحي مطلباً حيوياً ؛ ليملك الإنسانُ شهواته ، فلا يكون
لها ، يرخي لها القياد ، ولا يكون حيواناً يجري وَفْق نزواته المسعورة ؛ فالمـ
ذو إرادة قوية ، يملك أمره ، ويعرف ذاته ، ويعي المطلوبَ منه ، ويدرك

جسده، فيحقق الرغبة في حدود امتداد الحياة، فلا سقوط ولا ارتكاس، ولا امتناع ولا كبت، بل يجري الاستمتاعُ مع التسامي، جنباً إلى جنب، لا يطغى أحدهما على الآخر البتة، فلا إفراط ولا تفريط، ولا صراع ولا صدام.

ومن هنا نؤكد أن الأسرة المسلمة تُشكِّل وحدة المجتمع، وأن تنظيم الأسرة أمر مهمّ، للحفاظ على الركن الأساس في بناء المجتمع، حيث يستظلُّ الأفرادُ بالمنهج الإسلامي، ويستروحون نسائمه العليلة، ويحسُّون بنداه الرخيم، بعيداً عن الشرود والمتاهات، وجفاف النفوس، وجحيم الأرواح.

وقد أدرك خصومُ الإسلام ما للأسرة من أهمية وتأثير ودور إيجابي، فعمدوا إلى تحطيمها بوسائل كثيرة، وبذلوا في سبيل ذلك كل ما يملكون من جهد وفكر ومال، وجنَّدوا أرتالاً من البشر ليزعزعوا كيانَ الأسرة المسلمة؛ عن طريق الغزو الفكري، وتغيير الاعتبارات، وتشويه التصوُّرات، وإبعاد المسلمين عن نور الهداية المبين، وإغراقهم في لجَّة عميقة من الضلال، والتشويه، والتخبُّط.

وبدأ الغزو الأوروبي في وضع خطة لبناء الجيل في العالم الإسلامي على أفكار الغرب؛ بخطى حثيثة؛ لتجعل العالم الإسلامي محطَّة وقوفٍ للغرب يستريحُ فيها أنَّى شاء. يقول «شاتليه» في مقدمة بحثه «فتح العالم الإسلامي» أو «الغارة على العالم الإسلامي»: «والتقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام سيمهِّد السبل لأعمال المدنية السياسية، وسوف لا يمضي غير زمنٍ قصير حتى يكون الإسلامُ في حكم مدنية محاطة بالأسلاك الأوروبية»[1].

وهذه المدنية الغربية لها أخطارها وتأثيراتها المدمِّرة، وقد أوضح ذلك «شاتليه» بقوله:

«ولا ينبغي لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامي أن يتخذ له أوضاعاً وخصائص أخرى؛ إذا هو تنازل عن أوضاعه، وخصائصه الاجتماعية؛ إذ الضعف التدريجي في الاعتقاد بالفكرة الإسلامية، وما يتبع هذا الضعف من الانتفاض والاضمحلال الملازم له؛ سوف يفضي ـ بعد انتشاره في كل الجهات ـ

(١) الغارة على العالم الإسلامي (٢٠).

إلى انحلال الروح الدينية من أساسها ، لا إلى نشأتها بشكل آخر»[1].

واستمرت المؤامرات والغزو الفكري على أشدِّه؛ بقصد تغيير ا
الاجتماعية عند المسلمين ، وحثّ دعاة التجديد على متابعة الاقتباس
الحضارة الأوروبية ، دون تمييز بين الغث والسمين ، وبين النافع والضار.

وأدرك الغربُ أن تقويض بنيان التربية ، وبذر الشكوك في نفوس النشء
هو إلا معاول هَدْم لعقائد المسلمين ، وتغيير جذري للأصول والسلوك والف
ووجدوا أن الدخول ينبغي أن يكون من باب الأسرة؛ لأن تحلُّلها وتقويضها يـ
إلى تهديم المجتمع ، وإزالة مميزاته ، وبالتالي يسهل اعتناق الفكر الغر
والرضوخ للمدنية الغربية بكل ما فيها من عجر وبجر ، وبكل ما تشتمل علي
أفكار مسمومة ، ونزوات هابطة ، وشهوات مسعورة.

ولما كان الإسلامُ يقوم على مبدأ الأخلاق الحميدة ، فقد رأى الغربـ
يحطموا سرَّ عظمة الإسلام؛ المتمثل بالتزام الأخلاق ، ففتحوا طريق الشه
على مصراعيه ، ودعوا الناسَ إلى التسابق عليه ، وذبحوا العفة والـ
والطهارة ، وأعلوا من مكانة النزوات ، ففقد الكثيرُ غيرتهم ونخوتهم.

ولم يكتفِ أعداءُ الإسلام بذلك ، بل طرقوا ميدان إثارة الشبهات ، و
الفتن ، والاهتمام بالحركات المضادّة للفكر الإسلامي ، وشككوا
الأسرة ، وعزفوا نغم النشاز ، ورأوا أن خير وسيلة لهدم الإسلام ، هو نقض
الأسرة ، وجَعْل المرأة تنادي بمتطلبات وحقوق تخالف جوهر الدين ، ونـ
في مسعاهم في كثيرٍ من الأحيان ، وكلنا يحسُّ بوطأة هذا الغزو ، ويسـ
رائحته العفنة.

وعلى الرغم من محاولات أعداء الإسلام تحطيم الأسرة المسلمة ،
الواقع يتحدث عن وجود أُسَر حافظت على عقيدتها ، وارتبطت بخالة
وطبّقت منهج الدين في ربوعها ، فبدت متماسكة قوية ، وأنتجت ثماراً ناضـ
في مجالات الحياة كافة.

---

(١) المصدر السابق (١٩).

ويمكن أن نُجمل القول حول عناية الإسلام بالأسرة من خلال النقاط التالية[1] :

١ ـ أقام الإسلامُ الزواجَ بين الرجل والمرأة على أساس الرغبة الكاملة ، والرضا التام ، وبالتالي فإن أسرةً تقوم على أسس قويمة ، لا بد ـ بإذن الله ـ أن تقوى روابطها مع الأيام ، ويصلب عودُها ، وتنتج أطفالاً جديرين بالحياة ، يحملون أعباءها على كواهلهم باقتدار وعافية .

٢ ـ تقوم الحياةُ الزوجية على أسس من المودة الثابتة ، والألفة العميقة بين الزوجين ، والتعاون على رعاية الأسرة ، والاهتمام بشؤونها ، فلا تجبُّر ولا تمرُّد ، ولكن محبة وتعاون على البر والتقوى .

٣ ـ اهتمَّ الإسلامُ برعاية الأولاد ، والقيام بأمورهم ، والإنفاق عليهم ، وحُسْن تربيتهم ، والاهتمام بعقيدتهم الصحيحة ، وثقافتهم الواسعة ، وحبهم الذي لا ينضب لله تعالى ، وتنفيذهم لأحكامه سُبحانه وتعالى .

٤ ـ نظَّم الإسلامُ أمورَ الأسرة المالية ، فبيَّن مَنْ تجب عليه النفقة ومَنْ تجب له النفقة ، وبيَّن حدودها ، وطريقة استيفائها ، وأنَّها واجب من الواجبات الدينية والقضائية ، وليست صدقة فيها مِنَّة أو أذى .

٥ ـ نظَّم الإسلامُ مشاكل الأسرة ، وما قد يثور بين الزوجين من الخلاف أو الضيق؛ بروح واقعية موضوعية ، وسعى إلى حلٍّ كل هذه المشكلات برؤية واضحة ، ومنهج سليم ، وحكم عادل ، وبصيرة قوية ، ونظر بعيد ، وحكمة بالغة .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

فإذا ما اشتدَّ النزاع ، واستمر الخلاف ، وتحوَّل الأمرُ إلى شقاق ، جاء قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن

(١) مشكلات أسرية وعلاجها، للدكتور أحمد الحجي الكردي (١١).

﴿يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٥] ليَ
العلاجَ الشافي.

٦ ـ فإذا ما استمرَّ الخلافُ بين الزوجين، واستعصى الوفاقُ على الحكمين، ؛
الإسلامُ إلى التفريق بين الزوجين؛ على أسسٍ تضمن لكلٍّ حقوقه قبل الآخ
وتضمن للأولاد أنسب مستوى من العيش الطيب بعدما استحال عيشُهم
كنف الأسرة، وتحت رعاية الوالدين معاً، فبيَّن أُسس الحضانة، ومقوه
النفقة والولاية، وغير ذلك من الأحكام. قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ
ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٣٠].

وقال جل شأنه: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ
وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم
بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦].

وقال عز وجل: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ
قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ٢٠].

وبذلك يكون التشريعُ الإسلاميُّ قد رافق الأسرةَ في مسيرتها، ورعاها
لحظة التفكير في إنشائها إلى لحظة إنهائها، مروراً بأحوالها وشؤونها
قيامها، وآخذاً بعين الاعتبار العواطف الإنسانية، والطاقة البشرية، والنزو
الجسدية، والخلجات النفسية، مُقدِّراً لكلٍّ منها قدرها، في إطار
الموضوعية الشاملة، بما يُؤمِّن للأسرة أقوى رباط، وأسمى إطار، يلفُّ
ويقوِّيها، ويشدُّ من أزرها، حتى تقوم بواجبها الاجتماعي والإنساني؛
الإنجاب والتربية واستمرار الجنس؛ في ظلِّ عبادة الله تعالى، وشكره على نعـ

* * *

المبحث الثاني: وظائف الأسرة وقواعد تنظيم بنائها

تُعدُّ الأسرةُ الوحدةَ الاجتماعية الأولى في المجتمع ، على اعتبار أن النوع الإنساني لا يلبثُ أفراده أن يُؤلِّفوا جماعات محددة ومتنوعة ، بموجب الميل الفطري ، أي: الرغبة في حياة الجماعة لدى الإنسان.

وتمتاز الأسرة ـ كمنظمة اجتماعية ـ بأنها تُوجِّه أفرادها ، وتمارس عليهم نفوذاً ما ، حيث يتلقى الفرد الرعاية والتنشئة ضمن حدودها ، ويخضع لعاداتها ، وأعرافها ، وتفاعلاتها؛ مما يُوجِد نوعاً من التعاطف بين الأفراد ضمن الأسرة الواحدة ، ويحثُّ على التمسُّك بالأسرة كنظام اجتماعي لا غنى للفرد أو الجماعة أو المجتمع عنه.

كما أنَّ الأسرة بمثابة حجر الأساس في البناء الاجتماعي ، وهي نقطة الارتكاز التي تستند عليها بقية المنظمات الاجتماعية الأخرى ، فإذا صلحت الأسرة صلحت بقية النظم الاجتماعية ، وإذا فسدت ـ لا سمح الله ـ فكبِّر على ذلك المجتمع أربع تكبيرات من غير ركوع ولا سجود.

ثم إنَّ الأسرة تقوم بدور الضابط الاجتماعي على الأفراد ، وهذا يتعلق بنوع التربية التي يتلقاها أولئك الأفراد ، فإذا كانت تنشئة الأطفال على أساس الخُلُق القويم ، كالأمانة ، والإخلاص ، والصدق ، والإيثار... فإن سلوك الأطفال يرتقي إلى مصافِّ التمثُّل الصحيح للقيم الفاضلة ، والآداب السامية.

ومن هنـا ننطـلق إلـى معـاني الأسـرة في اللغـة ، فمن معانيهـا[١]: الـ الحصينة. وأُسرةُ الرجل: عشيرته ورَهْطُه الأَدْنَوْن؛ لأنه يتقوَّى بهم.

وهذه المعاني تلتقي عند نقطة واحدة هي: الجمع وقوة التلاقي والارتباط.

وقد تطوَّر معنى الأسرة؛ إذ أصبح يُقصد به: الزوج وزوجه وأولاده المتزوجين، وهو ما يُسمَّى بـ «العائلة»، ولعلَّ هذا المعنى يتراءى لنا من قول عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَـ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٢].

وفي ظل الأسس السابقة، والمعاني السالفة، فإنَّ الأسرة هي الو الاجتماعي الذي يُشبع فيه الإنسان غرائزه بطريق شرعي، مع تحقيق دو الطبيعية، وبواعثه الاجتماعية، كحب الحياة، وبقاء النوع، وتحقيق الغاية الوجود الاجتماعي، وإشباع الدوافع الغريزية الجنسية، وتحقيق العوا والانفعالات الاجتماعية، كعواطف الأبوة والأمومة والأخوة ونحو ذلك. كله قوالب لمصطلحات تُحدَّد للأفراد؛ حرصاً على الوجود الاجتماعي، وتحـ الغاية من الاجتماع الإنساني[٢].

* **وظـائـف الأسـرة:**

تقوم الأسرة بأشق مهمة في هذا الوجود؛ فهي تصنع حاضر الفرد ومستقبل وتؤثر تأثيراً مباشراً وقوياً على المجتمع، وذلك من خلال الوظائف التي تمار الأسرة، وهي:

(أ) دوام الـوجـود الاجتـمـاعـي، وإنجـاب الأطفـال:

تعمل الأسرة على استمرار الجماعة، ورَفْد المجتمع بأفراد جُدُد على الد بصورة يقرُّها الدين، ويقبلها العُرف العام. وهذا الإنجابُ يزيد من السكان، ويحقق مفاهيم معينة كمفهوم الأب والأم والأخوة والأخوات...

---

(١) لسان العرب، مادة (أسر).

(٢) علم الاجتماع الحضري؛ للدكتور زيدان عبد الباقي (٣١١).

ولا يقتصرُ دورُ الأسرة على وظيفة الإنجاب[1] ، بل يمتدُّ ليشتمل على وظيفة تنمية الشخصية الفردية المتكاملة للناشىء في أحضان الأسرة. وهذه الشخصية المتكاملة تتوازنُ فيها جوانب الإدراك ، والعاطفة ، والقيم ، أو الأخلاقيات الاجتماعية ، فتتعاون الشخصيةُ الإنسانية مع الآخرين تعاوناً وثيقاً لبناء الحاضر ، والإعداد للمستقبل.

إنَّ بناء الشخصية يتطلب من الأب والأم مجهوداً كبيراً ، متواصلاً ، في كل الاتجاهات ، ويكون بناءً مكثفاً في السنوات الأولى من عمر الفرد ، وقد يمتد ذلك إلى سنِّ العشرين أو أكثر.

وثمة دعوات طائشة تظهر بين الحين والآخر تدعو في الظاهر إلى تنظيم النسل ، وتخفي وراء ذلك هدفاً يختلف عن برنامج الدعاية ، ألا وهو استئصال نَسْل المسلمين ، والحدِّ من نموِّهم وكثرة عددهم؛ ليضعفوا ، وتتداعى عليهم الأمم؛ كما تتداعى الأَكَلة إلى القصعة من الطعام.

وقد صدرت وثيقة عن الأمم المتحدة ، وقُدِّمت كبرنامج عمل لمؤتمر السكان والتنمية المنعقد في القاهرة في (٥ ـ ١٣) سبتمبر عام (١٩٩٤ م) ، ورأتْ تلك الوثيقة أنَّ السبيل إلى الحدِّ من النمو السكاني يتركز في:

* إباحة الإجهاض بجعله قانوناً. وقد حاول واضعو الوثيقة استخدام تعابير مُتعدِّدة لإباحة الإجهاض ، منها: الحمل غير المرغوب فيه ، وإنهاء الحمل ، وتخفيف عواقب الإجهاض ، والإجهاض غير المأمون...

* تقديم الثقافة والمعلومات الجنسية للمراهقين والمراهقات ، وإباحة الممارسات الجنسية لهذه الفئة في هذا السن من خلال حقِّهم في سريَّة هذه الأمور ، وعدم انتهاكها من قبل الأسرة.

* شجَّعت الوثيقة على الممارسات التي تقع خارج نطاق العلاقات الشرعية بين الرجل والمرأة ، حيث فَصَلَتْ بين الزواج والجنس والإنجاب ، واعتبرتها موضوعات متباينة غير مرتبطة ببعضها. وأقرَّت أنماط الأسرة كافة بمفهومها

---

(١) الأسرة في المجتمع؛ للدكتور محمد زياد حمدان (١٩).

الحديث ، دون التزام بالنواحي الشرعية والقانونية والأخلاقية ، مثل زواج الجنس الواحد ، والمعاشرة دون زواج شرعي.

كما دَعَتِ الوثيقة إلى إلغاء القوانين التي تحدُّ من ممارسة الأفراد لنشاطهم الجنسي بحريَّة واختيار ، بل وطالبت بمساعدة الحاملات من السِّفاح ، واعتبار ممارسة الجنس والإنجاب حرية شخصية ، وليس مسؤولية جماعية.

* كما طالبتِ الوثيقة بتقديم الوسائل المأمونة لمنع الحمل ، ونَشْر استخدامها ، وتوفيرها ، وتقديم المعلومات الخاصة باستخدامها.

ومن هنا تكون الصورة الحقيقية لهذه التوصيات: إباحة العلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج ، مع تأمين هذه العلاقات بإعطائها حق السرية ، وعدم انتهاكها ، وذلك بالوسائل المانعة للحمل؛ حتى تكون مأمونة العواقب. وفي حالة حدوث الحمل غير المرغوب فيه ، يُعالج بالإجهاض المأمون ، وكذلك الحيلولة دون حدوث الزواج المبكر ، وهذا يعني تنفير الشباب عن الزواج بما يكتنفه من مسؤوليات خاصة في الدول النامية؛ مما يُؤدِّي إلى انحلال المجتمع ، واختلال العلاقات الاجتماعية ، والأُسَرية ، وشيوع الفوضى الجنسية.

إن الهدف من هذا المؤتمر ، وتلك الوثيقة ، هو القضاء على الأسرة ، والمجتمع ، وتحطيم العلاقات الإسلامية بين الناس ، فكلُّ ذلك يريده الأعداء بنا؛ لتنحية الجوانب الدينية والأخلاقية عن مجتمعاتنا ، فالحذرَ الحذرَ من مُخطَّطاتٍ تُدمِّر الأفراد والأُسَر.

وقد صَدَر عن لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الشريف تعليق بمناسبة انعقاد مؤتمر السكان والتنمية ، جاء فيه:

* إذا كان الإسلامُ يوافقُ على الحدِّ من التناسل فهو بصفةٍ مؤقتة؛ حتى تمرَّ الأزمات؛ التي أوجدها طغيانُ العقل البشري ، ويعودُ الإنسانُ بعد ذلك إلى مباشرة مهمَّته بشكل طبيعي كما أراد اللهُ تعالى.

* لا يوافقُ الإسلام مطلقاً على الإجهاض ، سواء أكان الحملُ من زواج شرعي أم من زنى ، اللهم إلاَّ إذا دَعَتِ الضرورةُ إلى ذلك كالإبقاء على حياة الأم الحامل ، والضرورة تُقدَّر بقدرها ، كما لا يوافقُ على التعقيم النهائي؛ الذي

يُعطِّل وظيفة الرجل أو المرأة في المحافظة على بقاء النوع الإنساني.

وقد صدرتْ عدَّةُ قرارات عن مجلس مجمع الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمره الخامس بالكويت عام (١٩٨٨ م) ومن تلك القرارات التي تُنظِّم النسل:

أولاً: لا يجوز إصدار قانونٍ عامّ يحدُّ من حرية الزوجين في الإنجاب.

ثانياً: يحرم استئصال القدرة على الإنجاب في الرجل أو المرأة، وهو ما يُعرف بـ (الإعقام) أو (التعقيم) ما لم تَدْعُ إلى ذلك ضرورة بمعاييرها الشرعية.

ثالثاً: يجوز التحكُّم المؤقَّت في الإنجاب بقصد المباعدة بين فترات الحمل، أو إيقافه لمدَّة معيَّنة من الزمان؛ إذا دعتْ إليه حاجة مُعتبرة شرعاً بحسب تقدير الزوجين؛ عن تشاور بينهما وتراضٍ؛ بشرط ألَّا يترتَّب على ذلك ضرر، وأن تكون الوسيلةُ مشروعة، وألَّا يكون فيها عدوان على حَمْلٍ قائم[١].

(ب) رعاية وتوجيه الصغار، واستمرار المجتمع ثقافياً:

تقوم الأسرةُ بتربية أطفالها على احترام الأخلاق، والسير في سلوك حَسَن، مع المحافظة على التقاليد القيِّمة، وإعطاء الطفل ـ عبر سنوات التربية ـ جرعات متكررة ومتعدِّدة من ألوان المعرفة، وصنوف الثقافة، باعتبار أن الأسرة هي الحارس الأمين للثقافة المحلية، وتأطير الشخصية نفسياً وسلوكياً بما يساعد الطفل على النهوض بالأعباء الملقاة عليه في مستقبل الأيام.

وعندما نقول «الأسرة» نقصد بها: الأسرة المسلمة؛ التي يلتقي ركناها ـ الرجل والمرأة ـ على تحقيق الأهداف المرجوَّة؛ وهي: إقامة حدود الله عز وجل، وتجسيد شرعه ـ سبحانه ـ والسعي لمرضاته في كل الشؤون والعلاقات، وهذا يعني أن يُبنى محيط الأسرة على عنوان: عبادة الله وابتغاء وجهه الكريم، وهو الهدف الأرقى، والمبتغى الأسمى للتربية في الإسلام.

والذي نقصده من بناء الأسرة على العقيدة الإسلامية؛ أن نُحقِّق السكون النفسي، والطمأنينة الروحية، فيتربَّى الطفلُ على العطف والمودة والرحمة

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته؛ للدكتور وهبة الزحيلي (٩/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥).

والثقة ، فلا قلقَ ، ولا عُقَد ، ولا توترات نفسية .

وللأسرة دور أساس في توفير الأمن المعرفي للأولاد ، وسدِّ حاجاتهم المتنوعة في تمكينهم من المعرفة الأم ، والمتمثلة بكتاب الله عز وجل ، وسنة رسول الله ﷺ . وسنفصِّل ـ بإذن الله ـ هذه التربية عندما نتحدَّثُ عن أهداف التربية الإسلامية . ولكن أشيرُ ـ هنا ـ إلى أنَّ الطفل له حق المعرفة ، ويشتمل ذلك على حقه في تحصيل العلم ، ومحو الأمية ، والتوعية الصحية ، والتربوية ، والسلوكية .

وفي عام (١٩٥٩ م) تمَّ إعلان حقوق الطفل عالمياً ، وكان يحتوي على عشرة مبادىء ، وكان المبدأ السابع : حق الطفل في التعليم الإجباري المجاني على الأقل في المرحلة الابتدائية ، كما يجب أن تُتاح له الوسائل التي ترفع مستوى ثقافته العامة ، ويمكنه من أن ينمي قدراته ، ويُحسِّن تقديره للأمور ، وشعوره بالمسؤولية الأدبية والاجتماعية ؛ لكي يصبح عضواً مفيداً في المجتمع . ويجب أن يكون تحقيق مصالح الطفل المبدأ الذي يسير على هديه أولئك الذين يتولّون تعليمه وإرشاده ، على أن تقع أكبر تبعةٍ في هذا الشأن على عاتق والديه .

أمَّا اتفاقية حقوق الطفل سنة (١٩٨٩ م) فنصَّت الفقرة الأولى من المادة التاسعة والعشرين على أن توافق الدول الأطراف على أن يكون تعليم الطفل موجهاً نحو :

* تنمية شخصية الطفل ، ومواهبه ، وقدراته العلمية والبدنية إلى أقصى إمكاناتها .

* تنمية احترام حقوق الإنسان ، والحريات الأساسية ، والمبادىء المقدَّسة في ميثاق الأمم المتحدة .

* تنمية احترام الطفل لأقاربه ، وهويته الثقافية ، ولغته ، وقيمه الخاصة والوطنية لبلده وحضارته .

* إعداد الطفل لحياةٍ تستشعر المسؤولية في مجتمع حرٍّ ؛ بروحٍ من التفاهم ، والسلم ، والتسامح ، والمساواة بين الجنسين ، والصداقة بين الشعوب ، والجماعات الوطنية والدينية .

* تنمية احترام البيئة الطبيعية.

وتبقى الأسرةُ هي المسؤولة بشكل أساس عن رعاية الطفل، وحمايته من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة المراهقة. ويبدأ تعريف الطفل بثقافة المجتمع، وقيمه، وعاداته داخل الأسرة. وينبغي ـ من أجل تنمية شخصية الطفل تنمية كاملة ومُتَّسقة ـ أن ينشأ في بيئة أُسَرية، في جوٍّ من السعادة، والمحبة، والتفاهم[1].

(ج) إشباع دوافع الوجدان:

من المعروف أنَّ كلَّ إنسان في هذا الكون يحتاجُ إلى إشباع مجموعةٍ من الحاجات النفسية، كالحاجات الأمنية، والانتمائية، وتقدير الذات... والأسرة هي التي تُشْبعُ كلَّ تلك الحاجات إشباعاً تاماً كاملاً[2].

ولنأخذ الحاجة إلى التقدير كمثال في هذه القضية، فنجد أن الإنسان بحاجةٍ مُلحَّة إلى أن يُحِبَّ ويُحَبَّ، والأسرة هي خيرُ موئل يوفِّر الحب والود، فالمرأة تحب زوجها، وتسعى بكل جهدها إلى إكمال سعادتها بمبادلة الرجل حباً بحب، وكذلك تفعل مع أطفالها، فينشؤون طيِّبةً نفوسهم، هادئةً عواطفهم، قد أُشْبِعُوا محبةً ولطفاً ورفقة صالحة، وهذا لعمري قمة السعادة، ومفتاح النجاح.
والسعادةُ الحقيقية تجعلُ المرءَ يحيا حياةً طيبة، يُحقِّق فيها إنسانيته التي كرَّمه اللهُ عز وجل بها، وهي تقوده في الآخرة إلى جنة عرضها السموات والأرض، فيحسّ بالراحة النفسية، ويستشعر الطمأنينة التي يشعر بها الموفَّقُ لفعل الخير[3].

فالزوجُ الذي يلتقي بزوجه على أساس واضح وعميق يستند على كتاب الله عز وجل، وسُنَّة المصطفى ﷺ، بقصد بناء أسرة فاضلة، تسعى لتكون لبنةً صالحة في مستقبل الأيام؛ لبناء جيل سعيد، ومجتمع محترم؛ إن هذين الشخصين ـ بتوفيق الله ومِنَّته ـ يسعيان لنيل الخير، وفِعْل الصواب، والسير على

---

(١) حماية الأمومة والطفولة؛ للدكتور محمد عبد الجواد محمد (٢٧٦).
(٢) دور الشباب في التنمية الاجتماعية والاقتصادية؛ للدكتور زيدان عبد الباقي (٤٢٦).
(٣) السعادة؛ لسعدي أبو جيب (١٩).

جادة الهداية ، مستعينَيْن بالله ، باذلَيْن كل ما بوسعهما لتعزيز مسيرة الأسرة وإخراج جيل صالح يحب الخير ، ويُؤسِّس قواعد المحبة ، ويُشْبع دوافعه على خير ما يُرام.

ولا نفهمُ الحبَّ بين الرجل والمرأة إلا إن باركه الزواج؛ لأنه يُولِّد معاني الانسجام ، والتآلف ، والتقدير ، والاحترام ، وهي معانٍ إن خيَّمت بأفيائها الوارفة على البيت؛ فإنه سيكون ـ بإذن الله ـ مثلاً صالحاً ، ونموذجاً يُقتدى في حُسْن العلاقات ، وجلال الصفاء الروحي ، فيتغلَّب على المشكلات القائمة ويجرف العقبات الكأداء.

ونركِّز ـ هنا ـ على أمرين ، هما:

* ضرورة الترابط بين الحب والأخلاق؛ فالحب اندفاع وانبجاس للعواطف والأخلاق حصن متين لاستيعاب الحب وتأكيده ، وتوجيهه وإرشاده؛ لأن الحب إن جرى بعيداً عن سياج الأخلاق ، فلا أراه إلا نزوةً عابرة ، ورغبة طافية طاغية لا تلبث أن تتلاشى أو تجنح أو تشتطّ أمام أي إعصار أو زلزال.

* ثم إنَّ الدوافع الوجدانية يُعبِّر عنها الزوجان بعمق؛ من خلال علاقةٍ فطرية يقرّها الدين ، ويصونها العُرْف ، ويباركها المجتمعُ بالرعاية والعناية.

ويشكل الزواج علاقة طبيعية ، وعشرة طيبة بين الذكر والأنثى ، فيكون إرواء للغريزة ، وتسكيناً للنفس ، وتهدئةً لثورة العاطفة المتفجرة ، وصوناً لأعضاء الإنسان: السمع والبصر والقلب والفَرْج.. فالزواجُ توجيهٌ للدوافع الوجدانية نحو الطريق السليم ، بعيداً عن نوازع الشيطان ، وعن انفلات سُعار الشهوات دونما ضابط ، ولنسمع رسولَ الله ﷺ وهو يدعو فيقول: «اللهم إني أعوذُ بك من شرِّ سمعي ، وبصري ، وقلبي ، وشرّ مَنِيِّي»[1].

وقد مَدَح اللهُ تعالى المؤمنين بأنهم يضبطون الغريزة ضبطاً محكماً ، ويجعلون العلاقة بين الجنسين ملاذاً آمناً ، واعتصاماً من الوقوع في الجو الفاجر ، والعلاقة الزائغة ، فالبيت هو المكان الوحيد لقضاء الوطر؛ الذي يرتفع إلى مصاف

---

(١) رواه أبو داود (١٥٥١) والترمذي (٣٤٩٢) والنسائي (٨/ ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧).

العبادة. يقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧].

ولقد توزَّعت عواطفُ الإثم في أمكنةٍ كثيرة في هذا العالم، ورضخت لوباء المعاصي، فكانت إباحة تطلعات الجسد خلاعة ورذيلة، واستفزازاً للشهوات والرغبات الجانحة، ويبقى البيت مركز الطهارة والبراءة، والترويح عن النفس وإيناسها بالمجالسة؛ من خلال علاقة طيبة شرعية، فتمتد دوافع الوجدان، ويتمُّ التعبير عنها، بعيداً عن ضجيج الحياة، والمتع العابرة، وتفاقم الثورة الجنسية الممتدة هنا وهناك، والتي تُقوِّض عرشَ الأسرة المتماسكة، وتُدمِّر المجتمعات، وتجتاح حمى الأخلاق.

(د) تنشئة الفرد اجتماعياً وتأمين حاجاته:

يصلُ الطفلُ إلى عالم الحياة وهو في حالة عجزٍ تام عن تأمين احتياجاته اللازمة، سواء أكانت نفسية، أم جسدية، أم اجتماعية، فهو بحاجةٍ إلى كنف الأسرة؛ التي تقوم بخدمته، ومساعدته، ورعايته، على مدى أعوام طويلة.

وتسيطر على الطفل رغبة مُلِحَّة في الاستحواذ على كل شيء، وتملُّكه، والهيمنة عليه، وهنا يأتي دورُ الأسرة ـ لا سيما الأم ـ في تدريب هذا الطفل، وترويضه على التعامل مع الآخرين، وضرورة التأدب بالآداب العامة، وإفهامه أن هذا الأمر له، وذاك لا يملك من أمره شيئاً، وبالتالي تنشأ علاقة طيبة محدَّدة بين الطفل والمجتمع، ويتكوَّن لديه الشعور بالمسؤولية نحو الجماعة.

ويبقى على الأسرة ثقلٌ كبير، يتمثَّل في تعليم الطفل، وتثقيفه، وتلقينه المبادىء الأساسية في حُسْن المعاملة، وآداب اللياقة العامة، فيتحول الطفل من شخص يحيا لذاته وملذَّاته؛ ليكون شعلةً متقدة من الاهتمام بالآخرين، وتحمُّل التبعات، والقيام بالواجبات الاجتماعية.

ومن تلك الآداب الاجتماعية: آداب الطريق، وآداب الصحبة، واحترام الكبير وتوقيره، وتعزيز الرقابة الذاتية، ومقاومة الأهواء والنوازع، وتعديل السلوك وفق القيم والمثل.

والبيتُ المسلم يغرسُ في نفوس أفراده منذ طفولتهم الباكرة: الإيمان الصحيح ، والسلوك الإسلامي الرشيد ، ويُربِّيهم على حُبِّ الفضائل وبُغْض الرذائل ، ويرشدهم إلى الخير ، ويُباعد بينهم وبين الشر ، وهو الذي يمدُّهم بالقيم الاجتماعية التي يحترمونها ، ويعملون على هُداها(١) .

* تنظيم بناء الأسرة:

بعد أن تحدثنا عن أهمِّ وظائف الأسرة ، لا بُدَّ من الحديث عن القواعد التي تُنظِّم بناءها ، وتحدِّد علاقاتها مع الجنس البشري كله؛ لأن العالم الذي يحيا الإنسان في الإسلام ، هو عالم رباني إنساني ، يستمدُّ مقوِّمات وجوده من الأحكام الشرعية ، وهو يتَّجه إلى الله بكل ما يملك من مشاعر ، وما يصدر عنه من أعمال .

ومن القواعد التي بيَّنها الإسلام ، وفَصَّل فيها؛ لتنظيم الأسرة:

* تحريم الزواج بالمشركة .

* تنظيم الزواج بالكتابية .

* ذم نكاح الزانية .

* بطلان نكاح المرتدة .

* النهي عن نكاح المتعة .

* تحديد المحرَّمات تحريماً مؤبَّداً ، أو تحريماً مؤقتاً .

١ ـ تحريم الزواج بالمشركة:

من نافلة القول أن نشير إلى أنَّ الزواج ارتباط روحي بين الذكر والأنثى ، واندماج شعوري بينهما؛ بقصد إيجاد حالةٍ من الاستقرار تحت سقف واحد . ولا تقوم هذه الرابطة ، ولا تقوى؛ إلا بوجود عقيدة توحِّد بين القلوب ، وتجمع بين الأفكار ، وتجعل الأفئدة تنسجم مع الإيمان بالله عز وجل ، باعتبار أن الزواج مودة ورحمة ، وأنس وسكينة .

---

(١) المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي؛ للدكتور علي عبد الحليم محمود (١٨).

وليس هناك أقوى من العقيدة ، وأشد تأثيراً في النفوس ، فإذا ما عمرت تلك العقيدة الصحيحة أركان القلوب؛ فإنها تُوجِّه المشاعر ، وتُحَدِّد الاستجابات الخيِّرة ، وتعين الأسرة على متابعة طريقها في الحياة.

ومن هنا أكَّد الإسلام على ضرورة عدم إقامة علاقة زواج مع المشركات من قبل المؤمنين ، ولا مع المشركين من قبل المؤمنات ، فلا بُدَّ من الانفصال الاجتماعي والشعوري والاعتقادي بين المسلمين والمشركين ، فلا رابطة إلا رابطة العقيدة ، ولا وشيجة يجدر لها البقاء إلا وشيجة الإيمان ، وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] وفي هذه الآية تأكيد على تميز المسلمين في علاقاتهم وأحوالهم الشخصية ، وعلى ضرورة إقامة الحياة الزوجية على مستند الحق وأساس العقيدة؛ لإنشاء أُسَر متميزة ، فالصِّلةُ بين الزوجين ليست ميلاً شهوانياً ، بل ترتفع إلى مرتبة العبادة؛ لتصبح الحياة طاهرة ، والعلاقة قائمة على منهج واحد يتصل بتعاليم السماء ، ويجعل قلبي الزوجين يلتقيان في الله عز وجل ، فتقوى الرابطة الإنسانية ، وتتعزَّز الآصرة الزوجية.

ومن هنا وَرَدَ النصُّ القرآني واضحاً حازماً جازماً ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ ، وقال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢١]؛ لأنَّ العقبة الأساس تتمثل في الشرك؛ فإذا زال الشرك صحَّت العلاقات ، وانتفى التحريم.

ثم بيَّن عز وجل الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة؛ لمن خالفهما في الدين ، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٢١] أي: في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، فمخالطتهم على خطر منهم ، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية ، إنما هو الشقاء الأبدي(١). فمن انحرف عن الجادة ، واتَّبع طريق المشركين والمشركات ، فقد ضل وهوى ، وانحاز إلى الشر والفساد ، وهدَّم الأسرة ، وقوَّض أركانها. قال تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١] فمن أصمَّ أذنيه عن سماع الذكرى ، وأغلق باب قلبه عن استماع

---

(١) تيسير الكريم الرحمن؛ لعبد الرحمن السعدي (١/ ١٦٣).

نداء الحق ، فلا يلومن إلا نفسه ، وستكون حياته ضنكاً؛ ما دام بعيداً ع
الصراط المستقيم ، وعن هدي الله القويم.

ويمكن أن نُومىء ـ هنا ـ إلى أنَّ المشرك هو الكافر على أيِّ مِلّة كان ، وق
أطلق القرآنُ الكريم لفظ المشرك على ما يقابل الكتابي ، فقال تبارك وتعالى
﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة : ١].

والكفر ـ كما هو معلوم ـ مِلَّة واحدة ، وهو يشتمل على الشرك بكل صور
وألوانه ، فيندرج تحته الكافرون كلهم ، من وثنيين ، أو غيرهم[(١)].

ولا بُدَّ أن نذكِّر الأُسَر المسلمة إلى أهمية صون اللسان عن التلفظ بكلمات
تجعل أحد الزوجين يُوصم بالكفر أو الردَّة؛ مما يُعرِّض عصمة النكاح إلى
الاهتزاز ، وبالتالي يُوجِب الفرقة بين الزوجين ، كأن يسبَّ أحدُهما النبيَّ ﷺ
أو الدِّين ، أو الله عز وجل.

فعلى المسلم أن يضبط لسانه؛ لئلا يزلّ به فيرديه في المهالك ، ويُسقطه في
حمأة الردة ـ والعياذ بالله ـ وبالتالي تفسد العلاقة الزوجية ، القائمة ـ في الأصل
على طاعة الله تعالى ، وتنفيذ أوامره وأحكامه.

٢ ـ تنظيم الزواج بالكتابية:

عامَلَ الإسلامُ أهلَ الكتاب معاملةً حسنة ، تقوم على مرتكزاتٍ من السماحة
بحيث لم يجعلهم منبوذين معزولين ، بل أباح لهم المشاركة الاجتماعية الفعَّالة
فجعل طعامهم حلاًّ للمؤمنين ، كما أن طعام المؤمنين حلٌّ لهم. وهذه مو
خاصة ، ونوع من الطمأنينة والسكينة ، قال عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ
وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥].

وقد أحلَّ اللهُ تعالى الزواجَ بالكتابية بقصد الزواج الشرعي؛ لبناء أسر
متماسكة ، على أساسٍ من العقيدة الواحدة ، والعشرة الطيبة ، والسلو
الفاضل. قال سبحانه:

---

(١) مغني المحتاج (٣/ ١٩١).

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ [المائدة: ٥].

وذهب أكثر الفقهاء إلى أنه يحلُّ التزوُّج بالذِّمِّيَّة من اليهود والنصارى، وتمسَّكوا بالآية السابقة[١].

وقد أُبيح زواجُ المسلم بالكتابية، لا العكس؛ لأنها تلتقي معه في بعض المبادىء الأساس، كالإيمان بالإله الواحد، والرسل، واليوم الآخر؛ وهذا يُوفِّر جواً من التفاهم المشترك، ويقيم جسراً من الاتصال بين الزوجين، ويساعد على قيام أسرة مستقيمة في فكرها وعقيدتها، كما أنه يمكن أن تدخل تلك الزوجة في دين الإسلام، فيزداد الخير، وتتأصَّل العلاقاتُ أكثر فأكثر.

والحكمةُ في أنَّ المسلم يتزوج باليهودية والنصرانية، دون العكس: هي أن المسلم يؤمن بكل الرسل، وبالأديان في أصولها الصحيحة الأولى، فلا خطر منه على الزوجة في عقيدتها أو مشاعرها[٢].

وقد تزوَّج جماعة من الصحابة من نساء النصارى، ولم يروا بذلك بأساً[٣].

وثمة رأي مفاده كراهة الزواج بالكتابيات، كما عند الحنفية والشافعية ورأي عند المالكية، وقال الحنابلة: زواجه بها خلافُ الأولى.

وللزواج بالكتابيات عدَّة مخاطر ومحاذير، أشار الدكتور وهبة الزحيلي إلى بعضها، فقال: «في الزواج بالكتابيات ـ وبالأولى الحربيات ـ مضارّ اجتماعية، ووطنية، ودينية، فقد ينقلن لبلادهن أخبار المسلمين، وقد يُرغِّبن الأولادَ في عقائد وعادات غير المسلمين، وقد يؤدي الزواجُ بهن إلى إلحاق ضرر بالمسلمات بالإعراض عنهن. وقد تكون الكتابية منحرفة السلوك»[٤].

ومَنْ منَّا من لم يسمع ببعض المآسي التي تحدَّث عنها شبابٌ سافروا إلى الغرب؛ بقصد العمل، أو متابعة التحصيل العلمي، وهناك علقوا بشباك نساء

---

(١) المقتطف من عيون التفاسير؛ لمصطفى المنصوري (٢/ ١٢).
(٢) الفقه الإسلامي وأدلته؛ للدكتور وهبة الزحيلي (٧/ ١٥٣).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩).
(٤) الفقه الإسلامي وأدلته (٧/ ١٥٤).

كتابيات ، وتمَّ بناءُ أسر على ذلك الأساس ، وجاء الأولاد يدرجون في الحياة وعندما أراد بعضهم أن يعود إلى حضن الوطن ، فُوجىء بسَلْب ولده منه فاحترق فؤاده ، وندم على الساعة التي تزوج بها.

ومن أولئك الشباب الضعيفي النفوس؛ الذين يحملون في قلوبهم ديناً رقيقاً سرعان ما يتلاشى أثرُ ذلك الدين أمام فتنة امرأة ، فيصطبغ ذلك الشاب بمعتق المرأة ، فيخسر دينه ودنياه!

إنَّ مثل هذا الزواج شرٌّ على الأسرة ، وتقويض للبيت المسلم ، وثلٌّ لعرشه فالواقعُ يشهد بأن المرأة الكتابية ـ إلا ما ندر ـ تحاول أن تُخرِّج أطفالها وفق معتقدها ، لا سيما أولئك الذين يعيشون في الغرب؛ والذين يكتوون بنيرا الحضارة هناك؛ إذ تتعلم البنتُ أعرافاً ومعتقداتٍ وأفكاراً تخالف الدين ، وتمح اليقين ، وتحطم العلاقات الأسرية ، ويتكون جيلٌ لا يعرف من الإسلام إ اسمه ، ومن تكاليفه إلا رسمه.

٣ ـ ذمّ نكاح الزانية:

قال الله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢٣].

وقد اختلف أهلُ العلم في مفهوم هذه الآية ، أهي على التحريم أم عل الذم؟! وهل الإشارة في قوله: ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى الزنى أو النكاح؟ والرأي المعتبر لدى أهل العلم أن الآية المذكورة تُحمل على الذم لا عل التحريم ، وذلك استناداً إلى حديث ابن عباس قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: إنَّ عندي امرأةً هي مِنْ أحبِّ الناس إلي ، وهي لا تردُّ يَدَ لامِسٍ ، قال «طَلِّقْها». قال: لا أصبرُ عنها. قال: «اسْتَمْتِعْ بها»[١].

قال الإمامُ الشوكاني: المرادُ: الكناية عن كونها زانية[٢].

ومن العلماء مَنْ ذهب إلى أن النهي في الآية الكريمة ، يخرج مخر

---

(١) رواه النسائي (٦/ ٦٧).
(٢) نيل الأوطار (١/ ٣٠٥).

التحريم ، وعلى هذا فإن الزنى يفسخ النكاح. وقد قال بهذا القول: الحسن البصري ، وهو مرويٌّ عن علي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، رضي الله عنهما[1].

ولن ندخل في تفاصيل الخلاف بين الرأيين ، فذلك موضعه في كتب الفقه ، وهي مبثوثة موجودة بفضل الله سبحانه وتعالى.

والذي نطمئن إليه أن المقصود بقوله عز وجل: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو صَرْف الرغبة كلياً عن الزواني ، والاتجاه بقوة نحو التزويج بالنساء الصالحات المؤمنات القانتات العابدات.

ولا شك أن الزانية لا يُرْغَبُ فيها من قبل المؤمنين الصالحين؛ فالزنى ينفِّر القلوب ، ويجعل النفوسَ تشمئز من ذِكْر ذلك الفعل الشنيع ، بينما الفاسقُ يتجه بكلِّيته نحو الفسق والفجور ، ويرغب في البقاء في تلك الأوكار العفنة ، بعيداً عن النظافة والطهر في المشاعر والأجساد.

وكان التحريم على المؤمنين؛ لأن الزواج بالزانية يُعرِّض سمعة المرء إلى القيل والقال ، والنظرات المستهجنة ، والطعن بالنسب ، والوقوع بالتهمة ، وغير ذلك؛ مما ينأى عنه المسلم العاقل.

ولتحريم النكاح بسبب الزنى مقاصد عدة ، نجملها في نقطتين اثنتين ، هما[2]:

النقطة الأولى إن المقصود من تحريم نكاح الزناة على المؤمنات ، وتحريم نكاح المؤمنات على الزناة ، إنما يتجلى في الارتفاع بالمؤمنين والمؤمنات إلى مواطن العفة والطهارة ، وفي العيش الآمن المطمئن الكريم؛ الذي لا تخدشه عواملُ التنازع والخصام.

النقطة الثانية: إن المقصود هو أن يعزفَ المؤمنون والمؤمنات في إباء وهمة واستعلاء عن منابت السوء والرجس ، وعن مواطن الخنا والفجور ، وذلك

---

(١) بداية المجتهد (٢/ ٣٤).

(٢) الأنكحة الفاسدة والمنهي عنها ، للدكتور: أمير عبد العزيز (٣٨٦).

كيلا تتردى سمعةُ الأزواج من المؤمنين والمؤمنات في مزالق الفسق والطع
والاتهام ، وكيلا تتَّسخ بأدران المفاسد والشبهات ، فضلاً عما يؤول إليه ه
النكاحُ الآخر من تلاعبٍ في الأنساب .

يقول الشيخُ المراغي ـ رحمه الله ـ في تفسيره لهذه الآية : «إن نكاح المؤم
المتسم بالصلاح الزانية ، ورغبته فيها ، واندماجه في سلك الفسقة المشهوري
بالزنى محرم عليه؛ لما فيه من التشبه ، ومن حضور مواضع الفسق والفجور
التي قد تُسبِّب له سوءَ القالة»[1] .

والزنى لا يُحقِّق أسرةً متماسكة؛ لأن العلاقة بين الزوجين تقوم عل
التسامي ، والارتفاع ، والطهر ، والنقاء ، وأين ذلك كله في الزنى؟!

ومِنْ الشروط الواجب توافرها في المرأة : أن تصون نفسها ، وتحفظ فراش
زوجها ، وتُحْسِنَ الإشراف على تربية أبنائها ، وأن تحميهم من التعرض للسو
والفحش والفتنة ، وهذا كله مُنْتَفٍ في المرأة الزانية ، فكيف تُصان الأسرة؟ وأنَّ
لها أن تقوى على الاستمرار والعطاء؟!

٤ ـ بطلان نكاح المرتدَّة:

المرتدُّ : هو الذي يُظهر الكفر بعد الإيمان[2] . والردَّة : قَطْع استمرار الإسلا
ودوامِه؛ بنيَّةٍ ، أو قول كُفْر ، أو فِعْلٍ ، سواءٌ قاله استهزاءً ، أو عناداً ، أ
اعتقاداً[3] .

قال الله عز وجل : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة : ٦٥ ـ ٦٦] .

فالمرتدُّ مَنْ نفى وجود الخالق الصانع سبحانه وتعالى ، أو نفى وجود الرس
عليهم الصلاة والسلام ، أو كـذَّب رسولاً ، أو حلَّل محرَّماً بالإجماع ؛ كالزنى
وشرب الخمر ، أو حرَّم حلالاً بالإجماع؛ كالبيع ، والنكاح . أو نفى وجو

(١) تفسير المراغي (١٨/ ٧١).
(٢) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم؛ للتهانوي (٢/ ١٣٦٩).
(٣) مغني المحتاج (٤/ ١٣٣).

مجمعٍ عليه؛ كالصلوات الخمس. أو اعتقد وجوب ما ليس بواجبٍ بالإجماع؛ كزيادة ركعةٍ من الصلاة المفروضة. أو عَزَم على الكفر، أو تردَّد فيه. ومثال الفعل المكفِّر: ما تعمَّده استهزاءً صريحاً بالدِّين؛ كإلقاء مصحف، أو آيةٍ منه؛ في نجاسة. أو ما تعمَّده جحوداً للدِّين؛ كسجوده لصنمٍ، أو شمس، أو إنسان، أو غيرهما من المخلوقات[١].

ويُمْهَل المرتدّ ثلاثة أيام؛ قبل أن يُقتل؛ ليأخذ حظَّه من التأمل، والتفكير من جديد، وتدقيق النظر مرة أخرى؛ لعلَّه يعودُ إلى الإسلام، فيعلن التوبة والرجوع إلى الحق. فإن أبى فُرِّق بينه وبين زوجه. وما قيل في الرجل ينطبق على المرأة؛ فإنه لا يجوز نكاحها؛ وتُمهل للعودة إلى حظيرة الدين[٢].

وعند الشافعية لا تحلُّ المرتدة لأحد؛ لا لمسلم لكونها كافرة، ولا لكافر، ولا لمرتد؛ لأن المقصود من النكاح الاستمرار، ودوام الحال، والمرتد لا دوامَ له؛ لوجوب قَتْله عند الاقتدار عليه[٣].

والردَّة تهدم الأسرة، وتزلزل بنيانها، وتُحْدِث خللاً وشرخاً عميقاً، وعندها خيرٌ للمرأة أن تبقى وحيدة بدل أن تكون خليلة لزوج مرتد، وخيرٌ للرجل أن يواجه نتائج الطلاق وقساوته، بدل أن يعاشر امرأة مرتدَّة.

فإذا انتقض الإيمان، ونكص أحدُ الزوجين من الهداية إلى الضلالة، ومن النور إلى الظلام، وارتدَّ عن الحق إلى الباطل، لم يعد ثمة مسوِّغ لمتابعة الحياة الزوجية، إذ انتفى المنهج الجامع بين الذكر والأنثى، وهَبَط أحدهما إلى دركٍ مقيت، لا يمكن الالتقاء معه في أي وجه من الوجوه.

وهكذا يظهر الإسلامُ مُنظِّماً للأسرة تنظيماً مُنسَّقاً، من خلال أحكام الشريعة الغرَّاء، والدعوة الهادية، حيث تخفق رايةُ الإيمان، والعشرة الطيبة، والسلوك الإيجابي، والاستجابة الواحدة في طهرها وشمولها ومقوِّماتها.

---

(١) المصدر السابق (٤/١٣٦).
(٢) المبسوط؛ للسرخسي (٥/٤٨ ـ ٤٩).
(٣) الأم (٥/٥١).

٥ ـ النهي عن نكاح المتعة:

إن نكاح المتعة: نكاح إلى أَجَل معيَّن. وهو من التَّمتُّع بالشيء، أي: الانتف به. والاسم: المُتْعة، كأنه ينتفع بها إلى أَمَدٍ معلوم. وقد كان مُباحاً في أو الإسلام، ثم حُرِّم[١]. والمتعة: نكاح مؤقَّت بمدة محدَّدة، كأن يقول رج لامرأة خالية من الموانع الشرعية: أتمتع بك مدة كذا، كأن تكون شهراً، عشرة أيام مثلاً؛ بكذا من المال[٢].

أو يقول الوليُّ لآخر: زوَّجتُكَ ابنتي شهراً، أو سنة، أو إلى انقض الموسم، أو قدوم الحاج، وشبهه، سواء كانت المدة معلومةً كسنة، مجهولة كأن تكون إلى مجيء زيد أو عُبَيْد[٣].

ونكاح المتعة يُنافي الديمومة، فالزواج إنما شُرِع مُؤبَّداً؛ لتحقيق أغراض معينة، وتجسيد مقاصد خاصة، كسَكِينَة النفس، وإنجاب الذرية، وتكو أسرة متكاتفة هانئة سعيدة، أما المتعة فليست إلا قضاء شهوة لمدَّة ما، فه كالزنى أو شبهه، وهي تُضادّ روح الشريعة ومنطق الحياة القويم.

ثم إنَّ أحكام المتعة تغاير أحكام الزواج الشرعي المعروف، إذ لا يقع طلا بالمتعة، ولا لعان، ولا يثبت ميراث بين الزوجين، ونحو ذلك من أم باطلة، لا يقبلها عاقل، ولا تثبت في ميزان الحق.

والمتعة لا تحقق حفظ النوع الإنساني، والمباهاة بالإكثار من النس المؤمن، والذرية الصالحة، بل الغاية المقصودة عاجلة تتمثل في قضاء شه الجسد، وبذا تكون المتعة معول هدم للأسرة؛ لأنها تُقوِّض ولا تبني، وتج العلاقات مضطربة غير مستقرة، وتضرب المودَّة في أعماقها وصميمها.

ومن هنا نهى الشارعُ الحكيم عن نكاح المتعة نهياً قاطعاً، لا يقبل الريب

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٩٢).
(٢) شرح فتح القدير (٣/ ٢٤٦).
(٣) نهاية المحتاج (٦/ ٢١١) والأم (٥/ ٧١) والمدونة (٣/ ١٩٦).

وجعله فساداً ، وصورة مزرية للعلائق الإنسانية ، فهو صورة من صور الزنى في فحشه ونتائجه.

قال النووي وغيره: إنَّ تحريمها وإباحتها قد وقع مرتين ، فقد كانت مباحةً قبل خيبر ثم حُرِّمت فيها ، ثم أبيحت عام الفتح ، وهو عام أوطاس ، ثم حُرِّمتْ تحريماً مؤبداً ، وهو التحريمُ الذي ذهب إليه أكثر الأمة(١).

وبهذا المعنى يقول ابنُ العربي: وأما متعة النساء فهي من غرائب الشريعة؛ لأنها أبيحت في صدر الإسلام ، ثم حرمت يوم خيبر ، ثم أبيحت في غزوة أوطاس ، ثم حرمت بعد ذلك ، واستقر الأمرُ على التحريم ، وليس لها أختٌ في الشريعة إلا مسألة القِبلة؛ لأن النسخ قد طرأ عليها مرتين ، ثم استقرت بعد ذلك(٢).

والقول بنسخ هذا الزواج وتحريمه تأبيداً إنما يوافقُ روحَ الشريعة في مشروعية الزواج لإحقاق مقاصد وغايات نبيلة وأساسية ، لا تتأتى بغير نكاح مستقر ثابت مستديم. وهي كذلك مقاصد وغايات لا يتضمنها نكاحُ المتعة؛ لأنه نكاحٌ مشلول أبتر ، يتمُّ من خلال لقاء باهت عاجل ، تنعدم فيه كلُّ مقومات النكاح الصحيح في ديمومة العشرة الحسنة ، وتمام العيش الكريم الرضي ، ثم إنجاب النسل الذي يعمر الأرض بالخير والبر والجد والصلاح ، وينشر في العالم أسباب الحركة والنشاط والنماء ، ويبثُّ بين الناس كلمة الله التي جاء بها لتهيمن على الديانات والمذاهب والأنظمة كافة. وتلك أغراضٌ ضخمة ، وغايات عُظمى ، تستلزم أن ينعقدَ النكاح من أول يوم على التأبيد ، وذلك هو الصحيح الذي أراده الله للناس ، وشرعه لعباده؛ ليعيشوا على متن هذا الكوكب أطهاراً كراماً آمنين(٣).

٦ ـ تحديد المحرَّمات تحريماً مؤبَّداً ، أو تحريماً مؤقتاً:

بيَّن اللهُ تعالى المحرَّمات من النساء ، فحرَّم سبعاً من النسب ، وستاً ما بين رضاع وصِهْر ، وألحقت السنة الشريفة سابعة ، وهي الجمعُ بين المرأة وعمتها.

---

(١) سبل السلام (٣/ ١٢٦).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ١٣٠).

(٣) الأنكحة الفاسدة والمنهي عنها (٦٦٦).

قال الله عز وجل: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣ ـ ٢٤] ووراء هذا التحريم حِكَم وعِبَر، منها:

ـ أن الزواج بين الأقارب يُضعف الذرية، ويجعل النسل هزيلاً، وهذا موجود في الاستقراء الواقعي في الحياة، فنسمع عن نشوء الضعف العقلي، أو الجنسي، أو المناعي، والإسلام يريد قوة النسل والإنجاب.

ـ وقد تتعرض الحياةُ الزوجية لقضية الطلاق لسبب ما، نتيجة حدوث خلاف أو شِقاق، فكيف تكون العلاقة بين الأم وابنتها، أو الأختين ـ مثلاً ـ إذا ما حدث شيءٌ من هذا القبيل. والحكمة الإلهية شاملة خيِّرة لبني البشر، فكان التحريم في هذا الميدان صواباً؛ لأن إقامته عبر الأُسَر يُولِّد إشكالات كثيرة شرعية واجتماعية، ومدنية، وبالتالي يختلط الحابلُ بالنابل، وتنشأ مفاسد لا يُعلم مداها، ولا يُحصر تأثيرها؛ لشدّتها، وعمقها، واتّساع تأثيرها.

ـ والزواج بالمحرَّمات ينافي الفطرة السليمة، ويُفسد الأذواق، ويفتح باب الشرور على مصراعيه، فكان لزاماً تحريم ما ساقته الآية، حكمةً من الله عز وجل، وتبياناً لكل شيء، ودحضاً لمزالق العلاقات غير الطبيعية.

ويمكن تحديد المحرَّمات بالقرابة في أربع طبقات، هن:

* الأصول مهما علوا، فيحرم الزواج من أمه وجدّاته مهما علون.

* الفروع مهما نزلوا، فيحرم الزواج من البنت وبناتها وبنات الأولاد مهما نزلوا.

* فروع الأبوين مهما نزلوا، فيحرم عليه التزوج بالأخت وبنات الأخوة والأخوات وبنات أولاد الإخوة.

* الفروع المباشرة للأجداد، فيحرم عليه التزوج بالعمة والخالة، وعمة الأب

وعمة الجد لأبيه أو أمه ، وعمة أمه ، وعمة جدَّته لأبيه أو أمه .

والمحرمات بالمصاهرة خمس ، هن :

* أصول الزوجة مهما علون ، فيحرم على الرجل الزواج بأم زوجته ، وجدّاتها من جهةَ أبيها ، أو من جهة أمها مهما علون ، ويكون هذا التحريم بمجرد العقد على الزوج .

* فروع الزوجة مهما نزلن ، فيحرم على الرجل الزواج ببنت زوجته ، وبنات أولادها مهما نزلوا ، ويسري هذا التحريم بعد الدخول بالزوجة .

* زوجات الأب والأجداد من الجهتين مهما علوا ، فيحرم على الرجل الزواج بزوجة أبيه ، وزوجة أحد أجداده لأبيه أو أمه مهما علوا .

* زوجات الأبناء ، وأبناء الأولاد مهما نزلوا ، فيحرم على الرجل الزواج بامرأة ابنه من صلبه ، وامرأة ابن ابنه ، أو ابن بنته مهما نزل .

* أخت الزوجة ، وهي محرَّمة تحريماً مؤقتاً ما دامت الزوجة حية وفي عصمة الرجل . حيث يحرم الجمع بين الأختين في آن واحد .

أمَّا المحرَّمات من الرَّضاعة ، فهن تسع :

* الأم من الرضاع وأصولها مهما عَلَوْن .

* البنت من الرضاع وبناتها مهما نزلن .

* الأخت من الرضاع ، وبناتها مهما نزلن .

* العمة والخالة من الرضاع .

* أم الزوجة من الرضاع وأصولها مهما علون .

* بنت الزوجة من الرضاع وبنات أولادها مهما نزلوا .

* زوجة الأب أو الجد من الرضاع مهما علا .

* زوجة الابن من الرضاع مهما نزل .

* الجمع بين المرأة وأختها أو عمتها أو خالتها من الرضاع .

ولا بد من التأكيد على أن هذا التحليل والتحريم صادر عن الشارع العظيم من

خلال نصوص قطعية ، لا تقبل التبديل ، ولا يطرأ عليها تغيير ، ومهما تحدَّ
عن الحِكَم المتوقَّعة لذلك التحريم ، يبقى الأمرُ مرتبطاً بالله عز وجل ، فه
ـ سبحانه ـ وحده المشرِّع ، والمقرِّر لمسألتي التحليل والتحريم ، ولا سلط
لأحدٍ ـ مهما أوتي من قوة ـ أن يملك مقاليد هذه القضية ، أو يدَّعي حيازته لشي
منها مهما كان ضئيلاً .

ويبقى الطريق الشرعي للزواج هو الحلُّ الأمثل لبناء أسرةٍ متعاضدة ، تؤم
بالله العزيز الحميد ، وتُطبّق سُنَّة المصطفى ﷺ؛ في أقوالها وأفعالها وأحوالها
وتُنجب أطفالاً روَّاداً في كل ميدان ، يحملون راية التوحيد ، ويتفوَّقون في الد
بعلومهم ومعارفهم وأجسادهم وعقولهم ، ويسعون جاهدين لإرضاء الله تعالى
فيؤدّون الفرائض ، والسُّنن ، وتكون معاملاتهم على أكمل وجه ، وأخلاقه
نموذجاً يُحتذى ، وآدابهم قدوة حسنة لمن رام الاقتداء ، فالمسلم متميز في ك
شيء ، ومتفوِّق في أيِّ مجال .

* * *

الفصل الثاني

الحياة الزوجية: حقوق وواجبات

الزواجُ رابطةٌ مؤكَّدة ، وعهدٌ وثيق ، وشركة بين طرفين ، يتعاون كلٌّ منهما مع الآخر بقصد التعاون والتناصح؛ على أساسٍ من المودَّة والرحمة ، والحق والواجب ، فإنْ أخطأ طرفٌ صحَّح له الطرفُ الآخر ، ونبَّهه بلطفٍ وإيناس ومحبَّة ، وهذا تفسيرُ السَّكَن الذي نجده في قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وكلُّ ما يندرج بين الزوجين ينبني على علاقة التراحم والودّ ، قال عز وجل: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]. فالوشائجُ بين الزوجين متينة ، لا تنفصل بسهولة ، وهي تحميها من البغي والعدوان.

وقد أوصى الله تعالى الرجالَ بالنساء ، واستثار فيهم أخلاق الرجولة والمروءة والرحمة ، فجديرٌ بالمؤمن أن يرعى العهد ، ويصون الوعد ، ويتجنَّب الإيذاء.

فَمَنْ دارى زوجَه ، وساسها بلطفٍ ورفق ، وصَبَر على الشدة واللأواء والعِوَج ، انتفع بحياته ، واستطاع أن يستعين بها على متابعة رحلة العمر.

وما الحقوق والواجبات إلا دروبٌ يسير الزوجان بهديها ، فيأمن العاثر ، ويتَّقي أشواك الطريق ، ويبقى الجمال الأصيل ، والإحساس الرقيق ، والطموح الوثَّاب؛ لإيجاد أسرة متماسكة ، هو الهدف المبتغى ، والأمل المنشود.

وفيما يلي عَرْضٌ لحقوق الزوجين وواجباتهما ، مع الأدلة والشواهد.

أولاً ـ حقوق الزوجة

وهي كثيرة جداً ، فللمرأة مثل ما عليها ، وهذا لم ينكره الإسلام ، بل أيّد ووضّحه ، فقد جاء جليّاً في القرآن الكريم ، وفي السنة النبوية الشريفة ، ون من تلك الحقوق :

(أ) الرفق والملاطفة :

ونعني بذلك أن يتواضع الرجلُ لشريكة حياته ، ويعاملها بالحسنى ، والك الطيبة ، فهي رفيقة دربه ، تعمرُ بيته بالبهجة والسرور ، وتقوم برعاية شؤ الأولاد ، وتتعب وتشقى؛ لذا قال عز وجل: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وهذه دعوة إلى الرفق والإحسان في القول والفعل .

قال الدكتور محمد محمود حجازي: «في كلمة المعاشرة معنى المشار والمساواة ، أي: كلٌّ يعاشر صديقه من جانبه بالمعروف؛ مُعْرِضاً عن الهفوات جالباً السرور ، معيناً على الشدائد ، حافظاً للودّ»(١).

وشبّه النبيُّ ﷺ النساء بالزجاج السهل الكسر ، والذي لا يعود كما كان كُسِر ، فقال: «ارفقْ بالقوارير»(٢).

وكنى ﷺ عن النساء بالقوارير لرقّتهن وضَعْفهن ، والنساء يُشَبَّهن بالقوارير الرقة واللطافة .

كما أنه عليه الصلاة والسلام لم يَنْسَ أن يُوصيَ بالنساء ، ففي خطبة الوداع ؛ مُرشِداً مُوجِّهاً: «اللهَ اللهَ في النساء؛ فإنهنَّ عوان في أيديكم ، أخذتموهنَّ بأم الله ، واستحللتم فروجَهنَّ بكلمة الله»(٣).

فعلى العاقل أن يتحمَّل زوجَه ، ويتقبَّل منها بعض ما يصدرُ عنها من هفوات فهي مِنْ خَلْقِ الله ، والكمال ليس للخَلْق ، بل للخالق وحده عز وجل .

---

(١) التفسير الواضح ، الجزء (٤) ص(٨٤).

(٢) رواه البخاري (٦٢٠٩).

(٣) رواه مسلم (١٢١٨) وأبو داود (١٩٠٥) وابن ماجه (٣٠٧٤).

ومن الرفق والملاطفة: ألا يألو جهداً في الترفيه عنها، وإدخال السرور على قلبها. قال ﷺ: «أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلُقاً، وألطفهم بأهله»[١].

(ب) النفقة:

والمقصود بها: تأمين جميع متطلبات المرأة من طعام وشراب ولباس وغير ذلك، مهما زاد مالُها أو نقص.

وقد «انبنت قوامةُ الرجل على أصلين: أحدهما: أنه هو المكلَّف بالإنفاق على الأسرة، وهو تكليف يقوم على أن المرأة لا تعمل لكسب المال؛ لأنها مصروفة عنه إلى غيره من الأعمال؛ التي أعدَّتها لها فطرة الله التي فطر الناس عليها. فإذا أخذ المجتمع بأن تعمل المرأةُ عملَ الرجال، لزم تغيير هذه التشريعات، وتغيير هذه التشريعات يُخرج المسلمين من إسلامهم؛ لأنهم مكلفون بالرجوع إلى كتاب الله في شؤون دينهم ودنياهم، والإذعان له، والتسليم بما جاء به»[٢].

قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾ [الطلاق: ٦]. فإنها بموجب هذه الآية تستحق السَّكن في حال عدَّة الطلاق، فمن باب أولى أن تستحقه في حال الحياة الزوجية.

وهل هناك أعظم وأوضح من هذا القول؛ الذي يُبيِّن ما للمرأة على زوجها من حقوق؟!

وجاء النبيُّ ﷺ ليُكمل الرسالةَ العظيمة، ويؤكِّد حقوق النساء؛ بقوله عليه الصلاة والسلام: «ولهن عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف»[٣].

قال ابنُ حزم في كتابه «المحلّى»: ويُنفق الرجلُ على امرأته من حيث يعقد نكاحها، بنى بها أو لم يَبْنِ، ولو أنها في المهد، ناشزاً كانت أو غير ناشز، غنية كانت أو فقيرة، ذات أب أو يتيمة، بكراً أو ثيّباً، حرة كانت أو أمة، على قدر حاله.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤٧، ٩٩) والترمذي (٢٦١٢) والنسائي في عشرة النساء (٢٧٢).
(٢) حصوننا مهددة من داخلها (١٢١).
(٣) رواه النسائي في عشرة النساء (٢٩٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٠٤).

(ج) التـزيُّـن للمـرأة:

كما أنَّ المرأة مطالبة بأن تتزين لزوجها ، وتحسن نظافتها وزينتها ولباس ورائحتها ، فإنَّ الرجل أيضاً مطالبٌ بذلك ، فرسول الله ﷺ يقول: «حُبِّب إليَّ دنياكم النِّساء والطِّيب»[1].

فالتزيُّنُ يورث المحبة ، ويُقوِّي أسبابَ الألفة ، ويفتح النفس ، ويملأ القل بالسعادة ، وكم هو جميلٌ أن تشعر المرأةُ بالاهتمام من الرجل عندما يتزيَّن ويتجمَّل لها كما تفعل هي له ، فكلّنا نحب الجمال ، حيث: «إنَّ الله جميلٌ يح الجمال»[2].

و«مِنَ الفطرة التي طُبع عليها الإنسان: أن يبدو بمظهر جميل ، وشكل أنيق في حدود الوسطية ، دون إفراط أو تفريط»[3].

فالتزيُّـنُ حقّ للمرأة وحقّ للرجل ، قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إ أحب أن أتزينَ للمرأة كما أحب أن تتزيَّن لي.

والمسلم نظيفٌ على الدوام؛ لأنه يستعمل الماء للوضوء؛ فـ«لا تُقبل صـ إلا بطهور»[4].

والمداومة على غَسْل الأعضاء الجسدية يبقي المسلمَ على طهارة مستمر فيتخلَّص من الأوساخ ، ويداوم على النظافة.

ومن المؤسف أن يدخل الرجلُ بيته، فيأكل وينام، دون أن يغسل يديه ووجه بعد أن كان في السوق أو مكان العمل، وقد صافَحَ هذا ، واشترى ملابساً من ذا وأمسك الخضراوات بيديه ، وارتاد الأماكن العامة ، وركب في الحافلات. . .

أمَّا تقليم الأظفار فهو من سُنن الفطرة ، وفي قصِّها فائدتان[5]:

---

(١) رواه النسائي في عشرة النساء (١) وأحمد (٣/١٢٨ ، ١٩٩) وأبو يعلى (٨٢ و٣٥٣٠) والبيهقي (٧/٧٨).
(٢) رواه مسلم (٩١) والترمذي (١٩٩٩).
(٣) النظافة؛ ليوسف علي بديوي وأحمد السيد (٩٩).
(٤) رواه أحمد (٢/١٩ ـ ٢٠) ومسلم (٢٢٤) والترمذي (١) وابن ماجه (٢٧٢).
(٥) الأحكام النبوية في الصناعة الطبية (٢/ ١٥٤).

إحداهما: تحسين الهيئة والزينة.

الثانية: أنه أقرب إلى تحصيل الطهارة الشرعية على أكمل الوجوه؛ لِما عساه أن يَحْصل تحتها من الوسخ المانع من وصول الماء إلى البَشَرة.

«أمَّا ذلك الزوج الذي تفوحُ الرائحة الكريهةُ من فمه، إذ يهملُ نظافته، ويترك رواسبَ الطعام تتكدَّس على أسنانه، ويتكاسل عن المضمضة، واستعمال السِّواك أو غيره، فَنُذكِّره بأنَّ له زوجةً تعيش معه، وترعى شؤونه، فعليه احترامُ مشاعرها، والقيام بأدنى درجات النظافة الفموية»[1].

ومِنْ زينة الرجل للمرأة: أن يزيل ما يجتمع في شعر الرأس من الأقذار والغبار والمواد الدهنية، ومن ثم يُرجِّله ـ يمشِّطه ـ قال ﷺ: «مَنْ كان له شعرٌ فليكرمه»[2].

وعن جابر قال: أتانا رسولُ الله ﷺ زائراً في منزلنا، فرأى رجلاً شَعِثاً، فقال: «أمَا كان هذا يجدُ ما يُسكِّنُ به شَعْرَه؟!»[3].

وعن أبي قتادة الأنصاري أنه قال لرسول الله ﷺ: إنَّ لي جُمَّة، أفأُرجِّلها؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «نعم، وأَكْرِمْها». فكان أبو قتادة ربَّما دَهَنها في اليوم مرتين؛ لِما قال له رسولُ الله ﷺ: «وأكْرِمْها»[4].

ومِنْ زينة الرجل أيضاً: تنظيف لحيته، وإزالة الشعث منها، والاهتمام بنظافتها، فقد كان ﷺ يُسرِّح لحيته في اليوم أكثر من مرة[5].

ومِنْ زينة الرجل: إزالة ما طال من شعر الرأس، والشارب، قال ﷺ: «قصُّوا الشوارب»[6]. وقال عليه الصلاة والسلام: «جُزُّوا الشوارب»[7].

---

(١) النظافة، لبديوي والسيد (٦٨).
(٢) رواه أبو داود (٤١٦٣).
(٣) رواه أحمد (٣/ ٣٥٧) وأبو داود (٤٠٦٢) والنسائي (٨/ ١٨٣ ـ ١٨٤).
(٤) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٩٤٩).
«جُمة»: شعر الرأس إذا بلغ المنكبين. «أفأرجلها»: أُسرِّحها. «أكْرِمها»: بصَوْنها من نحو وسخ وقذر، وبتعاهدها بالتنظيف والدهن.
(٥) ذكره الغزالي في كتابه «الإحياء» (١/ ٢٤٤).
(٦) رواه أحمد (٢/ ٢٢٩).
(٧) رواه مسلم (٢٦٠).

ويستحب للرجل نَتْفُ الإبط ، وإزالة شعر العانة ، قال ﷺ: «عَشْرٌ م الفطرة: قَصُّ الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسِّواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظفار ، وغَسْل البراجم ، ونَتْفُ الإبط ، وحَلْقُ العانة ، وانْتقاص الماء»[(١)].

«وهذه الخصالُ مجتمعة في أنها محافظة على حُسْن الهيئة والنظافة ، وكلاه يحصلُ به البقاء على أصل كمال الخِلْقة التي خُلِق الإنسانُ عليها ، وبقاء ها الأمور وترك إزالتها يُشوِّه الإنسانَ ويقبحه ، بحيث يُستقذر ، ويُجتنب ، فيخر عمَّا تقتضيه الفطرةُ الأولى ، فسُمِّيت هذه الخصال فطرةً لهذا المعنى»[(٢)].

(د) المعاشرة بالمعروف:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وهذه الوصية الربانية دعوةٌ لإقامة العلاقات الزوجية على أساسٍ من الإحسا والرحمة ، وما أمر الله سُبحانه به ، فلا يعبس في وجه زوجه بلا ذنب ، ولا يُبد اهتماماً أو ميلاً لامرأةٍ غيرها ، ولا يقول لها الفظ والغليظ من الكلام.

وحُسْن المعاشرة يتطلب حُسْن الخلق ، قال ﷺ: «أكملُ المؤمنين إيما أحسنهم خُلُقاً ، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم»[(٣)].

وأوصى ﷺ الرجلَ بزوجه حُسْناً ، فقال: «إنَّ المرأة خُلِقَتْ من ضِلَع ، ل يستقيم لك على طريقة ، فإن استمتعتَ بها ، استمتعتَ بها وفيها عوج»[(٤)].

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٣٧) ومسلم (٢٦١) وأبو داود (٥٣) والترمذي (٢٧٥٨) والنسائ (٨/ ١٢٦ ـ ١٢٧). قال مصعب ـ أحد الرواة ـ: ونسيتُ العاشرة إلا أن تكون المضمضة «انتقاص الماء»: يعني: انتقاص البول بالماء إذا غَسَل المذاكير به.

(٢) المفهم (١/ ٥١١ ـ ٥١٢).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٥٠) وأبو داود (٤٦٨٢) والترمذي (١١٦٢) وابن حبان (٤١٦٤) والحاكم (١/ ٣).

(٤) رواه مسلم (١٤٦٨).

وقال ﷺ: «إنَّ المرأة خُلِقَتْ من ضِلَع ، فإنْ أقمتها كسرتَها ، فَدَارِها تعِشْ بها»[1].

وإنَّ لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في معاملته الفضلى لنسائه ، فقد كان لطيفاً معهن ، مداعباً لهن ، وكان عليه الصلاة والسلام مثال الرقة واللطف ، فكان يصفح عن نسائه ، ويتَّسع صدرُه الشريف لأخطائهن.

عن أنس بن مالك قال: كان النبيُّ ﷺ عند بعض نسائه ، فأرسلتْ إحدى أمهات المؤمنين بِصَحْفَةٍ فيها طعام ، فضربتِ التي النبيُّ ﷺ في بيتها يدَ الخادم ، فسقطتِ الصَّحْفَةُ ، فانْفَلَقَتْ ، فجَمع النبيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَة ، ثم جعل يجمعُ فيها الطعامَ الذي كان في الصَّحْفَة ، ويقول: «غارتْ أمُّكم» ثم حبس الخادمَ حتى أتى بصَحْفَةٍ من عند التي هو في بيتها ، فدفع الصَّحْفَةَ الصَّحيحةَ إلى التي كُسِرَتْ صحفتُها ، وأمسك المكسورةَ في بيت التي كُسِرَتْ فيه»[2].

وعن ابن عباس: أن عمر بن الخطاب قال: صخبتْ عليَّ امرأتي ، فراجعتني ، فأنكرتُ أن تُراجعني ، قالت: ولِمَ تُنكر أن أُراجِعك؟! فوالله إنَّ أزواج النبي ﷺ ليراجعنه ، وإنَّ إحداهن لتهجرُه اليوم حتى الليل. فأفزعني ذلك ، فقلتُ لها: قد خاب مَنْ فعل ذلك منهن. ثم جمعتُ عليَّ ثيابي ، فنزلتُ ، فدخلتُ على حفصةَ ، فقلتُ لها: أيْ حفصة ، أتُغاضِبُ إحداكُنَّ النبيَّ ﷺ اليومَ حتى الليل؟! قالت: نعم ، فقلت: قد خبت وخسرت ، أفتأمنين أنْ يغضبَ اللهُ لغضب رسول الله ﷺ فتهلكي؟! لا تستكثري النبيَّ ﷺ ولا تُراجعيه في شيء ، ولا تهجريه[3].

ودعا رسولُ الله ﷺ المسلمين إلى تحمُّل أخطاء المرأة بصدر رحب ، ونفس رضية ، وعليهم أن يغفروا سيئات النساء لحسناتهن ، ويتغاضوا عما يكرهون لما يحبون. قال ﷺ: «لا يفرك مؤمنٌ مؤمنة ، إنْ كره منها خُلُقاً رضي منها آخر»[4].

---

(١) رواه ابن حبان (٤١٦٦) والبزار كما في كشف الأستار (١٤٧٦) والحاكم (٤/ ١٧٤).
(٢) رواه البخاري (٥٢٢٥).
(٣) رواه البخاري (٥١٩١).
(٤) رواه مسلم (١٤٦٩).
«يفرك»: يبغض.

ثم إنه ليس هناك إنسانٌ كامل ، فالكمالُ من صفات الله عز وجل ، وبالتالي لا تُوجد سعادةٌ كاملة ، فلا بُدَّ من حدوث بعض المشكلات والمنغِّصات في سَيْر الحياة الزوجية ، والزوجان العاقلان هما اللذان يتعاونان على حلِّ ما يعترضهما ، والتغلب عليه بصبرٍ وهدوء ، وإيجاد الحلول المناسبة لكل مشكلة طارئة ، دون تسرُّع ، أو انفعال ، وإلاَّ تشوَّه التفكير ، واهتزت أركانُ الأسرة ، وارتدَّ السلوك نحو الحضيض. والمهمُّ أن تستمر الحياة الزوجية ، وتعود الأمور إلى طبيعتها قبل حدوث المشكلة.

ومن المعاشرة بالمعروف ـ حتى في حال الكراهة ـ أن نتجنَّب أذى المرأة ولو بالكلمة النابية أو القبيحة. فعن معاوية بن حيدة قال: قلتُ: يا رسول الله ما حقُّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ، ولا تُقبِّح ، ولا تهجر إلا في البيت»[١].

ويحرم على الزوج أن يؤذي زوجه ، أو يسيء إليها للإضرار بها ، فتضطر إلى خَلْع نفسها ، فإنْ فعل الرجلُ ذلك ، فالخُلْعُ باطل ، والبدلُ مردود ، ولو حكم به قضاء ، لكن الطلاق واقع لا محالة.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ [النساء: ١٩].

والمقصود من هذه الآية: نفي الظلم عن النساء ، وعدم الإضرار بهن ، فلا يُجْعَلْن كالمال يُورَثْنَ عن الرجال.

ومِنْ حُسْن المعاشرة: أن يكون الرجلُ باشَّ الوجه ، طَلْق المحيّا ، يختار الكلمة الجميلة ، ويشكر زوجَه على ما تقوم به من أعمال وخدمات ، فهي غير مكلَّفة شرعاً بذلك ، بل تقوم بأعمالها المنزلية؛ من باب الودّ والمحبة ، وحُسْن رعايتها لزوجها وأولادها.

ولا بأسَ أن يَضَعَ الرجلُ لقمةً طيبة في فم زوجته ، فتلك اللقمة تساوي عندها كنوزَ الدنيا بأسرها؛ إذْ تحسُّ أنَّ لها قدراً أو كياناً ، وأن مكانتها في نفس زوجها

---

(١) رواه أبو داود (٢١٤٢) والترمذي (١٨٥٠) وأحمد (٤/٤٤٧ و٥/٥٢٣).

تزداد يوماً إثر يوم. قال ﷺ: «إنك ـ إن شاء الله ـ لن تُنفِقَ نفقةً إلاَّ أُجرت بها، حتى اللقمة ترفَعُها إلى في امرأتِك»[١].

وكان ﷺ يسابق السيدة عائشة، فتسبقه مرة، ويسبقها أخرى. فعن عائشة قالت: خرجتُ مع رسول الله ﷺ ـ وأنا خفيفةُ اللحم ـ فنزلنا منزلاً، فقال لأصحابه: «تقدَّموا» ثم قال لي: «تعالَيْ حتى أُسابقَكِ» فسابقني، فسبقتُه، ثم خرجتُ معه في سفر آخر، وقد حملتُ اللحم، فنزلنا منزلاً، فقال لأصحابه: «تقدَّموا» ثم قال لي: «تعالَيْ أُسابقك» فسابقني فسبقني، فضرب بيده كتفي، وقال: «هذه بتلك»[٢].

وفي الأمسيات والأسمار يلاطفُ الرجلُ زوجَه، ويُحدِّثها بما يُسرُّها، ويُدخل البهجةَ إلى نفسها، ويُقدِّرها أمام الناس، وأمام أولادها على وجه الخُصوص.

ومِنْ حُسْن المعاشرة: أن يُحْسِنَ الرجلُ الظن بزوجه، فلا يتجسَّس عليها، ولا يتَّبع هفواتها، أو يُعدِّد عليها عثراتها، وليكن معتدل الغَـيْـرة، غير مسرفٍ في تقصِّي كلِّ حركاتها وسكناتها، فإنْ فَعَل ذلك؛ فإنه يُفسد العلاقة الزوجية، ويقطع أوصالها. ولكنه مع ذلك «لا يتغافل عن الأمور التي تُخشى مغبَّتها، ويصعب علاجُها إذا أُهملت، فلا يسكتُ عن تقصير في واجب، أو ميلٍ إلى سوء، أو تلبّس بمنكر؛ فإنَّ اعتيادَ هذه الأشياء من الزوجة، وسكوت الزوج عليها؛ يؤدي إلى استمرائها الأمرَ المنكر، فيصبح لها خُلُقاً يصعب علاجُه»[٣].

ومِنْ حُسْن المعاشرة: ألا يكشف لزوجه سِرّاً؛ لأن ذلك يزرع الحقد، ويكون إنذاراً بنشوء القطيعة والكُرْه، وذلك من سوء الخُلُق، ومن أجل ذلك منع الإسلامُ كَشْفَ سرِّ البيوت، فقال ﷺ: «ألا يخشى أحدُكم أن يخلو بأهله، يُغلق باباً، ثم يرخي ستراً، ثم يقضي حاجته، ثم إذا خرج حدَّث أصحابه بذلك..

---

(١) رواه البخاري (٥٦) ومسلم (١٦٢٨).
(٢) رواه النسائي في عشرة النساء (٥٧).
(٣) حقوق المرأة في الإسلام؛ لكوثر الميناوي (٥٣).

فلا تفعلوا ، فإنما مَثَلُ ذلك مثل شيطانٍ لقي شيطانة على قارعة الطريق ، فقضى حاجته منها ، ثم انصرف وتركها»[1].

ومِنْ حُسْن المعاشرة أيضاً: أن يسمح لزوجه بزيارة أهلها في أوقات معلومة وذلك من باب صلة الرحم ، وطلب رضا الوالدين ، وبرِّهما.

(هـ) صيانة المرأة والغيرة عليها والاعتدال فيها:

مِنْ واجب الزوج وحق الزوجة عليه: صونها عن كل ما يُدنِّس سمعتها وإبعادها عن المواطن التي تخدش حياءها وشرفها ، أو تؤثر عليها بأدنى سوء أقلّ فساد ، وعن كل ما يعرِّضها لأقاويل السوء وأراجيف البهتان ، وهذا م الغيرة التي يحبها الله عز وجل ، ويحث للتمسك بها.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ [التحريم: ٦].

فالغَيْرة مطلوبة ، ونعني بها: عدم التغافل عن الأمور التي تُخشى نتائجها وعدم المبالغة في الظن ، والقسوة في المحاسبة.

قال ﷺ: «إنَّ من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل ، وهي من غيرة الرجل ع أهله من غير ريبة»[2].

والغيرة مثار الكرامة ، وإن كانت في محلها فهي محمودة ، قال ﷺ: «إن يغار ، والمؤمن يغار ، وغيرة الله: أن يأتي الرجل ما حُرِّم عليه»[3].

وقد وضَّح ﷺ الغيرة ، وأبان عن موطنها الحق ، ومموردها الصافي ، وكش النقاب عن الباطل فيها ، حيث قال رسولُ الله ﷺ لابنته فاطمة: «أيّ شيء خ للمرأة؟» فقالت: ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل. فضمَّها إليه ، وقال: «ذ بعضها من بعض»[4].

---

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (١٤٥٠) وانظره في مجمع الزوائد (٤/ ٢٩٤).
(٢) رواه النسائي (٥/ ٧٨) وابن ماجه (١٩٩٦) والدارمي (٢/ ١٤٩).
(٣) رواه البخاري (٥٢٢٣) ومسلم (٢٧٦١).
(٤) رواه البزار كما في مجمع الزوائد (٤/ ٢٥٥).

قال ابنُ قيِّم الجوزية: «أصل الدين: الغَيْرة، ومَنْ لا غَيْرة له لا دينَ له؛ فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح؛ فتدفع السوء والفواحش. وعدم الغَيْرة يميت القلب، فتموت له الجوارح، فلا يبقى عندها دفع البتة»[١].

والغيرة التي تعجب النساء هي الغيرة المتزنة المترفِّقة الأبية، الدَّالَّة على عقل راجح يفهم كلَّ شيء، وفكر ثاقب يلحظ كل شيء، وثقة عميقة بالنفس في مقدورها أن تقاوم كل شيء. هذه الغيرة هي التي تفتن المرأة؛ لأنها تحمل في هدوئها الواثق معنى الرجولة[٢].

(و) جمـاع المـرأة:

للزواج فوائد وثمار عديدة، منها: كَسْر حدّة الشهوة عن طريق علاقة مشروعة، وإرواء الغريزة الجنسية بإتيان المرأة ومجامعتها، وهذا حلال في حال طهر المرأة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

والجماعُ يأتي في الدرجة الأولى من مستلزمات الزواج، ففيه إشباع الغريزة الجنسية بطريق حلال، وجَعَل عز وجل لذلك أجراً وثواباً، فقال ﷺ: «ولكَ في جِماعكَ زوجتَكَ أجر»[٣].

كما ارتفع الإسلام بمسألة الجِماع إلى مرتبة العبادة، وجعل لذلك أجراً يُثاب عليه الزوجان، فهما قد ابتعدا بزواجهما الشرعي عن ارتكاب الموبقات واجتراح الآثام، وعاشا في جوّ يسوده الوئام، وتحيط به العلاقات الطيبة، في تبادلٍ عاطفي عميق منسجم، وكما ذكر رسولُ الله ﷺ فالجِماعُ صدقةُ الرجل على زوجه، ومِنْ تمام النعمة: أن يحسَّ الإنسان أنه يُشبع رغباته، وينال مبتغاه، وتطمئن نفسه، وتهدأ خواطره، ويظفر بثواب الله عز وجل.

فالجماعُ بالنية الصالحة، وقَصْد العفة لنفسه أو لزوجه؛ عبادة، قال رسولُ الله ﷺ: «ومباضعتك أهلك صدقة» قالوا: يا رسول الله، أيقضي الرجلُ

---

(١) الداء والدواء؛ لابن قيِّم الجوزية (١٣١).
(٢) الغيرة؛ لإبراهيم المصري (٤١).
(٣) رواه أحمد (٥/١٦٨ ـ ١٦٩) والنسائي في عشرة النساء (١٤١) والبيهقي في «الآداب» (ص ٩٢ ـ ٩٣).

شهوته ، وتكون له صدقة؟! قال: «نعم ، أرأيتَ لو جعل تلك الشهوة فيما حرّ الله عليه ، ألم يكن عليه وِزْر؟!» قالوا: بلى. قال: «فإنه إذا جعلها فيما أحلَّ ا له فهي صدقة»[1].

وجَعَل عز وجل المرأة سكناً للرجل ، يرتاح لها قلبُه ، وتقوم بينهم علا خاصة ، لـبُّها المودة ، ولحمتها الحب ، وسُداها الرحمة ، فهي ملاذه الذ يرتاح عنده ، ويجد لديها الاستمتاع المفضي إلى العبادة ، واللذة المأجورة فهي شفاء له ، ودواء موصل إلى النعيم.

قال ﷺ: «إن المرأة تُقبل في صورة شيطان ، وتُـدْبِر في صورة شيطان ، فإ رأى أحدُكم امرأةً فأعجبته فليأتِ أَهْله ، فإنَّ ذلك يردُّ ما في نَـفْسِه»[2].

وللجماع آداب ينبغي مراعاتها ، ومنها:

* أن يدعو بقوله ﷺ: «اللهم جنِّبني الشيطان ، وجنِّب الشيطانَ ما رَزَقْتَنا»[3]

* أن يُمهِّد للجماع بالمداعبة والملاعبة والملاطفة ، فإن من أهمِّ الأمور التي ينبغي على الزوج أن يحرص عليها: مداعبته زوجه؛ لما في ذلك من أثر كبير في تمتين العلاقات الروحية والجنسية بين الزوجين ، فالاستمتاعُ الجسدي يتطلب لباقـةً من الرجل بما يعطيه لزوجه من رغبة صادقة ، وتعاطف تام ، ومحبة قائمة قال ﷺ: «إذا جامع أحدُكم أهلَه فلْيَصْدُقْها ، فإذا قضى حاجته قبل أن تقضي حاجتها فلا يُعْجِلْها حتى تقضي حاجتها»[4].

وفي هذا الحديث دعوةٌ إلى انتظار المرأة حتى تُشبع حاجتها الجنسية ، وتصل إلى قمة اللذة ، بعد أن يكون الرجلُ قد أحسَّ بها ، فلا بُدَّ من مراعاة مشاع المرأة ، واحترام أحاسيسها ، وإمهالها حتى تقضي وطرها.

والزوجة الحكيمة تستطيع بلباقتها ، وزينتها ، ونظافة جسدها أن تدف

---

(١) رواه مسلم (١٨٤) وأبو داود (١٢٨٥ و١٢٨٦) والنسائي في عشرة النساء (١٤٢) وابن خزيمة (١٢٢٥) وابن حبان (٤١٥٥).
(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٢٢).
(٣) رواه البخاري (٥١٦٥) ومسلم (١٤٣٤).
(٤) رواه أبو يعلى في مسنده (٤٢٠١) وانظره في مجمع الزوائد (٤/ ٢٩٥).

زوجها للسكن إليها ، والقرب منها ، فالمحبة تحقق السعادة ، أما الوطء دون تمهيد فيعتبر سماجة ووحشية ، حين يرتمي الرجل على المرأة لقضاء حاجته منها ، ثم يبتعد عنها لاهثاً وقد قضى وطره وحده!

من أجل هذا رفع الإسلامُ من شأن مداعبة الزوجة ، فقال ﷺ: «كلُّ شيء ليس فيه ذِكْرُ الله فهو لهو ولعب؛ إلا أربع: ملاعبةُ الرجل امرأته ، وتأديب الرجل فرسَه ، ومَشْيُه بين الغرضين ، وتعليم الرجل السباحة»(١).

والقُبْلة لها أثر مهمّ في تقريب المشاعر بين الزوجين ، وتوليد الحب بينهما ، ولأهميتها كان النبي ﷺ يُقبّل وهو صائم ، ويُباشر وهو صائم(٢).

* ويحرم إتيان المرأة في غير موضع الولد؛ لقول الله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

عن مجاهد قال: عرضتُ المصحفَ على ابن عباس ثلاثَ عَرْضات من فاتحة الكتاب إلى خاتمته ، أُوقِفُه عند كل آيةٍ منه ، فأسأله عنها؛ حتى انتهى إلى هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ فقال ابن عباس: إنَّ هذا الحيَّ من قريش كانوا يَشْرَحون النساء بمكة ، ويتلذَّذون بهنَّ مُقْبِلات ومُدْبرات؛ فلما قدموا المدينة تزوَّجوا من الأنصار ، فذهبوا ليفعلوا بهن كما كانوا يفعلون بمكة ، فأنكرن ذلك ، وقُلْنَ: هذا شيء لم نكنْ نُؤْتَى عليه. فانتشر الحديث حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ ، فأنزل اللهُ تعالى في ذلك: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قال: «إن شئتَ مقبلةً ، وإنْ شئتَ مُدْبرةً ، وإن شئتَ باركة» وإنما يعني بذلك موضعَ الولد للحرث. يقول: ائتِ الحرثَ حيث شئت(٣).

وقال ﷺ: «لا ينظر اللهُ إلى رجلٍ يأتي المرأةَ في دُبرها»(٤).

قال القاضي ابن العربي: وسألتُ الإمامَ القاضي الطوسي عن هذه المسألة ، فقال: لا يجوز وطءُ المرأة في دُبُرها بحال؛ لأنَّ الله تعالى حرَّم الفَرْجَ حال

---

(١) رواه البخاري (٥٣٦٧) ومسلم (٥٦) والنسائي في عشرة النساء (٥٢ و٥٣ و٥٤).
(٢) رواه البخاري (١٩٢٧) ومسلم (١١٠٦/ ٦٥).
(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٩) والواحدي في أسباب النزول (١٠٧ ـ ١٠٨).
(٤) رواه أبو داود (٢١٦٢) والنسائي في عشرة النساء (١٢٥) وابن ماجه (١٩٢٣).

الحيض لأجل النجاسة العارضة ، فأولى أن يُحرِّمَ الدُّبُرَ بالنجاسة اللازمة[1].

وعن ابن عباس قال: جاء عمرُ بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ، هلكتُ! قال: «وما أهلكك؟!» قال: حوَّلتُ رَحْلي الليلة. قال فلم يردَّ عليه رسولُ الله ﷺ شيئاً. قال: فأُوحي إلى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ . . . ﴾ فقال: «أقبلْ وأدبرْ واتَّقِ الدبر والحيضة»[2].

* ومن الحديث السابق «اتق الدبر والحيضة» يتبيَّن لنا تحريمُ إتيان الحائض وقال عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فالعلاقة الزوجية لها هدفٌ سامٍ هو إنجاب الذرية ، ولا يتحقق ذلك في مد الحيض ، إلى جانب الأضرار البالغة للرجل والمرأة؛ لأن الحيض قذارة ود ونجس ومكروه ، ويحصل الأذى بريحه وضرره ، فَضْلاً عن الاشمئزاز النفسي وابتعاد الفطرة السليمة النظيفة عن مباشرة المرأة في تلك الحالة ، فلا ينبـ غرس ، ولا تشعّ حياة ، ولا تتحقق لذة؛ لذا كان التحريم صوناً للعلاقة بيـ الزوجين ، فإذا انتهى الحيض ، ابتغى المسلمُ الحلال ، ونال الأجر الوافر.

ولا تُهمَل المرأةُ في الحيض ، فعن عائشة قال: كانت إحدانا إذا كانـ حائضاً؛ أمرها رسولُ الله ﷺ فتأتزر ، ثم يُباشرها[3].

وهذا يؤكِّد استمتاع الزوجين دون جماع ، حيث قال ﷺ: «اصْنَعُوا كلَّ شي إلا النكاح»[4].

ومن هنا نؤكد أن العلاقة الجنسية بين الزوجين لا تقتصر على الجماع ، بـ تشتمل على الاستمتاع بالأنوثة ، والأحاسيس الإنسانية من شمٍّ وضمٍّ ومداعبة ، ولهو ، وملامسة ، واستمتاع بالجسد على أيِّ وجه غير الجماع

---

(١) أحكام القرآن؛ لابن العربي (١/ ١٧٤).
(٢) رواه الترمذي (٢٩٨٠).
(٣) رواه البخاري (٣٠٢) ومسلم (٢٩٣).
(٤) رواه أحمد (٣/ ١٣١) ومسلم (٣٠٢) والترمذي (٢٩٧٧) والنسائي (١/ ١٥٢) وابن ما (٦٤٤).

وهذا يُخفِّف حِدَّة انزعاج المرأة من الحيض، حيث تشعر بشيء من الراحة والهدوء.

* ولا بُدَّ من الإشارة إلى ضرورة حفظ أسرار الزوجين، وعدم الإباحة بها للناس، لا سيما ما يجري بينهما من جماع. قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من شرِّ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة: الرجل يُفضي إلى امرأته، وتُفضي إليه، ثم ينشر سرَّها»[1].

قال أبو العباس القرطبي: «ومقصود هذا الحديث أن الرجل له مع أهله خلوة، وحالة يقبحُ ذِكْرُها، والتحدث بها، وتحمل الغَيْرةُ على سترها، ويلزم من كشفها عارٌ عند أهل المروءة والحياء، فإنْ تكلَّم بشيء من ذلك وأبداه، كان قد كشف عورة نفسه؛ إذْ لا فَرْقَ بين كشفها للعيان وكشفها للأسماع والآذان؛ إذْ كلٌّ واحدٍ منهما يحصلُ به الاطلاع على العورة»[2].

ثانياً - حقوق الزوج

سبق أن أشرنا إلى أنَّ الحياة الزوجية شركة بين اثنين، رأس مالها: المحبة والمودة والتفاهم، فالزوجية نظامٌ مطرد في الوجود المشهود؛ في الإنسان، وسائر الحيوان، والنبات... قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وكل شيء فيه شركة يؤكِّد لنا أن هناك حقوقاً لكل منهما، فيستوجب بالتالي واجبات مطلوبة من كلٍّ منهما.

ومثلما عرفنا في الصفحات السابقة أنَّ ثمة حقوقاً للزوجة، كذلك هناك حقوق للزوج، يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

(١) الطاعة:

تُعدُّ الطاعة أول الحقوق الواجبة على الزوجة، وينبغي أن تكون هذه الطاعة

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٦٩) ومسلم (١٤٣٧/ ١٢٣ و١٢٤) وأبو داود (٤٨٧٠).
«سرّها»: نكاحها.

(٢) المفهم (٤/ ١٦٢).

في غير معصية ، حيث «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[(١)] .

فالرجلُ هو المسؤول عن الإنفاق على البيت ، وهو المنظِّم للأسرة ، وله ح القوامة على زوجه ، وطاعتها له ، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِ فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وحقُّ الرجل كبير ، فقد قال ﷺ: «لو أمرتُ أحداً أن يسجدَ لأحد؛ لأمر المرأة أن تسجدَ لزوجها؛ من عِظَم حقّه عليها»[(٢)] .

وحدَّد ﷺ صفات المرأة المرغوبة ، وخِصالها الحميدة ، فهي تُدْخِل السر إلى فؤاد زوجها ، وتحفظه في غيابه عن المنزل ، ولا تفشي سرَّه ، فقال ﷺ «خيرُ النساء التي إذا نظرتَ إليها سرَّتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غِبْتَ ع حفظتك في نفسها ومالك»[(٣)] .

فهل هناك دليلٌ أقوى من هذا الدليل؛ الذي يُوجب حق الزوج بالطاعة من ق الزوجة؟! فطاعتها من أسباب دخولها الجنة ، قال ﷺ: «إذا صلَّتِ المر خَمْسَها ، وصامت شهرها ، وحفظتْ فَرْجها ، وأطاعت زوجها؛ دخل الجنة»[(٤)] .

وهذا يؤكد أنَّ عصيانَ الزوج يُدْخِل المرأة النار ، فعن ابن عباس: رسول الله ﷺ قال: «رأيتُ النار ، فلم أر كاليوم منظراً قطُّ. ورأيتُ أكثرَ أه النساء» قالوا: بِمَ يا رسول الله؟ قال: «بكُفْرهنَّ». قيل: أيكْفُرنَ بالله؟ قال: «بك العَشير ، وبكفر الإحسان. لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهر ، ثم رأتْ منك شيئ قالتْ: ما رأيتُ منكَ خيراً قَطُّ»[(٥)] .

---

(١) رواه أحمد (٤/٤٢٦ و٤٣٢ و٤٣٦).

(٢) رواه أبو داود (٢١٤٠) والترمذي (١١٥٩) وابن ماجه (١٨٥٣) وأحمد (٤/١ و٥/٢٢٨).

(٣) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده (٣٠٦).

(٤) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢/١٧٧ و١٨١) وانظره في مجمع الزو (٤/٣٠٥).

(٥) رواه البخاري (٥١٩٧) ومسلم (٩٠٧).
«العشير»: الزوج المعاشر.

ومِنْ طاعة الزوجة لزوجها: ألَّا تمتنع عنه عندما يطلبها؛ لتحمي نفسها من لعنة الملائكة، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا دعا الرجلُ امرأته إلى فراشه، فأبتْ أن تجيء، فبات غضبان، لعنتها الملائكة حتى تصبح»[1].

وعلى المرأة أن تُمكِّن زوجَها من نفسها فوراً حيث لا عذر، ويؤكد هذا الحقَّ حديثُ رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجلُ زوجتَه لحاجته فلتأتِ، وإنْ كانت على التنور»[2].

والمراد بذكر التنور: حثّها على تمكينه، وإن كانت مشغولة بما لا بُدَّ منه[3]. وهذا يؤكِّد شدَّة حقّه عليها، ووجوب طاعتها له.

وإنَّ طاعة الزوجة للزوج أكَّدها رسولُ الله ﷺ في حديثه الشريف، عندما قرن ذلك بالشهادة في القتال والجهاد، فعن ابن عباس قال: جاءت امرأةٌ إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، أنا وافدةُ النساء إليك، هذا الجهاد كتبه اللهُ على الرجال، فإنْ يُصيبوا أُجروا، وإن قُتِلُوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون، ونحن ـ معاشر النساء ـ نقوم عليهم، فما لنا من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبلغي مَنْ لقيت من النساء أنَّ طاعة الزوج، واعترافاً بحقّه؛ يعدل ذلك، وقليل منكن من تفعله»[4].

ومن طاعتها له أيضاً: شكره على ما يفعله من أجلها، ومن أجل أسرتها، والثناء عليه لما يُقدِّمه من تعب وجهد، وتهدئة قلبه، وتوفير الراحة له. قال ﷺ: «لا ينظر الله سبحانه وتعالى إلى امرأةٍ لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه»[5].

وعن عبد الله بن محصن قال عن عمة له: أنَّها دخلتْ على رسول الله ﷺ فقام رسولُ الله ﷺ لبعض الحاجة، فقضى حاجتها، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «أذاتُ

---

(١) رواه البخاري (٥١٩٣) ومسلم (١٤٣٦).
(٢) رواه الترمذي (١١٦٠) والنسائي في عشرة النساء (٨٥).
(٣) فيض القدير (١/ ٣٤٣).
(٤) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢/ ١٨١) وانظره في مجمع الزوائد (٤/ ٣٠٨).
(٥) رواه الحاكم (٢/ ١٩٠ و٤/ ١٧٤) والبزار كما في كشف الأستار (٢/ ١٧٥) وانظره في مجمع الزوائد (٤/ ٣٠٩).

زوجٍ أنتِ؟» قالت: نعم. قال: «كيف أنتِ له؟» قالت: ما آلو إلا ما عجزت عنه فقالَ رسولُ الله ﷺ: «انظري أين أنتِ منه؛ فإنه جنَّتُكِ ونارُكِ»[(١)].

وهذه الطاعةُ من الزوجة لزوجها ضمانٌ لاستمرار الحياة الزوجية، بل ضما لسعادة هذه الحياة.

(٢) حفظ المال:

مِنْ واجب المرأة أن تحفظ مالَ زوجها، ولا تنفقه دون إذنه ورضاه، فالما حقٌّ قائم للزوج. قال ﷺ: «لا تُنفق امرأةٌ شيئاً من بيت زوجها إلا بإذنه» قيل يا رسول الله، ولا الطعام؟ قال: «ذلك أفضلُ أموالنا»[(٢)].

وقال رسولُ الله ﷺ: «لا يجوزُ لامرأةٍ عطية إلا بإذن زوجها»[(٣)].

وتحافظُ المرأةُ العاقلةُ على ما استودعها زوجها، وجعله تحت يديها، وها يستوجب منها ألا تطلب منه المستحيل، أو المال الكثير؛ وذلك لتمنعه ع ارتكاب الحرام، فالمؤمنُ يصبر على الضرّ والجوع، ولكنه لا يصبر على النار وبذلك تكون المرأة قد صانتْ مالَ زوجها، وحفظته.

وقد أباح رسولُ الله ﷺ للمرأة أن تأخذ من مال زوجها ـ إن قتَّر على أسرته بغير إذنه، بالمعروف، أي: بالقدر الذي عُرِف بالعادة أنه كفاية.

فعن عائشة قالت: جاءت هندٌ إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! إن أ سفيان رجلٌ ممسك، فهل عليَّ حرج أن أُنفق على عياله بغير إذنه؟ فقا النبيُّ ﷺ: «لا حرج عليك أن تنفقي عليهم بالمعروف». وفي رواية: «خُذي م ماله بالمعروف مايكفيكِ، ويكفي بنيكِ»[(٤)].

وثمة أحاديث نبوية تفيد حقّ المرأة في التصدق من مال زوجها، فعن عائش

---

(١) رواه النسائي في عشرة النساء (٧٦) وأحمد (٤/ ٣٤١) والحاكم (٢/ ١٨٩) والبيهق (٧/ ٢٩١).

(٢) رواه أبو داود (٣٥٦٥) والترمذي (٦٧٠) وابن ماجه (٢٢٩٥).

(٣) رواه أحمد (٢/ ١٨٤) وأبو داود (٣٥٤٦ و٣٥٤٧) والنسائي (٥/ ٦٥ ـ ٦٦) وابن ما (٢٣٨٨).

(٤) رواه البخاري (٢٢١١) ومسلم (١٧١٤/ ٧و٨).

قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أنفقتِ المرأةُ من طعام بيتها؛ غيرَ مفسدةٍ، كان لها أجرُ ما أنفقتْ، وللزوج أجره بما كسب، وللخازن مثلُ ذلك، لا ينقص بعضهم من أجر بعض»[1].

والمقصود بهذه الصدقة والإنفاق قدرُ ما يُعلم رضا الزوج به في العادة، ونبَّه بالطعام؛ لأنه يُسمح به عادةً بخلاف النقود. والمراد بهذه النفقة أن تُصرف على عيال صاحب المال، ومصالحه، وقاصديه من ضيف وابن سبيل ونحوهما[2].

(٣) تصدُّق المرأة من مالها على زوجها، والصبر عليه إن كان فقيراً:

يحسنُ بالزوجة أن تتصدق بمالها على زوجها إنْ كان فقيراً محتاجاً، حتى لو كان هذا من حُليّها، حيث تكسبُ أجر الصدقة، وثواب صلة الرَّحم.

عن أبي سعيد الخدري قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فِطْر إلى المصلَّى، ثم انصرف، فوعظ الناس، وأمرهم بالصَّدقة، فقال: «أيُّها الناس تصدَّقوا» فمرَّ على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدَّقن؛ فإني رأيتكنَّ أكثر أهل النار». ثم انصرف، فلما صار إلى منزله جاءت زينب امرأة ابن مسعود تستأذنُ عليه، فقيل: يا رسول الله، هذه زينب. فقال: «أيُّ الزيانب؟» فقيل: امرأة ابن مسعود. قال: «نعم، ائذنوا لها» فأذن لها. قالت: يا نبيَّ الله! إنكَ أمرتَ اليوم بالصَّدقة، وكان عندي حليٌّ لي، فأردتُ أن أتصدَّق بها، فزعم ابنُ مسعود أنه وولده أحقّ مَنْ تصدَّقتُ به عليهم. فقال النبي ﷺ: «صدَق ابنُ مسعود، زوجُكِ وولدكِ أحقّ مَنْ تصدَّقْتِ به عليهم». وفي رواية: «نعم، ولها أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة»[3].

وهذا إنْ كانت الزوجةُ تملك مالاً، يمكن أن تتصدَّق به على زوجها الفقير، فإن كانت غير قادرة على ذلك، فعليها أن تصبر على معيشة زوجها، ولا تكلِّفه فوق طاقته، ولا تُطالبه بأكثر مما يحتمل مادياً. وخيرُ النساء اللواتي صَبَرْنَ على قساوة الحياة، وشظف العيش زوجات النبي ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٥) ومسلم (١٠٢٤).
(٢) شرح صحيح مسلم؛ للنووي (٧/ ١١٣).
(٣) رواه البخاري (١٤٦٦) ومسلم (١٠٠٠).

عن عائشة قالت: ما شبع آلُ محمد ﷺ من خبز شعيرٍ يومين متتابعين حت
قُبِض[1].

(٤) عـدم إدخـال مَـنْ يـكرهـه الـزوج إلـى المنـزل:

وذلك من أجل الحفاظ على شرف الأسرة المسلمة، ورعاية البيت المسلم وهذا واضحٌ جليّ من خلال قوله ﷺ: «لا يحلُّ لامرأةٍ أن تأذن في بيت زوج وهو كاره، ولا تخرجُ وهو كاره»[2].

والمرأة الحكيمة لا تسمحُ بدخول أحدٍ إلى منزلها إلا بإذن زوجها من النس والرجال المحارم، أمَّا الرجال غير المحارم فلا يجوز إدخالهم إلى المنز والزوج غائبٌ، وإنْ وافق الزوج؛ لأن هذه النقيصة مخالفة للشريعة الإسلامية أمَّا الأقارب غير المحرمين فينبغي أن يحضر معهم محرم. وقد ذكر ذل رسولُ الله ﷺ في قوله: «إيَّاكم والدخول على النساء»[3].

أمَّا أقارب الزوج كأخيه وابن أخيه وغيرهم، فسمَّاهم ﷺ: الحمو، فقال ﷺ «الحمو: الموت»[4]. وبذلك شبَّه رسولُ الله ﷺ اختلاط هؤلاء الأقارب بالزو- في حال غياب زوجها، وخلوّهم معها بالموت؛ في الاستقباح والمفسدة.

وهذا الموتُ واقعٌ من خلال وقوع المعصية؛ التي تؤدي إلى الهلاك، أو ...
العقوبة التي تؤدي إلى الموت، وأخيراً هلاك المرأة إن طلَّقها زوجُها لشدَّة غَيْر مما حدث.

عن عمرو بن الأحوص الجشمي قال: حدثني أبي أنه شهد حجّة الوداع ...
رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، وذكّر، ووعظ... ثم قال: «...
واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هُنَّ عوانٍ عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غ
ذلك؛ إلا أنْ يأتين بفاحشة مبينة، فإن فَعَلْنَ فاهجروهنَّ في المضاجع واضربوهنَّ ضرباً غير مبرح، فإنْ أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً. ألا إنَّ لكم ع

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥٥) ومسلم (٢٩٧٠).
(٢) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٤/ ٣١٣).
(٣) رواه البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢/ ٢٠و٢١).
(٤) انظر تخريج الحديث السابق.

نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً ، فأمّا حقكم على نسائكم فألاَّ يُوطئن فُرُشَكم مَنْ تكرهون ، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون. ألاَ وحقهنَّ عليكم أن تُحْسِنُوا إليهنَّ في كسوتهن وطعامهن»[1].

(٥) رعاية المرأة أمور زوجها وخدمته وتدبير منزله:

إنَّ تنظيم الحياة الزوجية يقوم على أنْ يعملَ الرجلُ خارج المنزل؛ ليؤمن متطلبات العيش الرغيد لزوجه وأولاده ، وللمرأة أعمال المنزل وتربية الأطفال ، وبهذه القسمة العادلة تتحقق السعادة والراحة للبيت المسلم.

وقد ذكر ابن فرح القرطبي أنَّ النبي ﷺ حَكَم بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبين زوجه فاطمة رضي الله عنها حين اشتكيا إليه الخِدمة ، فحكم على فاطمة بالخدمة الباطنة خدمة البيت ، وحكم على عليٍّ بالخدمة الظاهرة[2].

وفي الصحيحين: أنَّ فاطمة أتتِ النبيَّ ﷺ تشكو إليه ما تَلْقى في يَدَيْها من الرَّحى ، وتسأله خادماً فلم تجدْه ، فذكرت ذلك لعائشة ، فلما جاء رسولُ الله ﷺ أخبرتْه. قال علي: فجاءنا وقد أخذْنا مضاجعَنا ، فذهبنا نقوم ، فقال: «مكانكما» فجاء فقعد بيننا حتى وجدتُ بَرْدَ قدمَيْه على بطني ، فقال: «ألا أدلكما على ما هو خيرٌ لكما مما سألتما ، إذا أخذتما مضاجعكما فسبِّحا اللهَ ثلاثاً وثلاثين ، واحْمدا ثلاثاً وثلاثين ، وكبِّرا أربعاً وثلاثين ، فهو خيرٌ لكما من خادم». قال عليٌّ: فما تركتُها بعد. قيل: ولا ليلة صِفِّين؟ قال: ولا ليلةَ صِفِّين[3].

وصحَّ عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: كنتُ أخدمُ الزبير خدمةَ البيت كله ، وكان له فَرَسٌ ، وكنتُ أسوسُه ، وكنتُ أحتشُّ له ، وأقومُ عليه[4].

وصحَّ عنها أنها كانت تَعْلِفُ فرسَه ، وتَسْقي الماءَ ، وتَخْرِزُ الدلو ، وتعجن ،

---

(١) رواه الترمذي (١١٦٣) وابن ماجه (١٨٥١).
(٢) أقضية رسول الله ﷺ (٧٢).
«الخدمة الباطنة»: العجين ، والطبخ ، والفرش ، وكنس البيت ، واستقاء الماء ، وعمل البيت كله.
(٣) رواه البخاري (٥٣٦٢) ومسلم (٢٧٢٧).
(٤) رواه أحمد (٦/ ٣٥٢).

وتنقلُ النَّوى على رأسها من أرضٍ له على ثُلُثي فَرْسَخ[1].

ثم إنَّ خدمة المرأة لزوجها ولمصالح البيت هو من العُرْف الذي جرى علم الناس ، فلم يكن قيام فاطمة وأسماء بخدمة البيت تبرُّعاً وتطوعاً وإحساناً ، بدليل أن فاطمة كانت تشتكي ما تلقى من الخدمة ، ولم يقل ﷺ لعلي : لا خِدْمة عليها ، وإنما هي عليك ، والنبي ﷺ لا يُحابي في الحكم أحداً. ولمّا رأى ﷺ أسماءَ والعلفُ على رأسها لم يقلْ للزبير : لا خِدمةَ عليها ، وأن هذا ظلمٌ لها ، ب أقَرَّه على استخدامها ، وأقرَّ سائر أصحابه على استخدام أزواجهم ، مع عِلْمه بأ منهن الكارهة والراضية .

قال ابن قيم الجوزية : ولا يصحُّ التفريق بين شريفة ودنيئة ، وفقيرة وغنية فهذه فاطمة ـ رضي الله عنها ـ أشرفُ نساء العالمين كانت تخدم زوجها وجاءته ﷺ تشكو إليه الخدمة ، فلم يُشْكِها .

وقد سمَّى النبيُّ ﷺ المرأة عانِية ، فقال : «اتقوا الله في النساء ، فإنَّهن عوا عندكم»[2] . والعاني : الأسير ، ومرتبةُ الأسير خدمةُ مَنْ هو تحت يده[3] .

فليس هناك أعظم وأسمى مما قاله رسولُ الله ﷺ وإن كانت الشاكية ابنا فاطمة رضي الله عنها ، فخدمةُ الزوج أمرٌ حسن ، وفاطمةُ قدوة صالحة لجم نساء المسلمين .

(٦) التزين والظهور بمظهر حَسَن للرجل :

ذكرنا فيما سبق ـ في حقوق الزوجة ـ ضرورة أن يتزيَّن الزوجُ لزوجه؛ ليبد بأبهى وأجمل صورة للمرأة؛ تلك المخلوقة التي تفيضُ رقة وأنوثة وجمالاً وهذا ما يحبه كلُّ رجل ، ويطلبه من زوجه. ثم إن التزين يجلب الألفة والمح بين الزوجين ، فالزوجة العاقلة لا تُقصِّر في هذا الأمر ، فلا تهمل زينتها .

وهذا لا يعني أن تترك المرأةُ واجباتها؛ لتهتمَّ بشكلها وحده ، وإنما القص

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٤٧).
(٢) سبق تخريجه قبل قليل.
(٣) زاد المعاد؛ لابن قيِّم الجوزية (٥/ ١٨٨).

من ذلك: الحثّ على النظافة والترتيب؛ من ارتداء ملابس جميلة ونظيفة، وتزيين للوجه، وتسريح للشعر.

وما أرقى المرأة التي تتأهَّب لاستقبال زوجها بأبهى مظاهرها من: أناقة، وطلاقة وجه، وابتسامة ثغر؛ فَمَن تصنع ذلك تَـنَـلْ رضا زوجها، وتظفر بسرور شريك حياتها.

عن كريمة بنت همام قالت لعائشة: ما تقولين يا أم المؤمنين في الحنَّاء؟ فقالت: كان حبيبي ﷺ يُعجبه لونُه، ويكره ريحه، وليس بمحرَّم عليكن بين كل حيضتين، أو: عند كل حيضة[١].

فمَنْ تتطيب بالرائحة الطيبة لزوجها تَـبْـقَ ملاذه الدائم، وطمأنينة قلبه، وسرور خاطره.

وتبدو المرأة العاقلة في بيتها في أحسن حُلَّة، وأجمل منظر، وأعطر رائحة، ولا تألو جهداً في نظافة بيتها وبَدَنها وأولادها، وتعتبر كلَّ ذلك مرضاةً لله عز وجل، وتحقيقاً للحياة الزوجية السعيدة. فإذا ما خرجتْ من بيتها لشأنٍ من شؤونها، خرجت يخفرها الحياء، والتزمتْ شَرْعَ الله في سَتْر جسمها، فلم تُظْهِرْ منه إلا ما أحلَّ الله لها إظهاره، دون زينة، ودون تعطر، فتمشي وقد تجمَّلت بالسكينة والحياء، فتُحقِّق بذلك رضوان الله عز وجل، وتُبْعِد عنها الفسَّاق والفاسدين[٢].

وما أجمل البقعة الخضراء من حولها الماء، تتدلى عليها الأغصان، وتُورق الأفنان، وتُسمع تغاريد الطيور بلحنها الفتَّان، وكل ذلك يبعث على السرور، ويُجمِّل الحياةَ بطعم جديد.

والتزيُّنُ لا يعني الإسراف في الإنفاق «فالكحلُ أحسن الحسن، والماء أطيبُ الطيب المفقود»[٣].

وقد أخبر اللهُ عز وجل أن المرأة تهوى الزينة، وتحبُّ التجمُّل، فَتَرْكُ ذلك

---

(١) رواه أحمد (٦/١١٧).

(٢) النظافة؛ لبديوي والسيد (١٠٦).

(٣) عيون الأشعار وروائع الأفكار، لهشام الحمصي (١١٣).

يُنافي فطرتها، ويُعاند طبيعتها. قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨].

وهذه شهادةُ الخالق المولى العالِم بطبيعة المرأة، وما ترنو إليه.

قال الأصمعي: رأيتُ في البادية امرأةً عليها قميص أحمر، وهي مختضبة وبيدها سُبحة، فقلتُ: ما أبعد هذا من هذا! ـ يعني: السبحة لا تتفق مع التزين والتجمُّل ـ فقالت:

وللهِ منـــي جـــانـــبٌ لا أُضيِّعـــه ... وللَّهـو عنـدي والبطـالـة جـانـب

فعلمتُ أنها امرأة صالحة، لها زوجٌ تتزيَّن له.

(٧) لا تـصوم المـرأة الـنفلَ إلا بـإذن زوجهـا:

إنَّ حقَّ الزوج واجب على المرأة، وهو مقدَّم على بعض العبادات، كصيام النفل، وهو التطوع، وهذا الصيام جعله النبيُّ ﷺ غير مقبول إن لم يكن بإذن الزوج في حال وجوده وحضوره. فحقُّ الزوج واجب على الفور، فلا يفوت بالتطوع.

قال ﷺ: «لا يحلُّ للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه»(١).

وجاءت امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها أنه يفطرها إذا صامت، ولما سأله النبيُّ ﷺ عن سبب ذلك قال: أنا رجل شابّ فلا أصبر، عند ذلك قال ﷺ «لا تصوم امرأةٌ إلا بإذن زوجها»(٢).

«فلو سُوِّغ لها الصومُ بغير إذْنه لكان ذلك مَنْعاً للزوج من حقّه، فلو شرعت في صوم التطوع بغير إذْنه فله أن يُحلِّلها؛ لأنَّ حقَّه مقدَّم على ما شرعت فيه وكذلك لو أحرمت بالحج والعمرة تطوعاً»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٥١٩٢) ومسلم (١٠٢٦).
«بعلها شاهد»: أي: مقيم في البلد.
(٢) رواه أبو داود (٢٤٥٩).
(٣) المفهم (٣/ ٦٩).

(٨) انتقال الزوجة مع زوجها:

فصَّل القرآن الكريم مسألة الإقامة في البيوت، فأمر الشارعُ الحكيم أن يُسكن الرجلُ امرأته مما يجد من السكنى، والاستطاعة مرتبطة بالمقدرة المادية والغِنى، ولا تجوز المضارَّة، سواء بالتضييق على الزوجة في فسحة المسكن أو مستواه أو في المعاملة فيه. وللزوج حق الإقامة بزوجته معه أينما ذهب أو حلّ. قال عز وجل: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

ومن أهم الأمور في الانتقال: ألا يكون للمضارّة بالزوجة، أو وسيلة للضغط عليها من أجل أن يحصل الزوج على شيءٍ منها؛ كأنْ تعطيه شيئاً من مهرها، أو أن تترك شيئاً من نفقتها الواجبة، كما لا يجوز أن يكون المسكنُ غير آمن، فهذا لا يُبيحه الإسلام، ولها عند وقوعه حق الرفض، والقاضي يحكم لها بذلك.

كما يحقُّ للمرأة أن تطلب عند عَقْد الزواج: ألا تسافر مع زوجها إن سافر، وأن يثبت هذا الشرط في صك الزواج في المحكمة.

(٩) تأديب المرأة عند عصيانها زوجها:

شرع الإسلامُ الزواجَ استجابة لدوافع الفطرة، وتنظيمها وتطهيرها، علاوةً على الإنجاب وتكثير النسل، فكانت العلاقةُ بين الزوجين تتسم بالاستقرار والاستمرار، وعندها ترتفع العلاقة إلى مستوى العبادة، وتنتظم الارتباطاتُ الزوجية بتكاليف محددة، فيقوم نظامُ البيت على مبدأ القوامة، حَسْماً للفوضى، وضماناً لبقاء البيت سالماً من الاضطراب، خالياً من النزاع.

ويُوضِّح الإسلامُ العلاقة بين الزوجين، فيقول عز وجل: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

فيدعو الشرعُ إلى التريُّث والمصابرة حتى في أحلك الظروف، وأشدّها قتامة، وهذه دعوةٌ إلى إطفاء نيران الشرور والنفور، وليس الطلاق هو الحل الأول، بل لا بُـدَّ من محاولات تسبقه لتقويم الاعوجاج في حال حصوله، ورأب الصدع، وإصلاح الشقاق.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

وتوجِّه الآية الكريمةُ المسلمَ لإصلاح نشوز زوجه ـ في حال وقوعه ـ بثلا أمور:

أ ـ **الموعظة الحسنة**؛ وذلك بأن يقوم الزوجُ بتذكير زوجه بما ورد ف الشرع الحنيف من تعاليم تؤكد واجبها تجاهه في طاعته، والاستجابة له وما يجرُّه عصيانُها له من حدوث الطلاق والتفكك في الأسرة، كما يُذكِّرها با عصيانها هذا يحرمها من حقوقها كالنفقة، والكسوة، وحُسْن المعاشرة...

والموعظة تهذيب ونُصْح وإرشاد؛ للحفاظ على البيت معافى من الفسـ والدمار، ومن المتعارف عليه أن ترتدع الناشز في مثل هذا الحال، وتستشـ غلطتها، فتعود إلى سابق عهدها من اللطف والإيناس، وعدم الانجراف ـ الكِبْر والتعالي على الزوج.

ب ـ **الهجر في الفراش**؛ ولكن الموعظة قد لا تنفع، ولا تجد أُذ صاغية؛ بسبب سيطرة الهوى على المرأة الناشز، وجموح انفعالها العنيف، فـ تكون مستعليةً بجمالها، أو مالها، أو مركزها الاجتماعي، أو حسبـ ونسبها... وتتناسى تلك الناشز أنها في بيت فيه رجل يحترمها ويحبـ ويقدِّرها، فليس البيت مسرحاً للصراع، ولا حلبة للقتال، وهنا تأتي المرحـ الثانية من التأديب، وتتمثل في هجر المرأة في الفراش؛ لأن المضجع إغر شديد، وجاذبية قوية؛ لكنه لا يكون هجراً أمام الأولاد؛ لئلا يُورث في نفوسـ الكره والبغض والشرور، ولا هجراً أمام الغرباء؛ لئلا يستثير مشاعر المرأة ويحطم كبرياءها وكرامتها، فالمقصود الإصلاح لا الإذلال، والتقريـ لا الإفساد، ولمّ الشمل لا التحطيم. ولعل هذه المرحلة تجدي في إصلاح كـ من النساء؛ لأن المرأة إن أُهملت غَضبت، وإن سُلَّ منها سيف الفتنة، وتعا الرجلُ على جاذبيتها، فسرعان ما تعود إلى محجّة الصواب؛ لتحقق جما وإغراءها، أمام ثبات الرجل وقوة إرادته.

(ج) الضرب غير المؤذي؛ ففي حال عدم جدوى الهجر في الفراش، يحق للزوج ضرب زوجته وفق المعايير الشرعية. والمقصود من هذا الضرب: الإصلاح والتأديب، وليس الأذية والانتقام، أو الإذلال والتحقير، وهو ضرب رفيق لتعود المرأة إلى سابق أمرها، تشارك الرجل مسؤولية بناء البيت وتوجيهه.

عن عبد الله بن زمعة: أنه سمع النبيَّ ﷺ، يخطب، وذكر النساء، فوعظ فيهن، فقال: «لا يجلد أحدُكم امرأته جَلْد العبد، ثم يُجامعها في آخر اليوم»[1].

وعن إياس بن عبد الله بن أبي ذُبَاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا إماءَ الله» فجاءه عُمر، فقال: قد ذَئِـرَ النساءُ على أزواجهن، فأذن لهم، فضربوهن، فطاف بآل رسول الله ﷺ نساءٌ كثير، فقال النبيُّ ﷺ: «لقد طاف بآل محمد ﷺ الليلةَ سبعون امرأةً، كلهم يشتكين أزواجَهن، ولا تَجِدُ أولئكم خيارَكم»[2].

وعن عائشة قالت: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضرب خادماً له قط، ولا امرأةً، ولا ضرب بيده شيئاً قط؛ إلا أن يُجاهد في سبيل الله[3].

وأكَّد ﷺ عدمَ ضرب الوجه أبداً، فعن معاوية بن حيدة قال: قلتُ يا رسول الله، ما حقُّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقبِّح، ولا تهجر إلا في البيت»[4].

وهناك نساء يرتدعن من نظرة، أو من كلمة، أو من حرمانها من أحد حقوقها، أو من تذكيرها بالأيام الجميلة، أو بأخذها إلى نزهةٍ أو مكان تحبه، أو

---

(١) رواه البخاري (٥٢٠٤) ومسلم (٢٨٥٥).
(٢) رواه أبو داود (٢١٤٦) وابن ماجه (١٩٨٥).
«ذئر النساء على أزواجهن»: أي: نشزن عليهم، واجترأن.
(٣) رواه مسلم (٧٨و٧٩) والترمذي في الشمائل (٣٣١) وابن ماجه (١٩٨٤) وأحمد (٦/ ٣١ـ٣٢).
(٤) رواه أحمد (٥/ ٣) وأبو داود (٢١٤٢) وابن ماجه (١٨٥٠).

بشراء هدية لها... والضرب يكون آخر حلٍّ حال نشوز المرأة، لردّها عن العصيان، وإرجاعها إلى الطاعة.

قال الشوكاني[1]: إن اكتفى بالتهديد ونحوه كان أفضل، ومهما أمكن الوصول إلى الغرض بالإيهام لا يعدل إلى الفعل، لما في وقوع ذلك من النُّفرة المضادة لحسن المعاشرة المطلوبة في الزوجية؛ إلا إذا كان في أمرٍ يتعلق بمعصية الله.

عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ امرأةً له، ولا خادماً قطُّ، ولا ضرب بيده شيئاً قطُّ إلا في سبيل الله، أو تُنتهك محارم الله، فينتقم لله[2].

ثم إنَّ الذي يقرر الإجراءات السابقة إنما هو الله عز وجل، خالق الحياة والأحياء، والعالم بنفوس الناس، وكل تمرُّدٍ على تشريع الخالق؛ يُعرِّض الإيمان لهزَّات عنيفة، ويهدد العلاقات الإنسانية بالتفكك والانفصام.

هذا، وإن كل ما سبق من حديثٍ عن الحقوق والواجبات، يكفل حُسْن الرعاية، ويدعم الاستقرار في الأسرة، ويُنشىء الطمأنينة في النفوس، فلا يشقى الرجل، ولا تضيع المرأة.

* * *

---

(١) نيل الأوطار (٤/٣٢٥).

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (٩١٦٤).

الباب الثاني

الأسرة في مرحلة القدوة
(العهد النبوي والخلافة الراشدة)

الفصل الأول:

الأسرة في العهد النبوي.

الفصل الثاني:

الأسرة في الخلافة الراشدة.

الفصل الأول

الأسرة في العهد النبوي

أولاً ـ شخصية المرأة في السنة النبوية.

ثانياً ـ أمهات المؤمنين في بيت رسول الله ﷺ.

ثالثاً ـ أُسَر مسلمة نموذجية.

أولاً ـ شخصية المرأة في السنة النبوية:

نالت المرأةُ حقوقها في الإسلام ، بعد أن عانت من الويلات الشيءَ الكثير؛ عبر العصور القديمة. وبرز اهتمامُ القرآن الكريم بها واضحاً للعيان؛ ذلك أنَّ المرأة نواة الأسرة ، وركنها العتيد ، والأسرة نواة المجتمع ، فالمرأة أساس البناء ، ورمز صلاح الحضارة ، وسلامتها.

وإن نظرةً في آيات القرآن الكريم تُوضِّح مدى عناية القرآن بالمرأة والأسرة ، وصيانتها ، والحفاظ عليها ، وتهيئتها للقيام بالتكاليف المنوطة بها ، فسورة البقرة اهتمت بشؤون الطلاق ، واستوعبت أحكام الإيلاء والمحيض والرضاع.

وسورة النساء رتَّبت الميراث ، وتضمَّنت مسألة تعدُّد الزوجات ، وحماية المرأة بوجه عام.

وسورة النور فيها تشريعات لصون الأسرة ، وحماية المرأة من الانحلال ، مع رعاية الأنساب والأعراض ، وبيان الآداب الإسلامية العامة.

وسورة المجادلة فيها حديث واضح عن مسألة الظهار ، وهي قول الرجل لزوجه: أنت عليَّ كظهر أمي. وكان في الجاهلية طلاقاً. فلِقَصْد الرجل المطلِّق إلى التغليظ في تحريم امرأته عليه شبَّهها بالظَّهْر ، ثم لم يقنعْ بذلك حتى جعلها كظَهْر أمِّه(١).

وسورة الطلاق ألمَّتْ بتشريع الطلاق والعدَّة ، ووضَّحت قضاياهما.

وبالإضافة إلى ذلك يُلحظ وجودُ آيات كثيرة يُسْتَشفُّ من خلالها مدى عناية الإسلام بالمرأة ، واهتمامه بالأسرة ، باعتبارها الأساس في بناء الفرد ، وتشييد صرح المجتمع عالياً ، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً . . . . ﴾ [النساء: ١].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٦٥).

وقوله سُبحانه: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا. . . ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً. . . ﴾ [النحل: ٧٢].

وقوله عز وجل: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً. . . ﴾ [الروم: ٢١].

ولينظر الباحثون في التشريعات الأرضية قديماً وحديثاً، فإنهم لن يجدو سوى الإسلام يُسوِّي بين الرجل والمرأة في الحقوق والأوضاع الاجتماعية. قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٨٨].

كما أنَّ رسول الله ﷺ بيَّن مسؤولية المرأة والرجل عن البيت، وأنهما يشتركان في حمايته، وصونه، ورعايته، قال ﷺ: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته: الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيد ومسؤول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته»[1].

قال المناوي: «كلكم راعٍ»: أي: حافظ، ملتزم بصلاح ما قام عليه، وه ما تحت نظره من الرعاية، وهي الحفظ، يعني: كلكم مستلزم بحفظ ما يُطالب به من العدل إن كان والياً، ومن عدم الخيانة إن كان مولَّياً عليه. . . «والرجل را في أهله»: زوجة وغيرها «وهو مسؤول عن رعيته» هل وفَّاهم حقوقهم من نح نفقةٍ، وكسوة، وحُسْن عشرة «والمرأة راعية في بيت زوجها» بحُسْن تدبيرها في المعيشة، والنصح له، والشفقة عليه، والأمانة في ماله، وحفظ عياله وأضياف ونفسها «وهي مسؤولة عن رعيتها» هل قامت بما يجب عليها، ونصحت في التدبير أو لا[2].

وقد أحاط الإسلامُ الأسرة بجملةٍ من التدابير؛ التي تحميها، وتساعد عل

---

(١) رواه البخاري (٥١٨٨)، ومسلم (١٨٢٩).

(٢) فيض القدير (٥/٣٨).

بقائها ، وتستمر في رحلة عطائها المتجدِّد كل حين ، ومن تلك التدابير :

أ ـ التكوين السليم للأسرة :

فدعا الإسلامُ الزوجين ليقيما الرابطة المقدَّسة بينهما على أرضية ثابتة لا تتزعزع؛ من الرضا المشترك ، والطمأنينة النفسية ، والسكينة الروحية ، مع التكافؤ والتساوي في الطبقة الاجتماعية ، والنسب ، والخُلُق ، والسلامة من العيوب ، وغير ذلك . قال ﷺ: «تخيَّروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء»[1] .

ويُطلب من الزوجين أن يُوجِّها النظر إلى التعاون بينهما ، والتناصر ، والصدق في التعامل ، لا أن يكون الطمعُ قائداً لأحدهما نحو الآخر ، ولا محبة المال ، ولا انتظار ما يؤول إليه من عقارات وأرض وأملاك ، فكل هذا يتلاشى أمام بسمةٍ صافية ، وتعامل صادق ، ومحبة عميقة .

والمرأة إنسان سامٍ مُحلِّق في فضاء المشاعر الرقيقة ، والعواطف الشَّفَّافة ، والنظرة الحانية ، والوِدّ الدائم ، ورحم الله امرأً كان حريصاً على زوجه الحنون ، مختاراً لها لدينها ، وتقواها ، وصلاح أمرها ، وحُسْنِ خُلُقها ، وحِفْظها لكتاب الله ، وسُنَّة النبي ﷺ ، فمن اختار على أساس الدين فقد فاز وأفلح ، ومَنْ أبى ، وجار عن الصواب ، فقد خسر وما نجح. قال ﷺ: «تُنْكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها؛ فاظفرْ بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك»[2] .

وبيَّن القرآنُ الكريم أُسسَ اختيار المرأة؛ لبناء البيت المسلم المستقر ، فقال عز وجل: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم : ٥].

وهذه الصفات الراقية ، والخِلال الحميدة جديرةٌ بزوجةٍ صالحة ، لا تغترُّ بالمظاهر البرَّاقة الخدَّاعة ، بل تدرك حقيقة الحياة ، وأنها جميلة بالمشاعر

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩٦٨) والدارقطني (٣/ ٩٩) والحاكم (٢/ ١٦٣) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٣٧٧).

(٢) رواه البخاري (٥٠٩٠) ومسلم (١٤٦٦).

«تربت يداك»: هذه الكلمة جارية على ألسنة العرب ، لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ، ولا وقوع الأمر به ، والمراد بها : الحث والتحريض.

الفياضة ، والعشرة الطيبة ، والخُلُق الحسن .

فقوله تعالى : ﴿ مُسْلِمَٰتٍ ﴾ يعني مخلصات . ﴿ مُّؤْمِنَٰتٍ ﴾ مصدِّقات بما أُمِرْن به ونُهين عنه . ﴿ قَٰنِتَٰتٍ ﴾ مطيعات . ﴿ تَٰٓئِبَٰتٍ ﴾ أي : من ذنوبهن . ﴿ عَٰبِدَٰتٍ ﴾ أي : كثيرات العبادة لله تعالى . ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ صائمات[(١)] .

وقد حذَّر رسولُ الله ﷺ من اختيار المرأة لمجرَّد حيازتها لشكلٍ جميل ، أو مالٍ كثير ، أو مكانة مرموقة فحسب ، وعدم الالتفات لمتطلبات الاختيار الصحيح ، والمتمثل في الدِّين والخُلُق القويم . قال ﷺ : «لا تَزَوَّجُوا النساء لحسنهن ، فعسى حُسْنُهن أن يُرديهن ، ولا تَزَوَّجُوهن لأموالهن ، فعسى أموالُهن أن تُطغيهن ، ولكنْ تَزَوَّجُوهن على الدِّين ، ولأَمَةٌ خَرْماءُ ذاتُ دِيْنٍ أفضل»[(٢)] .

وقال عليه الصلاة والسلام : «مَنْ تَـزوَّج امرأةً لِعِزِّها لم يزدْه اللهُ إلا ذُلاًّ ، ومَنْ تزوَّجها لمالها لم يزدْهُ اللهُ تعالى إلا فقراً ، ومَنْ تزوَّجها لحسنها لم يزدْهُ اللهُ إلا دناءةً ، ومَنْ تزوَّج امرأة ليغضَّ بصره ، ويحصن فَرْجَه ، ويصل رحمه ، كان ذلك له ، وبُورِك له فيها ، وبارك الله لها فيه»[(٣)] .

وفي هذا دعوة لاختيار المرأة على أساس الدين ، والجمال الأخلاقي ، والآداب الجمَّة ، فالدين هو الأساس لبناء حياة سعيدة ، وأسرة فاضلة ، وراحة بال ، وهدوء خاطر .

ب ـ المعاشرة الزوجية الحسنة :

إذا كان الاختيار صحيحاً ، والبناء سليماً ، والتكوين صالحاً ، ساد الحبُّ بين أفراد الأسرة ، وتفانى الجميع ، واستقاموا ، وتعاونوا ، وبذل كلٌّ منهم كلَّ ما بوسعه ؛ ليزيد البناءَ قوةً فوق قوة ، فيكون حريصاً على دَفْع عواصف التفرق

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ١٩٣) .

(٢) رواه ابن ماجه (١٨٥٩) .

«أن يرديهن» : أي : يوقعهن في الهلاك بالإعجاب والتكبر . «تطغيهن» : توقعهن في المعاصي والشرور . «خرماء» : مقطوعة بعض الأنف ، ومثقوبة الأذن . «أفضل» : أي : من الحرَّة .

(٣) رواه ابن النجار ، كما في كنز العمال (١٦/ ٣٠١) .

والصراع ، مخلصاً في أداء واجبه ، متفانياً في العطاء؛ لِنَبْذ شرور الاضطراب ، وغوائل التصدع والكآبة والقلق.

وأساس المعاشرة الطيبة الحب ، فبه يسودُ التفاهم ، ويمنح الزوجان الأسرة كل ما يملكان من مشاعر وقدرات؛ من أجل الصيانة والمحافظة على البيت؛ من خلال رابطة الزوجية.

وليس الحب كلمات جوفاء ، تتردد بين الحين والآخر على الشفاه ، دون أن يصدر ذلك من الأعماق ، ويتجسَّد تفاهماً مشتركاً ، وتعاوناً مثمراً ، وإخلاصاً كافلاً ، فالحب هو الأساس المتين للمعاشرة الزوجية الحسنة.

والأسرةُ المتماسكة تقوم على المودة والرحمة ، والصِّلة الروحية القوية ، والعطف المتبادل؛ الذي يصدر عن شعور عميق ، ويتجه لتحقيق هدف أمثل ، وهو بناء الأسرة على دعائم متينة ، وأسس قويمة. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

ويُحقِّق التعاونُ بين أفراد الأسرة السعادة والهناءة ، ويجعل العواطف تتأجج في القلوب المحبَّة الدافئة ، فتكون الأسرةُ كالجسد الواحد ، روحاً محلِّقة ، وأفئدة تتدفق بأجمل الأحاسيس ، وأرقّ المشاعر.

ويأتي التفاهمُ رائداً في مجاله ، وهذا يقتضي أن يكون الزوجان عاقلين ، هادئين ، لا تستفزّهما المشكلات ، ولا يُتلفان أعصابهما في أتون الحياة ، ومعترك العمل ، ولو فعلا ذلك ـ لا قدَّر الله ـ فإنَّ الخَلَل سيتكاثر ويتوالد بسرعة عجيبة ، وبالتالي يحدثُ ما لا تُحمد عواقبه ، ويختنق الجميع بغبار الشقاق ، فتموت العواطف ، وتستشري العواصف.

فالتريُّث هو الحلُّ الأمثل إذا ما وقعت مشكلة ، والتفاهم هو الدواء الناجع؛ ليبقى بنيانُ الأسرة شامخاً ، وإلاَّ حاق بالجميع سوءُ العواقب ، ومغبة التسرُّع.

والتعاون هو جهاز الإنعاش للأسرة ، فعن طريقه يتنفسُ الجميع ، ويحسُّون بالراحة ، ورقيّ المشاعر ، فالرجل يكدح ، والمرأة تطيع زوجها ، وتُربِّي

أطفالها ، فكلٌّ منهما يستشعر المسؤولية المُناطة به ، ويقوم بعمله على خير ما يرام.

و«لا ريب في أن الزوج الذي يعيش عالةً على مال زوجه أو كدحها ، ليس فقط خاملاً مهيناً ، وإنما هو فوق ذلك رجل أناني ، يضنُّ بعرقه على سعاد أسرته.

ولا ريب أيضاً ، في أن المرأة التي تملك خيراً كثيراً ، وتضنُّ به على سعاد أسرتها ، تاركة الرجل يكدح كدحاً فوق طاقته ، هذه المرأة ليست أنانية فحسب وإنما هي فوق ذلك متمردة على أسمى معاني العشرة الزوجية؛ التي يجبُ أن تظل في معزل عن الأنانية والجحود.

والرجل الذي يسرف في غير ما حاجة إلى الإسراف ، مقتطعاً بإسرافه جز من حاجات الأسرة ، إنما هو أيضاً رجل أناني مسرف في أنانيته.

وإذا كانت المرأةُ كذلك ، كانت أنانية ممعنة في أنانيتها ، وكان كلاهما بعيا كلَّ البعد عن روح التعاون؛ الذي تتطلبه الأسرةُ ، ولا غِنى لها عنه»[1].

ونظرنا في دعائم المعاشرة الطيبة بين الزوجين ، فلم نجد أوثق م الإخلاص ، فهو سريرُ الاستقرار ، وتاج الأسرة ، وركن الثبات ، ومفتا السعادة.

وإذا كان كلٌّ من الزوجين يشاطر الطرفَ الآخر عواطفَ سامية ، فلا شكَّ أ سينأى عن كل مايُصدِّع الاستقرار ، فمن الحماقة بمكانٍ كبير أن يُعرِّض أ الزوجين العشرة للانهيار؛ نتيجة شذوذ ، أو خَطَل ، فالقسوةُ لا تستطيع تُروِّض الشارد ، ولا أن تقوِّم الحرون ، بل الكلمة الطيبة تُهذِّب النفس ، وتد الآخرين ـ في الأغلب ـ إلى الرجوع إلى جادَّة الصواب.

والناظر في السنة النبوية الشريفة يلحظ بكل وضوح أنَّ المرأة المسلمة نال كثيراً من الحقوق ، وبَدَتْ شخصيتُها قوية ، ماثلة للعيان ، وكانت معاله لا تخفى على أحد ، والنصوصُ صريحة في ذلك ، ولنقفْ ـ بعون الله ـ ع

(١) نحو أسرة مستقرة ، لمحمد السمان (٣٢ ـ ٣٣).

بعض معالم شخصية المرأة في عهد النبي ﷺ.

معالم شخصية المرأة في عهد النبي ﷺ:

١ ـ الشخصية المستقلة والإرادة الكاملة:

مِنْ أهم المظاهر التي اتَّصفت بها المرأةُ في العهد النبوي؛ أنها برزت من خلال شخصية متميزة، لها استقلاليتها، وبصماتها الخاصَّة، فعبَّرت عن آرائها، وطالبت بحقوقها، وتكلمت بقوة، وكانت تصل الرحم، وتودّ أقاربها، وتتصدَّق من مالها الذي تملكه، والأمثلة على ذلك كثيرة، نُورد منها ما يلي:

*** حوار لإحقاق الحق:**

عن أبي موسى، قال: بَلَغَنا مَخْرجُ رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأَخَوانِ لي، وأنا أصغرُهما، أحدُهما: أبو بُرْدَة، والآخر: أبو رُهْم. فركبنا سفينةً، فألقتنا سفينتُنا إلى النَّجاشيِّ بالحبشة، فوافَقْنا جعفرَ بن أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إنَّ رسولَ الله ﷺ بَعَثَنا هاهنا، وأَمَرَنا بالإقامة، فأقيما معنا. قال: فأقمنا معه حتى قَدِمْنا جميعاً. قال: فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر، فأَسْهَمَ لنا، وما قَسَم لأحدٍ غاب عن فتح خيبر منه شيئاً؛ إلا لمن شَهِد معه؛ إلا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قَسَمَ لهم معهم. قال: فكان ناسٌ من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ: سبقناكم بالهجرة! قال: فَدَخَلَتْ أسماء بنتُ عُمَيْس ـ وهي ممَّن قَدِم معنا ـ على حفصة زوج النبي ﷺ زائرةً ـ وقد كانت هاجرتْ إلى النجاشي فيمن هاجر إليه ـ فدخل عمرُ على حفصة وأسماءُ عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: مَنْ هذه؟ قالتْ: أسماءُ بنت عُمَيْس. قال عمر: الحبشيةُ هذه؟ البحريةُ هذه؟! فقالت أسماء: نعم. فقال عمر: سَبَقْناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم. فَغَضِبَتْ، وقالت كلمةً: كَذَبْتَ يا عمر، كلا، والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويَعظُ جاهِلَكم، وكُنَّا في دارِ البُعَدَاء البُغَضَاء في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله. وايْمُ اللهِ، لا أَطْعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً حتى أَذْكُرَ ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كُنَّا نُؤْذَى ونُخاف. وسأذكُرُ ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله. وواللهِ لا أكذبُ، ولا أزيغ، ولا أزيد على ذلك. قال: فلما جاء النبيُّ ﷺ قالت:

يا نبيَّ الله ! إنَّ عمرَ قال كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأحقَّ بي منكم له ولأصحابه هجرةٌ واحدة ، ولكم أنتم أهلَ السَّفينة هجرتان». قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحابَ السفينة يأتوني أرسالاً ، يسألوني عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيءٌ هُمْ به أفرح ، ولا أعظمُ في أنفسهم مِمَّا قال لهم رسولُ الله ﷺ[١].

* شهود صلاة الجماعة دون رضا الزوج:

عن ابن عمر قال: كانت امرأةٌ لعمر تشهدُ صلاة الصُّبح والعِشاء في الجماعة في المسجد ، فقيل لها: لِمَ تخرجين وقد تعلمين أنَّ عمرَ يكرهُ ذلك ، ويغار؟ قالت: وما يمنعه أنْ ينهاني؟! قال: يمنعهُ قولُ رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله»[٢].

وهذه المرأةُ سمَّاها الزهري فيما أخرجه عبد الرزاق ، عن معمر ، عنه قال: كانت عاتكةُ بنتُ زيد بن عمرو بن نفيل عند عمر بن الخطاب ، وكانت تشهد الصلاة في المسجد ، وكان عمرُ يقول لها: واللهِ ، إنك لتعلمين أني ما أُحِبَّ هذا. قالت: والله؛ لا أنتهي حتى تنهاني. قال: فلقد طُعن عمر وإنها لفي المسجد[٣].

* إعتاق الجارية دون إذن رسول الله ﷺ:

عن كُرَيْب ـ مولى ابن عباس ـ: أنَّ ميمونة بنت الحارث ـ رضي الله عنها ـ أخبرتْهُ أنها أعتقتْ وليدةً ، ولم تستأذنِ النبيَّ ﷺ ، فلمَّا كان يومُها الذي يدور عليها فيه ، قالت: أَشَعَرْتَ يا رسولَ الله أني أعتقتُ وليدتي؟! قال: «أَوَفَعَلْتِ؟» قالت: نعم. قال: «أَمَا إنكِ لو أعطَيتِها أخوالَكِ كان أعظمَ لأجرِكِ»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٢٣٠) ومسلم (٢٥٠٢).
«الحبشية هذه؟»: استفهام قُصِد به المطايبة والمباسطة ، فإنه كان قد علم مَنْ هي - رآها.
«كذبت يا عمر»: أخطأت في ظنّك. «أرسالاً»: مُتتابعين ، جماعة بعد جماعة.
(٢) رواه البخاري (٩٠٠).
(٣) فتح الباري (٢/ ٣٨٣).
(٤) رواه البخاري (٢٥٩٢).
«وليدة»: جارية.

* إعلان الولاء دون علم الزوج:

عن عائشة قالت: جاءت هندُ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالت: يا رسولَ الله! والله، ما كان على ظهر الأرضِ أَهْلُ خِباءٍ أحبَّ إليَّ أن يُذلَّهم اللهُ من أهل خِبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهلُ خِباءٍ أحبّ إليَّ أن يَعِزُّوا مِنْ أهل خِبائك. قال: «وأيضاً والذي نفسي بيده»(١).

* ردُّ وليِّ الأمر إلى الحق:

عن خَنْساء بنت خِدام الأنصارية: أنَّ أباها زوَّجها وهي ثيِّب، فكرهتْ ذلك، فأتتْ رسول الله ﷺ فَرَدَّ نِكاحَها(٢).

* الخروج للعمل في الأرض وهي معتدَّة:

عن جابر بن عبد الله قال: طُلِّقَتْ خالتي، فأرادتْ أن تَجُدَّ نَخْلَها، فزَجَرها رجلٌ أنْ تخرجَ، فأتتِ النَّبيَّ ﷺ، فقال: «بلى، فَجُدِّي نخلك، فإنكِ عسى أن تَصَدَّقي، أو تفعلي معروفاً»(٣).

٢ ـ الشخصية المتميزة والخصائص المتفرِّدة:

ثمة خصائص ذاتية تتصف بها المرأة، وتستقيم حياتُها وَفْقها، وهي تعطيها تميُّزاً خاصاً بها، فإذا حَدَث انحرافٌ عن تلك الخصائص، فإن الفطرة تتشوَّه، وتتصدَّع، وتتداخل الأمورُ فيما بينها؛ لذا يحثُّ الإسلام على ضرورة التفرُّد بهاتيك الخلال، والمحافظة على تلكم المكتسبات؛ لئلا تضيع كرامةُ المرأة، وكيلا تزول شخصيتها.

ونقرأُ في كتب الأحاديث النبوية نصوصاً تهب المرأة خصائص بالغة، حيث حرَّمت تشبُّه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال؛ ففي ذلك بُعْدٌ قصيّ عن الفطرة القويمة لكلٍّ من الذكر والأنثى، وفي ذلك التقليد والتشبه دمارٌ للشخصية الإنسانية، وإبعاد للإمكانيات عن مسارها، وتحويل للطاقات فيما يضرُّ ولا ينفع.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٢٥) ومسلم (١٧١٤).
«خِباء»: بيت.

(٢) رواه البخاري (٥١٣٨).

(٣) رواه مسلم (١٤٨٣) وأبو داود (١٢٩٧) والنسائي (٦/ ٢٠٩) وابن ماجه (٢٠٣٤).

فعن ابن عباس قال: لَعَنَ رسول الله ﷺ المتشبِّهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال[1] .

وفي رواية للطبراني: أنَّ امرأة مَرَّتْ على رسول الله ﷺ مُتقلِّدةً قوساً ، فقال: «لَعَنَ اللهُ المتشبِّهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء»[2] .

وفي رواية للبخاري: لَعَنَ رسول الله ﷺ المخنثينَ من الرجال ، والمترجِّلات من النساء[3] .

وعن أبي هريرة قال: لَعَنَ رسول الله ﷺ الرجلَ يَلْبَسُ لِبْسةَ المرأةِ ، والمرأ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرجل[4] .

٣ ـ تخصيص المرأة بأحكام فقهية:

شاركتِ المرأةُ الرجل في حمل التكاليف الشرعية ، فهي مسؤولة كالرجل في الدنيا والآخرة ، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] .

بَيْدَ أنَ لها أحكاماً في العبادات تتميز بها؛ ومن ورائها تكمنُ العِبَرُ والدروس والحكم ، ومن ذلك:

* تحريم الصوم على الحائض: قال رسول الله ﷺ: «أليس إذا حاضت لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟!»[5] .

والسبب: أنَّ الصومَ لا يصحُّ من الحائض؛ لأنَّ خروجَ الدم مُضْعِف والصومُ يُضعف أيضاً ، فلو أُمِرَت بالصوم لاجتمع عليها مُضْعِفان ، والشارعُ ناظر إلى حِفْظ الأبدان وسلامتها[6] .

* المرأة لا تؤذِّن بمحضر الرجال؛ وذلك خشية الفتنة. ولكن يُمكن لها

---

(١) رواه البخاري (٥٨٨٥).
(٢) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٨/ ١٠٣).
(٣) رواه البخاري (٥٨٨٦).
(٤) رواه أحمد (٢/ ٣٢٥) وأبو داود (٤٠٩٨) والنسائي في عشرة النساء (٣٧١).
(٥) رواه البخاري (٣٠٤).
(٦) المرأة في الإسلام؛ لريم الخياط (١٣٤).

تُؤذِّن بين النساء، فعن عائشة: أنها كانت تُؤذِّن، وتُقيم، وتؤمُّ النساء، وتقوم وسطهن[1].

* لا تسافر المرأة وحدها: قال رسول الله ﷺ: «لا تسافِرُ المرأةُ يومين وليلتين إلا مع زوج أو ذي محرم»[2].

وذلك للحفاظ على سُمعة المرأة، وصون كرامتها، وحمايتها من الذين في قلوبهم مرض.

٤ ـ المرأة والنشاط الاجتماعي:

يلحظ المتتبِّعُ للعهد النبوي أنَّ المرأة قد شاركت في الحياة الاجتماعية مشاركة فعَّالة، وكان لها طابعها الخاصّ؛ في مختلف المجالات التي أدَّت دورَها فيها، فكانت طليعيةً رائدة متفوقة، وليست أقلَّ من الرجل. ومن تلك الألوان الاجتماعية:

* الاحتفال بالعيد:

عن أمِّ عطية ـ رضي الله عنها ـ قالت: كُنَّا نُؤْمَرُ أن نَخْرُجَ يوم العيد، حتى نُخْرِج البكرَ من خِدْرها، حتى نُخْرِج الحُيَّضَ، فيكنَّ خلفَ الناس، فيُكبِّرْنَ بتكبيرهم، ويدعون بدعائهم، يرجون بركةَ ذلك اليوم وطُهْرَته[3].

* المشاركة في حفلات الزفاف:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أتتني أمي أم رومان، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوةٌ من الأنصار في البيت، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهنَّ، فأصْلَحْنَ من شأني، فلم يَرُعْني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه[4].

---

(١) رواه البيهقي (١/٤٠٨).
(٢) رواه البخاري (١١٩٧)، ومسلم (١٣٣٩/٤١٦).
(٣) رواه البخاري (٩٧١)، ومسلم (٨٩٠).
«خدرها»: سترها.
(٤) رواه البخاري (٣٨٩٤) ومسلم (١٤٢٢).
«على خير طائر»: على أفضل حظّ وبركة.

* **النَّـدوات الـثـقافيـة:**

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: جاءتِ امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ذَهَبَ الرجالُ بحديثك، فاجْعلْ لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه، تُعلِّمنا ممَّا علَّمك الله. فقال: «اجتمعْنَ في يوم كذا وكذا، في مكان كذ وكذا» فاجتمعْنَ، فأتاهنَّ رسول الله ﷺ فعلَّمهنَّ ممَّا علَّمه الله، ثم قال: «ما منكنَّ امرأة تُقدِّم بين يديها مِنْ ولدها ثلاثة إلا كان لها حجاباً من نار» فقالت امرأةٌ منهنَّ: يا رسول الله، واثنين؟ قال: فأعادتْها مرتين، ثم قال: «واثنين، واثنين، واثنين»[(١)].

* **الأمـر بـالمعـروف والـنهـي عـن الـمنكـر:**

عن يحيى بن أبي سليم قال: رأيت سمراء بنت نهيك ـ وكانت قد أدركتِ النبيَّ ﷺ ـ عليها دروعٌ غليظة، وخمار غليظ، بيدها سوط، تُؤدِّب الناس وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر[(٢)].

* **تمـريـض الـمرضـى والـرعـايـة الـصحيـة:**

عن خارجة بن زيد الأنصاري: أنَّ أُمَّ العلاء ـ امرأة من نسائهم قد بايعت النبيَّ ﷺ ـ أخبرته أنَّ عثمان بن مظعون طار له سهمهُ في السُّكنى؛ حين أَقْرعت الأنصارُ سُكْنى المهاجرين. قالت أمُّ العلاء: فَسَكن عندنا عثمانُ بنُ مظعون فاشتكى فمرَّضناه[(٣)].

* **مـساعـدة الـجيـران:**

عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ قالتْ: تزوَّجني الزُّبير، وماله في الأرض من مالٍ ولا مملوك، ولا شيء غير ناضِح، وغير فرسه، فكنتُ أعلِف فرسَه، وأستقي الماء، وأخرِزُ غَرْبَـهُ، وأعجنُ، ولم أكنْ أُحْسِنُ أخبزُ، وكا

---

(١) رواه البخاري (١٠١ ـ ١٠٢) ومسلم (٢٦٣٣).

(٢) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٩/ ٢٦٤).

(٣) رواه البخاري (٢٦٨٦).

«طار له سهمه»: أي: حصل نصيبنا منهم عثمان، فخرج من القرعة لنا.

يخبزُ جاراتٌ لي من الأنصار ، وكُنَّ نِسْوَةَ صِدْق[1] .

* إعـارة الملابـس فـي المنـاسبـات :

عن عبد الواحد بن أيمن قال : حدَّثني أبي قال : دخلتُ على عائشة ، وعليها دِرْعُ قِطْر ثَمَنُ خمسةِ دراهم ، فقالتْ : ارفعْ بَصَرَكَ إلى جاريتي ، انْظُر إليها ، فإنَّها تُزْهَى أن تلبَسه في البيت ، وقد كان لي منهنَّ دِرْعٌ على عهد رسول الله ﷺ ، فما كانتِ امرأةٌ تُقَيَّنُ بالمدينة إلاَّ أرسلتْ إليَّ تستعيره[2] .

* تُـهـدي الـهدايـا فـي المنـاسبـات :

عن أنس بن مالك قال : تزوَّج رسول الله ﷺ فَدَخَل بأهله ، فَصَنَعَتْ أمي أمُّ سُلَيْم حَيْساً ، فجعلتْهُ في تَوْرٍ ؛ فقالت : يا أنسُ ، اذْهَبْ بهذا إلى رسول الله ﷺ ، فَـقُـلْ : بَعَثَتْ بهذا إليك أمي ، وهي تُقرئك السلام ، وتقول : إنَّ هذا لكَ مِنَّا قليل يا رسول الله[3] ! .

* تـعمل وتـتـصدَّق :

عن عائشة أمِّ المؤمنين قالت : قال رسول الله ﷺ : «أسرعُكُنَّ لَحَاقاً بي أَطْوَلُكُنَّ يداً» . قالت : فَكُنَّ يتطاولن أَيَّتُهُنَّ أطولُ يداً . قالت : فكانت أطولَنا يداً زينبُ ؛ لأنها كانت تعمل بيديها وتصدَّق[4] .

* تُـقـدِّم الـمشورة وتُـوجِـد حـلاًّ للأزمـة :

عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ومروان ـ يُصدِّق كلُّ واحدٍ منهما حديثَ صاحبهِ ـ قالا : خَرَج رسول الله ﷺ زمن الحديبية . . . فجاء سُهَيْل بن عمرو ، فقال : هاتِ

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢٤) ومسلم (٢١٨٢) .
«غربه» : هو الدلو الكبير .
(٢) رواه البخاري (٢٦٢٨) .
«درع» : هو قميص المرأة . «قطر» : ثياب من غليظ القطن . «تزهى» : تأنف أو تتكبر . «تقين» : تزيّن .
(٣) رواه مسلم (١٤٢٨/ ٩٤) .
«حيساً» : هو الأقط يُخلط بالسمن والتمر المنزوع النوى ثم يُدلك باليد حتى يصير كالثريد . «تور» : إناء من حجارة .
(٤) رواه البخاري (١٤٢٠) ومسلم (٢٤٥٢) .

اكتُبْ بيننا وبينكم كتاباً. فدعا النبيُّ ﷺ الكاتبَ... فلما فَرَغَ من قضيَّة الكتاب قال رسول الله ﷺ: «قُومُوا فانحروا ثم احْلِقُوا». قال: فوالله ما قامَ منهم رجلٌ، حتى قال ذلك ثلاثَ مرات، فلما لم يَقُمْ منهم أحدٌ؛ دَخَل على أُمِّ سَلَمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالتْ أمُّ سلمة: يا نبيَّ الله! أتحبُّ ذلك؟ اخرُجْ، ثم لا تُكلِّمْ أحداً منهم كلمةً حتى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وتدعو حالقَك فيحلقك، فخرج فلم يُكلِّمْ أحداً منهم حتى فعل ذلك... فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجَعَل بعضُهم يحلقُ بعضاً[1].

٥ ـ المرأة والأسرة في عهد النبوة:

رَعَتِ السنةُ النبوية الأسرة رعايةً عظمى، وأولتها عناية كبرى؛ باعتبارها النواة الأساس لبناء المجتمع، ولا تكون أسرةٌ من دون زواج، ولذلك رغَّب ﷺ بالنكاح، فقال: «مَنْ أحبَّ فِطْرتي فليستنَّ بِسُنَّتي، ومن سُنَّتي النكاح»[2].

وأيّد ﷺ تزويج الشاب ذِي الدين والخُلُق والأمانة، فهي الصفات الواجب توافرها، ومِنْ دونها لا يوجد استقرار ولا أُسَر هانئة. قال ﷺ: «إذا أتاكم مَنْ تَرضَوْن خُلُقَه ودِينَه فزوِّجوه؛ إلا تفعلوا تكنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريض»[3].

فالخُلُق الكريم يُحسِّن المعيشة، ويجعل لها طعماً أحلى من العسل، إذ يتغلَّب الأخلاقيُّ على المشكلات كافة، ويتجاوز الصعوبات بصبره، وحلمه، وأناته.

والمتمسِّكُ بدينه حَسَن المعاشرة، طيِّب الكلام، جيِّد السلوك، يؤدي ما عليه من حقوق خوفاً من الله عز وجل، فهو يدرك أن الخالق سبحانه يراقبه في كل حين؛ مما يدفعه ليكون الزوج الصالح، والإنسان الإيجابي.

والزواجُ يعصمُ الذكر والأنثى من الانزلاق في الفساد، فهو الحرز المكين والمانع من ارتكاب المخالفات. قال ﷺ: «مَنْ تزوَّج فقد استكمل نصفَ

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١ و٢٧٣٢).

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده (٢٧٤٩) والبيهقي (٧/٧٨) وانظره في مجمع الزوائد (٤/٢٥٢) والمطالب العالية (١٥٨٦).

(٣) رواه الترمذي (١٠٨٤) وابن ماجه (١٩٦٧).

الإيمان ، فليتَّقِ اللهَ في النصفِ الآخر»[1].

ولطالما وَقَفْنا أمام حديثٍ نبويٍّ يربِّي الناس ـ وكل الأحاديث النبوية غاية في التربية ـ ويدعوهم إلى الزواج الشرعي؛ تحصُّناً من المفاسد ، وتحرُّزاً من الجنوح ، قال ﷺ: «إنَّ سُنَّتنا النكاح. شرارُكم عزَّابكم ، وأراذل موتاكم عزَّابكم. أبالشيطان تمرَّسون؟! ما للشيطان من سلاحٍ أبلغ في الصالحين من النساء إلا المتزوِّجون ، أولئك المطهرون ، المبرؤون من الخنا»[2].

والخطاب ـ هنا ـ موجَّه إلى الرجل والمرأة.

والمرأة الصالحة طريق إلى السعادة ، وباب من أبواب الخير ، مَنْ ولجه نال المنى وحقق المطلوب ، ومن شرد فقد نأى عن سُنَّة المصطفى عليه الصلاة والسلام. قال ﷺ: «أربعٌ من سعادة المرء: أن تكون زوجته صالحة ، وأولاده أبراراً ، وخُلطاؤه صالحين ، وأن يكون رزقهُ في بلده»[3].

والمرأة المؤمنة تُعين على أَمْر الآخرة ، بحيث تكون مساعدةً لزوجها المؤمن في السَّراء والضراء ، إن غَفلَ ذكَّرته ، وإن ذَكَر أعانته ، وطلبت منه المزيد من الشكر والسعي لِفِعْل الخير ، وانتهاج طريق الصواب ، فهي كالمراقب الذي يرصد عُمَّاله ، ويُوجِّههم ، ويُشاطرهم آمالهم وآلامهم.

فعن ثوبان قال: لمَّا نزلتِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] قال: كُنَّا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره ، فقال بعضُ أصحابه: أُنْزل في الذهب والفضة ما أُنْزِل ، لو عَلِمْنا أيّ المال خيرٌ فَنَتَّخِذَه؟ فقال: «أَفْضَلُهُ: لسانٌ ذَاكِر ، وقلبٌ شاكر ، وزوجةٌ مؤمنة تُعينهُ على إيمانه»[4].

وعن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «قلبٌ شاكر ، ولسان ذاكر ، وزوجةٌ صالحة تُعينك على أمر دنياك ودينك ، خير ما اكتنز الناس»[5].

---

(١) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٤/ ٢٥٢).
(٢) رواه أحمد (٥/ ١٦٣).
(٣) انظره في فيض القدير (٢/ ٤٦٦).
(٤) رواه أحمد (٥/ ٢٨٢) والترمذي (٣٠٩٤).
(٥) رواه البيهقي كما في فيض القدير (٤/ ٥٢٥).

ولم يكتفِ ﷺ لبناء الأسرة، وتحقيق سعادة الفرد، ونماء المجتمع، لم يكتفِ بمجرد الدعوة إلى الزواج، بل سعى ﷺ لتزويج طائفة من الصحابة الكرام، فعن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ: «ادْعُوا لي مَحْمِيةَ ونوفلَ بن الحارث بن عبد المطلب» فجاءاه، فقال لمَحْمِيَةَ: «أَنْكِحْ هذا الغلامَ ـ أي: الفضل بن عباس ـ ابنتَكَ» فأنكحه. وقال لنوفل بن الحارث: «أَنْكِحْ هذا الغلامَ ابنتَكَ» فأنكحني[1].

وعن فاطمة بنت قيس؛ أن رسول الله ﷺ قال لي: «انْكِحي أسامةَ بن زيد» فنكحتهُ، فجعل اللهُ فيه خيراً، واغتبطتُ[2].

وجَعَل ﷺ من حق عُمَّال الدول أن يتزوَّجوا على حساب بيت المال؛ لما في ذلك من عوائد صالحة على الفرد الموظف، والمجتمع ككل. فعن المستورد بن شداد قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ كان لنا عاملاً فليكتسبْ زوجة، فإنْ لم يكنْ له خادم فليكتسبْ خادماً، فإن لم يكنْ له مسكن فايكتسبْ مسكناً»[3].

وكانت قضية الزواج وبناء الأُسَر تشغلُ حيزاً واسعاً من السنة النبوية، فدعا ﷺ إلى تيسير المهر، وجعله خفيفاً، فقال ﷺ: «إنَّ مِنْ يُمْن المرأة: تيسيرَ خطبتها، وتيسيرَ صداقها، وتيسيرَ رحمها»[4].

وقال أيضاً: «أعظمُ النساء بركةً أيسرهنَّ مؤونة»[5].

ولمَّا كانت الخطبةُ تمهيداً للزواج، ومدَّة مؤقّتة لتحقيق التوافق والانسجام، وتقريب وجهات النظر، ومعرفة كل من الذكر والأنثى بالآخر معرفة تساعد على وَضْع الخطوات المنهجية لبناء الأسرة على أسس مدروسة، ومِنْ هنا دعا رسولُ الله ﷺ للنظر إلى المخطوبة، والتعرُّف على ملامحها، وطريقة كلامها، إلى ما هنالك مما يستدعي تحقيق وجهة النظر الشرعية بحضور أحد محارم

---

(١) رواه مسلم (١٠٧٢).
(٢) رواه مسلم (١٤٨٠).
(٣) رواه أبو داود (٢٩٤٥).
(٤) رواه أحمد (٦/ ٧٧).
(٥) رواه أحمد (٦/ ١٤٥).

المرأة. قال ﷺ: «إذا خَطَب أحدُكم امرأةً فلا جُناح عليه أن ينظرَ إليها»[1].

وعن المغيرة بن شُعبة أنه خَطَب امرأةً، فقال له رسول الله ﷺ: «أنظرتَ إليها؟» قال: لا، قال: «انظر إليها؛ فإنه أَحْرى أن يُؤْدَمَ بينكما»[2].

أمّا الخلوة بالمرأة الأجنبية فأمرٌ محرَّم؛ لما يقود إليه من شرّ وفساد، وكثير من الناس لا يضبطون أفعالَ أبنائهم وبناتهم، فيتركون الحبلَ على الغارب، وبعدها يقع ما لا تُحمدُ عقباه. ورسول الله ﷺ يقول: «لا يخلون رجلٌ بامرأة لا تحلُّ له؛ فإن ثالثهما الشيطان»[3].

وليس الزواج أمراً قسرياً، تُرغم فيه الفتاةُ على الاقتران بشاب لا ترغب فيه، ولا تطمئن إليه، فَمَنعَ الإسلامُ إكراه المرأة، أو إجبارها على قبول مَنْ لا توافق عليه. قال ﷺ: «الأيِّم أحقُّ بنفسها من وليِّها، والبِكْرُ تُستأذَن في نفسها، وإِذْنُها صماتُها»[4].

فإن استعمل الوليُّ سلطته في غير محلِّها حُقَّ للمرأة أن تعترض وتُمانع، فالرضا شرطٌ في الزواج، والإسلام يحترم مشاعر الأنثى؛ وذلك لتقوم الأسرة على أسس متينة، ولتستقيم الحياة الزوجية بموجب الرضا وحُسْن الاختيار.

عن بُرَيْدة قال: جاءتْ فتاةٌ إلى النبي ﷺ فقالت: إنَّ أبي زوَّجني ابنَ أخيه ليرفعَ بي خَسِيْسَتَهُ. فجعل الأمرَ إليها، فقالتْ: قد أَجَزْتُ ما صَنَعَ أبي، ولكنْ أردتُ أن تَعْلَمَ النساءُ أنْ ليس إلى الآباء من الأمر شيء[5].

واهتمَّتِ السُّنَّةُ النبوية بالأسرة وإصلاحها، والعناية بشؤونها، حتى الدقيقة منها؛ وذلك إيماءةٌ إلى الدور التربوي الذي تقوم به الأسرة، وهي تختارُ الأسلوبَ الحكيم؛ الذي يضمنُ سلامة التربية، ويقي الأولاد من العراقيل والسلبيات.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٢٤).

(٢) رواه الترمذي (١٠٨٧) والنسائي (٦/ ٦٩ ـ ٧٠) وابن ماجه (١٨٦٥).

(٣) رواه أحمد (١/ ٢٦ و٣/ ٤٢٦).

(٤) رواه أحمد (١/ ٢١٩) ومسلم (١٤٢١) وأبو داود (٢٠٩٨) والترمذي (١١٠٨) وابن ماجه (١٨٧٠).

(٥) رواه أحمد (٦/ ١٣٦) والنسائي (٦/ ٨٧) وابن ماجه (١٨٧٤).

ومن هنا نؤكِّد على دور المرأة في غَرْس السجايا الغرَّاء ، والخلائق الطيبة الحسنة في كوامن نفوس أبنائها؛ ولذا يتوجَّبُ على الرجل أن يُحْسِنَ الاختيار ، فتكون صفاتُ زوجه وَفْق مقاييس الشرع الصائب ، والحكمة الرفيعة ، وبذا يُـوْقَ المجتمعُ من الفتنة والفساد .

وحِرْصاً على المرأة ، وسدّاً لأقاويل أهل الفتن ، وتخرُّصات المرضى في قلوبهم ، كانت الدعوةُ إلى إخفاء الخطبة ، فإذا لم يتمَّ التفاهم بين الرجل والمرأة ، فإنهما ينفصلان بهدوء ، ودون إثارةٍ للشكوك ، أو ترك مجالٍ للثرثرة ، وتأليف قصصٍ لا أصل لها من الصحة .

قال ﷺ: «أظْهِروا النّكاحَ ، وأخْفُوا الخِطْبَةَ»(١) .

وفَرَضَ الشرعُ الحكيمُ المهرَ؛ لتأليف قلب المرأة ، وزرع بذور المودة والوئام ، فهو نوعٌ من الهدية في بداية الزواج ، ولا يأخذ المهرُ قيمته من مقداره وضخامته ، بل بما يحمله الرجل من مشاعر صادقة ، ورغبة أكيدة في إكرام المرأة .

وخيرُ المهور ما كان يسيراً ، فبمقدار ما يكون خفيفاً يدلُّ على يُمْن المرأة وبركتها ، قال ﷺ: «خيرُ الصَّداق أَيْسَرُه»(٢) .

فليست المرأةُ سلعةً تُباع وتُشرى ، والذي يدفع مبلغاً أكبر يحظى بها ، وقد أنكر رسول الله ﷺ على مَنْ غالى في المهر ، وأكثر فيه من دَفْع المال؛ حتى أدخلَ نَفْسَه في مشقةٍ تعرَّض للسؤال بسببها. فعن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إني تزوَّجْتُ امرأةً من الأنصار ، فقال له النبيُّ ﷺ: «على كم تزوَّجتَها؟» قال: على أربع أواق. فقال له النبيُّ ﷺ: «على أربع أواقٍ؟! كأنما تنحتون الفضة من عُرْض هذا الجبل. ما عندنا ما نعطيك ، ولكن عسى أن نبعثك في بعثٍ تُصيبُ منه»(٣) .

ولو نظرنا في مقدار المهور التي قدَّمها ﷺ لأزواجه؛ لرأينا مقدار حرص

---

(١) رواه الديلمي كما في فيض القدير (١/ ٥٤٩).
(٢) رواه الحاكم (٢/ ١٨٢).
(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٩٩) ومسلم (١٤٢٤/ ٧٤ و٧٥) والنسائي (٦/ ٦٩).
«أوقية»: وهي تعادل (١٢٥) غ.

رسول الله ﷺ على بناء الأُسَر السعيدة ، التي تعتمد في بنائها على صفات المرأة الحسنة ، واختيار الرجل المناسب ، مع الحرص على الكفاءة بأوسع معانيها ، فليس بالمال وحده يحيا الإنسان ، بل بالإيمان ، والخُلُق الكريم ، والإخلاص ، والمودة ، والتفاني . . .

عن أبي سَلَمةَ بن عبد الرحمن قال: سُئِلَتْ عائشةُ زوجُ النبيِّ ﷺ: كم كان صَداقُ النبي ﷺ؟ قالتْ: كان صداقُه لأزواجه اثنتي عَشْرة أوقيةً ونَشّاً ، قالت: أتدري ما النشُّ؟ قال: قلتُ: لا أدري. قالت: نصف أوقية. فتلك خمسُمئة درهم. فهذا صداقُ رسول الله ﷺ لأزواجه(١).

وهذا القولُ من عائشة إنما هو أخبارٌ عن غالب أزواج النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ صفيَّة مِنْ جُملة أزواجه ﷺ ، وأَصْدَقَها نَفْسَها حيث أعتقها ، وزينب بنت جحش لم يُذكر لها صداق ، وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان أَصْدَقَها النجاشيُّ أربعة آلاف درهم ، فقد خَرَج هؤلاء من عموم قول عائشة رضي الله عنها(٢).

وسنتحدث بالتفصيل عن مقدار المهر ، ونماذج عنه في عهد النبي ﷺ؛ في الباب الرابع من هذا الكتاب ، الفصل الأول ، بعنوان: غلاء المهور.

ثم إنَّ الزواجَ عقدٌ مُنظَّمٌ بين الزوجين؛ لبناء أسرةٍ مؤسَّسة على شروط خاصة ، جَعَلها الله عز وجل عهداً وثيقاً ، فقال: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] وهو ما أشار إليه النبيُّ ﷺ بقوله: «أخذتموهنَّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله»(٣).

ودَعَتِ السُّنَّةُ النبويةُ إلى مراعاة عدَّة أمور في عَقْد الزواج ، ومنها:

*** رضا المرأة وحريتها في اختيار الزوج:**

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُنكح الأيِّم حتى تُستأمر ،

---

(١) رواه مسلم (١٤٢٦) وأبو داود (٢١٠٥) والنسائي (٦/١١٦ ـ ١١٧).
(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم؛ للقرطبي (٤/ ١٣٤).
(٣) رواه مسلم (١٢١٨).

ولا تُـنكح البِكْـرُ حتى تُستـأذن» قالوا: يا رسولَ الله ! وكيف إِذنُهـا؟ قال: «أن تَسْكُت»[1].

*** إذن الـولـي:**

عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نِكاحَ إلاَّ بوليٍّ»[2].

والمهم في الأمر: موافقةُ الوليِّ على عَقْد النكاح ، فيكون العقدُ بدايةً لحيا تعاونٍ وثيقة ، وعلاقات التحام قوية ، فالمصاهرةُ نوعٌ من القرابة ، وسعاد المرأة مرهونة بودِّها لزوجها ، فإنْ زُوِّجت بمن لا ترضاه ، كان ذلك إعناتاً لها . وإن تزوَّجت بمن لا يقبلهُ أهلُها ، أغضبت أباها وأمها ، وفي إرضائهما كل المعروف والبرِّ والإحسان.

وإنَّ اشتراط الولاية في النكاح المقصدُ منه: ألاَّ تضعَ المرأةُ نفسَها في حجر غير كفء؛ لذا فإنَّ تعاونَ الأهل مع ابنتهم على حُسْن الاختيار ، يُحقِّق سعاد زوجية في ظِلِّ الإسلام[3].

*** إعـلان الـزواج:**

قال رسول الله ﷺ: «أعْلِنُوا هذا النكاح ، واجعلوه في المساجد ، واضْرِبُو عليه الدفوف»[4].

*** وليمة الزواج:**

عن أنس قال: ما أولم رسول الله ﷺ على شيء من نسائه ما أَوْلَمَ على زينب أَوْلَمَ بشاة[5].

وبلغ من حرص النبي ﷺ على إقامة وليمة العرس ، أنه أقامها ، ودعا الناس إليها وهو في سَفَر ، فقد قال أنس رضي الله عنه في قصة زواجه ﷺ بصفية: حتى

---

(١) رواه البخاري (٥١٣٦) ومسلم (١٤١٩).
(٢) رواه الترمذي (١١٠١) والدارمي (٢/ ١٣٧).
(٣) المرأة في الإسلام؛ لريم الخياط (٤٢).
(٤) رواه أحمد (٤/ ٥) والترمذي (١٠٨٩).
(٥) رواه البخاري (٥١٦٨) ومسلم (١٤٢٨/ ٩٠ و٩١).

إذا كان بالطريق جَهَّزَتْها له أمُّ سُلَيْم ، فأهدتها له من الليل ، وفي الصباح قال: «مَنْ كان عنده شيءٌ فليجئ به».

قال أنس: وَبَسَط نِطَعاً ، فجعل الرجلُ يجيءُ بالأَقِط ، وجعل الرجلُ يجيءُ بالسَّمن ، وجعل الرجل يجيء بالتمر ، فَحَاسُوا حَيْساً ، فجعلوا يأكلون من ذلك الحَيْس ، ويشربون من حياضٍ جنبهم من ماء السماء ، فكانت وليمة رسول الله ﷺ[1].

كما بيَّنتِ السُّنةُ النبوية المسؤوليات في الأسرة ، ووزَّعتها توزيعاً عادلاً ، بحيث يقوم كل من الزوجين بواجباته على أكمل وجه ، وأتم صورة.

فمن المسؤوليات الملقاة على عاتق الرجل:

أ ـ القوامة:

وتعني أن تكون رئاسةُ البيت ، وإدارة الشؤون العامة؛ مِنْ قِبَل الرجل ، فهو يتحمَّل الرعاية الكبرى للأسرة ، ويُوجِّه نظامَ البيت حسب قواعد الشريعة ، ونُظُم الدين ، فالرجل مُكلَّف بالنفقة ، وهي قضية تستدعي بذل جهد كبير ، وتحمُّل عناء طويل ، وهذا ما جعل الرجل له مزايا خاصة ، قال عز وجل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

ب ـ الإنفاق:

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ولهنَّ عليكم رِزْقُهُنَّ وكسوتهن بالمعروف»[2].

أما مسؤوليات المرأة فهي متعددة ، واسعة الجوانب ، تكمل مسؤوليات الرجل ، وكلٌّ منهما يتعاون مع الآخر لبناء الأسرة ، وتعزيز مسيرتها. فمن مسؤوليات المرأة:

---

(١) رواه البخاري (٣٧١) ومسلم (١٣٦٥).
(٢) رواه مسلم (١٢١٨).

أ ـ رعاية الأطفال وتربيتهم التربية السليمة القويمة ، وتدبير شؤون المنزل:

عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ أنه قال: «. . . والمرأة راعيةٌ على بيت بَعْلِها وولده ، وهي مسؤولةٌ عنهم»(١) .

ب ـ التعاون في الإنفاق:

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال لزينب ـ امرأة ابن مسعود ـ: «زوجك وولدُك أحقُّ مَنْ تصدَّقت به عليهم»(٢) .

إنَّ أسرة ربّاها رسول الله ﷺ ، وغذّاها بتعاليمه وآدابه وتشريعه الحكيم ، لهي أسرةٌ جديرة بالحياة والتقدم والازدهار. وإنَّ نظرة فاحصة لأُسَر الرعيل الأول في صدر الإسلام تُنبىء عن تأثير الإسلام في تلك الأُسَر ، وكيف عاد بها الدينُ الحنيف إلى الفطرة السليمة ، والنهج القويم؛ فالإسلام فِكْر وسلوك ، ونظام وهداية ومساواة في أصل الإنسانية ، والخِلْقة ، والكرامة ، والإيمان بالله تعالى ، والقيام بالتكاليف الشرعية ، والتربية ، والتهذيب ، والأخلاق ، والعقوبات. . .

فالمرأة والرجل يقومان بالرعاية المثلى للأسرة ، ويبذلان قصارى جهدهم لرعاية الأولاد ، والاعتناء بأمور البيت؛ بقلبٍ مفتوح ، وبصيرة منوّرة ، فالزواج سَكَنٌ ، واستقرار ، وطمأنينة ، والزوجان مُؤَسِّسان لأركان الخلية النواة ، وهي الأسرة ، ففيها سينشأ أطفالٌ يدرجون في رحاب الحياة ، وهنا يأتي دور الأ والأب لإشاعة الأمن ، والتفاهم ، والحب الصافي.

وإن أسرةً تُطبِّق شرعَ الله عز وجل ، وتتعامل بهدي الإسلام ، لهي أسر هانئة ، سعيدة ، تعرف حقوقها ، وتدرك واجباتها ، ويقوم الزوجان بصدق لا يُوصَف في تفهُّم الأمور ، والوصاية بالبيت بوعي تام ، وحكمة هادية ، فإذ ما حدثت فورةُ غضب ، سرعان ما يقوم الرجل والمرأة بإطفاء تلك النار ، ووقاي

(١) رواه مسلم (١٨٢٩).
(٢) رواه البخاري (١٤٦٢).

الأسرة من فكِّ روابطها ، أو خلخلة عُراها؛ لنزوة متقلِّبة ، أو طيش عارض.

إن عُقْدة الزواج أكبر من أي سُعار ، أو هياج ، وإنَّ صَدْرَ الزوجين لجدير بتحمُّل كل ضغط مهما بلغ عُنْفُه وثقله؛ لأنَّ الهدف الأخير هو المحافظة على البيت المسلم ، وحمايته من التصدع ، وجَعْلُ الخير والصلاح والصواب يحفُّه من كل جانب ، فإن ألقى رجلٌ اللومَ على زوجه ، فليذكرْ قولَ المصطفى ﷺ: «لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنة ، إنْ كره منها خُلُقاً رضي منها آخر»(١).

ثانياً ـ أمهات المؤمنين في بيت رسول الله ﷺ:

مهما تحدَّث المرءُ عن المرأة الصالحة ، والزوج الصالح ، ومهما استفاض في حديثه عن مقومات الأسرة النموذجية ، فإنَّ الحديث عن أسرةٍ واقعية له تأثير أكبر ، وأشدّ عمقاً ، وأينع ثماراً.

فالقدوة والأسوة لا يمكن تمثُّلهما بجدية ، إلا إن وَجَد المقتدي النبراسَ الذي يستضيء به في دروب الفكر والحياة ، ومَنْ كأُسَر رسول الله ﷺ في حُسْن الخُلُق ، والبرَّ ، والإحسان ، والتفاعل المستمر الحيِّ مع التشريع ، بينما كان المشرفُ رسول الله ﷺ يُربِّي نساءه ، ويُثير مكامنَ إمكانياتهن الذاتية؛ فيشتد الارتباطُ بالإسلام ، وتقوى صلاتُهن مع السلوك المعتدل ، والقول الصائب ، والـفِعْـل الجميل.

ومَنْ كرسول الله ﷺ؟! فهو الزوج الودود؛ الذي وجَّهته العنايةُ الإلهية ، ورَعَتْه بعينها الساهرة ، فقال عز وجل: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨] فكان النبيُّ الكريم ﷺ أسوةً للمؤمنين. قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وكانت أخلاقهُ ﷺ في المقام الأسمى ، قال جلَّ جلالهُ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وكانت أُسَرُ أمهات المؤمنين رائدةً في ميدان الخير ، وحُسْن التعامل ، والتوجيه الأمثل ، وكانت تلك البيوت رحيقَ حنان وألفة ، ومأوى رعاية وأمومة ، ومعهد علم وتبليغ أحكام الشريعة ، ومركز عبادة وخشوع ، وقد

---

(١) رواه مسلم (١٤٦٩).
«لا يفرك»: لا يُبغض.

تجسَّدت في هاتيك الأسر كلُّ معاني التكافل والتعاون ، فساد السلامُ والأمن وبرز الود والمحبة ، وخفقت بنودُ السعادة ورايات الهناءة.

وفي الصفحات التالية سنتحدث عن أخبار بعض أمهات المؤمنين ، بما يرسـ أبعاد التعامل الأُسري؛ بقصد تمثُّل الأقوال ، وترجمة الأفعال ، والتفاعل مـِ الصفات والأخلاق والقيم والمُثُـل.

(١) خديجة بنت خُوَيلد

*** التِّجارةُ الرَّابحةُ:**

كانت خديجةُ بنتُ خويلد ـ رضي اللهُ عنها ـ امرأةً ذاتَ تجارةٍ، تبعثُ بها إلى الشام مع قوافل قُريش، وكانت تستأجرُ الرِّجالَ لقاء مبلغٍ من المال، فيذهبون ليبيعوا البضائع، ويشتروا بضائع أخرى يحتاجون إليها، ثم يعودوا إلى مكَّة بالأرباح الوافرة، والخيرات الكثيرة.

وكان سيِّدُنا محمد ﷺ في مطلع شبابه يُعْرَفُ بـ «الصَّادق الأمين»، وبَلَغَ خَديجةَ مِنْ أخلاقه العظيمة، وأمانتِه المشهودِ لها، وحديثِه الصَّادق؛ ما جَعَلها تُرْسِلُ إليه كي يكونَ على رأس تجارتها إلى الشام، مع الشُّكر العميم، والأَجْر الجزيل.

خَرَج رسولُ الله ﷺ مع مَيْسَرة ـ غلام خديجة ـ حتى قَدِم الشَّام، فباع واشترى، وعاد بربحٍ أوفر مِنْ كلِّ الرِّحلات التِّجاريَّة السَّابقة؛ التي قامتْ بها خديجة، وتحدَّث مَيْسَرةُ عن صفات النَّبيِّ الكريمة؛ ممَّا زاد خديجة إعجاباً به، واحتراماً له ﷺ.

*** الرَّغبةُ المباركة:**

ذهبتْ خديجةُ ـ رضي الله عنها ـ إلى ابن عمِّها ورقة بن نوفل ـ وكان رَجُلاً عالِماً ـ فأخبرَتْه بأنباء محمد ﷺ، وما فَعَلَه في تجارتها مِنْ: أمانةٍ، وقدرةٍ فائقةٍ في التَّعامل الجيِّد مع الآخرين، وإحراز الرِّبح الوافر، إضافةً إلى تظليل الغمام فوق رأسه الشَّريف، وغير ذلك مما رآه مَيْسَرةُ بنفسه. قال ورقةُ: إنْ كان هذا حقّاً يا خديجةُ! فإنَّ محمداً نبيُّ هذه الأمَّة المنتظَر.

غادرت خديجةُ منزلَ ابنِ عمِّها وَرَقة، وعادتْ أَدْراجَها إلى بيتها، وأطيافُ الذِّكريات تداعبُ ذهنها، وتملأ نَفْسَها فرحاً غامِراً، وأُنْساً، وسروراً. وخَطَر في بال خديجة أن يكون محمدٌ ﷺ زوجاً لها، ولِمَ لا؟! إنَّه خيرُ الرِّجال، وأصدقُهم لهجةً، وأوفاهم ذِمَّةً، وأعلاهم مكارم أخلاق، والناسُ يُحبُّونه؛ لِما يتمتَّعُ به من خِصال حميدة، وصفات رائعة.

وبدلاً من أنْ يكونَ محمدٌ ﷺ تاجراً لخديجة، لِمَ لا يكونُ زوجاً لها؟!

فأرسلتْ خديجةُ صديقتها «نُفَيْسة» إلى محمد ﷺ لتعرفَ موقفَه، ومكانتها عنده.

ذهبتْ «نُـفَيْسةُ» إلى محمدٍ ﷺ، وعَرَضتْ عليه الأمرَ، فوافق، وكان عُمر خديجة أربعين عاماً، ورسولُ الله ﷺ ابنُ خمس وعشرين ربيعاً.

* الـزَّواجُ الميـمـون:

حضَرَ أعمامُ رسولِ الله ﷺ، وصديقاه أبو بكر، وعمَّار بن ياسر، كما حَضَر ورقةُ بنُ نوفل، وابن أخي خديجة: حكيم بن حزام، واجتمع الجميعُ في بيت خديجة يطلبون يَـدَها لمحمد ﷺ. وتمَّ القبولُ مِنَ الطَّرفَيْن، وأُقيم الاحتفالُ بعد فترة، وسُرَّتْ خديجةُ أتمَّ السُّرورِ بهذا الزَّواج المبارك، ورفرفتِ السَّعادةُ الزَّوجية في بيت الطَّاهرةِ خديجة، والنَّبيِّ محمد ﷺ؛ الذي كان لطيفَ المعشر، عطوفاً على زوجه، مُحِبّاً لها، كريماً، خيِّراً. أليس هو القائل: «خيرُكم: خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي»[1]؟!

أحبَّتْ خديجةُ زوجَها محمداً ﷺ حُبّاً شديداً، وراحتْ تهيِّىء له أسبابَ الرَّاحة النَّفسية، وبذلتْ كلَّ ما تملكُ ليكون سعيداً معها، ولم تبخلْ عليه بعواطفها، ومشاعرها، ومالها، فوهبته قلباً راضياً، ونَفْساً وضيئةً، ويداً كريمة، عساه يكون سعيداً مُستبشِراً. وهل تُريدُ المرأةُ العاقلةُ الكريمةُ إلاَّ زوجاً يُحسِن معاشرتها، ويحترمُ مشاعرها؟!

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٩٥) وابن حبان (٤١٦٥).

* قُـدُومُ حليمـة السَّـعْـديَّـة:

كانت خديجةُ ـ رضي الله عنها ـ تُكْرِمُ كلَّ مَنْ له صِلَةٌ بزوجها محمد ﷺ إكراماً عظيماً، يملأ نَفْسَ النَّبي ﷺ بالرِّضا والسُّرور.

وذات يوم قدمتْ حليمةُ بنت عبد الله السَّعدية ضيفةً على رسول الله ﷺ، وتذكَّر ﷺ تلكَ الأيّام الجميلة الماضية؛ التي عاشها في كَنَف مرضعته حليمة، وكيف كانت تحنُو عليه، وترعاه، وتعتني به، وتهبُه مشاعرَ الأمومةِ الصَّادقة عندما كان طفلاً يدرجُ في مرابع قَوْمِها.

وطالما حدَّث النَّبيُّ ﷺ زوجَه خديجة ـ رضي الله عنها ـ بذكرياته الدَّافئة، وعَلِمَتْ خديجةُ بمكانة حليمة في نَفْسِه ﷺ، فما إنْ رأتْها حتى أسرعتْ إلى استضافتها، وهيَّأتْ لها ما يلزمُ مِنْ طعامٍ، وشرابٍ، وجلسةٍ مريحة.

كما قام ﷺ وألقى رداءه فراشاً لمرضعته الحنون، فَرَحاً بقدومها، وسُروراً بحضورها، وكأنَّه ﷺ يفرحُ بأمِّه، وهل المرضِعةُ إلاَّ أمٌّ ؟!

ثم حدَّث ﷺ زوجَه خديجة بسوء أحوال مرضعته حليمة، وشدَّة معيشتها، فما كان من خديجة إلا أنْ قامتْ بتجهيز مساعدةٍ لحليمة، قوامها: قطيع من الغنم، وبعير، مع الزَّاد الوفير، وقدَّمتْ ذلك هديةً لحليمة؛ إكراماً للزَّوج الحنون محمد ﷺ.

* الـذُّرِّيَّـةُ الطَّـيِّـبـة:

ما أسعدَ الزَّوجةَ الولود! وما أقربها مِنْ قلب زوجِها! إنَّها تكونُ السَّببَ في إيجاد السَّعادة الحقيقية، وإدخال السُّرور الكبير إلى فؤاده المليء بالعواطف الحانية، والحنان الذي لا يُـحَدُّ.

وها هي خديجةُ ـ رضي الله عنها ـ تُبَشِّرُ زوجَها ﷺ بأنَّها حامل، وما هي إلاَّ عِدَّة شهور حتى وضعتْ بنتاً جميلةً أسموها: زينب.

دَرَجَتِ الطفلةُ في بيت أبويها كالزَّهرة المتفتِّحة يوماً بعد يوم، وسُعِد الوالدان بالوليدة الأولى، ورأوا من خلالها السَّعادةَ الهانئة، والسَّكينة الكبرى، ونعيمَ الحياة.

ثم وضعتْ خديجةُ مولودها الثاني: رقية، ثم مولودها الثالث: أمّ كلثوم.

أفاضَ ﷺ مشاعرَه الحانية، وأحاسيسَه الغامرةَ على أسرته؛ والتي كانت تضم أيضاً هند بن أبي هالة ـ ابن خديجة من زوجها السَّابق ـ، وزيدُ بن حارثة ـ مولاه ﷺ ـ ووسعَ الجميعَ قلبُه ﷺ، فَرَقَّ لهم، وحَبَاهُم رحمته المعهودة، وغَمَرهُم بخُلُقِه العظيم.

كان ﷺ نِعْمَ الأب، وخيرَ الأزواج، وكانت خديجةُ امرأةً لا مثيلَ لها في قومها: صفاءً، ونقاءً، وجوداً، وكَرَماً، وفَهْماً للحياة، فكلَّما تقدَّمتْ بها السِّنُّ زادتْ محبَّتُها لزوجها، وعَظُم حنانُها على أولادها.

ثم رُزِق البيتُ النبويُّ بسيِّدة نساءِ العالمين: فاطمة الزَّهراء، إضافةً إلى ولدَيْن ذكرَيْن هما: القاسم، وعبد الله.

ولأمرٍ يريدُه اللهُ تعالى مات أولادُه كلُّهم في حياته ﷺ؛ إلاَّ فاطمة، فقد عاشت بعده عِدَّةَ أشهرٍ، ثم ماتت ـ رضي الله عنها ـ.

* مع بدايةِ الوحي الإلهيِّ:

إنَّ مَنْ يقرأ سيرةَ خديجة ـ رضي الله عنها ـ يُدرك عظمةَ هذه المرأة، وجلالَ مكارم أخلاقها، فقد فُطِرتْ على الرَّحمة، والعطف، والحنان، وفاضتْ كَرَماً، وفضْلاً على أسرتها، فكانت الأعلمَ بحقوق الزوج، والأقدر على احترامه، وتبجيله، ومعاشرته بالحسنى، والوقوف معه فيما يُصيبه مِنْ أحداث، وما يتعرَّض له من مواقف.

فعندما بَلَغَ ﷺ الأربعينَ من عُمُره نَزَلَ عليه الوحيُ. وقد روى الإمامُ البخاريُّ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّها قالت: أوَّلُ ما بُدِىءَ به رسولُ الله ﷺ مِنَ الوحي الرُّؤيا الصَّالحةُ في النَّوم، فكان لا يَرَى رُؤيا إلاَّ جاءتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْح. ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، وكان يخلو بغار حِراء فيتحنَّثُ فيه ـ وهو التَّعبُّد ـ الليالِيَ ذوات العدد، قبل أن ينزِعَ إلى أهله، ويتزوَّدُ لذلك، ثم يرجعُ إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حِراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ؛ قال: «ما أنا بقارىء!» قال: «فأخذني فَغَطَّني حتى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثم أَرْسَلَني، فقال: اقرأْ؛ قلتُ: ما أنا بقارىء! فأَخَذَني فغطَّني الثَّانيةَ حتى بَلَغ مني الجَهْدُ، ثم

أَرْسَلَني فقال: اقرأْ؛ فقلتُ: ما أنا بقارىء! فأَخَذَني فَغَطَّني الثَّالثة، ثم أَرْسَلَني فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]».

فرجَعَ بها رسولُ الله ﷺ يرجُفُ فؤادُه، فَدَخَلَ على زوجه خديجة بنت خُوَيْلِد ـ رضي الله عنها ـ فقال: «زَمِّلوني، زَمِّلوني» فزَمَّلوه حتى ذَهَب عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجة، وأَخْبَرَها الخَبَر: «لقد خشيتُ على نَفْسِي» فقالتْ خديجةُ: كلا، واللهِ! ما يُخْزِيْكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِيْنُ على نوائب الحقِّ(١).

وهكذا تبدو السَّيِّدةُ خديجةُ منارةً لليقين، وثبات القلب، وقوة الشَّخصية، والصَّبْر أمام الأحداث مهما عظمتْ، وتفاعلتْ... إنَّها الزَّوجةُ الوفيَّةُ، الصَّالحةُ، المؤمنةُ، فقد وَقَفَتْ مع زوجها النَّبيِّ ﷺ، وواسَتْهُ، وشجَّعَتْه على المضيِّ قُدُماً لإبلاغِ كلمةِ التَّوحيد للنَّاس أجمعين.

* أوَّلُ النِّساءِ إسلاماً:

مِنَ الثَّابت تاريخيّاً: أنَّ خديجةَ بنتَ خُوَيْلد ـ رضي الله عنها ـ كانتْ أوَّلَ النِّساء إسْلاماً، وأوَّلهم إيماناً بالله وبرسوله ﷺ، فقد صَدَّقَتْ بالله عز وجل ربّاً، وآزرتِ النَّبيَّ ﷺ على أَمْرِه، فخفَّف اللهُ تعالى بذلك عن رسوله، فكان لا يسمعُ شيئاً يكرهه، مِن الرَّدِّ عليه، والتكذيبِ له، فيحزنه ذلك، إلا فَرَّج عنه بخديجة ـ رضي الله عنها ـ إذا رَجَع إليها، فتثبِّته، وتُصدِّقُه، وتُهوِّنُ عليه أَمْرَ النَّاس.

لقد كانتْ خديجةُ واحةً للإيمان، ومَعْقِلاً للإسلام، فقد أضاء قلبُها بالتَّوحيد، وحازتْ قَصَبَ السَّبْق للإيمان بالرسالة المحمَّديَّة، والتَّصديق بالدَّعوة النَّبويَّة.

* خديجةُ أوَّلُ مَنْ صلَّى:

أتى جبريلُ ـ عليه السَّلام ـ رسولَ الله ﷺ، وعلَّمه الطَّهارةَ، والوضوءَ، وأدَّى النَّبيُّ ﷺ ما علَّمهُ الأمينُ جبريلُ بدقَّةٍ مُتناهية، ورأتْ خديجة ـ رضي الله عنها ـ زوجَها رسولَ الله ﷺ يتوضَّأ، ويُصلِّي، فاتَّبعَتْهُ، واقتدتْ به في أفعاله، فهو ﷺ

---

(١) رواه البخاري (٣).

الأسوةُ الحَسَنةُ، والقدوةُ الصَّالحةُ في التشريع، والأحكام في العبادات والمعاملات، والأخلاق، والآداب، والشَّمائل الخيِّرة، والصِّفات المتألِّقة قولاً، وفِعْلاً، وحالاً.

لقد أدَّتْ ـ رضي الله عنها ـ الصَّلاةَ على أتمِّ وَجْه، وأكمل صورة، فَخَشَعَ لربِّ العالمين، وسبَّحتْ خالقَها التسبيحَ اللائق، ودَعَتِ الدُّعاء الطَّيِّب، بعد أ رَسَخَ التوحيدُ في فؤادها، فكانتْ أوَّلَ امرأةٍ تؤدِّي العبادات الحقَّة لله تعالى في مجتمع مكَّة المكرَّمة.

* الصَّابرةُ المجاهدةُ:

لم تنجُ السَّيِّدةُ خديجةُ ـ رضي الله عنها ـ مِنْ أذى الكُفَّار، فقد ردَّ المشركو على دَعْوة النَّبيِّ ﷺ أشنعَ الرَّدِّ، وقابلوه بالاستهزاء والأذى، بعد أن شَقُ بضلالهم، وعكفوا بعنادٍ على أصنامهم، وتمسَّكوا بما كان عليه آباؤهم مِ ضلالٍ، وكُفْرٍ، وانحرافٍ عن الصِّراط السَّويِّ.

وكانتْ أُمُّ جميل ـ زوجُ أبي لهب ـ حمَّالةَ الحَطَب، تُؤذي رسولَ الله ﷺ، ومِ إيذائها: أنَّها أجبرت ابنَيْها أن يفسخا عقد زواجِهما من ابنتي رسول الله ﷺ: رق وأمّ كلثوم. وفي هذا أذى شديد للبيت النبوي الطاهر.

وتزوَّج عثمانُ بن عفَّان رُقَـيَّـةَ، ودَنَتْ ساعةُ الهجرة إلى الحبشة فراراً بالدِّين خوفَ الفتنة، واتّقاءً لأذى المشركين.

وكانتْ لحظاتُ الوداع صعبةً على أُمِّ المؤمنين خديجة؛ التي ودَّعت ابنتَ المهاجرةَ في سبيل الله تعالى.

كما عانتْ خديجةُ ـ رضي الله عنها ـ مِنْ حصار قريش لبني هاشم وبن المطَّلب، بعد أن اضطرُّوا للالتجاء إلى شِعْب أبي طالب، وحاربوهم اجتماعياً واقتصادياً... ونفدتِ المؤنُ، واشتدَّتِ الحاجةُ، وكانت سنواتٌ ثلاثٌ قاسية عانى فيها المسلمون الكثيرَ، ومِنْ بينهم السَّيِّدةُ خديجة ـ رضي الله عنها ـ.

* مِنْ وحي البشرى:

خُصَّتْ أُمُّ المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ بفضيلةٍ لا تُعْرَفُ لغيرها مِ

النِّساء، فقد أقرأها النَّبيُّ ﷺ السَّلامَ مِنْ ربِّها، ومِنْ أمين الوحي جبريل ـ عليه السَّلام ـ.

روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى جبريلُ النَّبيَّ ﷺ وهو بغار حِراء فقال: «يا رسولَ الله! هذه خديجةُ قد أَتَتْ، معها إناءٌ فيه إِدام، أو طعام، أو شراب، فإذا هي أَتَتْكَ؛ فاقرأْ عليها السَّلامَ مِنْ ربِّها ومِنِّي، وبَشِّرْها ببيتٍ في الجنَّـة مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَب»[1].

وقد استحقَّتْ خديجةُ ـ رضي الله عنها ـ هذه المنزلةَ، فهي أوَّل مَنْ آمن من النِّساء، وصدَّقتْ قَبْلَ النَّـاس، وثبتتْ مع النَّبيِّ ﷺ في طريق الدَّعوة، فكانتْ مِنْ كُمَّلِ النِّساء، عاقلةً، ديِّنةً، محمودةَ الخِصال.

* مـع الخـالـديـن:

خَرَجَتْ خديجةُ بنتُ خُوَيْلد ـ رضي الله عنها ـ بعد فَكِّ حصار المشركين عن المسلمين، وقد ضَعُفَ جسمُها، وأصابها المرض، فلبَّتْ نداءَ ربِّها، وكان عُمرُها خمساً وستين سنة، قضتْ منها خمساً وعشرين سَنَةً في جهادٍ مستمر، وصَبْرٍ متواصل، وعطاءٍ لا ينقطعُ، ومحبَّةٍ للرسول الكريم ﷺ، وأولاده، ففازتْ بالنَّعيم الخالد في فردوس اللهِ عزَّ وجلَّ.

رحم اللهُ خديجةَ أُمَّ المؤمنين، ورضي عنها، فقد قَضَت سنوات حياتها في طُهْرٍ وعطاء؛ في بيت المصطفى ﷺ.

* * *

---

(١) رواه البخاري (٣٨٢٠).

(٢) عائشة بنت أبي بكر

* مِنْ سُلالة بيتٍ مؤمن:

في عالم الفضيلة تبرزُ قِلَّةٌ من النَّاس، يُشارُ إليهم لامتلاكهم أخلاقاً فاضلة، وصفات حميدة، وأعمالاً جليلة.. لكنَّ عائشةَ ـ أمّ المؤمنين ـ فاقَتْ في أوصافها ومنزلتها كلَّ شيء؛ إذِ اتَّصفتْ بمناقب لا تُحصى، وفضائل لا تُعَدُّ.

* أبوها: أبو بكر الصِّدِّيق، خليفة رسول الله ﷺ، وصاحبه قبل النُّبوَّة وبعدها، وهو أوَّلُ مَنْ آمن مِنَ الرِّجال، وثاني اثنين إذْ هما في الغار، وأمير الحجِّ في السَّنَة التاسعة على المسلمين كلِّهم، وفضائلُه تملأ التاريخَ جمالاً، وإشراقاً، ونَصَاعة.

* وأمُّها: الصَّحابية المبشَّرة بالجنة، أمّ رومان بنت عامر الكِنانية، وهي مِنَ السَّابقات إلى الإسلام، ومِنَ المبايِعات المهاجرات. قال عنها ﷺ: «مَنْ سَرَّه أن ينظرَ إلى امرأةٍ من الحور العِيْن، فلينظرْ إلى أمِّ رومان»[1].

* وشقيقها: عبد الرحمن بن أبي بكر، الصحابيُّ المشهور، وأحد الرُّماة الأبطال، المعروفين بشجاعتهم، ومقدرتهم بين فرسان النبي ﷺ.

* وأختها: أسماء ذات النِّطاقَيْن، زوج الزُّبير بن العَوَّام، وأمُّ عبد الله بن الـزُّبير، ولها مكانتُها التي لا تُضاهى في العلم، والصَّبر، والجهاد.

وحَسْبُ أسرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ هذه الأسماء، فكلُّها شموسٌ مُنيرةٌ في عالم الصَّحابة الكرام، ولكلٍّ دورُه الذي لا يُنْسَى في ميدان الإيمان، والعطاء، والسِّيرة العَطِرة.

---

(١) رواه ابن سعد في طبقاته (٨/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧) وانظره في فتح الباري (٨/ ٢٠٧).

*** سيرةٌ منيرةٌ، ومناقبُ حَسَنة:**

نشأتْ عائشة ـ رضي الله عنها ـ في بيتٍ مؤمن، صَدَّق بالرِّسالة، وآمَنَ بالنَّبي ﷺ، فكان لهم شَرَفُ السَّبْق إلى الإسلام، وصُحْبة رسول الله ﷺ، فكانت شمسُ العقيدةِ تسطعُ عليهم ليلَ نهار، فيستظلُّون بأفيائها الوارفة، وتكون الثمارُ: علماً واسعاً، وفِقْهاً عميقاً، وحلاوةَ إيمانٍ يجدون لذَّته في أفئدتهم العامِرة بالإيمان.

إنَّ فضائلَ السَّيِّدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ لا تُلْحَقُ، ولا تُدْرَك، فقد كانت أحبَّ النَّاس إلى النَّبيِّ بعد خديجة ـ رضي الله عنها ـ وبذلك نالتْ مكانةً ليس بعدها مُفْتَخَر، فهي عظيمةُ القدر عند رسول الله ﷺ.

وقد أتى جبريلُ ـ عليه السلام ـ النبيَّ ﷺ بصورتها في قطعةِ حريرٍ، وأخبره أنَّها زوجته في الدُّنيا والآخرة، ولم ينزلْ قرآنٌ على النبيِّ ﷺ في بيوت أزواجه إلَّا في بيتها.

ودَعَا ﷺ لعائشة، فقال: «اللهم اغفرْ لعائشة ما تقدَّم من ذَنْبها وما تأخَّر، وما أسرَّتْ وما أعلنتْ»[1].

ولم يتزوَّجْ ﷺ بِكْراً غير عائشة، ولم يتزوَّجْ ﷺ امرأةً أبواها مهاجران غيرها.

*** زواجُ النبي ﷺ بعائشة:**

جاءتْ خولةُ بنتُ حكيم ـ زوجُ عثمان بن مظعون الصَّحابي المعروف ـ ـ رضي الله عنهما ـ إلى رسول الله ﷺ، فقالتْ: يا رسولَ الله! ألَا تتزوَّج؟!

قال: «مِمَّن؟».

قالت: إنْ شئتَ بِكْراً، وإنْ شئتَ ثيِّباً.

فقال: «ومَنِ البكرُ؟ ومَنِ الثَّيِّب؟».

فقالت: أمَّا البِكْرُ فابنةُ أحبِّ الخَلْقِ إليكَ: عائشة بنت أبي بكر. وأمَّا الثَّيِّبُ: فَسَوْدَةُ بنتُ زَمْعة، قد آمنتْ بك، واتَّبعتك.

---

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٣/٢٣٨ـ٢٣٩) وانظره في مجمع الزوائد (٩/٢٤٣ـ٢٤٤).

قال ﷺ: «فاذهبي فاذكريهما عليَّ».

ذهبتْ خولةُ إلى «أُمِّ رومان» وذكرتْ لها أَمْرَ رسولِ الله ﷺ، وجاء أبو بكر، ثم استُدْعي رسولُ الله ﷺ، وتمَّتِ الخِطْبةُ في مكة، والبِناءُ في المدينة، وعائشةُ بنتُ تسع سنين. وقد مكثتْ عنده تسع سنوات؛ إذْ تُوفِّي عنها رسولُ الله ﷺ وهي بنتُ ثماني عشرة سنة[1].

وفي بيت النُّبوَّة الطَّاهِر عاشتْ عائشةُ أحلى أيَّامها، وأَجْملها، وأكثرها سُروراً وغبطةً، فقد كان عَطْفُ النَّبيِّ ﷺ عليها وافراً، تلوذُ به، وتسمعُ منه، وتكتسبُ الفضائلَ تِلْوَ الفضائل، حتى غَدَتْ مِلْءِ السَّمْع والبَصَر.

*** الهجرةُ حَدَثٌ غَيَّر مَجْرىٰ التاريخ:**

عانى المسلمون في مكّة المكرَّمة معاناةً شديدة؛ مِنْ قِبَلِ المشركين، وأَذِن لهم رسولُ الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة والمدينة. وكان المهاجرون يَلْقَوْن معاملةً حَسَنةً من النَّجاشيِّ ومِنَ الأنصار؛ الذين قاسَمُوهم كلَّ شيءٍ، وكانوا نِعْمَ العَوْن في ساعة الشِّدَّة.

وبقي رسولُ الله ﷺ ينتظرُ أَمْرَ ربِّه عزَّ وجلَّ في الهجرة. وذات يومٍ جاء الأمرُ الإلهيُّ يأذنُ للنَّبيِّ ﷺ بأنْ يحزمَ أَمْرَهُ، ويتهيَّأ للهجرة.

وجاء رسولُ الله ﷺ إلى بيت أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في وقتٍ غير معتادٍ له ﷺ في الزِّيارة، وخَرَج أبو بكر يستقبلُ رسولَ الله ﷺ؛ الذي قال: «قد أُذِن لي في الخروج» فهتف أبو بكر: الصُّحبة يا رسولَ الله! فقال ﷺ: «نَعَم».

سُرَّ أبو بكر، وعَلِم أنَّه سيصحب رسولَ الله ﷺ إلى المدينة المنوَّرة. وودَّع الصِّدِّيقُ أَهْلَه، وفيهم أسماء وعائشة، وهي ما تزالُ في السَّابعة من عمرها.

انطلق ﷺ مع صاحبه الصِّدِّيق يَغُذَّان السَّيْرَ حتى وَصَلا إلى المدينة، وهناك أرسل ﷺ مولاه زيدَ بنَ حارثة، وأبا رافع لِيُحْضِرا أَهْلَهُ وبناته، كما أرسل الصِّدِّيقُ ابنَه عبدَ الله لِيُحْضِرَ أُمَّ رومان، وأسماء، وعائشة.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢١٠، ٢١١) والبيهقي (٧/ ١٢٩) والطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ٢٣ ـ ٢٤) وانظره في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٧).

تقولُ عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ:

قَـدِمْنا مهاجِـريـن، فَسَلكْنا في ثـنـيَّـةٍ صعبةٍ، فَـنَفَر بي جَمَلٌ كنتُ عليه نفوراً قويّاً منـكراً، فـواللهِ! ما أَنْـسَىٰ قولَ أُمِّي: يا عُويشة ـ أو: يا عُريسة ! فسمعتُ قائلاً يقول: ألقي خِطامَهُ ! فألقيتُه، فقام يستديرُ، كأنَّما إنسانٌ قائمٌ تحته.

وفي هذا الخبر تأييدٌ ربّانيٌّ لعائشةَ، إذ أرسل اللهُ تعالى ذاك الملك؛ ليُهدِّىء الجمل، كيلا تسقط عائشةُ عنه.

يا الله! ما أعظم هذا الموقف! وما أشدَّ تأثيره في النَّفْس! وهل يُنْسَىٰ مِثْلُ هذا؟!

وفي المدينة المنوَّرة مكثتْ عائشة في دار أبيها مقدار سنتين، وبعد غزوة بدر الكبرى جرى حَفْلُ الزَّفاف، وأُهديتْ عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ إلى بيت النُّبوَّة لتصبح أُمّاً للمؤمنين.

*** فـي ظِـلال بيـتِ الـنُّبـوَّة:**

ما أجملَ سعادة المرأة وهي تحيا مع زوجٍ رؤوفٍ بها، يُشاطِرُها الفرحَ والتَّرَح، يسمعُ شكواها، ويفهم مُرادها، ويُحقِّقُ مُتطلباتها وفق ميزان الشَّرع، دون إفراطٍ ولا تفريط.

إنَّها لا شكَّ ستكون امرأةً سعيدةً، وإنْ بَدَا شيءٌ من خشونةِ العيش، وقلَّة الطَّعام والشَّراب؛ إذْ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، إنَّما يحيا بالفِكْر الواضح، والنَّهج المستقيم، والهدف المنشود، والرَّاحة النَّفسية، والمحبَّة الغامرة، أما حُطامُ الدُّنيا؛ فشيءٌ زائلٌ، يُمكن الصَّبْر عنه، وتنحيته جانباً إلى حِيْن.

لقد وَجَدَتِ السَّيِّدةُ عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ في زوجِها رسولِ الله ﷺ آياتٍ من السَّعادة والفضيلة، وعلاماتٍ دالَّة على الوفاء، والصِّدْق، والتَّفهُّم الكامل، فأخذتْ مكانتها اللائقة بها بين زوجاته ﷺ؛ نظراً لصفاتها الفُضْلى، وخِصالها الجُلَّى، وعميق إيمانها، وطهارة نَفْسِها.

إنَّها الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق؛ التي امتلكتْ مشاعرَ رسولِ الله ﷺ، فكان رحيماً بها، إذ هي في التاسعة من عُمرها، تحبُّ اللعب بالدُّمى، والجلوس مع صديقاتها، فكان ﷺ يُسَرِّبهنَّ إليها لتكون سعيدة، مُستمتعة بوقتها.

كما كان ﷺ يجعلُها وراءه لتنظرَ إلى الأحباش، وهم يلعبون في المسج بسهامهم، وأقواسهم.

كما كان ﷺ يُشارِكُها السِّباقَ، فيسبقها وتَسْبقه، وتُسَرُّ الزَّوجةُ، وهي ما تزا في أول شبابها، وزهرة فُتوَّتها.

*** المجاهدةُ الصَّابرة:**

لم يمنعِ الإسلامُ المرأةَ أن تُشارِكَ في الجهاد، فها هي عائشةُ ـ رضي اللهُ عنها في غزوةَ أُحُد تخرجُ مع المسلمين، فتسقي الماءَ للمجاهدين.

قال أنسُ بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: لقد رأيتُ عائشةَ بنت أبي بكر وأمَّ سُليم، وإنَّهما لمشمِّرتان، أَرَى خَدَمَ ـ خلخال ـ سُوقهما، تنقلان القِرَبَ على مُتُونهما، ثم تُفرغانه في أفواه المجاهدين، ثم ترجعان فتملأانها، ثم تجيئا فَتُفْرِغانه في أفواه القوم.

وفي غزوة الأحزاب تركت حِصْنَ النساء، واقتحمتْ صفوفَ المجاهدير الأماميَّة، غير مُباليةٍ بما قد تتعرَّضُ له من الأذى والغَدْر، واستنكر عمرُ بر الخطَّاب جُرْأتها، فلامَها لَوْماً شديداً.

وفي غزوة بني المصطلق، وقعتْ عليها القُرعة، وخرجتْ مع رسول الله ﷺ وفي طريق العودة كان حَدَثُ الإفك.. تلك الفتنة العُظْمى؛ التي حَلَّتْ بعائش ـ رضي الله عنها ـ وجعلتْ ألسنة السُّوء تلوكُ كلاماً فاجِراً، نعوذُ بالله تعالى من الخذلان، ومِنْ أحوالِ أهل النِّيران.

فكانتِ الصِّدِّيقةُ عائشة مجاهدةً في سنوات حياتها؛ مُنذ الهجرة حتى آخر أيَّامها في هذه الدُّنيا، وهل هناك أَهْنَأُ على المسلم من انخراطه في سِلْك المجاهدين، يغزو معهم؛ لِرَفْعِ كلمةِ التَّوحيد، ونَشْر الإسلام عالياً في كُلّ مكان؟!

*** فتنة الإفك:**

كانتْ محنةُ الإفك فتنةً شديدة، هزَّتِ المسلمين مِنَ الأعماق، وزلزلتْ كيانَهم؛ إ اتُّهِمَتْ عائشةُ زوجةُ نبيِّهم بالبُهْتان العظيم؛ دون دليلٍ، أو برهان... إنَّها مُجَرَّ

الأكاذيب، والإشاعات. وكان المنافقون يترصَّدُون المسلمين؛ لينالوا منهم، وحانتْ تلك السَّاعة، فأطلقوا لألسنتهم العنان؛ ليُلَوِّثوا رَمْزَ الطُّهْر والعَفَاف.. إنَّها عائشةُ أحبُّ النِّساء إلى رسول اللهِ ﷺ.

وهَزَّتْ تلك العاصفةُ الهوجاءُ أركانَ المجتمع في المدينة، وهاهي عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ تروي بَعْضاً من تلك المحنة، فتقول:

قَدِمْنا المدينة، فاشتكيتُ بها شهراً، والنَّاسُ يفيضُون في قول أصحاب الإفْك ولا أشعر، وهو يَريْبُني في وَجَعي أنِّي لا أرى مِنَ النَّبيِّ ﷺ اللُّطْفَ الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنَّما يدخلُ فَيُسَلِّمُ ثم يقولُ: «كيف تِيْكم؟» ثم ينصرف، فذلك الذي يَرِيبُني منه، ولا أشعرُ بالشَّرِّ حتى نَقِهْتُ...

فأخبرتني (أمُّ مسطح) بقول أهلِ الإفك، فازددتُ مرضاً إلى مَرَضي...

وبكيتُ يومي ذلك، لا يرقأ لي دَمْعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، ثم بكيتُ ليلتي المقبلة، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحلُ بنوم، فأصبح عندي أبواي، وقد بكيتُ ليلتين ويوماً، حتى أظنّ أنَّ البكاءَ فالقٌ كبدي..

ودَخَل علينا رسولُ الله ﷺ، فسلَّم، ثم جَلَسَ.. فتشهَّد رسولُ الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أَمَّا بعد، يا عائشةُ! بلغني عنكِ كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئةً فسيُبرِّئُكِ الله، وإنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفِري اللهَ، وتُوبي إليه؛ فإنَّ العبدَ إذا اعترف بذنبه، ثم تاب، تاب اللهُ عليه».

فلمَّا قَضَى رسولُ الله ﷺ مقالتَهُ قلص دَمْعي؛ حتى ما أُحِسُّ منه قطرة، فقلتُ لأبي: أَجِبْ عَنِّي رسولَ الله ﷺ فيما قال. قال: واللهِ! ما أدري ما أقولُ لرسول الله ﷺ. فقلتُ لأمِّي: أَجِيبي عني رسولَ الله ﷺ فيما قال. قالتْ: والله! ما أدري ما أقولُ لرسول اللهِ ﷺ..

وأنا جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، لا أقرأُ كثيراً مِنَ القرآن، فقلتُ: إنِّي واللهِ! لقد علمتُ أنكم سمعتُم ما تحدَّث به النَّاس؛ حتى استقرَّ في أنفسكم، وصدَّقتُم به، فإنْ قلتُ لكم: إنِّي بريئة، ـ واللهُ يعلمُ أنِّي بريئة ـ لا تُصدِّقوني بذلك، ولئن اعترفتُ لكم بأمرٍ ـ واللهُ يعلم أني بريئة ـ لتصدِّقُنِّي، فواللهِ! ما أجدُ لي ولكم مثلاً

إلا أبا يوسف؛ إذْ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثم تحوَّلْتُ، فاضطجعتُ على فراشي، وأنا واللهِ! حينئذٍ أعلمُ أنِّي بريئة، وأن اللهَ مُبَرِّئي ببراءتي، ولكن واللهِ ما كنتُ أظنُّ أنَّ اللهَ ينزلُ في شأني وَحْياً يُتْلى، ولكنْ كنتُ أرجو أن يرى رسولُ الله ﷺ في النَّوم رؤيا يبرئني اللهُ بها.

فواللهِ! ما رام رسولُ اللهِ ﷺ، ولا خَرَج أَحَدٌ مِنْ أهل البيت، حتى أنزل اللهُ على نبيِّه، فَأَخَذَهُ ما كان يأخذُه من البُرَحاء، حتى إنَّه ليتحدَّرُ منه مثل الجُمَان من العَرَق في يومٍ شاتٍ؛ مِنْ ثقل القول الذي أنزل عليه...

فَسُرِّيَ عن رسول اللهِ ﷺ وهو يضحكُ، وكان أوَّل كلمةٍ تكلَّم بها؛ أنْ قال لي: «يا عائشةُ! احْمدي الله. أمَّا اللهُ فقد بَرَّأَكِ»، فقالت لي أمي: قُومي إلى رسول اللهِ ﷺ. فقلتُ: لا، واللهِ! لا أقومُ إليه، ولا أحمدُ إلاَّ الله، هو الذي أنزل براءتي، فأنزل اللهُ عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾ [النور: ١١ ـ ١٩] الآيات[(١)].

ونلمحُ من فتنة الإفك حكمةَ رسول الله ﷺ في معالجة الأمور، كما يتأكَّد طُهْر عائشة، وعَفَافُها الذَّاتي، ونُبْلُها الاجتماعي، وفَضْلُها، وإيمانها، ورِفْعة شأنها.

* عائشة والعلم:

رُزِقَتْ عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ حافظة واعية، وقدرة على تقصِّي الأمور، وبيان المقاصد.. إنَّها ابنةُ الصِّدِّيق، وزوجةُ الرَّسول.

وبَلَغَ مِنْ علْمِها أنْ كانت دائرةَ معارف، وموسوعةً جامعةً في مختلف ألوان المعرفة: الدين، التاريخ، الأدب، النسب، وغير ذلك.

ويكفيها فَضْلاً أن رَوَتْ عشرة ومئتين وألفين من الأحاديث النبويَّة، منها أربع وسبعون ومئة حديث، اتَّفق عليها البخاريُّ ومسلم، وانفرد البخاريُّ بأربع وخمسين حديثاً، بينما انفرد مسلم بتسعة وستين حديثاً.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٥٠) ومسلم (٢٧٧٠).

وها هو الإمامُ الزُّهْريُّ يقول: لو جمع عِلْمُ عائشة إلى عِلْم جميع النِّساء؛ لكان عِلْمُ عائشةَ أفضلَ.

*** السَّخـيَّـةُ الـكـريمـة:**

كان ﷺ لا يُضاهى في الكرم، ولا يُجارى في السَّخاء، وهو القدوةُ الحَسَنة في فضائل الأعمال، وقد اقتدتْ به عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ فكانتْ سَخِيَّةَ اليد، تعطي بلا حدود، وهذا دليلُ زُهْدِها في الدُّنيا، وبُرْهانُ إيمانها العميق بالله العليِّ القدير، وقضائه، وقدره، وأنَّ المالَ الذي في أيدينا وديعةٌ ينبغي أن تُؤدَّى منه الحقوق، ويُعْطَى كلٌّ نصيبه.

وها هو عروةُ بنُ الزُّبير يقول: لقد رأيت عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ تَقْسِمُ سبعين ألفاً، وإنَّها لترقعُ جَيْبَ درعها.

الله أكبر! هكذا فليكنِ الزُّهْدُ، أو لا!

ومِنْ أمثال عائشة يجدر بنا أن نتعلم الدُّروس، ونَعيَ العِبَر، فذلك الجيل، جيل الصحابة، قومٌ عَرَفُوا الحقائق، وسَبَرُوا أغوارَ الأمور، فأدركوا أنَّ المسلمَ الحقَّ هو السَّخِيّ بماله للمحتاجين، والسَّخيّ بنفسه هو المجاهد في سبيل الله عز وجل.

وهذه الصِّدِّيقة ـ رضي الله عنها ـ يكفيها شهادةً قولُ رسول الله ﷺ: «فَضْلُ عائشة على النِّساء كفَضْل الثَّـريـد على سائر الطعام»[1].

*** وحـان الـرَّحيـل:**

عاشتْ عائشة ـ رضي الله عنها ـ بعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ عمراً طويلاً، قَضَتْهُ في العلم، والجهاد، والعبادة، تنصحُ، وتُرشِدُ، وتُعلِّمُ، فكانت مثابةً للناس وأَمْناً، أليستْ هي أمَّ المؤمنين! والأمُّ تضمُّ المبعثرَ، وتلمُّ الشّتات.

---

(١) رواه البخاري (٣٧٧٠) ومسلم (٢٤٤٦).

وتمرضُ السَّيِّدةُ عائشة -رضي الله عنها- وفي (١٧) رمضان من عام ثمان وخمسين للهجرة لَبَّتْ عائشةُ -رضي الله عنها- نداءَ ربِّها، وخَرَجَتْ روحُها إلى عِلِّيِّين، إلى مقام صِدْقٍ عند اللهِ الخالقِ المولى، بعد قضاءِ حياةٍ ملؤها الخير، والسُّلوك الطيِّب، والسُّمعة الحَسَنة، فرضي اللهُ تعالى عنها وأرضاها.

* * *

(٣) أم سلمـة

*** تـاريـخٌ عـريـقٌ:**

في عالَم الفضائلِ العَلِيّة، والأخلاقِ النّبيلة، والإيمانِ الرّاسخ، تبرزُ أمُّ المؤمنين «أمُّ سَلَمة» ـ رضي الله عنها ـ عَلَماً يُشار إليها بكلِّ فَخْرٍ واعتزاز، فقد أَعْطَتِ الكثيرَ في مجال الثَّبات على الحقِّ، والسَّخاء اللامحدود، والصَّبْر على التمسُّك بالعقيدة الصَّحيحة، واحتمال أذى المشركين أعداءِ الخيرِ والدِّيْن.

وتنتسبُ أمُّ سَلَمة ـ رضي الله عنها ـ إلى أُسرةٍ لها مكانةٌ في ميدان الكرم لاتُحَدُّ، فأبوها أَحَدُ «أزواد الرَّكْب» في الجاهليَّة، المشهورين بالكرم، فكانوا إذا سافروا، فَخَرجَ معهم النَّاسُ، لم يَحْمِلُوا زاداً معهم، ولم يُوقِدُوا ناراً، فيكفونهم المؤونةَ، واتخاذَ الطعام والشراب.

فياله من موقفٍ جميل! يدلُّ على الجُودِ العربيِّ المتأصِّل في النُّفوس السَّخِيَّة، والأكفِّ النَّديَّة، والمنافسةِ في وجوه البِرِّ، وتقديمِ الخير إلى النَّاس.

ورأتْ أُمُّ سَلَمة أباها وهو يُنْفِقُ على المحتاجين، ويُنقذ المنكوبين، ويَهَبُ مالَهُ صباحَ مساء، حتى أضحى اسمُه على كُلِّ لِسان، وعَرَفَهُ القَاصِي والدَّاني بصفةِ الكرم، وبَذْل النَّدى، فتعلَّمتْ حُبَّ الإنفاق، والتَّسابق لفعل الخير.

*** أسـرةٌ كـريـمـة:**

نشأت أمُّ سَلَمة ـ هند بنت أبِي أُميَّة ـ في بيئةٍ صالحة، وأسرةٍ فاضلة، كلُّ أفرادها لهم باعٌ طويل في مدارج الفَضْل والشَّجاعة والكرم.

فَزَوْجها: عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، ابنُ عَمَّةِ رسولِ الله ﷺ، وهو من السَّابقين إلى الإسلام، فقد أَسْلَم بعد عشرةِ أنفس، وكان أخا النَّبيِّ ﷺ من الرَّضاعة.

تزوَّج أمَّ سَلَمة، ثم صارتْ بعد وفاته إلى النَّبيِّ ﷺ. وكان أوَّلَ مَنْ هاجر بامرأته إلى الحبشة، ثم إلى المدينة المنوَّرة.

وشَهِد بدراً وأُحُداً فَجُرِح بها، ثم بَعَثَهُ النَّبيُّ ﷺ على سريَّة إلى بني أسد في صَفَر سنة أربع للهجرة، ثم رجع، فانتقضَ جُرْحُه، فمات في جمادى الآخرة من تلك السَّنَة.

وسَلَمةُ: ابنُ أُمِّ سَلَمة، كان رَبيْبَ النَّبيِّ ﷺ، وزَوَّجه ﷺ أمامةَ بنتَ حمزة، وهما صَبيَّان صغيران، فلم يجتمعا، إذ ماتتْ أمامةُ قبل أن يدخلَ بها، قال ابنُ عبد البَرِّ في كتابه «الاستيعاب»: عاش إلى خلافة عبد الملك بن مروان، ولا أحفظُ له روايةً عن النَّبيِّ ﷺ.

وعُمَر: ابنُ أُمِّ سلمة، توفي رسولُ اللهِ ﷺ وله تسعُ سنين، وكان مولدُه بالحبشة في السَّنة الثانية من الهجرة، واستعمله عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ على بلاد فارس والبحرين، وتوفي بالمدينة سَنَة ثلاث وثمانين للهجرة في خلافة عبد الملك بن مروان.

وزينبُ: بنتُ أُمِّ سَلَمة، وُلِدتْ بأرض الحبشة، وكان اسْمُها «بَرَّة» فسمَّاها رسولُ اللهِ ﷺ زينب. ودخلت ـ وهي صغيرة ـ على رسولِ الله ﷺ وهو يغتسلُ، فَنضَحَ في وَجْهها الماء، فلم يزلْ ماءُ الشَّبابِ في وَجْهها ـ رضي الله عنها ـ حتى كبرت وعجزت. وتزوجها عبدُ الله الأسدي، وولدتْ له، وكانت من أفقهِ أهلِ زمانها.

وهؤلاء الإخوةُ الثلاثة رُبُّوا في كَنَفِ رسولِ اللهِ ﷺ، فَعَرَفُوا أخلاق النُّبوَّة عن قُرْبٍ، إذ كان ﷺ قدوةً لهم في كُلِّ شيء؛ في الخُلُقِ الفاضل، والسُّلوك الحَسَن، والعطف، والشَّفقة، وحُبِّ الخير.

ونشأ الثلاثة على حُبِّ فِعْلِ الطَّاعات، والتعوُّد على الإحسان، وهذا سبيلُ الأنبياء. وقد ربَّاهم ﷺ بالحِلْم والرِّفق، وأفاضَ عليهم من قَلْبِه الرَّحيم، وموعظته الحَسَنة ما جَعَلَهُمْ ينشؤون نَشْأةً فاضِلة، حتى بلغوا مرحلةَ التَّمامِ والكمال، وهم مُتمسِّكون بِشَرْع اللهِ عز وجل.

* الهجـرةُ فـي سبيـل اللهِ تـعـالـى:

انداحتِ الدَّعوةُ الإسلاميَّةُ في رحاب مكَّة المكرَّمة، وانتشر عَبِيْرُها في بيوت النَّاس هناك، فدخلتْ طائفةٌ من ذوي العقل والصفات المتميِّزة في دين الله عز وجل، فآمَنُوا أنَّ هناك خالِقاً واحداً للكون، وأنَّ الإنسانَ مخلوقٌ للعبادة، فعليه أنْ يُفكِّرَ بشكلٍ سلِيم وصولاً إلى الحقيقةِ والصَّواب. واشتدَّ غَيْظُ زعماء قريش لإيمان بعضِ الناس بدعوة النَّبي ﷺ، وصَبُّوا عليهم ألوانَ العذاب الأليم، من: الضرب، والإهانة، والتجويع، والحصار الاقتصادي، وغير ذلك... إلَّا أنَّ هذا لم يُـثْـمِر أيَّ نتيجة، بل ازداد المسلمون صَلابةً وتمسُّكاً بدينهم، واعتصاماً به، وتحمَّلُوا نتائجَ البلاءِ والفِتْنة، وصَبَرُوا في الله، حتى أَذِن لهم رسولُ الله ﷺ في الهجرة.

وهاجرتْ أمُّ سلمة مع زوجها إلى الحبشة في المرَّة الأولى، وركب المهاجرون سفينتين، وكانوا اثني عشر رجلاً وأربع نِسْوة، وذلك في رجب سنة خمسٍ من البعثة النَّبويَّة.

ثم عاد المهاجرون بعد عِدَّة شُهور ظانِّين إسلامَ قريش، فاشتدَّ أذى المشركين عليهم، فأَذِن لهم الرسولُ ﷺ بالهجرة مرَّةً ثانية، وكان عددُ المسلمين ثلاثة وثمانين رجلاً، وتسع عشرة امرأة.

وفي الحبشة أحسَّ المسلمون المهاجرون بالأَمْن والأمان، وهاهي أُمُّ سَلَمة ـ رضي الله عنها ـ تقول:

لما نزلنا أرضَ الحبشة جاوَرْنا فيها خيرَ جارٍ، النَّجاشِي، أمِنَّا على ديننا، وعَبَدْنا اللهَ تعالى، لا نُؤْذَى، ولا نسمعُ شيئاً نكرهه.

واشتدَّ حنينُ المسلمين إلى بلدهم مكَّة المكرَّمة، فقد وُلِدُوا فيها، وترعرعوا في أكنافها، وكانت مَرْبَعَ صباهم، وقد تركوا فيها بيوتهم وحاجاتهم، والـغُـرْبة كُرْبة صعبة.

وعاد أبو سَلَمة مع زَوْجِه إلى مكَّة، لكنهم عانوا مِنْ أذى قُريش أكثر مِنْ ذِيْ

قبل، وتجهَّز الزوجان للهجرة، ولكن هذه المرَّة إلى المدينة المنوَّرة، وذلك قَبْلَ بيعةِ العَقَبة بحوالي سَنَة.

تروي أُمُّ سَلَمة أحداثَ هذه الهجرة فتقول:

لمَّا أَجْمَعَ أبو سَلَمة الخروجَ إلى المدينة، رَحَّلَ لي بعيرَه، ثم حَمَلَني عليه، وحَمَل معي ابني سَلَمة في حِجْري، ثم خَرَج بي يقودُ بي بعيره، فلمَّا رَأَتْه رجالُ بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نَفْسُكَ غَلَبْتَنا عليها، أرأيتك صاحبتك هذه، عَلامَ نتركك تسيرُ بها في البلاد؟!

فَـنَـزَعُوا خطامَ البعير مِنْ يده، فأخذوني معهم، وغَضِبَ عند ذلك بَنُو عبد الأسد رَهْط أبي سَلَمة، فقالوا: لا والله! لانترك ابْنَنا عندها إذ انتزعتموها من صاحِبنا.

فتجاذبوا ابنيَ سَلَمة بينهم؛ حتى خَلَعُوا يَدَه، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحَبَسَني بنو المغيرة عندهم.

وانطلق زوجي أبو سَلَمة إلى المدينة، فَفَرَّقُوا بيني وبين زوجي وبين ابني، فكنتُ أخرجُ كلَّ غداةٍ، فأجلس بالأبطح، فما أزالُ أبكي حتى أُمْسِي، سَنَةً أو قريبا منها، حتى مَرَّ بي رجلٌ من بني عَمِّي ـ أَحَد بني المغيرة ـ فرأى حالي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: أَلَا تُخرِجُون هذه المسكينة، فَرَّقْتُم بينها وبين ولدها؟!

فقالوا لي: الْحَقِي بِزَوْجِكِ إنْ شِئْتِ، وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني، فارتحلتُ بعيري، ثم أخذتُ ابني فوضعتُه في حجري، ثم خرجتُ أريدُ زوجي بالمدينة، وما معي أَحَدٌ من خَلْقِ الله، فقلتُ: أتبلَّغُ بمن لقيتُ حتى أقدمَ على زوجي.

حتى إذا كنتُ بالتَّنْعِيم ـ مكان على بُعْد ثلاثة أميال من مكَّة ـ لقيتُ عثمانَ بن طلحة بن أبي طلحة ـ أخا بني عبد الدَّار ـ فقال لي: إلى أين يا بنتَ أبي أميَّة؟ فقلتُ: أريدُ زوجي بالمدينة. قال: أَوَ ما معك أَحَدٌ؟ فقلتُ: لا والله! إلاَّ الله، وبنيَّ هذا. قال: واللهِ! مالكِ مِنْ مَتْرَك.

فأَخَذَ بخطام البعير، فانطلق معي يَهْوِي بي، فوالله! ما صحبتُ رجلاً من العرب قطُّ أرى أنه كان أكرمَ منه، كان إذا بَلَغَ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عنِّي،

حتى إذا نزلتُ استأخر ببعيري، فحطَّ عنه، ثم قَيَّدهُ في الشَّجَرِة، ثم تنحَّى إلى شجرةٍ، فاضطجع تحتها، فإذا دَنَا الرَّواح قام إلى بعيري، فقدَّمه فَرَحَّله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبتُ، واستويتُ على بعيري، أتى فَأَخَذَ بخطامِه، فقاده حتى ينزلَ بي، فلم يزل يصنعُ ذلك بي، حتى أَقْدمني المدينة، فلمَّا نَظَر إلى قريةٍ بني عمرو بن عوف بقُباء، قال: زوجُكِ في هذه القرية فادْخُلِيهْا على بركة الله . ثم انصرفَ راجِعاً إلى مكَّة.

*** الـزَّواجُ الـمبــارَكُ:**

ما أَجْمَلَ أن يتحدَّثَ الإنسانُ عن نفسه، وحينها يكون صادقاً كلَّ الصِّدق، ولندعِ السَّيِّدة أمَّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ تروي خَبَرَ تزوُّجِ النَّبي ﷺ بها، قالت:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما مِنْ مسلمٍ تُصيبُه مُصيبةٌ، فيقول ما أَمَر اللهُ تبارك وتعالى: إنَّا لِلَّه وإنَّا إليه راجعون، اللهم أُؤْجُرْني في مصيبتي، وأَخْلِفْ لي خَيْراً منها، إلاَّ أَخْلَفَ اللهُ له خَيْراً منها».

فلمَّا مات أبو سلمة قلتُ: أيُّ المسلمين خَيْرٌ من أبي سَلَمة، أوَّل بَيْتٍ هاجر إلى رسول الله ﷺ؟! ثم إنِّي قُلْتُها، فَأَخْلَفَ اللهُ لي رسولَ الله ﷺ.

قالتْ: أرسل إليَّ رسولُ الله ﷺ حاطِبَ بنَ أبي بَلْتَعَة يخطبني له، فقلتُ: إنَّ لي بنتاً، وأنا غَيُورٌ، فقال: «أمَّا ابنتُها فندعو اللهَ أنْ يُغْنِيها عنها، وأَدْعُو اللهَ أن يذهبَ بالغَيْرَة»[1].

وتَمَّ الزَّواجُ الميمونُ، وصارتْ أُمُّ سَلَمة أُمَّاً للمؤمنين بَعْدَ أنْ نالتْ شَرَفاً لايُضاهى، وحَظِيتْ بمكانةٍ مرموقة؛ إذ أصبحتْ زَوْجاً للنَّبيِّ ﷺ.

ولـقيتْ أمُّ سَلَمة من رسولِ الله ﷺ كلَّ رعايةٍ، وعَطْف، واحترام، فهو الرسـولُ الـقدوة فـي أخلاقه وسلوكه وصِفاته، وهو الزَّوْجُ الحنونُ، والرَّجُل الـعَطُوف، فـقد مُلِيء خُلُقـاً حَسَناً، فَفَاضَ أَدَباً، ورِفْقاً، ومَحبَّـةً غامرة أثمرتْ أينعَ الثِّمارِ على البيت النَّبويِّ الطاهر.

---

(١) رواه مسلم (٩١٨).

* فـي رِحـابِ الـفضـائـل وريـاضِ الـمنـاقــب:

حَلَّقتْ أمُّ سَلَمة ـ رضي الله عنها ـ في سماءِ الإيمان، والفضائل، والوَرَع، وفِعْل الخيرات، والتَّعوُّد على الإحسان والبَذْل، فكانتْ نَفْسُها تشعُّ صفاءً ونقاءً، وهي تحيا في ظلال البيت النَّبوي.

ومِنْ تلك المناقبِ التي حازَتْها أُمُّ سَلَمة:

أنَّها من أهل البيت النبوي، وداخِلةٌ في دعوةِ رسولِ الله ﷺ.

عن عمرو بن شُعَيْب: أنَّه دَخلَ على زينب بنت أبي سَلَمة، فحدَّثَـتْـه أنَّ رسولَ الله ﷺ كان عند أمِّ سَلَمة، فَجَعَلَ حَسَناً في شِقٍّ، وأنا وأمُّ سَلَمة جالستان، فبكتْ أمُّ سَلَمة، فقال: «مايُبْكيكِ؟» قالتْ: يا رسولَ اللهِ! خَصَصْتَهُمْ وتركتني وابنتي.

فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّكِ وابنتُك مِنْ أهلِ البيت»(١).

وأنَّها خُصَّت بهديَّة رسولِ الله ﷺ:

روى الإمام أحمد وغيره من حديث أمِّ كلثوم قالت: لما تزوَّج رسولُ الله ﷺ أُمَّ سَلَمة قال لها: «ياأُمَّ سَلَمة! إنِّي قد أَهْدَيْتُ إلى النَّجاشي حُلَّةً وأواقيَّ من مِسْكٍ، ولا أرى النَّجاشيَّ إلاَّ قد مات، ولا أرى هديتي إلاَّ مردودة عليَّ، فإنْ رُدَّتْ عليَّ فهي لك».

فكان كما قال رسولُ اللهِ ﷺ، ورُدَّتْ عليه هديَّـتُـه، فأعطى كلَّ واحدةٍ من نسائه أوقيَّةَ مِسْكٍ، وأعطى أُمَّ سَلَمة بقيَّةَ المِسْك والحُلَّة(٢).

وأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يبدأُ بها إذا دَارَ على نسائه:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا صلَّى العَصْرَ دَخَلَ

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ٢٨١ ـ ٢٨٢) وانظره في مجمع الزوائد (٩/ ١٧١).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٤٠٤) والطبراني في المعجم الكبير (٢٥/ ٨١) والبيهقي (٦/ ٢٦ـ٢٧) والحاكم (٢/ ١٨٨) وابن حبان (١١٤٤/ موارد) وانظره في مجمع الزوائد (٤/ ١٤٨).

على نسائِه واحدةً واحدةً، يبدأُ بأمِّ سَلَمة لأنَّها أكبرهُنَّ، وكان رسولُ اللهِ ﷺ يختم بي.

وأنَّها كانتْ مُحافِظةً على دِيْنِها وبِـرِّها:

روى الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ عن أُمِّ سَلَمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! إنِّي امرأةٌ أَشُدُّ ضَفْرَ رأسي، أفأنقضُه لِغُسْلِ الجَنَابة؟ فقال لها رسولُ الله ﷺ: «لا، إنما يكفيكِ أن تَحْثِي على رأسِكِ ثلاثَ حَثَياتٍ، ثم تفيضي عليكِ الماءَ، فتطهرين»(١).

وروى البخاري ومسلم ـ رحمهما الله ـ عن أُمِّ سَلَمة قالت: يا رسولَ الله! هل لي أَجْرٌ في بَنِيْ أبي سَلَمة، أُنْفِقُ عليهم، ولستُ بتاركتهم هكذا وهكذا، إنَّما هم بَـنِـيَّ؟! قال ﷺ: «نعم، لَكِ أَجْرُ ما أنفقتِ عليهم»(٢).

وأنَّها كانت راويةً للحديث النَّبوي: فقد بَلَغَ عَدَدُ الأحاديث التي رَوَتْها ثلاثمئة وثمان وسبعين حديثاً، منها تسعة وعشرون في الصحيحين، واتفق البخاري ومسلم على ثلاثة عشر حديثاً.

* حسْـنُ رَأْيـهـا:

أَكَّدتْ أُمُّ سَلَمة ـ رضي الله عنها ـ على رَجَاحةِ عَقْلِها، وجَوْدة تصرُّفِها، وحُسْنِ تفكيرها في كثيرٍ من المواقف، ومِنْ ذلك قصَّة الحديبية، فقد روى الإمام أحمد والبخاري ـ رحمهما الله ـ عن المسور بن مَخْرَمةِ ومروان بن الحَكَم، قالا:

إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ صالَحَ أَهْلَ مَكَّة، وكَتَبَ كتابَ الصُّلْح بينه وبينهم، فلمَّا فَرَغ قال للنَّاس: «قُومُوا فانحروا، ثم احلقوا».

قالا: فواللهِ! ما قام منهم رَجُلٌ، حتى قالها ثلاثاً، فلمَّا لم يَقُمْ أَحَدٌ منهم، ولاتكلَّم أحدٌ منهم، دَخَلَ على أُمِّ سَلَمة، فَذَكَرَ لها مالقي من الناس، فقالتْ أُمُّ

(١) رواه أحمد (٦/ ٣١٥) ومسلم (٣٣٠) وأبو داود (٢٥١ ـ ٢٥٢) والترمذي (١٠٥) والنسائي (١/ ١٣١).
(٢) رواه البخاري (٥٣٦٦) ومسلم (١٠٠١).

سَلَمة: يا نبيَّ الله! أتُحِبُّ ذلك؟ اخرُج ثم لاتُكلِّمْ أَحَداً منهم كلمةً حتى تنحرَ بُدْنَكَ، وتدعوَ حالِقَكَ فيحلقك.

فَخَرجَ فَفَعَلَ ذلك، فلمَّا رَأَوْا ذلك قاموا، وجَعَل بعضُهم يحلقُ بعضاً، حتى يكاد بعضُهم يقتلُ بعضاً[1].

* الـرِّحلـةُ الأخـيـرة:

عاشتْ أمُّ سَلَمة ـ رضي الله عنها ـ عُمْراً مَدِيْداً، فقد تجاوزتْ سِنَّ الثَّمانين، وكانتْ حياتُها مُفْعَمةً بالعلم، ورِواية الحديث، والجهاد، والهجرة في سبيل الله عز وجل.

وذات يوم بَلَغَها نَبَأُ استشهاد الحسنِ بن عليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ فوجمتْ لذلك، وغشي عليها، وحزنتْ عليه كثيراً، ثم لم تلبثْ بَعْدَه إلاَّ يسيراً؛ إذ استجابت لنداء ربِّها عز وجل، وخَرَجتْ روحُها الطاهرة لتستقرَّ في علِّيِّين.

وصَلَّى عليها أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ ودُفِنَتْ بالبقيع، وكانتْ آخِرَ أزواجِ النَّبيِّ ﷺ وفاةً، فرضي الله عنها وأرضاها.

* * *

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٢٣ ـ ٣٢٦) والبخاري (٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢).

ثالثاً ـ أُسَر مسلمة نموذجية:

مَنْ يقرأْ تاريخَ المرأةِ في الإسلام يَقِفْ على مكارم عظيمة، ومَنَاقب جليلة، وأخلاقٍ كريمة، وعطاءٍ بلا حُدُود، فالإسلامُ يسمو بالنفس إلى التَّضحية والفداء، والبَذْل والسَّخاء، فإذا بالفضائل تَنْضَفِرُ سِيْرةً شَذِيَّةً تُعَطِّرُ الآفاق بالذِّكْر الجميل، والإرادة القويَّة، والاسْتمرار في تحدِّي المواقف الشَّاقَّة والصَّعْبة.

وإنَّ المرأةَ في الإسلام لها دَوْرٌ مُشَرِّفٌ، يفيضُ حَنَاناً ورأفة، ويتفجَّر إيماناً وفَضْلاً، ورَباطةَ جأشٍ، وثباتاً أمام التَّحدِّيات.

إنَّه الإسلامُ عندما يتعانقُ مع النَّفْسِ الطَّيِّبة، فإنَّه يُحَلِّقُ بها عالياً في عالم الفَضْل، والهِمَّةِ العالية، مع صِدْق الإيمان، وجَلال الإخلاص في القول والعمل.

ومِنْ تِلْكُمُ النِّساء: فاطمة الزهراء، وأسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق... تلك المرأتان اللتان التي أشْرَقَ الإسلامُ في نَفْسَيْهِما، فكانتا مِنَ السَّابقات، ونشأتَا قريباً مِنْ بيت النُّبوَّة، فكان عطاؤهما كبيراً، ينحدرُ مِنْ نَبْع ثَرٍّ، فقد ترعرعتَا ونَفْسَاهما تطمحان نحو الكمال، وقُوَّةُ الخيرِ تتَّقدُ في أعماقهما بالفضائل المأثورة، والعَطَاء الدَّؤوب في مجالات الخير، والصِّدْق، والثَّبات على الحقِّ، والطاعة للزوج، وتربية الأولاد تربية صالحة مؤمنة.

* * *

(١) فاطمة بنت رسول الله ﷺ وزوجها عليٌّ بن أبي طالب

* مكارمُ حِسانٌ وفضائلُ كريمةٌ:

لا تُذكر السَّيّدةُ فاطمةُ الزَّهراءُ إلا مُتصدِّرةً عرشَ الفضائل، فهي البَضْعَةُ النَّبويةُ الشَّريفةُ الطاهرة، وزوجُ الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وأمُّ الحسن والحسين، سيِّدي شباب أهلِ الجنَّة في الجنَّة.

ولفاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها ـ سيرةٌ عَطِرة، وصفاتٌ حميدة، وخِصالٌ شريفة، يُشار إليها بالبنان بكلِّ احترام، وتقدير، نَظَراً لما اتصفتْ به من أخلاق كريمة، وأدبِ حَسَن، وفِطْنةٍ مشهودٍ لها، علاوةً على استقامتها، ورَشَادها، وجليلِ سُلوكها في رِحاب الحياة.

إنها فرعٌ من الدَّوحةِ الباسقةِ منذ أن أشرق الإسلامُ بنور هُداه، وفتحتِ الزهراءُ ـ رضي الله عنها ـ عينيها في بيت النبوة الطاهر، بجلاله، وجماله، وتَلألُئِه، فكانت آخرَ أولادِ النَّبيِّ ﷺ، ومناقبها لا تُعَدُّ لكثرتها، فهي فُضْلى النِّساء، وسيِّدتهن في الجنة، وهي جوهرةُ عالم النساء الصَّالحات، وأحبّ أولادِ النَّبيِّ ﷺ إلى نَفْسه.

ويكفي أن نشيرَ إلى قول ابن حجر ـ رحمه الله ـ أنَّ فاطمة الزهراء كانت تُدعى: «أم أبيها» وما ذلك إلا لنشاطها، ودأبها في خِدْمة النَّبي ﷺ، فكانت ترعى شؤونه كأمِّه، وتقومُ على خدمته، وتأمين وسائل الراحة له ما أمكن، فهي كالأ[م] في حُنُوِّها، ورعايتها، وعَطْفها، وخدمةِ أبنائها.

ومَنْ كالزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ في تحمُّلِ أعباءِ الحياة؟! ومَنْ مِثْلها في عَطْفها الفيَّاض، وحُنُوِّها الزَّاخر؟!

إنها ابنةُ النَّبيِّ محمد ﷺ، ويكفيها هذا فَخْراً، إضافةً إلى امتلاكها ناحية الفضائل، وتمسُّكها بالصِّفات العُلْيا التي لا تُدانى.

*** مـع أحـداث الـبعثـة الـنَّبـويَّـة:**

نشأتِ السَّيدةُ فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ في كَنَف أبيها وأمِّها، يرعيانها، ويقومان على تربيتها التربية الفاضلة الصَّالحة، حتى غَدَتْ شُعْلةً من الفضائل، إذ تربَّتْ على مائدة النُّبوَّة، وتغذَّت بلبان الإسلام، وتأدَّبت بأدب النُّبوَّة الطَّاهر الخالد.

رأتِ السَّيِّدةُ فاطمةُ الزَّهراءُ المشركين وهم يُناصبون المسلمين العَدَاءَ، ويؤذون رسولَ اللهِ ﷺ، فَيَسْخَرُونَ من دعوته، ويتّهمونه بمختلف التُّهَم الكاذبة؛ التي لا أساسَ لها من الصِّحَّة، ورسولُ الله ﷺ لا يَكِلُّ من دعوةِ الناس إلى الله تعالى، بِقَصْد هدايتهم إلى طريق الخالق المولى، وتَرْك عِبادة الأصنام، تلك التي لا تفيدُ ولا تُغْنِي.

وكان أذى المشركين دائماً، مُستمرّاً، لا سيَّما أولئك المعاندين، رؤوس الشر والفساد، أمثال: أبي لهب، وأبي جهل، وأُبيّ بن خلف، وعُقْبة بن أبي مُعَيْط، وغير هؤلاء من المعادِيْن للحقِّ، والمتطاولين على المسلمين بالأذى الشَّديد، والعَداوة التي لا تُحتمل.

وذات يوم قام عقبةُ بن أبي مُعَيْط، ووَضَع كَرْشَ جملٍ بأقذاره على ظَهْرِ رسول الله ﷺ، وهو ساجدٌ لربه عز وجل، وبعض القرشيين المعاندين يضحكون من هذا المنظر!! وإذا بالسيدة فاطمة تَسْعى بكلِّ قوتها، وتُزيل ما أُلْقِي على ظهر النبي ﷺ، وتسبُّ المؤذِين؛ الذين ألحقوا الضَّررَ برسول الله ﷺ. وينتهي ﷺ من سُجوده، ويرفعُ يديه داعياً بقوله: «اللهم عليك بأبي جَهْل بن هشام، اللهم عليك بِعُقْبة بن أبي مُعَيْط، اللهم عليك بأمية بن خَلَف»[1].

---

(١) رواه البخاري (٣٨٥٤) ومسلم (١٧٩٤/١٠٨).

وتجمدُ الضحكاتُ السَّاخرةُ على شِفاه المعاندين، والخوفُ يأكلُ قلوبَهم، والفزعُ يبدو في نظراتهم... إنَّها الدَّعواتُ النَّبويَّة. ويالها من دعوات مُستجابة، تنفتحُ لها أبوابُ السَّماء، لتنزلَ على هؤلاء الضَّالين موتاً مُحَقَّقاً بعد سنواتٍ قليلةٍ، ويُقتل الجميعُ في غزوة بدرٍ الكبرى.

*** مِحْنةُ الحزن ومِنْحةُ الصَّبر:**

كانت السَّيِّدةُ خديجةُ ـ أمُّ فاطمة الزهراء ـ خيرَ عونٍ لرسول الله ﷺ، وكان أبو طالب نِعْمَ الرجل الثَّابت إلى جانب النَّبيِّ ﷺ، وكلاهما يحمي النَّبيَّ ﷺ، ويقفُ معه في دعوته إلى الله عز وجل.... خديجة بتخفيف صُعوبات المواجهة والدَّعوة، وبذْل المال، وسَخاء النَّفْسِ، وأبو طالب بمكانته بين القرشيين، وَجَاهِه العريض.

ولكنَّ أذى المشركين اشتدَّ، وتقرَّر مقاطعةُ بني هاشم وبني المطلب، ونَبْذهم في شِعْبِ أبي طالب، تَضْييقاً عليهم، وفَرْضِ حِصارٍ شديدٍ عليهم.

وعانى البيتُ النَّبويُّ من شدَّة الحصار مُعَاناةً شديدة، وبعد انتهائه مرضتْ السَّيِّدةُ خديجة، وما لبثتْ أن لبَّتْ نداء ربِّها... وأحسَّت فاطمةُ بلوعةِ الفراق، وألمه، إذ فَقَدتْ أماً ولا كل الأمهات، إنَّها خديجةُ بنتُ خويلد، وما أدراك ما خديجة؟! وفي ذلك العامِ نَفْسِه تُوفِّي «أبو طالب» عمُّ رسولِ الله ﷺ، فَسُمِّي ذلك العامُ: عام الحزن.

وشهدتْ فاطمةُ الزَّهراءُ أحداثَ البعثة، وصُدودَ المشركين، وفَقْد الأمِّ الحنون، لكنَّ رحمةَ اللهِ آتية، والفَرَج قريب، فلا بُدَّ من الصَّبر، والتوكل على الله عز وجل، وتَفْويض الأمر إليه، فاللهُ سُبحانه نِعْمَ المولى، ونِعْمَ النَّصِير.

وعندما هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة المنوَّرة، خَرَج سِرّاً مع صاحبه الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ وترك زَوْجَه سَوْدة بنت زَمعة، وابنتيه أم كلثوم وفاطمة الزَّهراء.

ولمَّا استقرَّ الحالُ برسول الله ﷺ بَعَث في طَلَب أهله وابنتيه، وفي طريق هجرتهم لاقَوْا بَعْضاً من أذى المشركين، فها هو الضَّالُّ الحويرث بن نُقَيْذ ينخسُ

بعيرَ ابنتي رسولِ الله ﷺ، فيرمي بهما أرضاً، ويتعرَّضان للأذى في جسدَيْهما الطاهرين.

وتستمرُّ رحلةُ الهجرة حتى وصلت فاطمةُ إلى المدينة المنوَّرة، وكان لها سيرةٌ عَطِرةٌ مع الإيمان، ورَكْب الإسلامِ العظيم.

*** الـزَّواجُ المبـــارك:**

جاء عليٌّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إلى رسول اللهَ ﷺ خاطِباً فاطمة لنفسه، فاستشار ﷺ ابنته، وأفهمها أنَّ علياً فارس الإسلام، ومِنْ أكثر المسلمين حِلْماً، ومِنَ السَّابقين إلى دَوْحة الإيمان.

وتمَّت الخِطبةُ المباركة، و كان المَهْرُ دِرْعَ عليٍّ الحُطَميَّة ـ التي تحطمُ السيوف ـ وباعها عليٌّ بـأربعين درهماً، وتمَّ تجهيزُ فاطمة ـ رضي الله عنها ـ جهازاً بسيطاً، فهو مُجَرَّدُ سرير مَشْروط، ووسادة من أَدَم حشوها ليف، وإناء يُغْسَلُ فيه، ومنخل، ومنشفة، وقَدَح، ورَحَى للطَّحْن، وجرَّتان.

وتمَّ الزواجُ، وباركه رسولُ الله ﷺ بقوله: «اللهم باركْ فيهما، وباركْ عليهما، وباركْ لهما في نسلِهما»[1].

سُرَّتْ فاطمةُ بهذا الزَّواج، وطابتْ نَفْسُ عليٍّ، إذ جُمِع بينهما في بيتٍ واحدٍ، ورفرفتِ السَّعادةُ على الزوجين الطَّاهرين، وعاشا معاً يبغيان رِضا الله ورسولِه، وهما يَغُذَّان السَّيْرَ في رحاب الإسلام الحنيف.

*** محبـةُ رسـولِ الله ﷺ لابـنتـه فـاطمـــة:**

يوماً بعد يوم تتألقُ فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ أخلاقاً فاضلةً، وصفاتٍ جليلةً، وصَبْراً على مشاقِّ الحياة، بينما يحوطُ ﷺ ابنتَه بغاية اللطف والإيناس، ويكلؤها بالعطف والرعاية والحنان، فهي البَضْعَةُ النَّبويَّة، وبقيَّةُ خديجة بنت خُوَيْلد ـ الزَّوجة الوفيَّة ـ.

كانت فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ نِعْمَ البنت لأبيها، ونِعْمَ الزَّوجة لِبَعْلِها، ونِعْمَ

---

(١) رواه ابنُ سعد كما في كنز العمال (٤٥٥٧٠).

المؤمنة الصَّادقة الصَّالحة في كلِّ أبعاد حياتها، ودقائق معيشتها.

وكان ﷺ يغمرُها بحبِّه، يبتسمُ لها، ويفرحُ لقدومها، ويقفُ إلى جانبها في الأحداث والأزمات، يرعى شؤونها، ويفيضُ عليها عطفاً خالصاً، وحناناً أبويّاً صادقاً. أليس رسولُ الله ﷺ هو القائل: «إنّما فاطمةُ بَضْعَةٌ مني، يُؤذيني ما آذاها»(١)؟! ثم أليس رسولُ الله ﷺ هو القائل لِعَليٍّ: «فاطمةُ أحبُّ إليَّ منك، وأنتَ أعزُّ عليَّ منها»(٢)؟!

ولايُحِبُّ ﷺ إلاَّ طيِّباً، فهو عليه الصَّلاةُ والسَّلام يحنو على أولاده حُنُوّاً فريداً، ويعطفُ عليهم أجملَ العطفِ، وأرقاه. وقد وَصَفَهُ ربُّ العالمين بقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

لقد قابلتْ فاطمةُ الزَّهراءُ محبَّةَ أبيها لها بمزيدٍ من طاعة الله تعالى، وطاعة رسولِه، فإذا أشار لها لبَّتْ النِّداءَ بطواعيةٍ، وصِدْق.

وها هو ﷺ يُعلِّم فاطمةَ وعليّاً عندما سألاه خادماً يكفيهما أعمالَ المنزل، فقال ﷺ: «ألاَ أُخبركما بخيرٍ مما سألتماني؟». فأجابا: بلى، يا رسولَ الله! قال ﷺ: «كلماتٌ علَّمنيهنَّ جبريلُ؛ تُسبِّحانِ اللهَ في دُبُر كلِّ صلاةٍ عَشْراً، وتحمدانِ عَشْراً، وتُكبِّران عَشْراً. وإذا أويتما إلى فراشكما تُسبِّحان ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين، وتُكبِّران أربعاً وثلاثين»(٣).

وذات مرَّةٍ رأى ﷺ سلسلةً من ذَهَب في عُنُق ابنته فاطمة، فقال: «يا فاطمةُ! أيغرُّكِ أنْ يقولَ الناسُ: ابنة رسولِ الله في يدها سلسلة من نار؟!». ثم خرج ﷺ، ولم يَقْعُدْ، فأرسلتْ فاطمةُ بتلك السلسلة ـ التي كان عليٌّ زوجها قد أهداها لها ـ إلى السوق، فباعَتْها، واشترتْ بثمنها غلاماً، فأعتقته، فَحُدِّث ﷺ بذلك، فقال: «الحمدُ للهِ الذي أنجى فاطمةَ من النار»(٤).

بهذه الأخلاق الكريمة، والأعمال الفاضلة، استطاعتْ فاطمةُ الزَّهراءُ أن تنالَ

---

(١) رواه البخاري (٣٧٢٩) ومسلم (٢٤٤٩/٩٦).
(٢) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٩/ ٢٠٥).
(٣) رواه البخاري (٥٣٦٢) ومسلم (٢٧٢٧).
(٤) رواه أحمد (٥/ ٢٧٨ و٢٧٩) والنسائي (٨/ ١٥٨) والحاكم (٣/ ١٥٢ ـ ١٥٣).

محبَّة رسولِ الله ﷺ، وتتفرّد بالسِّيادة على نساء أهل الجنة، وتلك منزلةٌ فُضْلى نالتها فاطمةُ بطاعتها لله وللرسول، وبإيمانها العميق، وزُهْدِها في الحياةِ الدُّنيا.

* أمُّ الحسن والحسين:

رُزِقت فاطمةُ الزَّهراءُ ـ رضي الله عنها ـ ذريّةً طيِّبةً مُبارَكةً، فكان الحسنُ والحُسَيْن ابنَيْن كريمَيْن، نالا من الطُّهْر، والسِّيادة، ومحبَّةِ رسولِ اللهَ ﷺ الشَّيءَ الكثير، حتى قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام: «هما ريحانتاي مِنَ الدنيا»[1]. وقال أيضاً: «الحسنُ والحسينُ سيِّدا شباب أهل الجنة»[2].

الله أكبر! لقد بلغتِ الذُّرِّيةُ الطيبة مَقَاماً عَلِيّاً في نَفْس النَّبيِّ ﷺ، وفي نَفْسَي الوالدين الكريمَيْن، وفي نفوس الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ.

وتلقَّى الحسنُ والحسينُ تربية نبويةً لائقةً، مِلْؤُها العطفُ والحنان، ومقصدُها تكوينُ شخصيَّةٍ متوازنة إيجابية، تسعى في هذه الحياة للسَّير قُدُماً نحو تحقيق الأهداف الصحيحة، في مجالات الحق، والخير، والصَّواب، وصولاً إلى إعلاء كلمة التوحيد خفَّاقة في الأعالي.

هذا وإنَّ الحسن والحسين من ذُرِّيّة النبي ﷺ، وفاطمة الزهراء هي الوحيدة من بنات النبي ﷺ التي لها ذُرِّيّة. قال الإمامُ ابن قيِّم الجَوْزيَّة في كتابه: «جلاء الأفهام»: فَمَنِ انتسب إليه ﷺ من أولاد ابنته، فإنمَّا هو من جهة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ خاصَّةً؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ في الحسن ابن ابنته: «إنَّ ابني هذا سيِّد»[3] فسمَّاه ابْنَهُ.

* شهادات زاكية:

قالت السيدةُ عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ: ما رأيتُ أحداً أَشْبَهَ سَمْتاً، ودلاًّ، وهَدْياً برسول الله منها في قِيامها وقُعُودها؛ من فاطمة بنتِ رسولِ الله ﷺ. كانتْ إذا دخلتْ على رسول الله ﷺ قام إليها، فقَبَّلها، وأَجْلَسَها في مجلسِه.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٤) والترمذي (٣٧٧٠) وأحمد (٢/ ٩٣ و١١٤).
(٢) رواه أحمد (٣/ ٦٢ و٦٤ و٨٢) والترمذي (٣٧٦٨) وابن أبي شيبة (١٢/ ٩٦).
(٣) رواه أحمد (٥/ ٤٩) والبخاري (٢٧٠٤) وأبو داود (٤٦٦٢) والنسائي (٣/ ١٠٧).

وقال ابنُ جَمَاعة في كتابه: «غُرَر التبيان»: وأمَّا بناتهُ فأربع: أكبرهنَّ زينب زوج أبي العاص بن الربيع، ثم رُقَيَّة زوجة عثمان، ثم أمّ كلثوم زوجه بعدها، ثم فاطمة، وهي أفضلهنَّ، وجميعهنَّ من خديجة، رضي الله عنهنَّ.

وعن النَّبيِّ ﷺ قال: «أفضلُ نساءِ أهلِ الجَنَّة: خديجة وفاطمة»(١).

وحَسْبُ الزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ قوله ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمل من النِّساء إلاَّ: مريم بنت عِمْران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خُوَيْلد، وفاطمة بنت محمد»(٢).

فرضي اللهُ تعالى عن فاطمة، فكم كانت فضائلُها، ومآثرُها خالدةً عَبْرَ العصور؟! إنَّها ابنةُ النبي، خير الخَلْق كلهم، وأكرمْ بهذا النَّسَب!

*** الـزَّهراءُ واللحظـاتُ الأخيرةُ من حياتها:**

ألمَّ المرضُ بفاطمة ـ رضي الله عنها ـ واشتدَّ عليها؛ حتى أقعدها في الفِراش، وشعرتْ بدنوِّ أَجَلها، فجاءها ولداها الحسنُ والحسين، وابنتاها زينب وأم كلثوم، كلهم يحزنُ أبلغَ الحزن على الفراق، فهي أمُّهم، وهل في الدُّنيا أجمل من الأم؟! وهل هناك أقربُ من الأم إلى قلب الإنسان؟!

لكنَّه الفِراقُ الذي ليس منه مَفَرٌّ، فهكذا الدنيا: اجتماع ثم وداع.... وحانتْ لحظات الفراق، واعتصر الأسى أفئدةَ الحاضرين.

وفاضت الروحُ إلى بارئها سنة (١١هـ)، وحَوْقَل الجميعُ، واسْتَرْجَعُوا، إنَّه ابنةُ النبي ﷺ، وأمُّ الحسن والحسين، والمرأة المطيعة لزوجها، وسيِّدة نساء أهلِ الجنّة، فاطمةُ الزهراء، فرضي الله عنها وأرضاها.

* * *

---

(١) رواه أحمد (١/٢٩٣) وأبو يعلى في مسنده (٢٧٢٢) والحاكم (٢/٥٩٤) وابن حبا (٧٠١٠) والطبراني في المعجم الكبير (١١٩٢٨).

(٢) رواه البخاري (٥٤١٨) ومسلم (٢٤٣١)..

(٢) أسماء بنت أبي بكر وزوجها الزبير بن العوَّام

*** نَشأةٌ طيِّبةٌ:**

نشأتْ أسماء في بيتِ الإيمان، والسَّبقِ إلى الإسلام، والتَّحلِّي بالفضيلة، فكان لهذا النُّشُوء أثَرٌ يتعالى مع الزَّمَنِ، وينضحُ خيراً كُلَّما مَضَتِ الأيام، وتقدَّمتِ السِّنُون.

إنَّ شُعاعَ الخيرِ لم ينطفئ في نَفْسِ أسماء - رضي الله عنها - بل استمرَّ مُتَوَهِّجاً؛ كالمنارة تُضِيءُ الدَّرْبَ للسَّائرين، فإذا بهذه الصَّحابية الكريمة تفيضُ خيراً في ميدان السِّباق إلى الأخلاق النَّبيلة، والسُّلوكِ الجيِّدِ الإيجابيِّ البنَّاء.

وحيثما نَظَرْنا في أُسْرَة هذه الصَّحابية نجد السَّبق إلى الإيمان، وحيازة الفضائل، كما نجد العَقْل الرَّاجح، والعطاء الموفور.

فأبو بكرٍ الصِّدِّيق، والدُ أسماء: شيخُ المسلمين، وثاني اثنين إذْ هُما في الغار، وصاحبُ رسول الله ﷺ قَبْلَ النُّبوَّة وبعدها، وكان المؤمنَ الأوَّل؛ حتى قال عنه رسولُ الله ﷺ: «ما دَعَوْتُ أَحَداً إلى الإسلام إلاَّ كانتْ له كَبْوَةٌ غير أبي بكر»(١).

وكان أبو بكر أوَّلَ مَنْ سُمِّي خليفة، وكان يحملُ رايةَ رسولِ اللهِ ﷺ في آخر غزواته، وهي غَزْوةُ تَبُوك، وأَمَرَهُ ﷺ أنْ يحجَّ بالمسلمين في السَّنَة التاسعة، وفضائلُه كثيرة، وأعماله عَظيمة، فرضي اللهُ عنه وأَرْضاه.

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٦٤) وابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣١٨) وانظره في الرياض النضرة رقم (٣٣٥).

وشقيقُها عبد الله: كان يأتي النَّبيَّ وأبا بكر بأخبارِ قُريش وهما في الغار، وكان يومئذٍ شابّاً في مقتبل عمره، يبيتُ عندهما، ويخرجُ في السَّحَر فيصبح مع قُريش. وقد جُرِح بالطائف، وتُوفِّي في أَوَّلِ خلافةِ أبيه رضي الله عنه.

وأُختُها عائشة: وهي أَفْقَهُ نساء المسلمين، وأعلمهنَّ بالدِّيْن والأدب، وهي أمُّ المؤمنين، وحياتُها حلقاتٌ مُتَّصلةٌ مِنَ الإيمان، والخُلُق النَّبيل، والعِلْم، والجِهاد.

وزَوْجُها الزُّبَيْر بن العَوَّام: حَوَارِيُّ رسولِ الله ﷺ، وأَحَدُ العَشَرة المشهود لهم بالجَنَّة، وأَحَد السِّتَّة أصحاب الشُّورى. هاجر الهِجْرتَيْن، وشَهِد المشاهد، وقُتِل غَدْراً سنة سِتٍّ وثلاثين للهجرة النَّبويَّة.

وابْنُها عَبْدُ الله بن الزُّبَيْر: فارسُ قُريش، وأَوَّلُ مولودٍ في المدينة المنوَّرة بعد الهجرة، شَهِد فَتْحَ إفريقية زَمَنَ عثمان بن عَفَّان، وبُويِعَ بالخلافة سنة أربع وسِتِّين للهجرة، وكانت له مع الأمويِّين وقائع هائلة، انتهتْ بِمَقْتَلِه سنة ثلاثٍ وسبعين للهجرة بَعْدَ خلافةٍ امتدَّتْ تِسْعَ سَنَواتٍ.

فَأَكْرِمْ بهذا البيت الصِّدِّيق، رِجالاً ونِساءً! فكلُّهم نَفَحاتٌ عَطِرةٌ تعبقُ بالخير، وتنشرُ الفضائلَ في كُلِّ مكانٍ حَلَّتْ فيه... إنَّه جِيْلُ الصَّحابةِ الكريم، ذاك الرَّعيلُ الأَوَّلُ؛ الذي أَعْطى بلا حُدُود، فكان سَبَّاقاً في المكارم، خَيِّراً في مجالاتِ الحياة كُلِّها.

* أَحْـداثٌ عظيمـةٌ وأخـلاقٌ نبيـلة:

أذِنَ الله عزَّ وجلَّ لرسوله الكريم ﷺ بالهِجْرة، فَذَهَبَ إلى بيت أبي بكرٍ الصِّدِّيق في حَرِّ الظهيرة، يُعْلِمه بأنَّه سَيُهاجِر، وهناك كانتْ أسماء ـ فتاة الإسلام الأولى ـ تحفظُ سِرَّ رسولِ الله ﷺ.

وحَلَّتْ أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ في عالم الفَضْل والعطاء، فكانت تمشي مسافةً طويلةً مِنْ بيتِ أبيها إلى غار ثَوْر ـ الذي اختبأ فيه رسولُ الله ﷺ وأبوه أبو بكر ـ وهي تحملُ الطَّعامَ لهما، وتأتيهما بالأخبار.

وقد عانتْ هذه الفتاةُ ـ وهي في أوَّل عمرها ـ من مَشَقَّات السَّيْرِ على الأقدام، وتَسَلُّقِ الجبل، ومقاومة خَوْفِ الليل، ووَحْشةِ الطَّريق، والحَذَر من كُفَّار مكة؛ لِئلاَّ يَـرَوْها في ذهابها ورجوعها.

وهذا يَجْعَلُ من أسماء ـ رضي الله عنها ـ شُجاعةً مِنَ الطِّرازِ الأوَّل، فقد تحمَّلتْ ـ وهي الفتاةُ الحديثةُ السِّنِّ ـ ما لا يقدرُ عليه كثيرٌ مِنَ الرِّجال؛ مِنْ: حِفْظ السِّرِّ، والجُرْأة، والثَّبات، والعطاء، والتَّرقُّب.

إنَّها أسماء... ويكفيها فَخْراً قيامُها بهذا العملِ الجادِّ في حَدَثِ الهجرة العظيم، علاوةً على قُوَّة نَفْسِها، وثَبَاتِ فُؤادِها، وقُدْرتها على تحمُّل الشَّدائدِ، ومواجهة المشقَّات.

ويُحدِّثنا التاريخُ أنَّ لأسماء لَقَباً كريماً هو: «ذات النِّطاقَيْن»، فما سَبَبُ هذا اللقب؟

تُحَدِّثُنا كُتُبُ السِّيرةِ النَّبويَّة أنَّ أسماء بنت أبي بكر كانت تأتي رسولَ الله ﷺ وأباها أبا بكر بالطعام، وهما في غار ثَوْر، وأنَّها أَتَتْهُما بِسُفْرتهما، ونسيتْ أن تَجْعَلَ لها رباطاً، فَحلَّتْ نِطاقَها، وشقَّتْهُ نِصْفَين، وجعلتْ نِصْفَه الأول على وسطها، والنِّصْف الآخر ربطت به سُفْرة الطعام، فكان يُقال لها: ذات النِّطاقَيْن.

ومايزالُ التَّاريخُ يذكرُ هذه الفضيلة لأسماء، لا سيَّما وقد قال رسولُ الله ﷺ لأسماء: «قد أبدلكِ اللهُ بنِطاقِكِ هذا نِطاقَيْن في الجَنَّة»[(١)].

وسُرَّتْ أسماءُ بهذه البُشْرَى، وسَجَّلها أبو نعَيْم في «حِلْية الأولياء» بقوله:

الصَّادقةُ الذَّاكرة، الصَّابرةُ الشَّاكرة، أسماء بنت الصِّدِّيق الشَّاقَّةُ نِطاقها؛ لِمِعْصَمِ قِرْبة النَّبيِّ ﷺ وعِلاقها.

*** مـواقف لاتُـنْسَى:**

إنَّ حياةَ أسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنها ـ تنضحُ بكلِّ طِيْب، وذِكْرٍ حَسَن، ومواقف مُضِيئة، تجعلُ من هذه المرأة سلسلةً مِنَ النُّبْلِ، والخُلُقِ القويم، والسُّلوكِ الإيجابيِّ.

وسنذكرُ موقفَيْن من حياة أسماء، الأوَّل منهما يدلُّ على إيمانها الرَّاسخ، والثاني يتوهَّجُ ثباتاً في وَجْه البغي، وتحدِّياً لِقِوى الشِّرْك والضَّلال.

---

(١) انظره في الإصابة (٤/ ٢٣٠).

أمَّا الموقفُ الأوَّلُ فَتُحدِّثنا عنه أسماء بنفسها؛ إذ تقول:

لَمَّا خَرَج رسولُ اللهِ ﷺ، وخَرَج أبو بكرٍ معه، احْتَمَلَ أبو بكرٍ مالَهُ كُلَّه، ومعه خمسةُ آلاف دِرْهم، أو سِتَّة آلاف، فانطلق بها معه، فَدَخَلَ علينا جَدِّي أبو قُحافة، وقد ذهب بَصَرُه، فقال: واللهِ! إنِّي لأراه قد فجعكم بماله مع نَفْسِه، فقلتُ: كلاَّ يا أبتِ! إنَّه قد تَرَكَ لنا خَيْراً كثيراً. فأخذتُ أحجاراً، فوضعتُها في كُوَّةٍ في البيت الذي كان أبي يضعُ مالَهُ فيها، ثم وضعتُ عليها ثوباً، ثم أخذتُ بيده، فقلتُ: يا أبتِ! ضَعْ يَدَكَ على هذا المال، فَوَضَعَ يَدَهُ عليه، فقال: لا بأسَ، إذا كان تَرَكَ لكم هذا فقد أَحْسَنَ، وفي هذا بَلاَغٌ لكم. ولا واللهِ! ما تَـرَكَ لنا شيئاً، ولكنِّي أردتُ أَنْ أُسَكِّنَ الشيخَ بذلك.

والموقفُ الثَّاني ترويه أسماءُ أيضاً، فتقول:

لَمَّا خَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أتانا نَفَرٌ مِنْ قُريش، فيهم أبو جَهْل بن هِشام، فَوَقَفُوا على بابِ أبي بكر، فخرجتُ إليهم، فقالوا: أين أبوكِ يا بنتَ أبي بكر؟ قالتْ: قلتُ: لا أدري واللهِ أين أبي. فَرَفَعَ أبو جَهْلٍ يَدَهُ ـ وكان فاحِشاً خبيثاً ـ فَلَطَمَ خَدِّي لَطْمةً طَرَحَ منها قُرْطي.

وقد صَوَّر الشاعر أحمد مُحَرَّم في ديوانه «مجد الإسلام» هذه الحادثة فقال:

وَيْـحَ أسمـاءَ إذْ يجـيءُ أبـو جَهْـ ـلِ على خِـدْرها المصونِ مُغِيْرا
صـاحَ: أسمـاءُ أيـن غـاب أبـو بكـ ـرٍ؟ أجيبـي فقـد سَأَلْنـا الخبيـرا
قـالـتْ: العِلْـمُ عنـده مـاعَهِـدْنـا أَجَـمَ الأُسْـدِ تستشيُـر الخُـدُورا
فـرمـاهـا بلطمـةٍ تُعْـرِضُ الأَجْيـا لَ عَـنْ ذِكْـرِهـا صَـوَادِفَ صُـورا
قَـذَفَـتْ قُـرْطَهـا بَعيـداً ورضَّـتْ مِـنْ وُجُـوهِ النَّبـيِّ وَجْهـاً نَضِيْـرا

* زوجـةٌ صابـرةٌ شـاكـرة:

تزوَّج الزُّبَـيْـرُ بنُ العَوَّام أسماءَ بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ فكانت صابرةً على معيشتها، شاكرةً لِنِعَم ربِّها عزَّ وجلَّ.

ولم يكنِ الزُّبَيْرُ غنيّاً، فليس له من متاع الدُّنيا سوى فرسه، وكانت أسماءُ تعلفُ هذا الفرس، وتكفيه مؤونته، وتسوسه، وتدقُّ النَّوَى، وتسقيه الماء، وتعجن، إضافةً إلى أعمال البيت، وخِدْمة الزَّوج.

وكان الزُّبَيْرُ شديداً عليها، فأَتَتْ أباها، وشَكَتْ ذلك إليه، فقال: يا بُنيَّة! اصْبِري فإنَّ المرأةَ إذا كان لها زَوْجٌ صالح، ثم مات عنها، فلم تتزوَّجْ بعده، جَمَعَ اللهُ بينهما في الجَنَّة.

وهذه الزَّوجةُ الصَّابرةُ على مَشَقَّات الحياة؛ كانت عميقةَ الإيمان، فَصبَرَت على خُشُونةِ العيش، بعد أنْ عَرَّفها أبوها أنَّ أهمَّ صفةٍ في الرَّجُل: صلاح حاله، وحُسْن أخلاقه، وطِيب سُمْعَتِه.

*** عزيمةٌ ماضيةٌ ونَفْسٌ عزيزةٌ:**

اتَّسَمَتْ أسماءُ بنت أبي بكر الصِّدِّيق بصفاتٍ عزيزة، قلَّما نجدُها عند غيرها؛ من: مَضَاء العزيمة، وعِزَّة النَّفْس، والشَّجاعة النَّادرة. وهذا يبدو لنا في كلماتها لابنها «عبد الله» لمَّا دَخَلَ عليها وهي عمياء، وقد بلغتْ مئة سنة، فقال لها: يا أُمَّاه! خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يَبْقَ معي إلاَّ اليسير، والقوم يعطونني ما أردتُ من الدنيا، فما رأيُكِ؟

فقالت: أنتَ واللهِ يا بُنيَّ أَعْلَمُ بنفسكَ، إنْ كنتَ تعلمُ أنَّكَ على حقٍّ، وإليه تدعو فامْضِ له، فَقَدْ قُتِل عليه أصحابُك. وإنْ كنتَ إنَّما أردتَ الدُّنيا فبئس العبدُ أنتَ، أهلكتَ نَفْسَك، وأهلكتَ مَنْ قُتِل معك. وإنْ قُلْتَ: كنتُ على حقٍّ فلمَّا وَهَنَ أصحابي ضعفتُ، فهذا ليس فِعْلُ الأحرار، ولا أهلُ الدِّيْن؛ وكم خلودُكَ في الدُّنيا؟! القَتْلُ أَحْسَن.

هذه الكلماتُ الحكيمة لاتقولُها إلا أسماء، أو مَنْ في مِثْل عَقْلِها، وقوَّة عزيمتها، فَلِلَّه درُّها كم كانت نَفْسها كبيرة، وحِكْمتُها بالغة!

*** الكريمةُ السَّخيَّةُ:**

إنَّ جُودَ أسماء ـ رضي الله عنها ـ لا يُوصَف؛ إذْ كانت تُعْطي العطاءَ الكثير، ولا تدَّخِرُ شيئاً لِغَدٍ، فَلِكُلِّ يومٍ رِزْقُه، حتى إنَّها كانتْ تَمْرَضُ المرضةَ فتعتقُ فيها كُلَّ مملوك لها.

وكانت تقولُ لبناتها وأهلها: تَصَدَّقْنَ وأَنْفِقْنَ، ولا تنتظرنَّ الفَضْلَ؛ فإنَّكُنَّ إنِ انتظرتُنَّ الفَضْلَ لم تفضلن شيئاً، وإن تصدَّقتنَّ لم تَجِدْنَ فَقْدَهُ.

وكانتْ أسماءُ ـ رضي الله عنها ـ سَخِيَّةَ النَّفْسِ، وهذه صِفةٌ نادرةٌ في النِّساء، فَأَكْرِمْ بها من مَنْقَبة! وأَعْظِمْ بها مِنْ مَكْرُمة!

وهاهي أسماءُ تقول: قال لي النَّبيُّ ﷺ: «لا تُحْصِي فَيُحْصِي اللهُ عليكِ»[1] لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُثيبُ على العطاء بغير حِساب، ومَنْ عَلِم أنَّ اللهَ يرزقُه مِنْ حيثُ لا يحتسبُ، فعليه أن يُعْطِي ولا يحسب.

وهكذا كانتِ السَّيِّدةُ أسماء ـ رضي الله عنها ـ تُعْطِي بلا حساب، بعد أنْ أَمَرَها ﷺ ألَّا تبخلَ بالنفقة أو الصَّدقة فَتُجازى بِمِثْل ذلك، فاللهُ تعالى كريمٌ يحبُّ الكُرماء، مُحْسِنٌ يحبُّ المحسنين.

*** البـارَّةُ بأُمِّهـا:**

أَمَرَ الإسلامُ بتوثيقِ العلاقةِ بين الأبناء والوالدَيْن، بحيث يبقى الابنُ بارّاً بأهلِه، سَخِيّاً معهم، يُقَدِّرُ ما يقومانِ به مِنْ رعايةٍ، وعنايةٍ، وسَعْي حثيثٍ؛ لينشأ الأولادُ بخيرٍ وسعادة.

ولكنْ ماموقفُ الولد المؤمن مِنْ أَهْلِه الذين لم يؤْمِنُوا؟

فَعَنْ أسماء بنت أبي بكر قالتْ: قلتُ: يا رسولَ الله! إنَّ أُمِّي قَدِمَتْ عليَّ وهي راغبـةٌ، أَفَـأَصِلُها؟ قال: «نَـعَمْ صِـلِي أُمَّكِ»[2].

وفيها نَـزَل قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ [الممتحنة: ٨].

ففي هذه الآية دليلٌ على استحسان صِلَةِ الأبوَيْن المشركَيْن، كما قال تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

*** في رِحـاب الخُـلُود:**

بَعْدَ رِحلةٍ طويلةٍ مِنَ الجهاد، والعلم، والفِقْه، وحُسْن الأخلاق، وطِيْب الأُحْدُوثة، كان لا بُدَّ مِنْ مفارقةِ الدُّنيا، والظَّفَر بلقاء الله عزَّ وجلَّ، بعد أن بَشَّر

---

(١) رواه البخاري (١٤٣٣) ومسلم (١٠٢٩) وأبو داود (١٦٩٩).

(٢) رواه البخاري (٢٦٢٠) ومسلم (١٠٠٣).

رسولُ اللهِ ﷺ أسماءَ بالجنَّة، فتوفِّيتْ بعد مَقْتل ابنِها عبدِ الله بليالٍ، سنة ثلاث وسبعين من الهجرة النبوية.

وقد كانتْ حياةُ أسماء مِلْؤُها الخيرُ، والسَّداد، والجود، فرضي الله عنها وأرضاها.

* * *

الفصل الثاني

الأسـرة فـي الـخـلافـة الـراشـــدة

أولاً: اتبـاع ومتابعـة.

ثـانيـاً: مواقـف نسائيـة متألقـة.

أولاً: اتبـاع ومتـابعــة:

مِنَ المعالم الواضحة في تاريخ الإسلام أن الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ يُمثِّلون النموذج الأسمى على مدار التاريخ، والصورة الكاملة للإنسان الحق. فعن عبد الله بن مسعود قال: «إنَّ الله نظر في قلوب العباد، فاختار محمداً ﷺ فبعثه برسالته، وانتخبه بعلمه، ثم نظر في قلوب الناس بعده فاختار له أصحاباً، فجعلهم أنصار دينه، ووزراء نبيِّه ﷺ»(1).

والناظرُ في حياة الصحابة يجدها مليئة بالخير والصواب والصلاح؛ في ميادين النفوس، ونواحي الأخلاق، وجوانب الآداب، في الظاهر والباطن، وهم ـ أي: الصحابة ـ السيرة القدوة لمن جاء بعدهم، فقد نهلوا من سيرة المصطفى ﷺ، وائتسوا بهديه الصافي، ووردوا نَبْعَه الثَّر المبارك، فاستحقوا كل صفة كريمة وصفهم بها اللهُ عز وجل بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وإن الكُتُب والموسوعات التي حَوَتْ أسماء الصحابة، وتحدَّثَتْ عن مجريات حياتهم، تُعْلِن بقوة لا تقاوم: أنَّ جيل الصحابة نأى عن الجاهلية بكل ما فيها من ضلالات، والتواءات، وتمسَّك بأهداب الدين الحنيف، مُعْلِناً انسجامه مع هدي السماء، وكمال الرسالة المحمدية، ونصاعة السيرة النبوية.

وهؤلاء الصحابة هم الصورة الوضيئة، التامة في تلألئها ونضارتها وجلالها، فقد صَعِد أولئك الخالدون في مرتقى صعب عال، لكن ذلك الصعود منحهم سموّاً في الحياة، ووهبهم جنَّات في الآخرة، مع الذِّكْر الحسن، وكونهم نموذجاً مثالاً فذّاً على مرّ الأيام وكرِّ العصور.

والصحابة الكرام هم الرعيلُ الصالح الذي تغذّى على مائدة القرآن الكريم، وتربى وفق تعاليم رسول الله ﷺ، وقام بأعباء الدعوة خير قيام، وكان الإيمانُ في

---

(1) حياة الصحابة (١/٤٦).

قلوبهم أرسخ من الجبال ، وما كانوا كذلك إلاَّ لاقتدائهم بالرسول القائد ﷺ ، فالاقتداء به أول درجات طريق الهداية.

وكان تلقِّيهم بشكل مباشر ، فسمعوا منه الأحاديث الطيبة ، وتفانوا في تنفيذ الأوامر ، واجتناب النواهي ، فكانت استجابتهم رائدة متألقة؛ فارتقوا رقياً ما بعده رقي ، وما ذاك إلا لاتباعهم ما جاء في القرآن والسنة ، وتحويل القول إلى فِعْلٍ حركي ملموس ، حتى أصبحوا قدوةً للآخرين ، يُؤْخَذ عنهم الدينُ والدعوةُ والخُلُق القويم. يقول عبدُ الله بن عمر: «مَنْ كان مُستناً فليستنَّ بمن قد مات ، أولئك أصحابُ محمد ﷺ ، كانوا خيرَ هذه الأمة ، أبرَّها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلّها تكلُّفاً ، قوم اختارهم اللهُ لصحبة نبيِّه ﷺ ونَقْل دينه ، فتشبَّهوا بأخلاقهم وطرائقهم؛ فهم أصحابُ محمد ﷺ كانوا على الهدى المستقيم ، واللهِ ربِّ الكعبة»[1].

ووصفهم التابعيُّ الجليل مسروق بن الأجدع فقال: «شاممتُ أصحابَ محمد ﷺ فوجدتهم أشبه بالإخاذ ، تكفي الإخاذةُ الراكبَ ، وتكفي الإخاذةُ الراكبين ، وتكفي الإخاذة الفِئامَ من الناس ، والإخاذةُ لو صدر عنها الناسُ جميعاً لكفتهم»[2].

من الوجوهِ المصابيح الذين همُ كأنهم من نجومٍ حيّةٍ صُنِعوا
أخلاقُهم نورُهم مِنْ أيِّ ناحيةٍ أقبلتَ تنظر في أخلاقهم سطعوا

لذا لا نعجب إن ذكرهم اللهُ عز وجل في كتابه الكريم ، فقال عز وجل فيهم:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وقام الصحابةُ الكرام بمتابعة الرسول ﷺ ، ونَصْره ، ومؤازرته ، قال تعالى:

---

(١) حياة الصحابة (١/٤٦).

(٢) «شاممت»: عرفت. «الإخاذ»: جمع إخاذة ، وهي غدير الماء. «الفئام»: الجماعة من الناس.

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَـٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧].

واستمر الصحابةُ يأتسون بالنبي ﷺ القدوة المثلى لبني الإنسان، فاستمدوا منه ﷺ ذخائر الخُلُق الرفيع، وكنوز الإيمان العميق، ولآلىء الآداب الحميدة، ودُرَر التصور الأصيل للقيم، ودراسة آفاقها، والتفيُّؤ بظلالها.

ويرسم عبدُ الله بن عمر فكرة الائتساء برسول الله ﷺ، وهو أحد عمالقة الصحابة ـ والصحابة كلهم عمالقة في الفكر والإيمان والاقتداء ـ حيث كان يتحرّى اتباع الرسول ﷺ، وتمثُّل أسلوبه في الحياة، وترسّم خطاه، حتى إنه كان يسير بناقته في المواضع التي سارت عليها ناقةُ رسول الله ﷺ «لعلَّ خُفّاً يقع على خف»(١) وكان يقول: «بَعَثَ اللهُ نبيَّه ونحن أجفى الناس، فنصنع كما صنع رسولُ الله ﷺ»(٢).

والصحابة حماةُ الدين، وخيار الأمة، وأعلام الإسلام، وأكثر الناس صدقاً وإخلاصاً وتقى وتضحية وفداء، فكانوا أفراداً متميزين في حُسْن الاتباع، ومصداقية الفعل، والاشتغال بمتطلبات الإيمان، وقضايا الدعوة، ومتابعة السيرة النبوية في عمومها وتفاصيلها، فكان التزامهم لبناء ذواتهم بناءً سليماً، وبناء أُسَرهم على ما يرضي الله ويرضي رسول الله ﷺ، وبالتالي وُجِد مجتمع صالح يتكون من خيار الأمة، وصالحي الأجيال، وتلك قاعدة صُلبة وأساسية تزيد البناء قوة وأصالة ومتانة.

لقد أراد الصحابةُ الجهادَ في سبيل الله، فإذا ما ضاقت أيديهم، ولم تتهيأ لهم أسباب الاشتراك في الغزوات، أصابهم الحزن. قال تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا

---

(١) حياة الصحابة (٢/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥).
(٢) المصدر السابق.

﴿مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

فإذا أُصيب أحدهم في سبيل الله هتف بملء فيه: «فزتُ وربِّ الكعبة»[١].

وقد أراد الصحابة أن تسبقَ أعمالُهم أقوالَهم، وهذا سِرُّ رقيهم، حتى أنَّ أطفالهم ضربوا أروع الأمثلة في الإخلاص والإيمان، فكم من طفل مسلم في عهد الصحابة أراد أن يسبق غيرَه للاشتراك في المعركة، فردّه ﷺ لصغر سِنِّه، فما كان منه إلا أن أجهش في البكاء، فهو يريد أن يستشهد في سبيل الله تعالى.

إنهم أطفالٌ من أُسَر الصحابة الكرام؛ الذين نشؤوا على تعاليم القرآن، وتلقوا تربية نبوية فريدة، فكانوا رعيل القدوة، وجيل الأسوة الحسنة.

ولم يتفوق أفرادٌ في جيل الصحابة، بل كانوا جميعهم متفوقين، مندفعين للعمل، وبناء الأمة، والدعوة إلى الله، واتباع المنهج الرباني، وكانت التربيةُ التي تلقوها عملية ميدانية واقعية، تُصحِّح الفهم، وتوجِّه النفس، وتركِّز على ضرورة تحمُّل التبعات، فالصحابةُ بناةٌ حقيقيون، صفتْ نيّاتهم، وزكا عملهم، فكانوا قدوة مثالية، ودلائل وضيئة لمن أراد متابعة الطريق، وانتهاج جادة الحق.

ويعجبُ المرءُ وهو يتأمَّلُ سِجلاَّت التَّاريخ، وينظرُ إلى تلك الصَّفحاتِ المشرقةِ في دُنيا الأوائل، فإذا به يُؤْسَرُ أمام أسماء لامعةٍ؛ أَعْطَتِ الكثيرَ، وفاضَتْ خيراً، وصَفَاءً، ونقاءً، وعُرِفَتْ بالإيمانِ الصَّادق، والجهادِ الباسل، والصَّبْرِ في شدائد المِحَن، والأحداث القاسية.

فأوَّلُ مَنْ بايَعَ النَّبيَّ ﷺ من نساء الأنصار: أمُّ عامر الأشهليَّة.

وأوَّلُ بِكْرٍ هاجرتْ: أمُّ كلثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيْط.

وأوَّلُ مَنْ غَزَا في البحر: أُمُّ حرام بنت مِلْحان.

وأوَّلُ مَنْ آمَنَ برسول الله ﷺ: خديجةُ بنتُ خُوَيْلِد.

وأوَّلُ مَنِ استشهد في الإسلام من النساء: سُمَيَّةُ بنتُ خُبَّاط.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٩٢).

وسلسلةُ الأوائلِ لاتكادُ تنتهي، إلاَّ أنَّ النِّساءَ لهنَّ الحظُّ الأوفرُ في هذا المجال، وتبدو كلُّ واحدةٍ منهنَّ عليها سِماتُ السُّؤْدُد، وصِفات النُّبْل.

والأمثلة في حياة الصحابة كثيرة، فهم كالنجوم المنيرة في الليل، ولكنا سنكتفي بعرض نموذج واحد من الأسرة الياسرية؛ التي أعطتْ ألواناً من التضحية، والثبات على المبدأ، فكانت من خير الأُسَر على مدى التاريخ.

* آلُ يـاسـر:

حَفَلَ تاريخُ المسلمين بِأُسَرٍ كثيرةٍ آمَنَ أفرادُها كلُّهم، واستنشقوا عبيرَ الحقِّ والخير، فخالَطَ دماءهم، وانداح فـي صُـدُورهم إيماناً عميقاً وقويّاً كالجبال. ومِنْ تلك الأُسَر التي يُشار إليها بالبَنَان: الأسرةُ الياسريَّةُ المؤلَّفة مِنْ:

ياسر بن عامر العَنْسِيّ: حليف آل مخزوم، قَدِم من اليمن، فحالَفَ أبا حذيفة بن المغيرة المخزوميّ، فزوَّجه أَمَةً له، يُقال لها: سُمَيَّة، فَوَلَدَتْ له عَمَّاراً، فأعتقه أبو حذيفة.

وتعرَّض ياسر(أبو عمَّار) للعذابِ الشَّديد بعد أن آمَنَ، وأُوذِي أذىً كبيراً، وصَبَر صَبْرَ المؤمنين الأتقياء، لكنَّ العذابَ كان شديداً، فخرجتْ روحُه من جَسَدِه وهو يُردِّد: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فرضي اللهُ عنه وأرضاه.

وعَمَّار بن ياسر: الصَّحابيُّ المشهور، وهو أَحَدُ الولاةِ الشُّجعان، ذوي الرَّأْي، وأَحَدُ السَّابقين إلى الإسلام والجَهْر به.

هاجَرَ إلى المدينة المنوَّرة، وشهد بَدْراً وأُحُداً والخندق وبَيْعة الرِّضوان. وكان النَّبيُّ ﷺ يُلقِّبُه: «الطَّيِّب المطَيَّب». وقال عنه ﷺ: «ما خُيِّر عَمَّارٌ بين أَمْرَيْن إلاَّ اختار أرشدَهما»[1].

وهو أوَّلُ مَنْ بَنَى مسجداً في الإسلام، بَنَاهُ في المدينة المنوَّرة، وسمَّاه: مسجد قباء. له اثنان وسِتُّون حديثاً. وقُتِل في معركة «صفِّين» وعمره ثلاث وتسعون سَنة، وذلك عام سبعةٍ وثلاثين من الهجرة النَّبويَّة.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٨٩) وانظره في سير أعلام النبلاء (١/ ٤١٦).

ولقد شَكَّلَتْ أسرةُ آل ياسر جَبْهةً قويَّةً ضدَّ المشركين؛ إذْ ثَبَتُوا على الحقِّ، وحَلَّقُوا عالياً في عالم الصَّبْر، بعد أنْ تحمَّلُوا أشدَّ العذاب، وأَعْظَمَ الأذى، فَسَطَّروا بِصَبْرِهم ملاحم التَّضحيةِ والجهادِ في سبيل اللهِ عزَّ وجلَّ.

ولكنْ هل يستمرُّ العذاب؟

لا، لابُـدَّ مِنَ النَّجاة والفَرَج، ولابُدَّ لظلامِ اللَّيْل من شُعاع الفجر، فحين يظهرُ تختفي العتمة، ويُسْفِرُ الصُّبْح لكلِّ ذي عينَيْن.

وعندما قرأنا كتاب «تنبيه الغافلين» أعجبتنا كلمةٌ لأبي الليث السَّمرقنديِّ، وهي قوله: «كان أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ في شِدَّة مِنْ أذى الكُفَّار، ومِنَ الجوع، فَصَبَرُوا على ذلك حتى فَرَّج اللهُ عنهم، وكُلُّ مَنْ صَبَرَ فَرَّج اللهُ عنه؛ فإنَّ الفَرَجَ مع الصَّبْر، وإنَّ مع العسر يُسْراً. وكان الصالحون ـ رحمهم اللهُ ـ يفرحُون بالشِّدَّة لِما يَرْجُون مِنْ ثوابِها».

*** مِـنَ الـسَّـابقـات إلـى الإسـلام:**

ذَكَـرَ الإمامُ ابنُ الأثير في كتابه «الاستيعاب» عن عبد الله بن مسعود ـ رضي اللهُ عنه ـ أنَّه قال:

«أوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ الإسلامَ سبعةٌ: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وبلال، وخَبَّاب، وصُهَيْب، وعَمَّار، وسُمَيَّة أمُّ عَمَّار».

وقد أَمَر اللهُ عز وجل رسولَه ﷺ أن يجهرَ بالدَّعوةِ الإسلامية، ويُـظْهِر الدِّين، فقـال تعـالـى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقـال للرسول ﷺ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٥].

وصَعِد رسول الله ﷺ على جبل الصَّفا، فَجَعَلَ ينادي: «يا بني فِهْر! يا بني عَـدِيٍّ!» حتى اجتمعوا، فجعل الذي لم يستطعْ أن يخرجَ يرسلُ رسولاً لينظر: ما هو؟ فقال الـنَّبـيُّ ﷺ: «أرأيتُم لو أخبرتُكُمْ أنَّ خَيْلاً بالوادي تريدُ أن تغيرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟!» قالوا: ما جَرَّبْنا عليك كذباً. قال: «فإنِّي نذيرٌ لكم بين يدي عَذابٍ شديد». فـقال أبو لهب: تَبّاً لكَ سائر اليوم، ألهذا جَمَعْتَنا؟! فنزل

قولُه تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١](١).

وقد أشرنا في ترجمة السَّيِّدة خديجة بنت خُوَيْلد أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أنَّها أوَّل مَنْ آمَنَ برسول الله ﷺ. فخديجةُ أوَّلُ النِّساء إيماناً من البيت النَّبويِّ الطَّاهر، و«سُمَيَّة» أوَّلُ النِّساء إيماناً مِنْ بَيْن النَّاس الآخرين.

وتألَّقَ اسمُ «سُمَيَّة» منذ السَّاعة الأولى لإسلامها، فقد عَرَف الكُفَّارُ أَمْرَها، لكنَّها لم تعبأْ بهم، فتحدَّتْهُمْ، وجَهَرت بإيمانها، وفَخَرتْ بانتسابها إلى العقيدة الرَّبَّانيَّة.

وكانت «سُمَيَّةُ» مِنْ قَبْل إسلامِها مُجَرَّد أَمَةٍ لأبي حُذَيْفة المخزومي، لا يُؤْبَهُ لها، ولا يُلْتَفَتُ إليها، ولمَّا آمنتْ باللهِ عزَّ وجلَّ ربّاً، وبسيِّدنا محمد ﷺ نبيّاً ورسولاً، عَلاَ شأنُها، وذاع صيتُها؛ إذْ عبَّرتْ بِسَبْقِها إلى الإسلام بأنَّها ذات عقلٍ يرفضُ عبادةَ الأصنام، فهي تُفكِّرُ، وتتأمَّلُ، وتتَّخذُ القَرَارَ الصَّحيح.

هذا؛ وإنَّ التَّفكيرَ في الإسلام فريضة، ولطالما حَثَّ القرآنُ الكريمُ الناسَ على التَّمعُّن والتَّدبُّر، وحَضَّهُمْ على تَرْكِ عبادةِ غير اللهِ عزَّ وجلَّ، وإعطاءِ العقلِ دَوْرَهُ في الاستنتاج والاستنباط للوصول إلى جادَّة الحقِّ والصَّواب.

ولقد آمنتْ «سُمَيَّةُ»، وسارعتْ للانضمام إلى رَكْب الهُداة المتَّقين، فكُتِبَ لها الخُلُودُ، ولَمَعَ اسْمُها في عالم الصَّحابيات، وأمستْ رمزاً للصَّبْرِ، والتَّضحيةِ، وتَحَمُّلِ الأذى في سبيل الله تعالى.

*** الـثَّـباتُ علـى الحـقِّ:**

يقتضي الثَّباتُ على الحقِّ أنْ يَصْبِرَ الإنسانُ على ما يُلاقيه من الشِّدَّة والأذى، وأنْ يتحمَّلَ قَدْراً من الشَّجاعة في مواجهة الأحداثِ والفِتَن.

وقد أَمَر الله عز وجل رسولَه ﷺ بالصَّبْر، فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد خَصَّصَ الإمامُ «مسلم» ـ رحمه الله ـ في صحيحه باباً كاملاً في كتاب الجهاد عنوانه: ما لقي النَّبيُّ ﷺ مِنْ أَذَى المشركين والمنافقين.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧١) ومسلم (٢٠٨).

ولنا في رسولِ اللهِ ﷺ قُـدْوَةٌ حَسَنـةٌ في الصَّبْرِ على المصائب، والثبات في مواجهة البلاء، واحتساب ذلك جهاداً في سبيل الله جَلَّ شأنُه.

ولنسمعْ قولَه عز وجل: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وقد أدرك الصَّحابةُ الكِرامُ مفهومَ هذه الآيات، وعَرَفُوا أنَّ الإنسانَ مُعَرَّضٌ للابتلاء، وقد عانوا هم أنفسُهم من ألوان النَّوازل والمصائب مايشيبُ لهوله الوِلْدان.

ولقد وَقَفَ المشركون موقفاً عنيداً من المسلمين؛ إذْ طاردوهم في كُلِّ مكان، وبدتِ العداوةُ والبغضاءُ من كُفَّار قريش، وعانى كثيرٌ من المؤمنين مِنَ العذابِ الشَّديد، واشتدَّتْ عليهم الوطأةُ، لكنَّهم تألَّقُوا كالذَّهَبِ، كُلَّما تعرَّض للنار ازداد بريقُه ولمعانُه، وكذلك الشَّدائدُ تكشفُ عن معادِن الرِّجال، وتُظْهِرُ صفاتهم الحميدة.

وكانت «سُمَيَّةُ» ـ رضي الله عنها ـ مِنْ بين الذين تمثَّلُوا كلمةَ التَّوحيد، وربطوا بين اعتقادهم وسلوكهم، فكانوا صادقين في ثباتهم على المبدأ مهما اشتدَّ الكُفْر، وتعالى السَّفَهُ، وازدادتِ المعاناةُ ومرارةُ الأذى.

وهاهو أبو جهلٍ ـ الطَّاغيةُ الضَّالُّ ـ يَصُبُّ كلَّ غَضَبِه وشراسته على «سُمَيَّـة» ـ رضي الله عنها ـ وينالُ منها أشدَّ النَّـيْل، ويتفنَّـنُ في التَّـنكيل بها؛ حتى تكـاد روحُها أن تخرج من بَدَنها.

وصَبَرَتْ «سُمَيَّـةُ» على العذاب، وهي تُـردِّدُ كلمةَ التوحيد... ولم يستطعْ أبو جهل بكبريائه وجبروته وصَلَفِه أن يُـغَـيِّر من عقيدة «سُمَيَّـة» أو أنْ يُـؤَثِّـر على صِدْق إيمانها.

وجُـنَّ جُنُـونُ أبي جَهْلٍ، واستلَّ حَرْبَتَـهُ، وطَعَن «سُمَـيَّـةَ»، فَقَضَى عليها، فكانت أوَّلَ شهيدةٍ في عالم النِّساءِ المسلِمات.

قال الإمامُ «مجاهد» ـ رحمه الله ـ:

«أوَّلُ شهيد كان في أوَّل الإسلام أُمُّ عَمَّار «سُمَيَّة» طَعَنَها أبو جَهْلٍ بحربةٍ في قُبُلِها».

وهكذا نَجِدُ أنَّ «سُمَيَّة» ـ رضي الله عنها ـ قد عَلَّمتِ الأجيالَ معنى الصَّبْر وحقيقته، واقِعاً حَيَوِيّاً مُعاشاً، ليس فيه تكلُّفٌ ولا رياء، بل كان الصِّدقُ يشعُّ في كلِّ ذَرَّةٍ مِنْ مواقفِها البطوليَّةِ؛ إذْ تحدَّتْ رَأْسَ الكُفْر، وفِرْعَوْنَ الأُمَّة أبا جَهْل؛ الذي لم يستطعْ مواجهة ثباتِ الصَّحابيةِ الكريمة، وخانَتْه الرُّجولةُ، فَقَتَلَ امرأةً ضعيفةً لا حَوْلَ لها ولا قُوَّة.

ولقد نالتْ «سُمَيَّةُ» محبَّة اللهِ عزَّ وجلَّ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فهنيئاً لها هذه المحبَّة، وتلك الرِّفْعة، والمنزلة العالية.

*** بُشْـرى عظيمـة:**

بايعتْ «سُمَيَّةُ بنتُ خُبَّاط» ـ رضي الله عنها ـ رسولَ اللهِ ﷺ على الإيمان باللهِ عزَّ وجل، وأعلنتْ تمسُّكَها بأهدابِ الدِّيْن، وحَقَّقَتْ ذلك قولاً وفِعْلاً وحالاً.

وتعرَّضَتْ «سُمَيَّةُ» لنقمة المشركين، فكانتْ مِنَ الثَّابتين على طريق الحقِّ والهدى.

وعلى الرَّغْم مِنْ قَسْوةِ العذاب برهنَتْ هذه الصَّحابيةُ الجليلةُ على أنَّها نِعْمَ المؤمنةُ، الفاضلةُ، الخيِّرةُ، الثَّابتةُ على دِيْنها، والمتحدِّيةُ كلَّ صُنُوفِ البلاء والفِتْنة.

ولم تستطعْ قِوى الشَّرِّ الغاشِم أنْ تَهُزَّ شيئاً مِنْ مبادىء «سُمَيَّة»؛ إذ عَقَدَتْ حِلْفاً مع الصَّبْر، فصار مِيْثاقاً قويّاً قَهَر المشركينَ في جبروتهم، وشِدَّةِ نقمتهم.

ولَمْ يَنْسَ التاريخُ أن يُشيرَ إلى إيمانِ «سُمَيَّة» ـ رضي الله عنها ـ وإلى جهادها المتواصل، وثباتها المتحدِّي، فقد قال الإمامُ ابنُ عبد البَرِّ ـ رحمه الله ـ: كانتْ سُمَيَّـةُ مِمَّنْ عُذِّبَ في الله، وصَبَرتْ على الأذى في ذات الله، وكانَتْ من المبايِعات الخيِّرات الفاضِلات ـ رحمها الله ـ.

وكان رسولُ اللهِ ﷺ يمرُّ بآل ياسر، ويُؤلمُه معاناتُهم وعَذابُهم، ويَعْجَبُ من صبرهم، وثباتهم، فيُبَشِّرهم بِشارةً عظيمة، إذ يقول: «صَبْراً آلَ ياسر فإنَّ موعدَكم الجَنَّة»[1].

ويستمرُّ صَبْرُ آلِ ياسر أمام هذه البُشْرَى، ويُسْعَدُوا بما أَعَدَّ اللهُ عز وجل لهم مِنَ الثَّواب الجزيل يوم القِيامة، يقولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

*** مع الخالدين:**

نَزَف الدَّمُ من جَسَد «سُمَيَّة بنت خُباط» بعد أنْ طَعَنَها أبو جَهْلٍ بحربته، وتدفَّقَ الدَّمُ القاني، بينما كانت الصَّحابيةُ تسبحُ بخيالها وروحها في جنَّات الله عز وجل، فالدُّنيا فانية، والآخرةُ هي الباقية، وجَنَّاتُ الله تعالى عَرْضُها كَعَرْضِ السموات والأرض أُعِدَّت للمتقين.

قال الله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ٧٢].

ولقد نالتْ «سُمَيَّة» ـ رضي الله عنها ـ الإكرامَ من رسولِ اللهِ ﷺ؛ إذ بَشَّرها بالجنَّة مع أُسْرَتِها الصَّابرة، وَوَعَدَها عزَّ وجلَّ بدخول الجنة، جزاءً كريماً لِصَبْرها، وعميق إيمانها.

فرحم الله تعالى «سُمَيَّة»، ورضي عنها، وهنيئاً لها مقعدَها الوثير في الجَنَّة؛ تحقيقاً لقول الله سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥].

* * *

(١) انظر الحديث وتخريجه في سير أعلام النبلاء (١/ ٤٠٩ ـ ٤١٠).

ثـانيـاً: مواقـف نـسائيـة متـألقـة:

لجيل الصحابة الكرام مواقف لا تُنْسى مع مرور الزمن، فقد استطاع ذلك الجيل الفريد أن يقيم مجتمعاً إسلامياً على أرض الواقع، فكانت صورةُ المسلم سلوكاً ينداح هنا وهناك، يعطي السيرة الحسنة، والمثال الكامل للشيب والشبان، والرجال والنساء، والفرد والأسرة. وقامت الحياة الإسلامية على بساط الوجود، وتحققت معاني الخير والفضيلة، وبرز عهدُ النبي، والعهد الراشدي قدوةً على الطريق المستقيم، فهناك الهداية، حيث يتردَّد على الشفاه النشيد الهادر:

والله لـولا اللهُ مـا اهتـدَيْنـا ... ولا صـدَّقنـا ولا صلَّينـا
فـأنْـزِلَـنْ سكينـةً علينـا ... وثبِّـتِ الأقـدامَ إن لاقيْنـا
إنَّ الأُلـى قـد بَغَـوْا علينـا ... إذا أرادوا فتنـةً أبَيْنـا

وقد مرَّ معنا مواقف نسائية متألقة في العهد النبوي، كفاطمة الزهراء، وأسماء بنت أبي بكر، وخديجة بنت خويلد، وعائشة بنت الصِّدِّيق... واستمر موكب الألق والازدهار في العهد الراشدي، وكانت له صولات وجولات وأدوار يترسمها في دنيا التاريخ، وتاريخ الدنيا، تحقيقاً لقول الله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وقد ارتسم الإسلامُ في قلوب الصحابة الكرام عقيدة قويمة، وشريعة وضّاءة، تُحطِّم كل الجُدُر، وتخترق الحواجز الكأداء، فالمسلم داعية من طراز أول، يمارس دوره الريادي في كل مكان، مهما بلغت الصعوبات، وتكالب الأعداء.

وسنقف ـ بعون الله تعالى ـ عند امرأتين مسلمتين، بل أسرتين كان لهما فضل لا ينسى في عهد رسول الله ﷺ، واستمر عطاؤهما فيما بعد؛ إلى أن آذنت شمسُ حياتهما بالمغيب، وهما: نسيبة بنت كعب الأنصارية، وأم حرام بنت مِلْحان.

نسيبة بنت كعب الأنصارية

«الفارسة النبيلة المبشرة بالجنة»

*** واسِـطَـةُ الـعِـقـد:**

انتظمَ الصَّحابةُ الفرسانُ في سلكٍ بديعٍ مِنَ الإقدام والجرأة، وأظهروا ألواناً متألِّقةً من البطولات النَّادرة، وهم يتحلَّقون حول رسولهم الكريم ﷺ، فاستحقُّوا الخلودَ في دنيا التَّاريخ، وسَجَّلوا أسماءهم بأحرفٍ مِنْ نور؛ إذ سطّروا أروعَ ملاحم البطولة في ميادين الجهاد ضدَّ المشركين.

وكانت الفارسةُ أمُّ عمارة، نسيبةُ بنت كعبٍ المازنية الأنصارية في مقدّمة الصُّفوف، تضربُ الشِّرْكَ بيدٍ قويَّة، وتدكُّ معاقلَ الضَّلال بالسَّيف البتَّار، وكلُّها رجاءٌ أن يُحقِّقَ المسلمون النَّصْرَ على أعدائهم، ويحوزوا الفوزَ، وترفرف فوقهم أعلامُ النصر، بعد أن يُذيقوا الكفَّارَ مرارةَ القِتال، وآلامه، ونتائجه.

هذه الفارسةُ النَّبيلةُ كانت لها مواقف خالدة لا تُنْسَىٰ، تنضحُ بالخير الفوَّار، وتستأثرُ بالتَّسابق لِنَيْل المكارم، فقد أُوتيتْ قلباً شجاعاً، وعزيمةً صُلْبة، وحُبّاً لله عزَّ وجلَّ ولرسوله ﷺ، وهذا ما دَفَعَها لتبذلَ التَّضْحيات، وتُقدِّم الغالي والنَّفيس في سبيل امتدادِ الإسْلام، وشيوعه في الآفاق، ولو كانتِ المواجهةُ مع الأعداء قاسية، ولو اضطرَّتْ للتَّضحية بالنَّفس، والأولاد، وكلِّ ما تملك؛ لأنَّ الأولويةَ للإسلام، والسِّباق إلى ساحة الإيمان باقتدارٍ، وطاعةٍ، وجهادٍ لا يهدأُ حتى تعلوَ كلمةُ التَّوحيد، وتخفقَ رايةُ لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

*** أسـرةُ الـفرسـانِ:**

ترعرعتْ نسيبةُ بنت كعب ـ رضي الله عنها ـ في كَـنَـف أسرةٍ شعارها:

الفروسيّة المتعدِّدةُ الأطراف، فكلُّ مَنْ نشأ فيها برز في جانبٍ مِنْ عالم الفروسيّة الكريم، ولنسمعِ التّاريخَ يُحدِّثُنا فيقول:

* عبد الله بن كعب، أخو نسيبة، اشترك في غزوة بدر الكبرى، وسجَّل بجهاده فَضْلاً يُـذْكَرُ مع الأيَّام. أليست بدرٌ أوَّلَ لقاءٍ مع المشركين؟! ثم أَلَمْ يُبشِّرْ رسولُ الله ﷺ البدريِّيْن بأنَّ الله تعالى قد رضي عنهم، وغَفَر لهم؟!

* عبد الرحمن بن كعب، أخو نسيبة، أَحَدُ البكَّائين السَّبْعة؛ الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وهو يتجهَّزُ لغزوة تبوك، وكانتِ الشِّدَّةُ والصُّعوبةُ باديةً في كلِّ شيءٍ، فالوقتُ وقتُ عُسْرة، والحرُّ شديد، والاحتياجاتُ كثيرة. ولم يستطعْ رسولُ الله ﷺ أن يُجَهِّزَ أولئك السَّبعة لينخرطوا في جيش الإسلام المجاهد، فتولّوا باكين، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

* زيد بن عاصم بن عمرو، زوج نسيبة الأول، كان له فَضْلُ السَّبْق إلى دوحة الإيمان، وكان له شرفُ اللقاءِ برسول الله ﷺ.

* غزيّة بن عمرو بن عطية، زوج نسيبة الثاني، شهد ليلةَ بيعةِ العقبة مع الأنصار، ثم جاهَدَ في معركة الإسلام الأولى ـ غزوة بدر ـ وكان مع المجاهدين في أُحُد، وأبلى بلاءً حَسَناً مع رسول الله ﷺ.

* حبيب بن زيد بن عاصم، ابن نسيبة، قطَّعه مُسَيْلمةُ الكذَّاب عضواً عضواً، وهو ثابتٌ على إيمانه، حتى مات شهيدَ الحقِّ، والواجب، والدِّين.

* عبد الله بن زيد بن عاصم، ابن نسيبة، شَهِدَ أُحُداً، وحَكَى وضوءَ رسول الله ﷺ، وقَتَل مسيلمة الكذَّاب مع ثلَّةٍ من المسلمين، فأراح النَّاسَ مِنْ شرِّه.

هذه الأسرةُ الكريمةُ عُرِفَتْ بالسَّبْق إلى الإسلام، وبالجهاد في سبيل الله، وكانتْ لها مواقف حاسمة في المعارك التي دارتْ رَحَاها مع المشركين، فَسَجَّل كلُّ فَـرْدٍ مِنْ هذه الأسرة أثراً لا يُـمْحَى من ذاكرة الأيَّـام، وكان له دورٌ مُتَـألِّـقٌ وَضِيءٌ يشهدُ له بالاقتدار، والمغامرة، والتَّـضحية، والبسالة، مع الإخلاص لله

والرَّسول، فتمثَّل الإيمانُ واضِحاً في نفوس هؤلاء النَّاس، وانتصر الدِّينُ بِفَضْل اللهِ عزَّ وجلَّ، ثم بجهود الرَّعيل الأول من الصَّحابة الكرام.

* الفارسةُ المتألِّقة:

للهِ درُّ نسيبة بنت كعب ـ رضي الله عنها ـ! فقد أبدتْ مقدرةً كبرى في كلِّ المشاهد التي اشتركتْ فيها بسَيْفها الماضي، وقَلْبها الشُّجاع، ولا سيَّما في غزوة أُحُد، وما أدراكَ ما أُحُد؟!

لقد خَرَجَتْ نسيبةُ لخدمة جيش المسلمين، تسقي المجاهدين العِطاش، وتداوي الجرحى، وتُؤدِّي الواجبَ المُلْقى على عاتقها.

وبَدَتْ نتائجُ معركةِ أُحُد في صالح المسلمين، إذ انهزم المشركون في الجولة الأولى، ووَلّوا الأدبار، وانهمك الناسُ بجمع الغنائم، ومعهم أكثر الرُّماة الذين أَمَرهم رسولُ الله ﷺ بالبقاء في أماكنهم أعلى الجبل، مهما كانت نتائجُ المعركة.

تَرَكَ معظمُ الرُّماةِ أماكنهم على الرَّغم مِنْ تحذير قائدهم المسؤول عنهم، إذ ظنُّوا أنَّ الحربَ قد انتهت، ورجحتْ كفَّةُ المسلمين، فنزلوا يجمعون الغنائم!

وانقلب ميزانُ المعركة، وأخذ المشركون زمامَ المباغتة في الجولة الثَّانية من الغزوة؛ بعد أن قاموا بتجميع أنفسهم والالتفاف مرة ثانية من خلف الجبل؛ الذي نزل عنه الرماة، وماج النَّاسُ في بعضهم، واختلطوا حتى ولَّى كثيرٌ منهم هارِباً من ساح القتال.

أمام هذا الاضطراب انتضتْ نسيبةُ سيفَها، مع زوجها الثاني غزية بن عمرو، وولديها: حبيب، وعبد الله، وقاتَلَ الجميعُ دِفاعاً عن الحقِّ، وصَوْناً للعقيدة، وطاعةً لله ورسوله.

وهاهي نسيبةُ تتعرَّضُ لطعنات المشركين، وتُصاب بجراحٍ بالغةٍ، فقد وقفتْ تُدافعُ عن رسولِ الله ﷺ، وترمي بالقوس بتسديدٍ عجيبٍ في نحور الأعداء.

قال رسولُ الله ﷺ: «ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلاَّ وأنا أراها تُقاتِلُ دوني»[1].

---

(١) الإصابة (٤/ ٤٥٧) وطبقات ابن سعد (٤/ ٤١٥).

وعانى المسلمون كثيراً مِنْ خيول المشركين، فكان لفرسانهم تأثيرٌ شديدٌ على المجاهدين، ولو كانوا رجَّالةً لما استطاعوا أن يفعلوا ما فَعَلُوا!

ويمرُّ فارسٌ مشرك، ويضربُ نسيبة بسيفه، فترفعُ التّرسَ في وجهه، فلم يُؤثِّرْ سيفُه شيئاً، فيولِّي، وتنتهزُ نسيبةُ الفرصةَ السَّانحةَ فتضرب عرقوب الفرسِ بسرعةِ البرق، فيقع الرَّجُلُ عن ظَهْرِه، ويهتفُ النَّبيُّ ﷺ: «يابنَ أُمِّ عمارة! أمك، أمك»![1] ويُلبِّي الفارسُ المسلمُ نداءَ الحقِّ، ويُعاونُ أُمَّه حتى يَقْتُلا ذاكَ الفارسَ المطروح عن فرسه.

أمَّا ابنُها عبدُ الله فتُصيبُه جراحةٌ كبيرةٌ في عَضُدِه الأيسر، وينزفُ الدَّمُ بشدَّة، وتُقْبِلُ الفارسةُ الممرِّضةُ نسيبةُ على ابنها، وتعصبُ جراحَه، ثم تقولُ له: انهضْ بُنَيَّ! فَضَارِبِ القومَ. فَجَعَلَ النَّبيُّ ﷺ يقول: «ومَنْ يطيقُ ما تطيقينَ يا أمَّ عمارة[2]؟!».

إنَّها الطاعةُ لله عز وجل، والمحبَّة لرسول الله ﷺ، فقد خَالَطَ الإسلامُ مشاعرَ المسلمين، واختلط مع أنفاسهم ودمائهم، مُشَكِّلاً كتلةً واحدةً لا تنفصمُ.. إنَّها مسألةُ الإيمان المتجدِّد على الدَّوام، والمتأجِّج دون انطفاء، والمتَّقد في نفوس قوم ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

*** فروسيَّةٌ هَـدَّارةٌ:**

استمرَّ القتالُ في غزوة أُحُد على أَشُدِّه بين المسلمين المجاهدين، وبين المشركين المبطلين، واحتدم الصِّراعُ مُلْتهِباً، فلا ترى إلاَّ سيوفاً تلمع، وأَسِنَّةً تُشْرَع، وهمهمات الجنود تتعالى هنا وهناك، مُتجاوبةً مع صهيل الخيول، والعَرَق المتصبِّب على الجباه.. إنَّها الحربُ بين الحقِّ والباطل.

وهاهي نسيبةُ وأسرتُها في أَتُون المعركة، وكل واحدٍ منهم يجاهدُ في سبيل الله بكلِّ استطاعته، مع بَذْل الجهد الأقصى؛ لتعلوَ كلمةُ التوحيد.

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٤).
(٢) المصدر السابق.

ويمرُّ المشرِكُ الذي ضَرَب عبدَ اللهِ وَلَد نسيبة، فقال رسولُ الله ﷺ: «هذا ضاربُ ابنكِ»، فتعترضُ نسيبةُ طريقَه، وتضربُ ساقَه فيبرك، وعندها ابتسمَ ﷺ حتى بَدَتْ نواجِذُه، وقال: «استقدتِ يا أُمَّ عمارة!». ثم تُتابِعُ الضَّرْبَ بالسِّلاح على ذاكَ المشرك حتى مات، فقال ﷺ: «الحمدُ لله الذي ظَفَّرَكِ، وأَقَرَّ عينكِ من عدوِّك، وأراكِ ثأركِ بعينك»[1].

*** دعـوةٌ مـبـاركـةٌ:**

قال عبدُ الله بن زيد، ابن نسيبة: شهدتُ أُحُداً، فلمَّا تفرَّقوا عَنْ رسولِ الله ﷺ دنوتُ منه أنا وأُمِّي نَذُبُّ عنه، فقال: «ابن أُمِّ عمارة؟!». قلتُ: نعم. قال: «ارْمِ». فرميتُ بين يديه رجلاً بحجر ـ وهو على فرس ـ فأصبتُ عينَ الفرس، فاضطربتِ الفرسُ، فوقع هو وصاحبُه، وجعلتُ أَعْلُوه بالحجارة، والنَّبيُّ ﷺ ينظر يبتسم. ونَظَر ﷺ إلى جُرْحِ أُمِّي على عاتقها فقال: «أمّك أمك! اعْصِبْ جُرْحَها، باركَ اللهُ عليكم مِنْ أهل بيت، مقامُ أمِّك خيرٌ من مقام فلانٍ وفلان. رحمكم اللهُ أهلَ البيت. ومقام ربيبك ـ يعني: زوج أمِّك ـ خيرٌ مِنْ مقام فلانٍ وفلان. رحمكم اللهُ أهلَ البيت».

فقالتْ له أمّي: ادْعُ اللهَ أنْ نُرافِقَكَ في الجنة. فقال ﷺ: «اللهم! اجعلهم رفقائي في الجَنَّة». فقالتْ: ما أُبالي ما أصابني مِنَ الدُّنيا[2].

وهذه الدَّعوةُ النَّبويَّةُ تُساوي عند نسيبة الدُّنيا بأجمعها، فقد نسيتْ كُلَّ ما أصابها، وأصاب أُسْرَتَها مِنْ جراحاتٍ وآلام، فإذا بقي رسولُ الله ﷺ سليماً مِنَ الأذى، فكلُّ شيءٍ بعده يسهلُ ويهون، وما أُحَيْلى السَّعادة في الآخرة، ومرافقة النبي ﷺ!

*** جِـهـادٌ مُـتـواصِـلٌ:**

لم تركنْ نسيبةُ بعد غَزْوة أُحُد إلى الرَّاحة والدَّعة، على الرَّغم مِنْ أنَّها بقيتْ

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤١٤) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٠).
(٢) المغازي للواقدي (١/ ٢٧٣) وطبقات ابن سعد (٨/ ٤١٥) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨١) والسيرة الحلبية (٢/ ٥٠٩).

شهوراً عديدةً تداوي جراحاتها التي أُصيبتْ بها. ونادى داعي الجهاد إلى حمراء الأسد، لكنَّ الآلامَ الحادَّة، والجراحَ النَّازفةَ حالتْ دون اشتراكها في تلك المعركة.

وفي غَزوة بني قُريظة كان لنسيبة مشاركةٌ فَعَّالة، ودَوْرٌ يشهدُ لها بالبسالة النَّادرة، والفروسيَّة المتألِّقة، فهي لا يهدأ لها بالٌ حتى تُشارِكَ رسولَ الله ﷺ في غزواته، فقد رأتِ الجهادَ وِساماً وضَّاءً على جبين المجاهدين، فأرادتْ أن تصونَ عقيدتها، وتُؤدِّي دورَها في جهادٍ متواصل لا ينقطع.

وفي السَّنةِ السادسةِ من الهجرة النَّبوية، وفي الحديبية شدَّتْ نسيبةُ على وسطها سكّيناً، خشية غَدْر المشركين، وشاركتِ المسلمين في بَيْعة الرّضوان تحت الشَّجرة المباركة، وبايعتْ رسولَ الله ﷺ على الموت، ورَضِيَ اللهُ عزَّ وجلَّ عنها في قوله: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨].

وفي السَّنَة السابعة مِنَ الهجرة، انطلق ألفٌ وأربعمئة مقاتل مسلم إلى خيبر، ومعهم نسيبة؛ ليقضوا على دسائس اليهود، ويُوقِفُوا زَحْفَ فسادِهم؛ الذي امتدَّ عميقاً هنا وهناك.

وتعودُ نسيبةُ مع الجيش المسلم الظَّافر؛ لتشهدَ عمرة القَضِيَّة، ثم حُنَيْن، وكانت يومذاكَ في عداد الصَّابرين الثَّابتين مع رسول الله ﷺ في مواجهة المشركين؛ إذْ حمي وطيسُ المعركة، واشتدَّ لهيبُها، وفَرَّ المسلمون في أول المعركة، وثَبَتَ ﷺ مع طائفةٍ مِنَ الصَّحابة الأشدَّاء، ومعهم نسيبة، وكلٌّ منهم يُدافِعُ عن رسول الله ﷺ. وأَكْرِمْ بهذا الدِّفاع!

*** وتستمرُّ البطولةُ:**

في عَهْد أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي اللهُ عنه ـ استمرَّ جهادُ الفارسة نسيبة، وشَهِدَ لها تاريخُ المعارك مواقفَ البسالة، والفِداء.

وفي معركة اليمامة مَرَّتْ بنسيبة أطيافُ ذكرى بعيدة، فلقد قَتَلَ مسيلمةُ ابنَها «حبيباً» شرَّ قتْلة، وقطَّعه ـ عدوُّ الله ـ عضواً عضواً، وهو يأبى أن ينطقَ بكلمة الكفر.

قاتلتْ نسيبةُ في اليمامة قتالَ الأبطال المتمرِّسين، وكانت ضرباتُها تتهاوى بضراوةٍ على المرتدِّين، يدفعُها إيمانُها إلى حُبِّ الجهاد، ويستقرُّ في حناياها أَلَمٌ قديمٌ، قد آن الأوانُ لإيجاد الدَّواء النَّاجع له. . لا بُدَّ مِنْ قَتْلِ مسيلمة الكذَّاب، وإراحة الناس مِنْ شروره، بعد أنْ نَذَرتْ أن تقتلَ ذاك الأفَّاك المتطاوِل على الحقِّ، والمتجرِّىء على الدِّيْن.

وها هي ساحةُ الجهاد تشهدُ لنسيبة بالبسالة والإقدام، ويُشارِك عبدُ الله وَلَدُ نسيبة، وشقيق «حبيب» في قَتْل مُسَيْلمة، مع ثُلَّةٍ مِنَ المسلمين، منهم: وحشيّ بن حرب، وأبو دجانة الأنصاري.

وفي اليمامة قُطِعَتْ يدُ نسيبة، لكنَّها كانتْ مطمئنة القلب، قريرة النَّفْس، هادئة البال، فقد قُتِل مُسَيْلمة، وكلُّ ما أصابها هو في سبيل الله، وسيجزيها اللهُ ـ بمشيئته ـ أحسنَ الجزاء.

هذه الرِّحلةُ المتواصلةُ من الجهاد المبارك المستمر، تُشَكِّلُ وسامَ شرفٍ للفارسة نسيبة، فقد عرفتها ساحاتُ الجهاد فارسةً مغوارة، تتدفَّقُ بالقوَّة، والصَّبْر، والشِّدَّة على المشركين. . وتُصابُ بالجراح، وتفقدُ واحداً من أعضاء جسْمها، لكنها لا تأبه لذلك ما دام الهدفُ هو إعلاء كلمة التَّوحيد، ونَصْر الإسلام.

* نسيبةُ في ذاكرة التَّاريخ:

أَبْدَىٰ مؤرِّخو الإسلام وعلماؤه إعجابَهم بشخصية نسيبة، وأكبروا ما قدَّمَتْهُ هي وأسرتُها جهاداً في سبيل الله تعالى.

قال الإمامُ الذَّهبي: أمُّ عمارة: الفاضلة، المجاهدة، شهدتْ ليلةَ العقبة، وشهدتْ أُحُداً، والحديبية، ويوم حُنَيْن، ويوم اليمامة، وجاهدت، وفَعَلَتِ الأفاعيل.

وقال أبو نعيم في كتابة «حلية الأولياء»: أم عمارة المبايعة بالعقبة، المحارِبةُ عن الرِّجال والشِّيبة، كانت ذاتُ جِدٍّ واجتهاد، وصومٍ ونُسك واعتماد.

وقال السُّهيلي في «الرَّوض الأُنُف»: إنَّ الناسَ كانوا يأتونها بمرضاهم لتستشفي لهم، فَـتَمْسَحُ بيدها على المريض، وتدعو له، فقلَّما مَسَحَتْ بيدها تلك

على ذي عاهةٍ إلاَّ وبرىء بإذن الله عزَّ وجلَّ.

هذه الشَّهاداتُ القيِّمةُ تُعطينا لمحةً دالَّةً على دور نسيبة عبر سنوات حياتها، وتُلخِّصُ رحلةَ عُمرها التي قَضَتْها في الإيمان، والجهاد، والعطاء المثمِر.

* الـرِّحلـةُ الأخـيـرة:

قَضَتِ الفارسةُ نسيبة - رضي الله عنها - رَدْحاً طويلاً من عُمرها تُجاهِدُ المشركين، وتحضُّ على البسالة، وتحثُّ على الإقدام، يدفعُها إيمانٌ عميقٌ، حَيٌّ، مُتجدِّد، عبر رحلةٍ من العطاء المستمر الذي لم يهدأ.

كانتْ مجاهدةً مِنَ الطِّراز الأول، وفاضلةً لا يُشَقُّ لها غُبار، وراويةً للحديث النَّبوي، ولها فضيلةُ السَّبْق إلى الإسلام، ومبايعةِ رسولِ الله ﷺ.

ولكلِّ شيءٍ نهايةٌ في هذه الحياة الدُّنيا، فبعد جهادٍ طويلٍ آن للفارسة أن تترجَّل لتستريح، وفي السَّنَةِ الثالثة عشرة من الهجرة أسلمتِ الرُّوح إلى بارئها، وقلبُها يفيضُ بالإيمان، ولسانُها يُردِّدُ الشَّهادتين، بعد أنْ حظيتْ بدعوةٍ كريمةٍ مِنْ رسول الله ﷺ: «اللهم! اجْعَلْهُمْ رُفَقائي في الجَنَّـة!».

* * *

أم حرام بنت مِلْحان

«أول مسلمة غزت في البحر»

* السَّابقةُ إلى دَوْحة الإيمان:

مَضَى رسولُ الله ﷺ يدعو النَّاسَ إلى الإسلام، ويُبيِّنُ لهم أنَّ لهذا الكونِ خالِقاً واحداً، اتَّصفَ بالقدرة، والإبداع، والعظمة.

وذكَّرهم ﷺ بضرورةِ العودة إلى الفِطْرة السَّليمة، والمنهج القويم، تحقيقاً لقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦].

واستجابَ المسلمون الأوائل، وأَسْلَمُوا وُجُوهَهم لله تعالى، وانقادوا لِشَرْعه العظيم في الظَّاهر والباطن، وصدَّقوا ـ بلا شكٍّ ـ بكلِّ ما جاء به رسولُ الله ﷺ.

وجاءت «أُمُّ حرام» ـ رضي الله عنها ـ تبايع النَّبيَّ ﷺ، وتُعْلِنُ إسلامَها على الملأ.. لقد أشرق قَلْبُهَا بنور الله تعالى، واستقرَّتْ فيه محبَّةُ الإسلام، والانقياد لأحكامه وتكاليفه، فَبَدَتْ «أُمُّ حرام» وكأنَّها وُلِدَتْ مِنْ جديد؛ بعد أنْ أعلنتْ شهادةَ التوحيد: لا إله إلاَّ الله، محمد رسول الله، وذلكَ قَبْلَ الهجرة النَّبويَّة إلى المدينة المنوَّرة، فهي مِنَ السَّابقات الأوائل؛ اللواتي حَظِيْن بالدُّخول في قول اللهِ تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

* **الأُسْـرَةُ الـمجـاهِـدةُ:**

تجاوبتْ أسرةُ «أم حرام» لنداء الحقِّ؛ إذْ لاقَتْ تلك الدَّعوةُ الإسلاميَّةُ نفوساً رضية، وآذاناً مُصْغِية، وصدوراً مُنْشَرِحة، وعقولاً تتفهَّم الخيرَ من الشَّرِّ، فلبَّى أولئك الأنصارُ دعوةَ رسولِ الله ﷺ، فكان لهم الدَّوْرُ الكبيرُ والمؤثِّرُ في سير مجتمع التوحيد نحو الهداية، والصَّواب، والطريق المستقيم.

ومِنْ بين أفراد أسرة «أمّ حرام»:

* حرام، وسليم اللذان شَهِدا غزوتي بدرٍ، وأُحُد، وكانا مِنْ جُمْلَةِ جنود سريَّةٍ قوامُها سبعون رجلاً، بَعَثَهُمْ رسولُ الله ﷺ بناءً على طلبٍ مِنْ عامر بن مالك ليعلِّموا الناسَ الإسلام.

وفي بئر معونة تعرَّضوا لغدرٍ من قبائل بني سُلَيْم: عُصَيَّة، ورِعْل، وذَكْوَان، وقتلوهم جميعاً إلا كعب بن زيد.

اقتربَ جبار بن سلمى من حرام بن مِلْحان، وطَعَنَهُ برمحٍ في ظهره خَرَجَ مِنْ صَدْره، فقال «حرامٌ» والإيمانُ يتَّقِدُ في نفسه: فزتُ وربِّ الكعبة.

* وزوجُها عُبادة بن الصَّامت، وهو صحابيٌّ كبير مشهور، ووَرِعٌ فقيه، شَهِدَ العَقبةَ، وهو أَحَدُ النُّقَباء. كما شَهِد بدراً، وأُحُداً، والخندق، وبَيْعة الرِّضوان، وغيرها من المشاهد. وهو مِمَّنْ جَمَع القرآنَ على عَهْد النَّبيِّ ﷺ. ثم شَهِدَ فتح مصر، وأقام بحمص، وولي قضاء فلسطين. له واحد وثمانون ومئة حديث. ومات في الرَّمْلة سنة أربع وثلاثين من الهجرة النبوية.

* وابن أختها أنس بن مالك، صاحبُ رسول الله ﷺ، وخادمه. روى عنه رجالُ الحديث ستة وثمانين ومئتين وألفي حديث. وهو آخِرُ مَنْ مات بالبصرة مِنَ الصَّحابة سنة ثلاث وتسعين من الهجرة النَّبوية.

* وأختُها أمُّ سُلَيْم (الغُمَيْصاء)، صحابية، فاضِلة، جَمَعَتْ بين العلم والفقه، واتَّصفَتْ بالشجـاعة، وتميَّـزتْ بالكـرم، وهي أمُّ أنـس بن مالـك. قـال عنهـا

رسولُ الله ﷺ: «دخلتُ الجنَّـةَ، فسمعتُ خَشَفَـةً بين يـديَّ، فإذا أنا بالغُـمَيْصاء بنت ملحان»[١].

وكثيرٌ هم أفرادُ أسرة «أم حرام»، أولئك الذين حَمَلُوا رايةَ الجهاد في سبيل الله، فكانوا مِنْ فرسان مدرسة النُّبوَّة الأبطال.. قارعوا المشركين، وحاربوا المضلِّين المبطلين، إحقاقاً للحقِّ، وإزهاقاً للباطل، ولتكون كلمةُ اللهِ عز وجل هي العُلْيا على مَدَى الدَّهْر.

* مكانـةٌ عـاليـةٌ وصِفـاتٌ مُتـألِّـقـة:

كانتْ «أُمُّ حرام» ـ رضي الله عنها ـ مَحْرَماً لرسول الله ﷺ؛ إذْ كانت خالةً لأبيه أو لجدِّه، فأمُّ عبد المطَّلب ـ جَدّ النَّبيِّ ﷺ ـ تنتسبُ إلى بني النَّجّار، كذلك أمُّ حرام.

سَكَنَتْ «أمُّ حرام» المدينةَ المنوَّرة، وكان بيتُها في منطقة قباء، فكان رسولُ الله ﷺ يتعهَّدُها بالزِّيارة أحياناً، وبالسُّؤال عنها أحياناً أخرى، ويتفقَّدُ أحوالَها، حتى إنَّه ﷺ كان ينامُ في ظهيرة بعض الأيام عندها، ويُصلِّي لله ما شاء اللهُ له أنْ يُصلِّي.

روى البخاري ومُسْلِم ـ رحمهما الله ـ مِنْ حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: دَخَلَ النَّبيُّ ﷺ علينا، وما هو إلاَّ أنا وأُمِّي وأمُّ حرام خالتي، فقال: «قُومُوا فلأُصلِّي بكم» ـ في غير وقتِ صلاةٍ ـ فصلَّى بنا، ثم دعا لنا أهلَ البيت بكلِّ خيرٍ مِنْ خيريْ الدُّنيا والآخرة[٢].

وحدَّث مُؤرِّخُو السِّيرة النبويَّة: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يدخلُ على أُمِّ حرام، فتُـفَـلِّي له رأسَه ـ أي: تُـفتِّشه وتُـنظِّفه [٣]ـ.

روى الإمامان البخاريُّ ومسلم ـ رحمهما الله ـ مِنْ حديث أنس بن مالك

---

(١) رواه مسلم (٢٤٥٦).
(٢) رواه البخاري (٣٨٠) ومسلم (٦٥٨).
(٣) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٤٥٠) ووفاء الوفا (٣/ ٨٨٢) والسيرة الحلبية (٣/ ٧٣) ونسب قريش (ص١٢٤).

ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يدخلُ على أمِّ حرام بنت مِلْحان، فتطعمه. وكانتْ أمُّ حرام تحت عُبادة بن الصَّامت، فدخل عليها رسولُ الله ﷺ يوماً فأطعمته، ثم جلستْ تفلي رأسه، فنام رسولُ اللهِ ﷺ.

لقد كانتْ «أمُّ حرام» ـ رضي الله عنها ـ وفيَّةً لرسول الله ﷺ، تقومُ على خِدْمته كلَّما شرَّفها بزيارةٍ، وتُؤْثِرُه بكلِّ ما تملكُ كَرَماً، وولاءً، وسخاءً. وليس هذا غريباً عن الصَّحابة الأنصار، أولئك الذين استقبلوا إخوانَهم المهاجرين إليهم، فأوسعوا لهم في بيوتهم، وأنزلوهم المنزلَ اللائق، وقاسموهم كلَّ ما يملكون. و«أمُّ حرام» ـ رضي اللهُ عنها ـ أنصاريَّةٌ تميَّزَتْ بالجود، والإيثار.

قال عزَّ وجلَّ في الأنصار، ذاكراً بعضَ صفاتهم المثلى، وخِصالهم الجُلَّى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

* بُشْرَى نبويَّة:

عُرِفَتْ «أمُّ حرام» ـ رضي الله عنها ـ بحبِّها للجهاد، وطَلَبِها للشَّهادة في سبيل الله، ولطالما تمنَّتْ أن يكون موتُها وهي تغزو مع المسلمين، وتساعِدُهم ضد المشركين.

وذات يومٍ حدَّثَ العابدُ المخَضْرمُ عُمَيْر بن الأسود العَنْسِيُّ: أنَّه أتى عُبادة بن الصَّامت، وهو نازلٌ في ساحة حِمْص، وهو في بناءٍ له، ومعه زوجُه أمُّ حرام، قال عُمَيْر: فحدَّثتنا أُمُّ حرام أنَّها سمعتِ النَّبيَّ يقولُ: «أوَّلُ جيشٍ مِنْ أُمَّتي يَغْزُون البحرَ قد أَوْجَبُوا».

قالتْ أمُّ حرام: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أنا فيهم؟!

قال ﷺ: «أنتِ فيهم»(١).

وهذه بُشْرَى مِنْ رسولِ الله ﷺ لأمِّ حرام ـ رضي الله عنها ـ ولا بُدَّ أنْ تتحقَّقَ مع

---

(١) رواه البخاري (٢٨٩٤) ومسلم (١٩١٢/١٦١).

الأيَّام، فرسولُ الله ﷺ لا يقولُ إلاَّ حقّاً، ولا ينطقُ عن الهوى، إنْ هو إلاَّ وحيٌ يُوحَىٰ.

وباتتْ «أمُّ حرام» تنتظرُ بفارغ الصَّبْر تلكَ الغزوةَ؛ التي بشَّرها رسولُ اللهِ ﷺ بجهادها، واستشهادها.

وطوال حياة النَّبيِّ ﷺ لم تتحقَّقْ هذه البشارة. ويمضي ﷺ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ، ويأتي الخلفاءُ الراشِدُون: أبو بكر، وعمر، وعثمان.

وفي عَهْد الخليفة عثمان بن عَفَّان تتَّسعُ الفتوحات، وتأخذُ أبعادها، وكان معاويةُ بنُ أبي سفيان يسعى منذ عَهْد الخليفة عمر بن الخطَّاب لتقوية سواحل الشَّام.

وظفر معاويةُ مِنَ الخليفة عثمان بتصريحٍ يبيحُ له غَزْوَ «قبرص» شريطة ألاَّ يأخذَ معه في الحَمْلَة البحريَّة تلك إلا مَنِ اختارَ الغزوَ طائعاً.

واتَّسَمَتْ هذه الحملةُ البحريَّةُ بخروج النِّساء معها، فاصطحب معاويةُ زوجَه «فاختة بنتُ قُرَظَة»، كما أخذ عُبادةُ بنُ الصَّامت امرأته «أمّ حرام بنت مِلْحان».

وفي هذه الحَمْلَة نالَتْ «أُمُّ حرام» ـ رضي الله عنها ـ شَرَفَ الجهاد، وكُتِبَ لها ركوبُ البحر.

وهناك على مَتْن أَحَد المراكب تذكَّرتْ بشارةَ رسولِ الله ﷺ، وعلمتْ أنَّها ستكونُ شهيدة في هذه المرَّة، أو في مرَّةٍ قادمة، فطابتْ نَفْسُها، وانْشَرحَ صَدْرُها، وقرَّتْ عَيْنُها، بينما كانتْ تُرطِّبُ لسانَها بآيات الجهاد، والحضّ على قتال الكُفَّار.

يُحدِّثُنا الصَّحابيُّ الجليلُ أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن استشهاد «أمّ حرام» ـ خالته ـ فيقول:

دَخَلَ رسولُ الله ﷺ على ابنةِ مِلْحان، فاتَّكأ عندها، ثم ضحك، فقالتْ: لِمَ تضحكُ يا رسولَ اللهِ؟!

فقال: «ناسٌ مِنْ أُمَّتي يركبون البحر الأخضر ـ أي: الأبيض المتوسط ـ في سبيل الله، مَثَلُهم مَثَلُ الملوكِ على الأَسِرَّة».

فقالت: يا رسولَ الله! ادْعُ اللهَ أنْ يجعلَني منهم.

فقال: «اللهمَّ اجْعَلْها منهم».

ثم عاد فضحك، فقالتْ له مِثْلَ ذلك، فقال لها مِثْلَ ذلك.

قالتْ: ادْعُ اللهَ أن يجعَلَني منهم.

قال: «أنتِ مِنَ الأوَّلين، ولَسْتِ مِنَ الآخرين»(١).

قال أنسٌ: فتزوَّجَتْ عُبادةَ بنَ الصَّامت، فركبتِ البحرَ مع بنت قُرَظة ـ زوجة معاوية بن أبي سُفيان ـ فلمَّا قفلت ـ رجعتْ ـ ركبتْ دابَّتها فوَقَصَتْ ـ رَمَتْ ـ بها، فسقطتْ عنها، فماتتْ.

وهكذا حظيتْ تلك الصَّحابيةُ الصَّالحةُ بالشهادة، وأكرمْ بها مِنْ وسامٍ مِلْؤُه الفخارُ والثوابُ الجزيلُ مِنَ الله عزَّ وجلَّ.

*** مِـنْ تـاريـخ الـبحريَّـة الإسـلامـيـة:**

مِنَ المستحسنِ أنْ نُشيرَ ـ هنا ـ إلى دَوْرِ معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ في تحقيق الأهداف البحريَّة، والسَّعي الحثيث لفتح المنطقة السَّاحلية مِنْ إقليم الشام. وقد بَذَل هذا الصَّحابيُّ الكبيرُ جهداً كبيراً، وأَبْلى بلاءً حَسَناً، وكان له أَثَرٌ جميلٌ في مَسْعاه لدى الخليفة عمر بن الخطاب.

جَمَعَ عمرُ كبارَ الصَّحابة والقادة العسكريِّيْن، واستشارهم فيما يريدُ معاويةُ أنْ يُقْدِمَ عليه، فكان رأيُ الأغلبيةِ: عَدَم السَّماح له بغزو البحر؛ تجنُّباً لأخطاره، وحِرْصاً على سلامة المسلمين، فكتب عمرُ إلى معاوية: «لا والذي بَعَثَ محمداً بالحقِّ! لا أحملُ فيه مسلماً أبداً».

وتابَعَ معاويةُ مَسْعاه، فهو يُدْرِكُ ـ رضي الله عنه ـ خَطَرَ أسطول الروم، وقُرْبَهُ مِنْ شواطىء المسلمين، ولا بُدَّ مِنَ الوقوف بحزمٍ في مواجهته، بل وغَزْوِه.

وكَتَبَ معاويةُ مرَّةً ثانيةً لعمر بن الخطَّاب يعرضُ عليه سُوءَ حال سواحل الشام، وافتقارها إلى وسائل الدِّفاع القويَّة، فكان جوابُ الخليفة مُرْضِياً، وذلك

---

(١) سبق تخريجه.

أنَّه أَمَرَهُ بترميم الحصون، وترتيب المقاتلين، وإقامة الحراسة، واتِّخاذ المواقد لتلك الأماكن.

وهكذا سَعَى معاويةُ لبناء الأسطول الإسلاميّ في البحر، ولم يهدأْ له بالٌ؛ حتى كان عَهْدُ الخليفة عُثمان بن عَفَّان؛ الذي سَمَحَ له بغزو البحر، فكان النَّصْرُ المبينُ للمسلمين.

*** وخِتامُها مِسْك:**

لقد نالتْ «أمُّ حرام» شَرَفَ الجهادِ في سبيل الله، وكانت طوالَ حياتِها تتبنَّى مفهومَ الجهاد، وتَسْعَى للاشتراك في عِداد جيش المسلمين، لتقاوم الضلال والكفر في الأرض، مصداقاً لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

وأَدْرَكَ المسلمون فَضْلَ الشَّهادة، وعَرَفُوا مكانةَ الشَّهيد، فأرواح الشهداء في أجوافِ طيرٍ خُضْرٍ، تطيرُ في الجنَّة، والشُّهداء يُحبُّهم اللهُ تعالى، ويكفيهم أنَّهم أحياءٌ عند ربِّهم يُرْزَقُون، ويُكْرَمُون.

وسمعتْ «أمُّ حرام» ـ رضي الله عنها ـ قولَ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ ماتَ ولم يَغْزُ، ولم يُحَدِّثْ به نَفْسَه، ماتَ على شُعْبةٍ مِنَ النِّفاق»[1].

لذلك انطلقتْ «أمُّ حرام» تُجاهِدُ في سبيل الله عزَّ وجلَّ، وتشتركُ مع المجاهِدِيْن كُلَّما سَنَحَتْ لها الفرصة، حتى كانتْ أوَّلَ مَنْ غَزَا مِنَ النِّساء في البحر، وأوَّل مجاهدةٍ فيه، وأوَّل امرأةٍ مسلمة تلقى الشهادة في حملةٍ بحريةٍ، وبذا يتحقَّق مأمولُها ومُبْتغاها.

*** شهاداتٌ زاكيةٌ:**

قال أبو نُعَيْم في «حلية الأولياء» يصفُ أُمَّ حرام ـ رضي الله عنها ـ:

---

(١) رواه مسلم (١٩١٠) وأبو داود (٢٥٠٢) والنسائي (٦/٨).

حميدةُ البَرِّ، شهيدةُ البحرِ، التَّوَّاقةُ إلى مُشاهدة الجِنان، أمُّ حرام بنتُ مِلْحان.

وقال الزّبيدي في «تاج العروس»:

ولها مقامٌ عظيمٌ بظاهر الجزيرة ـ أي: جزيرة قبرص ـ اجتزتُ بها في البحر عند توجُّهي إلى بيت المقدس، وأُخبِرْتُ أنَّ على مقامها أوقافاً هائلةً، وخَدَماً، وينقلون عنها كرامات.

وقال الإمامُ الذهبيُّ في «سِيَر أعلام النُّبلاء»: بَـلَغني أنَّ قبرَها تزورُه الفِرنجُ.

وهذا وغيره يدلُّ على مكانة «أمِّ حرام» ـ رضي اللهُ عنها ـ تلك المرأةُ الصَّحابيةُ؛ التي بَلَغَ بها صلاحُها أنْ طَلَبَتِ الشَّهادة، فنالَتْها بِفَضْل الله تعالى، بعد أنْ عاشتْ تنتظرُ تحقُّقَ بشارة النَّبيِّ ﷺ.

* * *

الباب الثالث

دور الأسرة في التربية والنهوض الحضاري

الفصل الأول:

أهداف التربية في الإسلام ، ودور الأسرة في تعزيزها.

الفصل الثاني:

الدور الحضاري للأسرة المسلمة في بناء الفرد وحياة المجتمع .

الفصل الأول

أهداف التربية في الإسلام ودور الأسرة في تعزيزها

تتنوَّع التربية ، وتختلف أهدافها في الشرق والغرب ، فبعضهم يهتم بإعداد الفرد وحسب ، وبعضهم الآخر يطرح مفهوماً اجتماعياً ، وآخرون يدعون للتربية المثالية ، إلى ما هنالك من نظريات تربوية ، واتجاهات تتعاضد حيناً ، وتتنافر أحياناً كثيرة .

وتبقى التربية الإسلامية ذات أهداف ثابتة لا تتغيَّر ولا تتبدَّل ، والسبب في ذلك أنها تستند إلى الكتاب والسُّنَّة ، وهما ثابتان ، يرسمان المفاهيم ، ويُحدِّدان الأفكار ، من خلال عقيدة التوحيد ، فينبثق الإيمان تيَّاهاً بالفكر المستقيم ، والسلوك الفاضل ، والخُلُق القويم ، فالمنهجُ ربَّاني المصدر ، والارتباط بين الاعتقاد والعمل وثيق لا ينفصم مهما كانت المشقَّات ، واحلولك الظلام ، فتبرز العقيدة والتربية في الإسلام يهبان المؤمن قوة الانديـاح والاستمرار .

وترنو التربية الإسلامية لصقل الخُلُق ، وتقويم الاتجاه وفق شرع الله عز وجل ، مع إعطاء الروح مكانةً سامية ، إلى جانب الاعتناء بالجسد ، وتلبية حاجاته دون شطط أو جنوح ، بينما ترفرف الآداب الرفيعة في تألُّقٍ لا نظير له ، ويندفع المتعلِّمون في مدرسة الإسلام ، يحدوهم الإخلاص ، وتقف بهم العبادة في محطَّاتها ، لتعزِّز الأهداف المرجوَّة ، وتزرع الثقة في النفس المؤمنة ،

وتجعل الطمأنينة والرضا واليقين إشعاعات مضيئة ، لا يخبو نبراسُها مهما طال الطريق.

وقد آتت أهدافُ التربية الإسلامية أُكُلها ؛ إذ نبتت في أرضٍ طيبة ، وتلقَّتها نفوسٌ مؤمنة ، وها هم الصحابةُ الكرام يبرهنون على صِدْق تمثُّلهم لتربية القرآن والسُّنَّة ، إذْ ربطوا بين الاعتقاد الصحيح والسلوك الإيجابي ، فعانى كثيرٌ منهم في رمضاء مكة المكرمة ، وقاسوا مرارة العذاب والأذى ، لكنَّ إيمانهم كان راسخاً كالطود العظيم ، وكأنَّ لسان كلٍّ منهم يخاطبُ ربَّه فيقول:

لمَّا علمتُ بأنَّ قلبي فارغٌ ... مِمَّن سواكَ ملأتُه بهُداكا
وملأتُ كُلِّي منكَ حتى لم أدَعْ ... مِنِّي مكاناً خالياً لسواكا

وأثمرت التربية النبوية ، وحقَّقت جيلاً ربَّانياً ، يردِّد كلمة التوحيد ، ويُقاوم بالكلمة الطيبة ، والقدوة الحسنة ، مقاومةً تتجاوب لها آفاق الكون ، فتتعالى هتافات التوحيد معلنة استعلاءها على الباطل والضلال ، غير عابئةٍ بما ينالها من قساوة وأذى ، فقد أدركت تلك النفوس المؤمنة ـ التي تربَّت على القرآن والسُّنَّة ـ أنَّ طريقها لاحِب[1] لكنه مرير ، بَيْدَ أنه جنيُّ الثمرات ، يانع القطوف ، جليل الأهداف ، فطفق الصحابةُ يقطعون مدى المسير بتلاحمٍ منقطع النظير ، فإن اشتدَّتِ الوطأةُ على أحدهم ، شاركه الآخرون في المعاناة ، وتوحَّدوا معه كالجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمَّى ، وليس ما صنعه الأنصار مع المهاجرين من المواساة والإيثار ببعيد عن مسامع التاريخ.

وقَطَع الصحابةُ الكرامُ جميع أنواع التحالف مع المشركين؛ إذ تمكَّنت العقيدةُ الإسلاميةُ في نفوسهم. ويُحدِّثنا ابنُ إسحاق فيقول: لمَّا رأى عثمانُ بن مَظْعون ما فيه أصحابُ رسول الله ﷺ من البلاء ، وهو يغدو ويروح في أمانٍ من الوليد بن المُغيرة ، قال: واللهِ ، إنَّ غُدُوِّي ورواحي آمِناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهلُ ديني يَلْقَوْنَ من البلاء والأذى في الله ما لا يُصيبني؛ لنقصٌ كبير في نفسي ، فمشى إلى الوليد بن المُغيرة ، فقال له: يا أبا عبد شَمْس ، وفتْ

(١) «لاحب»: واضح.

ذِمَّتك ، قد رددتُ إليك جوارك ، فقال له: لِمَ يابنَ أخي؟! لعلَّه آذاك أحدٌ من قومي ، قال: لا ، ولكني أرْضَى بجوار الله ، ولا أُريد أن أستجيرَ بغيره. قال: فانطلقْ إلى المسجد ، فارددْ عليَّ جواري علانيةً كما أجرتُك علانية. قال: فانطلقا ، فخرجا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يردُّ عليَّ جواري ، قال: صدق ، قد وجدتُه وَفيّاً ، كريمَ الجوار ، ولكني قد أحببتُ ألاَّ أستجيرَ بغير الله ، فقد رددتُ عليه جواره . ثم انصرف عثمان ، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كِلاب في مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد:

ألا كـل شـيء مـا خـلا الله بـاطـلُ ....

قال عثمان: صدقت.

قال لبيد:

.... وكـلّ شـيء لامحـالـةَ زائـلُ

قال عثمان: كذبتَ ، نعيمُ الجنة لا يزول.

قال لَبيد بن رَبيعة: يا معشر قريش ، واللهِ ما كان يُؤْذَى جليسُكم ، فمتى حدَثَ هذا فيكم؟!

فقال رجلٌ من القوم: إنَّ هذا سفيهٌ في سُفهاء معه ، قد فارقوا دِيْنَنَا ، فلا تجدنَّ في نفسك مِنْ قوله؛ فردَّ عليه عثمان؛ حتى شَرِي[(١)] أمْرُهما ، فقام إليه ذلك الرجلُ فَلَطَم عينَه فَخَضَّرها[(٢)] ، والوليدُ بن المُغيرة قريبٌ يرى ما بلغ من عثمان ، فقال: أمَا واللهِ يا بنَ أخي إنْ كانت عينُك عمَّا أصابها لغنيَّة ، لقد كنتَ في ذِمَّةٍ مَنيعة. قال عثمان: بل واللهِ إنَّ عيني الصَّحيحة لفقيرةٌ إلى مثل ما أصاب أُختَها في الله ، وإني لفي جوار مَنْ هو أعزّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس[(٣)].

ولم يعد مِن أهداف التربية الإسلامية: إعداد المواطن الصالح فحسب ، بل إعداد الإنسان الصالح؛ لأنَّ الإسلام شامل للجميع ، وأهدافه صالحة لتهيئة أيِّ

---

(١) «شري»: عظم وتفاقم.
(٢) «فخضَّرها»: جعلها مائلة إلى السواد ، والعرب تُسمّي الأخضر أسود؛ لشدَّة خضرته.
(٣) السيرة النبوية؛ لابن هشام (١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).

إنسان تتمثَّل فيه جملةٌ من الخصائص؛ فتشكِّل في تضافرها الإنسان الصالح ، وهي :

* التقوى ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

* العبادة المقرونة بالإخلاص ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

* اتباع هدى الله ، قال سُبحانه : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

ومن شروط العمل الصالح : الإتقان ، فهو مقياسُ الجودة والنجاة ، قال عز وجل : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] .

والعمل الصالح هو «الترجمة العملية ، والتطبيق الأكمل للعلاقات التي حدَّدتها فلسفة التربية الإسلامية بين الإنسان والخالق والكون والحياة والإنسان والآخرة»(١) .

ولا يمكن تصوُّرُ مسلم من دون عمل ، فالعجز مرفوض ، والتنسُّك البارد ممجوج ، والعمل الصالح سبيل لعمارة الكون ، وتحقيق لمعنى الزهد؛ الذي أشار إليه رسولُ الله ﷺ بقوله : «الزَّهادة في الدنيا ليستْ بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكنَّ الزَّهادة في الدنيا ألاَّ تكون بما في يديك أوثق مما في يدي الله»(٢) .

فالمسلم يعمل ، ويسهلُ عليه البذل والعطاء؛ تطلُّعاً لما عند الله تعالى من الجزاء الأوفى ، وبالتالي لا يتردَّد في التضحية بما يملك ، لأنَّ التضحية في الإسلام صفقة مآلها الربح ، وثمرتُها كرمٌ لا يُحدُّ من الله تبارك وتعالى ، و﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

ويتَّصف العملُ في الإسلام بكونه صالحاً وناجحاً؛ لذا يقتضي أن يكون نافعاً ، وللشر نابذاً ودافعاً ، وعلى هذا يُفْهم حديث رسول الله ﷺ : «إنَّما الأعمال

---

(١) أهداف التربية الإسلامية ، للدكتور ماجد الكيلاني (٤٧) .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٠) وابن ماجه (٤١٠٠) .

بالنيات»[1] فلا فَصْل بين العمل ونتيجته ، أي : أن الأعمال المشروعة صحيحة ومعتبرة ومقبولة بالنيات ، وتوجُّه النفس نحو العمل؛ بقصدٍ أخلاقي ، فمنْ نوى الخير حصل له الخير ، ومَنْ نوى الشر كانت عاقبته وخيمة .

ويمكن أن نُحدِّد أهدافَ التربية الإسلامية ، التي تستطيع الأسرة تمثُّلها؛ فيما يلي :

الهدف الأول: التربية الأخلاقية:

بادىء ذي بدء لا بُدَّ أن ندرك أنَّ الخُلُق حالٌ للنفس راسخة ، تصدُر عنها الأفعالُ من خير أو شر؛ من غير حاجةٍ إلى فِكْر أو رويَّة ، ويتَّجه عِلْم الأخلاق ليصدر أحكاماً قِيْميَّة تتعلق بالأعمال؛ التي تُوصف بالحُسْن أو القُبْح .

ويكون موضوع علم الأخلاق هو الأفعال الإرادية؛ التي يقوم الإنسان بفعلها ، فتصدر عنه كالصدق والأمانة والكرم ، والكذب والخيانة والبخل ، وهي توحي بدلالاتها السلوكية على مدى تمثُّل صاحبها للشرع ، أو ابتعاده عن دائرته؛ ذلك أن الأخلاق في الإسلام تتمثَّل بمجموعة القواعد الضابطة للسلوك الإنساني ، وهي ربَّانية المصدر ، وتهدف لتنظيم وجود الإنسان ، وتحقيق علاقاته مع الآخرين على وَجْهٍ يرضي الله عز وجل ، ويحقق السعادة لبني البشر .

وقد حدَّد رسولُ الله ﷺ الغاية من بعثته ، والهدف من دعوته ، فقال ﷺ: «إنَّما بُعِثْتُ لأُتمِّم صالح الأخلاق»[2] .

وكان ﷺ الأنموذج الأتمَّ للأخلاق الفاضلة ، حيث تجسَّدت مكارم الصفات الحميدة ، ومحاسن الخلال النبيلة في شخص النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فكان خاتم النبيين ، والمثل الأعلى لمن أراد فِعْلاً خيِّراً ، أو سلوكاً حسناً ، أو كلاماً منضبطاً ، حتى عُرِف بخُلُقه الكريم وهو ما زال شاباً يترعرع في بلده مكة المكرمة ، وأدرك المشركون صفاته وخصاله الكاملة ، فنعتوه بالصادق الأمين .

---

(١) رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٨١) والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣).

وتجلَّى القرآنُ الكريم في توضيح مدى تمثُّل رسول الله ﷺ للأخلاق ، فقال عز وجل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وهذا ثناءٌ متميز ، وشهادة من الله تعالى تدلُّ على عظمة خُلُقه الكريم ، وصيانته للمفردات الأخلاقية في نفسه ، وتجاه الآخرين ، فطابق بين القول والعمل ، وطهرت ذاتُه النبوية بالأصول التهذيبية ، وقامت سيرتُه العطرة صفحة نقية ، ومثالاً يُحتذى ، ليس في الفضائل المفردة وحسب ، كالصدق والعدل والبر والرحمة ، فأخلاقُه ﷺ منهج متكامل شامل ، تتعاون فيه وتنضفر قمم التربية التهذيبية مع الشريعة الإلهية التنظيمية ، وتتَّجه إلى الله عز وجل ، بكمالها المتوازن ، واستقامتها المطردة.

وإنَّ نظرة إلى السُّنَّة النبوية تعطينا فكرةً عن إشعاعات الجانب الخُلُقي في الإسلام ، والتربية التهذيبية التي نشدها رسولُ الله ﷺ ، فدعم الفضائل ، وأنار أفق الكمال ، وخطَّ مسيرة الحياة على أركان صحيحة راسخة من الأخلاق الفاضلة الزاكية.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: لَمْ يكنْ رسولُ الله ﷺ فاحِشاً ولا مُتَـفَحِّشاً ، وكان يقول: «إنَّ مِنْ خياركم أحسنَكم أخلاقاً»[1].

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة مِنْ خُلُقٍ حسن ، وإن الله يُبْغِض الفاحشَ البذيء»[2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ عن أكثر ما يُدْخِل الناسَ الجنة ، فقال: «تقوى الله تعالى ، وحُسْن الخُلُق»[3].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ

---

(١) رواه البخاري (٣٥٥٩) ومسلم (٢٣٢١).
(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٢) وابن حبان (٥٦٦٤).
(٣) رواه الترمذي (٢٠٠٤) والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٩ و٢٩٤) وأحمد (٢/ ٣٩٢) وابن ماجه (٤٢٤٦).

المؤمنَ ليُدْرِكُ بِحُسْنِ الخُلُق درجةَ الصائم القائم»[1].

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ألا أُخْبركم بأحبِّكم إليَّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة؟ فأعادها مرتين أو ثلاثاً» قالوا: نعم يا رسول الله! قال: «أحسنُكم خُلُقاً»[2].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «اتَّقِ اللهَ حيثما كنتَ، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها، وخالِقِ الناسَ بخُلُق حَسَن»[3].

ولا تأتي التربية الأخلاقية بأسلوب العصا، وإصدار التعاليم الصارمة: افعلْ كذا، ولا تفعلْ كذا، فهذه الأوامر والنواهي لا تُـثْـمر خيراً، ما لم يُوجد مثل يُحتذى، يراه المتعلِّمون بأم أعينهم، كيف يتصرف، وكيف يقابل الإساءة بإحسانٍ غير متوقع، وكيف يُحلِّق بأدبه الرفيع، ونفسه النبيلة، وخُلُقه العظيم؛ ليسمو على الأخطاء، غارساً بفعله أعمق العظات، وأدقّ الحِكَم.

وإليك ـ عزيزنا القارىء ـ بعضاً من الأحداث العملية التي جرت لرسول الله ﷺ، وبرهن من خلالها على اتصافه بالخُلُق السامي، والأسوة الحسنة.

عن أنس قال: جاءتِ امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إنَّ لي إليك حاجة، فقال لها: «يا أم فلان، اجلسي في أيِّ نواحي السِّكك شئت حتى أجلسَ إليك».

قال: فجلستْ فجلس النبيُّ ﷺ حتى قضتْ حاجتها[4].

وروى جابر بن عبد الله أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نَجد، فلما قفل رسولُ الله ﷺ قَفَل معه، فأدركتهم القائلةُ في وادٍ كثير العِضاه، فنزل رسولُ الله ﷺ، وتفرَّق الناسُ يستظلُّون بالشجر، فنزل رسولُ الله ﷺ تحت شجرةٍ، وعلَّق بها سيفه، ونمنا نومةً، فإذا رسولُ الله ﷺ، وإذا عنده أعرابيٌّ،

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٩٤) وأبو داود (٤٧٩٨) وابن حبان (٤٨٠).
(٢) رواه أحمد (٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨) وابن حبان (٤٨٥).
(٣) رواه الترمذي (١٩٨٧).
(٤) رواه أبو داود (٤٨١٨).

فقال: «إنَّ هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صَلْتاً، فقال: من يمنعك مني؟ فقلتُ: الله» (ثلاثاً) ولم يعاقبه، وجلس[1].

وجاءه زيدٌ اليهودي قبل إسلامه يتقاضاه دَيْناً عليه، فجبذ[2] ثوبَه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه، وأغلَظ، ثم قال: إنكم يا بني عبد المطلب مُطْل، فانتهره عمر، وشدَّد له في القول، والنَّبيُّ ﷺ يبتسم، فقال رسولُ الله ﷺ: «أنا وهو كُنَّا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر، تأمرني بحُسْن القضاء، وتأمُره بحُسْن التقاضي»؟ ثم قال: «لقد بقي من أجله ثلاث». وأمر عمر أن يقضيه ماله، ويزيده عشرين صاعاً لما روَّعه، فكان سَبَب إسلامه، وذلك أنه كان يقول: ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في محمد إلا اثنتين لم أخبرهما: هل يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدَّةُ الجهل إلا حلماً؟ فاختبرتُه بهذا فوجدته على ما سمعتُ[3].

وفي فَتْح مكة ظفر ﷺ بالكفار، وحكَّمه الله عز وجل فيهم، فما زاد على أن عَفَا وصفح، وأبان عن أخلاقه الكريمة، فقال: «ما تقولون أنِّي فاعلٌ بكم؟!» قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: «أقولُ كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] اذْهَبُوا فأنتم الطُّلقاء»[4].

إنها أخلاقُ النبوة، والتربية بالقدوة الصالحة، حيث هدفتْ لتربية الإنسان تربية سامية، وتهيئة المجتمع ليأخذ دوره في التوجيه والتنظيم، وبالتالي نشأ جيلٌ يتَّصف بالخُلُق القويم، فتصدر عنه النشاطات الإرادية ذات سلوك فعَّال،

---

(١) رواه البخاري (٢٩١٠) ومسلم (٨٤٣).
«القائلة»: الظهيرة، والنوم في الظهيرة. «العضاه»: كل شجر له شوك صغر أو كبر. «اخترط»: سلّ. «مصلتاً»: مجرداً من غمده.
(٢) «فجبذ»: فجذب.
(٣) رواه ابن حبان (٢٨٨) والحاكم (٣/ ٦٠٤ و٦٠٥) وأبو نعيم في دلائل النبوة (٤٨) والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٧٨ ـ ٢٨٠) والطبراني في الكبير (٥١٤٧).
(٤) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٥٨).

يتَّجه نحو الخير والصلاح ، وتدفعه الأشواقُ الكامنة إلى السمو الأخلاقي ، والكمال التهذيبي .

وتهدف التربيةُ الأخلاقية لتدريب المتعلِّمين على العادات الاجتماعية التي تفي بحاجات الجماعة ، ويفرضها المجتمع على سائر أعضائه ، فتتَّجه الناشئةُ إلى المسلك الحسن المتزن ، وتقوى إراداتهم ، وتنمو شخصياتهم ، وتتكامل؛ مما يقودهم ليكونوا جديرين بالاشتراك في حياة الجماعة[١] .

ويهدف الإسلامُ إلى إصلاح النفس الإنسانية بكل آمادها وأبعادها ، فيكرِّس جهوده لغرس التعاليم الصالحة ، والتغلغل في الأعماق؛ للتأثير في كل نأمةٍ تصدر عنها ، وعَبْر كل النُّظُم التي ترد منها ، في مختلف الأحوال ، وتعدُّد المسارات ، وتنوُّع المجالات .

وأمْرُ المؤمن كلُّه خير ، في السراء والضراء ، فإن أنعم اللهُ تعالى عليه ، وأسبغ فَضْله ، ووسَّع منَّته ، فإن أخلاقَه الفاضلة تجعله يندفع في حياته شاكراً ، حامداً ، سائلاً الله الكريم أن يديم عليه فيوضاته ونعيمه . وإن تعرَّض لنوع من البلاء؛ صَبَر ، واحتسب ، ورضي ، فلم يتضجَّر ، ولم يتسخَّط ، وكان لسانُ حاله : حسبنا الله ونِعْم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . يقول رسول الله ﷺ : «عجباً لأمْر المؤمن؛ إنَّ أمرَه له كلَّه خير ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إنْ أصابته سرَّاءُ شكر فكان خيراً له ، وإنْ أصابته ضَرَّاءُ صَبَر فكان خيراً له»[٢] .

فهذا السلوكُ الحسن هو الذي يضبط علاقات الإنسان مع ربِّه ، ومع الناس جميعاً ، وهو ناتجٌ عن تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتمكُّن الإيمان في أعماق النفس وقيعان الضمير .

وإذا لم تصلح النفوس ، وتتشرَّب بالأخلاق الخيِّرة ، فإنَّ آفاقها تظلم لا محالة ، ويسودها الضيق ، ويرتسم المستقبل شاحباً لا صلاحَ فيه ، فمدارُ

---

(١) لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها ، للدكتور محمد أمين المصري (٢١٤ ـ ٢١٥).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣) ومسلم (٢٩٩٩).

المسألة على النفس، ومدى قربها من النُّظُم الأخلاقية، أو بُعْدها عنها. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ويُبيِّن القرآنُ الكريمُ سبب هلاك الأمم الضالة، والمجتمعات الفاسدة؛ بأنَّ نفوسهم قد اضمحلَّ فيها زكاءُ النفوس، وتغيرت باتجاه السلبية. قال عز وجل: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ﴾ [الأنفال: ٥٢ ـ ٥٣][١].

والنفس الطيبة، ذات الفطرة السليمة، هي التي تتصف بالخلق الراشد، وتتمسك بالحق، وتسير على مقتضاه، فتحبُّ الخير للناس، وتولع بالنُّبْل، وتحبِّذ الكمال، وتتمنّاه لغيرها من الأناسي، وهي لا تفتأ تنشد طريق الصلاح، وتعمل ليل نهار لإيصال الخير للآخرين، فمسيرة حياتها سلسلة لا تنفصم عراها من المواقف الأخلاقية الفاضلة، فتحاول إفادة الذين ثقلت بهم أهواؤهم، وانحدروا أسفل سافلين؛ لعلَّ الله تعالى يهديهم إلى سواء السبيل.

وها هو ذا رسولُ الله ﷺ يتحمَّل الأذى في سبيل الدعوة، ويتعرَّض لكيدٍ شديد مقيت، فلا يزيده هذا إلَّا إصراراً على مناصرة الحق، وحبّ الخير للآخرين، فعندما مضى ﷺ يُظْهِر دِيْنَ الله تعالى، ويدعو إليه، اشتدَّ الأمر بينه وبين المشركين؛ الذين ذهبوا ذات يوم إلى أبي طالب ـ عم رسول الله، ومناصره ـ وخيَّروه بين أمْره بالكفِّ عما يفعله ابنُ أخيه، أو حَرْبه حتى يهلك أحدُ الطرفين، واستدعى أبو طالب رسولَ الله ﷺ وقال له: يا بن أخي، إنَّ قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا؛ للذي كانوا قالوا له، فأبْقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تُحمِّلْني من الأمر ما لا أطيق، فظنَّ رسولُ الله ﷺ أنه قد بَدَا لعمِّه فيه بداء[٢] أنه خاذِلُه ومُسْلِمه، وأنه قد ضعُف عن نصرته، والقيام معه، فقال رسولُ الله ﷺ: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في يساري

---

(١) «كدأب»: كعادة.
(٢) «بداء»: رأي. وسُمِّي الرأي بداء لأنه شيء يبدو بعدما خفي.

على أنْ أتركَ هذا الأمر حتى يُظْهره الله أو أهلك دونه؛ ما تركتُه»[1].

وقد تلقَّى ﷺ تربية أخلاقية متميزة، فريدة، جعلتْ صفاته تنطق بالطيبة والتألق والخيرية، أليس هو القائل: «أدَّبني ربي فأحسن تأديبي»[2]؟! وزاد أبو سعد بن السمعاني في «أدب الإملاء والاستملاء»[3]: «ثم أمرني بمكارم الأخلاق، فقال: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]».

وهذه التربية الأخلاقية الربانية جعلتْ رسول الله ﷺ يتجنَّب الصفات السَّيئة، ويتَّسم بالرحمة، وينأى عن الفظاظة، والكلام الخشن، والخُلُق السَّيِّء الجافي، فتنطق أساريره بالبشاشة السمحة، والمشاعر الجيَّاشة بالعطف واللين والودّ. قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأكَّد رسولُ الله ﷺ أنَّ دوامَ الملك واستمراره مرهونٌ بسيادة الأخلاق، واستدامة الفضائل، فلا مُلْكَ من دون خُلُق قويم، ولا حضارة إذا خارت شجرةُ الأخلاق الفاضلة.

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كُنَّا في بيتٍ فيه نفرٌ من المهاجرين والأنصار، فأقبل علينا رسولُ الله ﷺ فجعل كلُّ رجلٍ منَّا يوسع رجاء أن يجلسَ إلى جنبه، ثم قام إلى الباب، فأخذ بعضادتيه، فقال: «الأئمة من قريش، ولي عليكم حقٌّ عظيم، ولهم ذلك ما فعلوا ثلاثاً؛ إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا عاهدوا أوفوا، فَمَنْ لم يفعلْ ذلك منهم فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين»[4].

ونرى من المفيد أن نتحدَّث عن وسائل التربية الأخلاقية، وهي تتلخَّص في النقاط التالية[5]:

---

(١) السيرة النبوية؛ لابن هشام (١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦).
(٢) ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة (٤٥) والعجلوني في كشف الخفاء (١٦٤) والألباني في ضعيف الجامع (٢٤٩).
(٣) أدب الإملاء والاستملاء (١).
(٤) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٤/ ١٩٤).
(٥) أصول الفكر التربوي في الإسلام؛ للدكتور عباس محجوب (١٦٤ ـ ١٦٥).

١ ـ **البيئة الاجتماعية**: حيث يقوم التعامل بين الأفراد على أساسٍ من السلوك الحسن، ويتعوَّدون على الإخلاص، والأمانة، والمحبة، والجدّ، والشفقة... وتتعاون أوساط التربية الثلاثة: المنزل والمدرسة والمجتمع؛ على تعديل الغرائز والنزعات والميول.

٢ ـ **الاتجاه العلمي**: ويكون بإبراز محاسن الأخلاق الفاضلة، وتبيان مضارّ السلوك السَّيىء، وربط ذلك بالنواحي الطبية والنفسية وعلم الاجتماع؛ فالتحليل العلمي للمفردات الأخلاقية عامل مهمّ في بناء صرح الأخلاق، وتشييد دعائمه.

٣ ـ **الرفقة الحسنة**: فالفردُ يتأثَّر بمن حوله؛ لأنه مُقلِّد لأصدقائه في سلوكهم، ومظهرهم، فمعاشرة الأفاضل تُكسب طباعهم، وتمثُّل سلوكهم.

٤ ـ **المنهج الدراسي**: لا سيَّما دروس التربية الخُلُقية؛ التي تُعلِّم الفضائل، والعادات الحسنة، والسلوك الرشيد، وتعطي هذه الدروس المتعلِّمين خبرات واسعة، وممارسات قيِّمة لسلوك الفضيلة والخير والحق والصلاح. ولا تقتصر هذه الدروس على الجانب النظري، بل ينبغي أن تمتدَّ لتشمل الجانب العملي، حيث يتبادل المتعلِّمون التجارب والمهارات والخبرات الخيِّرة، فتكون المدرسة حقلاً لتهذيب النفوس، وممارسة السلوك المتميِّز.

٥ ـ **دراسة سير الأنبياء والرسل والأبطال والنابغين**: وذلك في مختلف نشاطات الحياة، وهذه الشخصيات تبعثُ الروحَ في الناشئة، وتجسِّد معاني التضحية والفداء في سبيل المُثُل العليا، والمبادىء السامية.

٦ ـ **توحيد الجهود التربوية**: ونقصد بها: البيت والمدرسة ووسائل الإعلام المتنوعة؛ المرئية والمسموعة والمكتوبة، وكل هذا يساعدُ في توحيد الجهود لتربية الأجيال على الأخلاق الجيدة الإيجابية والسلوك الحسن.

وأشار الشيخ عبد الرحمن حبنكة إلى أمرين آخرين لاكتساب الأخلاق، وهما[١]:

---

(١) الأخلاق الإسلامية (٢٠٣ ـ ٢٠٨).

(أ) **القدوة الحسنة**: وهي المثال الواقعي للسلوك الخُلُقي الأمثل، وهذا المثال الواقعي قد يكون مثالاً حسّياً مشاهداً ملموساً يُقتدى به، وقد يكون مثالاً حاضراً في الذهن بأخباره، وسيره، وصوره مرتسمة في النفس بما أُثِر عنه من أنباء في القول والفعل.

(ب) **سلطان الدولة الإسلامية**: لما له من أثرٍ فعَّال في إلزام الأفراد والجماعات بالمنهج الأخلاقي؛ الذي رسمه الإسلام للناس، وفي تربية نفوسهم وقلوبهم على الفضائل الأخلاقية؛ من خلال الرقابة اليقظة، ومحاسبة المنحرفين، ووَضْع الأنظمة المرغِّبة بالتزام المنهج الأخلاقي الربَّاني، والرادعة عن مخالفته.

ونرى أن يحيا معنا القارىء الكريمُ في رحاب المفردات الأخلاقية من خلال آيات القرآن العظيم؛ فنطلع على التربية القرآنية للأخلاق الفردية والأسرية والاجتماعية.

الأخلاق الفردية:

الأوامر:

- الاستقامة: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].
- العفة: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].
- غضّ البصر: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].
- كظم الغيظ: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].
- الصدق: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].
- الرقَّة والتواضع: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩][(١)].
﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].
- الصبر: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

---

(١) «اقصد في مشيك»: توسَّط فيه بين الإسراع والإبطاء. «اغضض»: اخفِض وانْقُص.

ـ الاعتدال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

النـواهـي:

ـ الكذب: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

ـ البخل: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ـ التبذير: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

ـ الاختيال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

ـ الكبر: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

الأخـلاق الأسـريــة:

الواجبات نحو الأصول والفروع:

* الإحسان إلى الوالدين: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

* احترام حياة الأولاد: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١][1].

* تربية الأسرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

الـحيـاة الـزوجـيـة:

* الصداق: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ﴾ [النساء: ٤][2].

* سلام داخلي ومودة ورحمة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ﴾ [الروم: ٢١].

* انتشار النوع والنسل: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

---

(١) «من إملاق»: خوف فقر وفاقة.

(٢) «صدقاتهن»: مهورهن. «نِحْلة»: فريضة أو عطيّة بطيب نَفْس.

* تعامل إنساني: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦].

* المعاشرة بالمعروف: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

الأخلاق الاجتماعية:

المحظورات:

- قتل الإنسان: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١].
- السرقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].
- تملُّك غير مشروع: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].
- الظلم: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].
- التواطؤ على الشر: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].
- شهادة الزور: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].
- السخرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١].
- التجسس: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١١].

الأوامر:

- أداء الأمانة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].
- الوفاء بالعهد: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].
- إصلاح ذات البين: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١][١].
- دَفع السيئة بالحسنة: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢][٢].
- الدعوة إلى الخير: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

الهدف الثاني: الإخلاص في العبادة والعلم والعمل:

---

(١) «ذات بينكم»: أحوالكم التي يحصل بها اجتماعكم.

(٢) «يدرؤون»: يدفعون ويُجازون. «عقبى الدار»: عاقبتها المحمودة، وهي الجنات.

إنَّ كلمة التوحيد ـ لا إله إلا الله ـ هي أساس الإسلام ، وعنوان الإيمان ، ومعناها: أنه لا معبود يستحقُّ العبادة إلا الله سُبحانه ، وهذه الشهادة الحق تقتضي ضرورة الإخلاص والمحبة للخالق العظيم جلَّ في عُلاه.

وجاء في لسان العرب[1]: أنَّ أصل العبودية: الخُضوع والتَّذلُّل ، وأنَّ المستحقَّ لذلك هو الله تعالى ، فهو ربُّ العباد كلهم. قال الأزهري: ولا يُقال: عَبَدَ يَعْبُدُ عِبادةً إلاَّ لمن يَعْبُـدُ الله ، ومَنْ عَبَد دونه إلهاً فهو من الخاسرين.

وقال الزَّجَّاج في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] المعنى: ما خلقتُهم إلاَّ لأدعوهم إلى عبادتي ، وأنا مريدٌ للعبادة منهم ، وقد علم اللهُ قبل أن يخلقهم مَنْ يعبده ممَّن يكفر به ، ولو كان خلقهم ليجبرهم على العبادة لكانوا كلّهم عُبَّاداً مؤمنين.

وقال في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي: نُطيع الطاعةَ التي يُخْضَعُ معها. وقيل: إيَّاكَ نُوحِّد ، قال: ومعنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع.

وبيَّن اللهُ عز وجل في الحديث القدسي أنه سُبحانه خَلَق الناس لعبادته ، وعدم الإشراك به ، وأوضح أن وظيفتهم الأساسية في الحياة الدنيا تتركز في إخلاص العبادة للواحد القهَّار. فعن أبي هريرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «قال اللهُ عز وجل: يا بنَ آدم ، تفرَّغْ لعبادتي أملأْ صَدْرَكَ غِنىً ، وأسُدَّ فقرك ، وإلاَّ تفعلْ ملأتُ صدرَك شُغلاً ، ولم أسُدَّ فقْرَك»[2].

فالعبادة نوعٌ من الخضوع لا يستحقُّه إلا المُنْعِم بأعلى أنواع النِّعم ، كالحياة ، والفَهْم ، والسمع ، والبصر ، وفي العبادة تحقيقٌ لمحبة الله تعالى ، قال ابنُ قيِّم الجوزية: «أصلُ العبادة: محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحبُّ كله لله ، فلا يحبُّ معه سواه ، وإنما يحبُّ لأجله وفيه ، كما يحبُّ أنبياءه ، ورسله ، وملائكته ، وأولياءه. وإذا كانت المحبَّةُ له هي حقيقة عبوديته وسرُّها ، فهي إنما

---

(١) لسان العرب ، مادة (عبد).

(٢) رواه أحمد (٢/٣٥٨) والترمذي (٢٤٦٦) وابن ماجه (٤١٠٧) والحاكم (٢/٤٤٣) وابن حبان (٢٤٧٧/ موارد).

تتحقق باتِّباع أمره ، واجتناب نهيه ، فعند اتِّباع الأمر ، واجتناب النهي؛ تتبيَّنُ حقيقةُ العبودية والمحبة»[1].

والعبادة واسعة الآفاق ، رحبة الأبعاد ، تشمل الدين كله ، والحياة بأجمعها ، فهي اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ، ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة[2].

وهي بهذا المفهوم تشمل أركان الإسلام ، والآداب ، والأخلاق ، والمعاملات ، من خلال منهج شامل متكامل. قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

وتتَّجه التربية في الإسلام لتجعل العمل عبادة ، والعبادة مقرونة بالإخلاص ، إذ كلُّ شيء يرتبط بالنية ليحسن قبوله ، ويرتقي إلى الدرجات العليا ، والمنازل الرفيعة ، فقد يبني إنسانٌ قصراً منيفاً ، أو يغرس حديقة غنَّاء ، فإنْ قَصَد من وراء ذلك نَفْعَ الناس ، كان ثوابه كبيراً وغير مجذوذ. وقد أكَّد ذلك رسولُ الله ﷺ بقوله: «مَنْ بنى بُنْياناً في غير ظُلم ولا اعتداء ، أو غَرَس غَرْساً في غير ظلم ولا اعتداء ، كان له أجْراً جارياً ما انتفع به أحدٌ من خَلْق الرحمن تبارك وتعالى»[3].

وقال ﷺ: «ما مِنْ مسلم يغرسُ غَرْساً ، أو يزرعُ زَرْعاً ، فيأكل منه طيرٌ أو إنسان إلا كان له به صدقة»[4].

وقد يفهم بعضُ الناس أن الأجر يقتصرُ على القيام بالعبادات الشاقة على النفوس ، والمخالفة للهوى ، بل يؤكِّد رسولُ الله ﷺ أن الأجر يحصل من خلال فِعْل مُستلذّ ، يحثُّ الطبعُ عليه ، فعندما قال ﷺ: «وفي بُضْع أحدكم صَدقة» استغرب بعضُ الصحابة ذلك ، وقالوا: يا رسولَ الله ! أيأتي أحدُنا شهوتَه ، ويكونُ له فيها أجر؟! قال: «أرأيتُم لو وَضعها في حرام أكان عليه فيها وِزْر؟!

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٩٩).
(٢) العبودية؛ لابن تيمية (٣٨).
(٣) رواه أحمد (٣/ ٤٣٨) ، وانظره في مجمع الزوائد (٤/ ١٣٤ و٤/ ٧٠).
(٤) رواه البخاري (٦٠١٢) ومسلم (١٥٥٣).

فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجْر»[1].

قال أبو العباس القرطبي: « وفيه دليل على أنَّ النيات الصادقات تصرفُ المباحات إلى الطاعات»[2].

إنَّ صلاح النية، وإخلاص القلب، يرتفعان بالعمل إلى مرتبة العبادة، حتى الأمور النفعية الذاتية؛ التي يعتبرها الناس أمراً عادياً، بل واجباً يقومون به، كالقيام بالعمل لتأمين قوت مَنْ تجب عليه نفقتُهم، فإنه يرقى بالإخلاص وصِدْق التوجُّه إلى معارج القبول عند ربِّ العالمين، وهذا مفهومٌ من قول رسول الله ﷺ: «إنك لن تُنفقَ نفقةً تبتغي بها وَجْهَ الله إلا أُجِرْتَ عليها؛ حتى ما تجعلُ في في امرأتك»[3].

وعن المقدام بن مَعْد يكرِب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما أطعمتَ نَفْسَك فهو لك صدقة، وما أطعمتَ وَلَدَك فهو لك صدقة، وما أطْعَمْتَ زوجتكَ فهو لك صدقة، وما أطعمتَ خادمك فهو لك صدقة»[4].

ولا ريبَ أن النية الصادقة، والإخلاص العميق، والرغبة المخلصة تضفي على العمل أجْر القبول، وترفع صاحبها إلى مقعد الصلاح والصالحين، وتهبه مرتبة المجاهدين، ومن لم تتهيَّأ له وسائل البذل، أو عجز عن القيام بعمل الخير الذي يصبو إلى تحقيقه، لمرضٍ طارىء، أو قلَّة زاد، أو مال، والله عز وجل يعلم حرصه على صُنْع الخير، فيعطيه ثواب القائمين في ذلك العمل وإن لم يتمكن من مشاركتهم.

وقد حَدَث هذا في زمن رسول الله ﷺ أنَّ جماعةً من الصحابة الكرام جاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله! احْمِلْنا، فقال لهم: «واللهِ؛ لا أجدُ ما أحملكم عليه» فتولّوا وهم يبكون، وعزَّ عليهم أن يقعدوا عن الجهاد، ولا يجدوا نفقةً ولا محملاً، وعلم اللهُ عز وجل حِرْصَهم على محبَّته ومحبة رسوله

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٦٧ و١٦٨) ومسلم (٧٢٠ و١٠٠٦) وأبو داود (٥٢٤٣ و٥٢٤٤).
(٢) المفهم (٣/ ٥٢).
(٣) رواه البخاري (٥٦) ومسلم (١٦٢٨).
(٤) رواه أحمد (٤/ ١٣١) وانظره في مجمع الزوائد (٣/ ١١٩).

فأنزل عذرهم في كتابه الحكيم ، فقال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

وعن أنس بن مالك قال: رَجَعْنا مِنْ غزوة تَبُوك مع النَّبيِّ ﷺ فقال: «إنَّ أقواماً خَلْفَنا بالمدينة ، ما سَلَكْنا شِعْباً ، ولا وادياً؛ إلاَّ وهم مَعَنا ، حَبَسَهُمُ العُذْر»(١).

ولمَّا كانتِ العبادةُ هدفاً للإنسان ، وسبباً لوجوده في الحياة الدنيا ، فإنَّ أوَّل دعوةٍ أتى بها الأنبياء والمرسلون هي إخلاص العبادة لله عز وجل ، ونَبْذ الإشراك به ، وإفراده سُبحانه بالتوحيد ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وأَمَر اللهُ تعالى نبيَّه محمداً ﷺ أن يُعْلِن للملأ بأنه مأمورٌ أن يعبد الله وحده ، ويخلص له في الدين فيقرّ معنى الألوهية والعبودية ، وتسمو الوحدانية لله سُبحانه بلا شريك ولا شبيه ، قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٥].

وللإخلاص مكانة لا تُضاهى ، ونفاسة من نوع خاصّ ، وبركة غزيرة ، فيكفي الإنسان أن يكون مخلصاً في عمله وإن قلّ ، بدليل قول رسول الله ﷺ: «أخْلِصْ دِينَكَ يكْفِكَ العملُ القليل»(٢).

ويتقبَّل اللهُ تعالى من عباده المخلصين؛ الذين أشرقت نفوسُهم بشعاع اليقين والصدق ، وتألقت ضمائرهم بحرارة الإخلاص والصفاء ، فتخلَّصت من الشوائب والأكدار ، وتبرَّأت من الأهواء والأخطاء ، واتجهت أوَّابةً لله العزيز الغفَّار؛ الذي يرضى عن عبده المخلص.

عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ فارق الدنيا على الإخلاص لله

(١) رواه البخاري (٣٨٣٩) وأبو داود (٢٥٠٨) وابن ماجه (٢٧٦٤).
(٢) رواه الحاكم (٤/٣٠٦).

وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، فارقها واللهُ عنه راضٍ»[(١)].

وقد تحدَّث القرآنُ الكريم عن فضيلة الإخلاص ، وأنها عنوان الإسلام ، وعموده المتين ، قال عز وجل: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣].

و﴿ أَلَا ﴾: أداة تنبيه واستفتاح. و﴿ لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾: فيه بلاغةُ القصر. فيقرِّرُ اللهُ تعالى أن الإخلاص أساس التوحيد ، وغايته. وليس الإخلاصُ كلاماً يُلقى جزافاً ، أو ادِّعاءً عبثياً ، بل يرتسم نظاماً حيوياً ، يقوم منهاج الدين على قواعده ، بدءاً بالتصوُّر ، فالاعتقاد ، فالعمل.

وحدَّد القرآنُ الكريمُ الشروط التي ينبغي أن تتوافر في الناجين ، فأوجزها في أربعة شروط ، هي:

* التوبة ، والرجوع عن الذنب ، والإنابة إلى الطاعة.

* الإصلاح ، ونَبْذ الفساد ، ولزوم طريق الخير.

* الاعتصام بالله ، والامتناع به ، والالتجاء إليه سُبحانه.

* إخلاص الدين لله ، وتصفية العلاقة بين العبد ومولاه.

فإذا اجتمعت هذه الأربعة حُشِر صاحبُها مع المؤمنين؛ الذين يؤتيهم ربُّهم أجراً كبيراً لا منتهى له ، قال عز وجل: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٦].

وما دُمْنا نتحدث عن موضوع الإخلاص ، وأهميته في العبادة ، وضرورة اقترانه بالعمل ، فلا بُدَّ من الحديث عن الإخلاص في العلم ، وضرورة توافر النية الصالحة في طلبه ، وفي تعليمه ، وفيما ينتج عنه من مخترعات ، فما لم تتوافر النزاهة فإن الجراحات والأهواء تشكِّل نزيفاً يقضي على الأهداف العلمية ، ويُنْبِت ما لا تُحمد عقباه.

وقد وَرَدَ الوعيدُ على تعلُّم العلم لغير وَجْه الله تعالى. قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ

---

(١) رواه ابن ماجه (٧٠) والحاكم (٢/ ٣٣٢).

تَعلَّم علماً مما يُبتغى به وَجْهُ الله ، لا يتعلَّمه إلا ليصيب به غَرَضاً من الدنيا ، لم يَجِدْ عَرْفَ الجنة يوم القيامة»[١].

وقال ﷺ: «مَنْ طَلَب العلمَ ليماري به السُّفهاء ، أو يجاري به العلماء ، أو يصرف به وجوهَ الناسِ إليه ، أدخله اللهُ النار»[٢].

ومِنْ سوء النية في العلم: نَيْلُ الأغراض الدنيوية الفانية ، فترى فلاناً يجمع حوله طائفة من العوام ، ويلقي عليهم دروساً أو يحكي لهم قصصاً؛ ليقال عنه أنه عالم قاصّ. وآخر يعلو المنابر ، ويتشدَّق بكلامه؛ ليقال عنه أنه خطيبٌ بارع. وثالث يبيعُ دِيْنَه بمتاعٍ قليلٍ من الدنيا ، فيغيِّر الحقائق ، ويُبدِّل الأحكام؛ طمعاً بحفنةٍ من النقود ، أو تَشوُّفاً إلى منصب أو جاه[٣].

وثمَّة سؤال يُطرح على بساط البحث ، مفاده: كيف يستطيع المرءُ أن يجعل عمله عبادة؟ وللجواب نقول:

كلُّ إنسان يستطيع أن يجعلَ عملَه عبادة إذا التزم فيه الشروط التالية[٤]:

* أن يكون العملُ مشروعاً في الإسلام ، أمَّا الأعمال التي يُنكرها الدِّيْنُ ، كالعمل في الربا ، والحانات ، والمراقص ، ونحوها ، فلا تكون ولن تكونَ عبادةً أبداً ، فالله طيِّب لا يقبلُ إلا طيِّباً.

* وأن تصحبه النية الصالحة. ونيةُ المسلم: إعفاف نفسه ، وإغناء أسرته ، ونَفْع أمته ، وعمارة الأرض ، كما أمر الله عز وجل.

* وأن يؤدِّي العملَ بإتقان وإحسان ، ففي الحديث: «إنَّ الله كتب الإحسان

---

(١) رواه أحمد (٢/٣٣٨) وأبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢).
«عرف الجنة»: ريحها.

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥).
«ليجاري به العلماء»: أي: يجري معهم في المناظرة والجدال ليظهر علمه رياءً وسمعة.
«ليماري به السفهاء»: أي: يُحاججهم ويجالدهم مباهاةً وفخراً. «يصرف به وجوه الناس إليه»: يطلب العلم بنيَّة تحصيل المال ، والجاه ، وصَرْف وجوه العامة إليه.

(٣) العلم رفعة وخشية؛ ليوسف بديوي (٨٣ ـ ٨٤).

(٤) العبادة في الإسلام؛ للدكتور يوسف القرضاوي (٦١).

على كل شيء»(١) و«إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدُكم عملاً أن يُتقنه»(٢).

* وألَّا يشغله عملُه الدنيوي عن واجباته الدينية ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون : ٩].

وإذا راعى المسلمُ هذه الأمور كان في سعيه عابداً؛ وإنْ لم يكن في محراب مُتبتِّلاً إلى الله؛ وإنْ لم يكن مُنقطعاً إلى العبادة.

عن كَعْب بن عُجْرَة ـ رضي الله عنه ـ قال: مَرَّ على النَّبيِّ ﷺ رَجُلٌ ، فرأى أصحابُ رسول الله ﷺ مِنْ جَلَدِه ونشاطه ، فقالوا: يا رسول الله ! لو كان هذا في سبيل الله! فقال رسولُ الله ﷺ: «إنْ كان خَرَج يَسْعى على وَلَده صغاراً؛ فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوَيْن شيخَيْن كبيرَين ؛ فهو في سبيل الله ، وإنْ كان خرج يسعى على نَفْسه يُعِفُّها؛ فهو في سبيل الله ، وإنْ كان خرجَ يَسْعى رياءً ومُفاخرة؛ فهو في سبيل الشيطان»(٣).

إنَّ مفهوم العبادة في الإسلام يشمل مناحي الحياة كلها ، وله آثار إيجابية فيَّاضة ، فالطريق إلى الله تعالى واحد ، والغاية واحدة ، والخالق واحد لا شريك له؛ وبذا يكون المسلمُ يقظاً ، يُوجِّه طاقاته بأجمعها لتجسيد منهج العبادة في الحياة ، فتنصبغ صبغة ربانية ، ويتحوَّل المسلمُ بموجبها إلى التعامل الواضح ، والسلوك المستقيم ، والإكثار من أفعال الخير والبر والإحسان والصلاح ، فمنهجُ الله عز وجل لا يصدر عنه إلا النفع والفائدة ، وهو المنهج الذي دُعي النبيُّ ﷺ لاتِّباعه وتمثُّله. قال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

فتقوى الله سُبحانه ، والإحساس بالرقابة الإلهية؛ هو القاعدة الصُّلبة لهذا الدين وهي الهدف من تنفيذ التشريع ، فالمتقي يأخذ بالاستقامة ، ويتَّبع الحق ، وينأى عن توجيه الكافرين ، وتحريض المنافقين ، ويجعل نصب عينيه قول الله

---

(١) رواه مسلم (١٩٥٥) وأبو داود (٢٨١٥) والنسائي (٧/ ٢٢٩) وابن ماجه (٣١٧٠).
(٢) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦).
(٣) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٤/ ٣٢٥).

عز وجل: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢].

فالعبادةُ تحـررٌ من سيطرة الضالين، وتوجُّه إلى الله الواحد، مع الإخلاص له سُبحانه، فكلما قوي الإخلاص واشتد؛ كملت العبادة، واستقرَّ الإيمانُ في الأعماق.

ولا بُـدَّ أن نميِّز بين أمرين اثنين، هما:

- الجانب الفقهي التعليمي.

- والجانب التربوي.

أما الجانب الأول فَيُطْلَبُ من كتب الفقه، وهو دراسة عقلية محضة للأحكام، والجانب الثاني يحقق الغاية من دراسة الجانب الأول، فالعبادة لها غاية تهذيبية، حيث ترقى بنفس المتعلِّم، وتُوجِّه سلوكه، وتُكمل شخصيته.

وأشار عباس محمود العقاد إلى هدف العبادات، وبيَّن الغرض المرجوَّ منها، فقال[1]: «والغرض من عبادات الأديان ينطوي على أغراض مُتشعِّبة، يضيق بها الحصر؛ لأنها تقابل أغراض الدنيا جميعاً بأغراض الدين، ولكننا قد نجمعها جهد المستطاع في تنبيه المتديِّن على الدوام إلى حقيقتين؛ لا ينساهما الإنسانُ في حياته الخاصة أو العامة؛ إلا هبط به النسيان إلى درك البهيمة، واستغرق في هموم مبتذلة، لا فَرْقَ بينها وبين هموم الحيوان الأعجم، إنْ صحَّ التعبير عن شواغل الحيوان الأعجم بكلمة الهموم.

إحدى الحقيقتين التي يُراد من العبادة المثلى أن تُنبِّه إليها ضمير الإنسان على الدوام هي: وجوده الروحي؛ الذي ينبغي أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية، وغير شهواته الحيوانية، والحقيقة الأخرى هي: الوجود الخالد الباقي إلى جانب وجوده الزائل المحدود في حياته الفردية.

وعبادة المسلم في جميع فرائضها تتكفَّل له بالتنبيه الدائم إلى هاتين الحقيقتين، إنه في صلاته يستقبل النهار، ويتوسطه مرتين، ثم يختمه، ويستقبل الليل بالوقوف بين يدي الله، كأنه يستهديه في عمله، ويؤدِّي إليه

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه (١٠٩).

الحساب عن هذا العمل من ساعة اليقظة إلى الساعة التي يستسلم فيها للرقاد ، أو ينطوي فيها تحت جنح الظلام.

وإنَّ المسلم في صيامه ليذكر حقَّ الروح من شرابه وطعامه ، ويذكر أنه ذو إرادة تأخذ بيديها زمامَ جسدها ، ولا تترك لهذا الجسد أن يأخذَ بقيادتها ، ويتصرَّف بها على ترك الشراب والطعام فترةً من الزمن ، ولا يكون قصاراه منها أن يستبدل شراباً بشراب ، وطعاماً بطعام.

أمّا الزكاة في فرائض الإسلام المذكِّر له بحصَّة الجماعة من ماله الذي يكسبه بكدِّه وكدحه ، وهي المذكِّر له بأنْ يعمل لغيره ، ولا يعمل لنفسه وكفى ، وهي الامتحان له فيما تهوى الأنفس من المال والمتاع ، حيث كان الصيامُ امتحاناً فيما تهوى الأنفسُ من الطعام والشراب.

وإذا كان الإسلامُ ديناً يدعو الناسَ كافة إلى عبادة ربِّ العالمين ، فالحج هو الفريضة التي تتمثَّل فيها هذه الأخوة الإنسانية على تباعد الديار ، واختلاف الشعوب والأجناس ، وهي في اصطلاح العُرف الشائع بين الناس بمثابة صِلة الرَّحِم ، وتبادل الزيارة بين أبناء الأسرة الواحدة ، يجمعها الملتقى في المكان الذي صدرت منه الدعوةُ إليها ، وهو أجدر مكانٍ في بقاع الأرض أن يتمَّ فيه هذا اللقاء».

ونخلصُ إلى القول بأن تربية العبادة في نفس المكلَّف تُركِّز على قيمتها ، وذلك ببيان آثارها الإيجابية في الفرد والمجتمع ، وأن العبادة نوعٌ من الخضوع ، ينشأ عن استشعار القلب لعظمة الإله المعبود ، وهذا الشعور العارم ، الفيَّاض بالمحبة لله عز وجل؛ هو الذي يُؤتي العبادة ثمراتها؛ كزيادة الإيمان ، وتوثيق الصلة بالله تعالى ، وتزكية النفس ، وتطهيرها من الآثام ، والعيش في الحياة الاجتماعية على أساس تقديم الخير ، وإشاعة الفضيلة ، والتضحية في سبيل الآخرين؛ تطبيقاً لقول رسول الله ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»[1].

---

(١) رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥).

الهدف الثالث: إشاعة العلم ونشر الثقافة والمعرفة:

لا يشكُّ عاقل في أنَّ للعلم مكانة فضلى، ومقاماً عليّاً، باعتباره الأساس لمعرفة طريق الخير والحق، ومتابعة الصراط المستقيم على هدى ونور، ولا غرابة أن يقرن الله تعالى العلماء باسمه واسم ملائكته، قال عز وجل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨][(١)].

وقد نفى الله سبحانه التسوية بين الذين يعلمون، وينتفعون بعلمهم، ويعملون به، وبين الذين لا يعلمون، فقال عز وجل: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

ويكفي الإسلام فخراً أنه أعلن في بداية أمره دعوته إلى العلم، وثورته على الجهل والأمية والتخلف، قال عز وجل: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

إنَّ ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ دعوة لكل مسلم كي يسلك طريق العلم؛ سواء أتعلَّق بالعبادات والمعاملات والآداب والأخلاق، أم تعلق بعلوم الكون؛ كالطب والهندسة والعلوم الإنسانية، وفي ذلك فائدة لا تُحْصَر للفرد والمجتمع، ونَهْل لا يُحَدُّ من المعارف والثقافات؛ لبناء الحاضر، والمستقبل؛ على أسسٍ متينة من العلم والمعرفة المنظَّمة.

وقد حثَّ القرآنُ الكريم الناسَ على اقتناص العلم، والتزوّد من فنونه، والأخذ بسَهْم وافر من آفاقه الرحبة، ورَفَع الذين أُوتوا العلم مراتب عالية؛ لأنهم تعلَّموا وعلَّموا، ونفعوا الناس، وتوجَّه سلوكهم نحو الخيريَّة والإفادة. قال عز وجل: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

قال القرطبي في تفسيره: أي: في الثواب في الآخرة، وفي الكرامة في الدُّنيا، فيرفع المؤمن على مَنْ ليس بمؤمن، والعالم على مَنْ ليس بعالم[(٢)].

---

(١) «قائماً بالقسط»: مُقيماً للعدل في كل أمر.

(٢) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٩٩).

ومِنْ وسائل القرآن للدعوة إلى العلم أنَّه بيَّن أنَّ الله تعالى امتنَّ على الأنبياء ـ وهم صفوة الخَلْق ـ بما وهبهم من العلم ، وآتاهم من المعرفة والحكمة ، فقال في النبي يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال في النبي موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [القصص: ١٤].

وقال في النبي عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال في حق النبي داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وقال تعالى في حقّ داود وسليمان: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال سُبحانه ذاكراً نعمه على سيدنا محمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وكل هذه الآيات نداء واضح للتزوُّد من مناهل العلم ، والارتواء من منابع الثقافة ، فقد ذَكَر عز وجل بعضَ نعمه على الأنبياء ، وكان في مُقدِّمتها: التضلُّع من العلم ، والاستزادة من منافعه باعتباره من أجلِّ الفضائل ، وأرقى الطرق الموصلة إلى خيري الدنيا والآخرة. كما بيَّن رسولُ الله ﷺ ثواب طلب العلم ، وأنه بمنزلة الجهاد في سبيل الله ، فقال ﷺ: «مَنْ خرج في طَلَب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»(١).

وقد علَّق الإمام المناوي على هذا الحديث بقوله: «أي: مَنْ خرج من بيته يطلبُ العلم الذي يرضى عنه الشرعُ في حِلِّه ونَفْعه ، وإخلاص طالبه ، وإرادته به وَجْهَ الله تعالى ، فحُكْمُه حُكْم مَنْ هو في الجهاد؛ لِما في طلب العلم من إحياء

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤٧).

الدِّين ، وإذلال الشيطان ، وإتعاب النفس ، كما في الجهاد»[1].

وحقَّق المسلمون عبر عصورهم التاريخية قفزات مطردة وحضارية في ميدان نَشْر العلم ، وتوسيع آفاق المعرفة ، وبينما كان الغرب يغرق في سباتٍ عميق من الجهل والتخلف ، فإن العرب والمسلمين كانوا يحملون لواء الحضارة في القرون الوسطى ، ويدرسون قوانين الطبيعة ، ويقرؤون فلسفة اليونان وغيرهم ، ويؤلِّفون الكتب الكثيرة في جميع ميادين العلم.

وعقدت المستشرقة الألمانية «زيغريد هونكه» الفصل الثامن من الكتاب الخامس في مُصَنَّفها «شمس العرب تسطع على الغرب» بعنوان: «شعب يذهب إلى المدرسة» ، ومما قالته[2]:

بينما كان «شارل الأكبر» يجهد نفسَه في شيخوخته لتعلُّم القراءة والكتابة ، وبينما أمراء الغرب يعترفون بعجزهم عن الكتابة أو القراءة ، وفي الأديرة يندر بين الكهنة مَنْ يستطيع مَسْك القلم؛ لدرجة أنه عام (١٢٩١م) لم يكن في دَيْرِ القدِّيس «جالينوس» من الكهنة والرُّهبان مَنْ يستطيع حلَّ الخط ، بينما كان هذا كلُّه يحدثُ في الغرب ، كانت آلاف مُؤلَّفة من المدارس في القرى والمدن العربية والإسلامية تستقبل ملايين البنين والبنات ، يجلسون على سُجَّادهم الصغير ، يكتبون بحبرٍ يميل إلى السواد فوق ألواحهم الخشبية ، ويقرؤون مقاطعَ مِنَ القرآن حتى يُجيدوها ، ويُجوِّدون ذلك معاً بلحنٍ جميل ، عن ظهر قلب ، ثم يتقدَّمون خطوةً تلوَ الأخرى في المبادىء لقواعد اللغة.

وكان الدافعُ إلى كلٍّ هذا هو رغبتهم الصَّادقة في أن يكونوا مسلمين حقاً كما يجب أن يكون المسلم؛ لأنَّ مِنْ واجب كلِّ مسلم أن يقرأ القرآن.

وقد اهتمَّتِ الدولةُ الإسلامية بتعليم الرعية ، ولم تلبثْ أن جعلتْ من التربية واجباً ترعاه ، فالأطفالُ من مختلف الطبقات يتعلَّمون التعليمَ الأوَّلي مقابل مبالغ ضئيلة يقدر على دَفْعها الناسُ دون مشقَّة.

ومنذ أن بدأتِ الدولةُ تُعيِّنُ المعلِّمين للمدارس أمكن للفقراء أن يُعلِّموا

---

(١) فيض القدير (٦/ ١٢٤).

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب (ص٣٩٣).

أولادهم مَجّاناً ، بل إنَّ بعضَ البلدان العربية مثل الأندلس؛ قد جعلتِ التعليم للجميع مجّاناً.

وقد افتتح «الحَكَم الثاني» حوالي عام (٩٦٥ م) في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة لأبناء الفقراء ، بالإضافة إلى المدارس الثمانية التي كانت فيها فعلاً.

وفي القاهرة أنشأ المنصور «قلاوون» مدرسةً لليتامى مُلْحَقة بالمستشفى المنصوري ، ومَنَح كلَّ طفل فيها يومياً رطلاً من الخبز ، وثوباً للشتاء وآخر للصيف.

وكان الطَّلبةُ يتناولون طعامَهم مجّاناً ، بل ويتقاضون مُرتَّباً صغيراً ، ويسكنون في الأدوار العليا في المدرسة دون مقابل. أمّا في المهاجع فثمة المطبخ ، والمخازن ، والحمّامات ، وفي الطبقة الأرضية تلتفُّ الفصولُ ، وقاعات المكتبة على شكلٍ دائري خلف ممرّات مُظلّلة تُزيِّنها الأعمدة ، وفي الوسط فناءٌ واسع تتوسَّطه نافورة ماء.

هنا يتعلَّم شبابُ العربِ الطموحُ القرآنَ ، وقواعدَ اللغة ، والدِّيانة ، والخطابة ، والأدب ، والتاريخ ، والجغرافية ، والمنطق ، والفلك ، والرياضة ويُساهم الطلاب في المناقشات والمناظرات ، ويعيد معهم دروسَهم مساعدون من طلبة الصفوف المتقدِّمة أو من الخرِّيجين. وتبدو هذه المدارس كخلايا النحل الدَّائبة النشاط ، تُخْرج للجميع شَهْداً حلواً فيه شفاءٌ للناس ، وتُقدِّم قادةً للعلم والسياسة.

ولم تكن المساجدُ مُجَرَّد أماكن تُؤدَّى فيها الصلوات فحسب ، بل كانت منبراً للعلوم والمعارف.

وحول أعمدة الجامع كان يجلسُ الأستاذ ، ويلتفُّ حوله الطلاب. . . حلقةٌ أبوابُها مفتوحةٌ لمن يشاء ، رجلاً كان أو امرأة ، ولكلِّ الحقُّ في سُؤال الأستاذ ، أو مقاطعته معارِضاً. وكان هذا النِّظامُ أكبرَ دافعٍ للأساتذة يدفعُهم دائماً للإعداد المتقن لدروسهم ، والتعمُّق فيها.

حقّاً لقد كان لأيِّ مُتعلِّم الحقُّ في أن يلقيَ ما شاء مِنْ محاضرات ، وأنْ يتَّخذ مجلسَ الأستاذ ، ولكن الجمهور المثقَّف ، الواعي بنقده الدائم ، ويقظته ، كان

يحمي تلك المجالس مِنْ أن يتسرَّب إلى قيادتها مُدَّعي عِلْم ، أو مَنْ لم تنضجْ ثقافتُه ، أو تكتمل.

ومِنْ شفاه الأساتذة الزَّائرين من كل أنحاء العالم العربي المترامي الأطراف ، كانت الأفكار العلمية الحديثة تنتشر في كلِّ صوب ، فما يُدْرَى اليوم في البصرة أو بغداد ، تحملُه إلى القاهرة أو قرطبة غداً الأنباء ، حين لم يكنْ هناك صُحُفٌ أو بريد.

كما انتشر العلم عن طريق بناء المكتبات ذات التاريخ المجيد؛ مما دَفع «ديورانت» ليقول : «لم يبلغ الشغفُ باقتناء الكتب في بلدٍ من بلاد العالم ما بلغه في بلاد الإسلام؛ في القرون : الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر»[1].

ولنُلْقِ نظرة على أعداد الكتب في بعض المكتبات العربية؛ لندرك كيف ساد العلم ، وانتشرت المعرفة ، فضمَّت مكتبة الخليفة العزيز في القاهرة (١,٦٠٠,٠٠٠) مجلداً ، وحوت مكتبة الوزير المهلبي (١١٧,٠٠٠) كتاباً ، وجمع ابنُ عباد (٢٠٦,٠٠٠) كتاباً ، وكانت مكتبة الحكم بالأندلس تحتوي على (٤٠٠) ألف مجلد.

هذا ، وقد حثَّ القرآنُ الكريمُ على الرحلة في طلب العلم ، فقال عز وجل: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢].

ودَعَا رسولُ الله ﷺ إلى الرحلة العلمية؛ وبيَّن أن سَفَر طالب العلم بمثابة الجهاد ، فقال ﷺ: «مَنْ سلك طريقاً يلتمسُ فيه علماً سهَّل اللهُ له به طريقاً إلى الجنة»[2].

وكانت الرحلاتُ العلمية ، ولا تزال ، وسيلة لطلب العلم ، ونشره وتحصيله ، والتمكُّن من الجوانب العلمية. قال ابنُ خلدون : «الرحلةُ لا بُدَّ منها

---

(١) قصة الحضارة (١٣/ ١٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩) وأبو داود (٤٩٤٦) والترمذي (١٩٣٠) وابن ماجه (٢٢٥).

في طلب العلم لاكتساب الفوائد ، والكمال بلقاء المشايخ ، ومباشرة الرجال»[1].

وإلى جانب الفوائد السابقة لا بُدَّ من الإشارة إلى أن الرحلات العلمية وسيلة مساعدة لاتّساع الثقافة العامة؛ لكثرة احتكاك الإنسان بما يلقاه في أسفاره من أناسٍ كثيرين يجتمع بهم ، ومن معارف واسعة يطلع عليها.

كما ينتشر العلم ، وتنمو الثقافة عن طريق البعثات العلمية ، حيث يتم إرسال قوافل من المتعلِّمين للحصول على العلم من أبوابه الواسعة ، ويستمر الشباب الطامح زاحفاً إلى المراكز العلمية يُجالس أهل الاختصاص ، ويترصَّد أنباء العلم ، ويزاحم مجالس العلماء؛ فيكتسب الصفات التربوية والمسلكية والعلمية على مختلف الاتجاهات والألوان الثقافية.

الهدف الرابع: احترام العمل والتشجيع على ممارسته:

ليس الإسلام عبادة وحسب ، بل هو منهجٌ متكامل يجمعُ بين العبادة والعمل ، والقول والسلوك ، وعمارة الدنيا للفوز بالآخرة.

والإيمان دافعٌ قوي لإحكام العمل ، وجودة الصنعة ، فعندما يشعر المرءُ بالرقابة الإلهية ، وأنه مسؤول عما قدَّم من فِعْل؛ فإنه يندفع للعمل الصالح على الدوام ، فيحوز السمعة الطيبة في الحياة ، ويحيا في المجتمع ببالغ المحبة ، وإرادة نَفْع الآخرين ، مدفوعاً بإيمان متدفق ، يحدوه إحساسٌ باطلاع الله تعالى على الأعمال الإنسانية ، ومحاسبتهم يوم القيامة.

والعمل في الإسلام متنوِّع ، وقد ذكر القرآنُ الكريم بعض أقسامه ، ومنها[2]:

- العمل السياسي: ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

- العمل الزراعي: ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ [يس: ٣٥].

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٤٧٨).

(٢) أهداف التربية الإسلامية؛ للدكتور ماجد الكيلاني (٤٧).

ـ العمل المهني: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ ﴾ [الكهف: ٧٩].

ـ العمل الصناعي: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ١١][١].

ـ العمل الوظيفي: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ [التوبة: ٦٠].

ـ العمل الفكري والتربوي: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت: ٣٣].

ـ العمل الاقتصادي: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٦ ـ ٢٧٧][٢].

ـ العمل الديني والأخلاقي، والأمثلة كثيرة جداً.

ويقترن العمل بالإيمان في كل أشكال العمل المشار إليها؛ لأن العمل يحقق الأهدافَ المرجوَّة من الإيمان بالله ورسوله، فالمؤمن يُترجم بعمله كل ما يعتقده، وسبق أن أشرنا إلى أنَّ الصورة المثلى للمؤمن هي أن نراه عاملاً في مجالٍ خيِّر «يحملُ القلمَ على مقاعد الدراسة... يُحلِّل في المخبر كاشفاً عن الجراثيم والأدواء... يُؤلِّف كتاباً نافعاً فيه الهداية والنصح... يخترع نظرية تفيدُ الآخرين... يبتكر آلةً... يحافظ على مخطوطات الأمة... يفصل بين الناس في المحاكم... إلى ما هنالك، وكل هؤلاء وغيرهم مجاهدون في سبيل الله، فقد أعلنوا أنَّ علومهم لا بُدَّ أن تُحقِّق الخير، والنَّفْع العام، وأنَّ عقولهم ستفتح أبواب السعادة لمجتمعهم بأسره»[٣].

---

(١) «اعمل سابغات»: دروعاً واسعة كاملة. «قدّر في السرد»: أحكمْ صنعتك في نَسْج الدروع.

(٢) «يمحق الله الربا»: يُهلِك المالَ الذي يَدْخُل فيه. «يربي الصدقات»: يُنَمّي المالَ الذي أُخرِجَتْ منه.

(٣) العلم رفعة وخشية؛ ليوسف علي بديوي (٣٤).

وتتَّجه التربية لتجعل العمل يتَّسم بصفتين هما: أن يكون أخلاقياً وناجحاً في آنٍ واحد، ومن هنا نقول: إنَّ كل عمل صالح هو عمل أخلاقي وناجح. فمن قام بالأعمال الصالحة حصل على نتائج طيبة، ومنها:

ـ الأجر من الله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢].

ـ الأمن: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

ـ الحياة الطيبة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

ـ الجزاء الحسن: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٨].

ـ دخول الجنة: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

ـ التمكين في الأرض: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

ـ الدرجات العالية: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

ولا بُدَّ من تهيئة المتعلِّمين ليمارسوا العمل الصالح، فتربَّى فيه الإرادة الجازمة، والقدرة على القيام بالعمل، حيث تتضافر الخبرات الدينية والاجتماعية والكونية، فيتولَّد منها العمل المرتبط بالصلاح والإفادة.

وكانت التربيةُ النبوية مثالاً يُحتذى في احترام العمل، والتشجيع على ممارسته، فعن المقدام ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً مِنْ أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبيَّ الله داود ـ عليه السلام ـ كان يأكل من عمل يده»(١).

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٢).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لأنْ يغدو أحدُكم فيحتطبَ على ظهره، فيتصدَّق به، ويستغني به من الناس؛ خيرٌ مِنْ أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك؛ فإنَّ اليدَ العُليا أفضلُ من اليد السُّفلى، وابدأ بمن تعول»(١).

واليدُ العليا هي: المنفقة، والسفلى هي: السائلة؛ بدليل حديث مالك بن نضلة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الأيدي ثلاث: فيدُ الله العليا، ويدُ المعطي التي تليها، ويدُ السائل: السفلى، فأعطِ الفَضْلَ، ولا تعجز عن نفسك»(٢).

ويؤكِّد القرآنُ الكريم على أنَّ دخولَ الجنة منوط بعمل الإنسان الصالح، ومقدرته على صُنْع الخير، ودأبه في تجسيد السلوك الفعَّال؛ أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وبذلاً لوجوه الإحسان، وإتقان العمل، وبلوغ أقصى درجات الكمال الإنساني. قال عز وجل: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢].

ولا يكون دخولُ الجنة بالدَّعاوى العريضة، والأقوال الجوفاء، فلا بُـدَّ من دليلٍ حيّ ملموس على صحة القول، فالجزاء على قدر العمل، فلا محاباة، ولا تحيُّز لأحد على أحد، فمقياس المحسن هو أن يعمل عملاً صالحاً مخلصاً في مشاعره، وصِدْق توجُّهه، فسمةُ الإسلام العليا هي الاستسلام لله تعالى، مع وحدة الشعور والسلوك، والعقيدة والعمل، وعندها يكون الأجر موفوراً، والعمل مأجوراً، قال عز وجل: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١١ ـ ١١٢].

والتائب من الذنب لا يكتفى منه بالندم وحسب، فالشعور بفداحة ما اقترفت يداه ليس نهاية المطاف، فهناك العمل الذي يُصدِّق التوبة، ويقرِّر مصداقية المشاعر، ذلك أن الإسلام دين واقعي، لا يقف عند حدود الأحاسيس

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٧٥) ومسلم (١٠٤٢) والترمذي (٦٨٠).

(٢) رواه أبو داود (١٦٤٩).

والأقوال ، بل ينطلق ليحقق التوازن بين القول والفعل ، وتبقى النية هي التي تُحدِّد معيار العمل وقيمته وجزاءه ، فحين توجَّه الحديث إلى التائبين بيَّن القرآنُ الكريمُ أن العملِ هو مصداق القول ، قال عز وجل: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وحثَّ القرآنُ الناسَ على البحث عن مصادر الرزق ، وتأمين الحاجات ، وكَسْب المنافع ، وعمارة الكون ، قال عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥][(١)].

قال الإمام ابنُ كثير في تفسيره: «ذكر اللهُ نعمتَه على خلْقه في تسخيره لهم الأرض ، وتذليله إيَّاها لهم؛ بأنْ جَعَلها قارَّة ساكنة ، لا تميد ، ولا تضطرب ، بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع من العيون ، وسلك من السُّبُل ، وهيَّأ من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، فسافرُوا حيث شئتم من أقطارها ، وتردَّدُوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أنَّ سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً إلا أن يُيَسِّرَه اللهُ لكم ، فالسَّعيُ في السبب لا يُنافي التوكل»[(٢)].

قال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكُّلِه لرزقكم كما يرزقُ الطيرَ ، تغدو خِماصاً ، وتروح بِطاناً»[(٣)]. فأثبت لها رواحاً وغدوًّاً لطلب الرزق ، مع توكُّلها على الله تعالى.

وكان الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ يكسبون أقواتهم من عملهم ، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ عُمال أنفسهم[(٤)].

وصحيح أن الإسلامَ طالب الإنسانَ أن يبذل قصارى جهده في العمل ، بَيْـدَ

---

(١) «الأرض ذلولاً»: مذللة ليِّنة سهلة تستقرون عليها. «مناكبها»: جوانبها ، أو طرقها وفجاجها. «إليه النشور»: إليه تُبعثون من القبور.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٦٩).

(٣) رواه أحمد (١/ ٣٠) والترمذي (٢٣٤٤).

«خماصاً»: جائعة. «بِطاناً»: ممتلئة الأجواف.

(٤) رواه البخاري (٢٠٧١).

أنه لم يكتفِ بذلك ، بل أراد منه الإتقان أيضاً ، والحذق ، والإحكام ، وربَط ذلك بخشية الله تعالى ، وبمسؤولية العامل أمام ربّه ، قال ﷺ: «إن الله يحبُّ إذا عمل أحدُكم عملاً أن يُتْقِنَهُ»[1].

قال حسين أسد في تعليقه على هذا الحديث: «إنَّها دعوة لكل إنسان ـ مهما كان موقعُه في الحياة ـ أن يُتقن عملَه في الموقع الذي هو فيه:

فإتقان عمل الحاكمين: رعاية شؤون الأمة داخل البلاد وخارجها؛ رعايةً تعود عليها بالخير ، وتأطرها بالحق دعوةً والتزاماً.

وإتقان عمل المربِّين: تفجير كلِّ طاقة خيِّرة في النفوس ، وترسيخ قواعد الحق فيها ، وإتمام صرح بناء الأخلاق الفاضلة.

وإتقان كل ذي حرفة حرفته: في أنْ يجعلَ ما يقومُ بصنعه من أدوات يؤدي وظيفته التي صنع من أجلها أحسن أداء.

وإنَّ دِيْناً يأمر أتباعه بذلك لهو النظام الوحيد؛ الذي يداوي جراحات الإنسانية المعذَّبة؛ التي أرهقها ويرهقها استغلال المستغلين ، وآلمها ويؤلمها ما يُسبِّبه حقدُ الحاقدين»[2].

وقد بيَّن رسولُ الله ﷺ عاقبة الفَصْل والانقطاع بين القول والعمل ، وأنَّ الله تعالى ينكِّل بالعالم الذي يقول ولا يعمل بعلمه ، فيأمر الناسَ بالخير ولا يأتيه ، وينهاهم عن الشر ويأتيه ، فيجعله الله تعالى يوم القيامة عبرةً لأهل النار ، حيث تخرج أمعاؤه ، وتسقط أمامه ، وهو يدور حولها كما يدور الحمار بالرحى.

عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فَيُلْقى في النار ، فتندلقُ أقتابُه ، فيدورُ بها كما يدور الحمارُ بِـرَحَـاهُ ، فيجتمع أهلُ النار عليه ، فيقولون: يا فلان ما شأنُك؟ أليس كُنْتَ تَأْمُرُ بالمعروف وتَنْهى عن المنكر؟! فيقول: كنتُ آمرُكم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكُم عن المنكر وآتيه»[3]. قال: وإنِّي سمعتُه يقول ـ يعني النبيَّ ﷺ ـ: «مَرَرْتُ ليلةَ

---

(١) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦).

(٢) مسند أبي يعلى (٧/ ٣٥٠).

(٣) رواه البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩). =

أُسْري بي بأقوام تُـقْرَضُ شِفاهُهم بمقاريضَ من نار ، قلتُ : مَنْ هؤلاء يا جبريلُ؟! قال : خُطَباءُ أمتك الذين يقولون ما لا يَفْعَلُون»[١] .

وكان ﷺ يُعلِّم أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بالممارسة العملية ، فعن مالك بن الحويرث قال : قال رسولُ الله ﷺ : «صَلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي»[٢] .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ دَخَل المسجد ، فَدَخَلَ رجلٌ فصلَّى ، ثم جاء فسلَّم على النبي ﷺ ، فردَّ النبيُّ ﷺ عليه السَّلامَ ، فقال : «ارْجِعْ فَصَلِّ فإنك لم تُصلِّ» فصلَّى ، ثم جاء فسلَّم على النبي ﷺ ، فقال : «ارْجِعْ فَصَلِّ ، فإنَّكَ لم تُصَلِّ» ـ ثلاثاً ـ فقال : والذي بَعَثَكَ بالحق ، فما أُحْسِنُ غيرَه ، فعلِّمني . قال : «إذا قمتَ إلى الصلاة فكبِّر ، ثم اقرأ ما تيسَّر معك من القرآن ، ثم اركعْ حتى تطمئنَّ راكعاً ، ثم ارفَعْ حتى تعتدلَ قائماً ، ثم اسجدْ حتى تطمئنَّ ساجداً ، ثم ارفع حتى تطمئنَّ جالساً ، ثم اسْجُدْ حتى تطمئنَّ ساجداً ، ثم افْعَلْ ذلك في صلاتك كلِّها»[٣] .

وكان أسلوبُ النبي ﷺ تربوياً ، ويُؤخذ من هذا الحديث نتائج أهمّها[٤] :

أ ـ تشويق الرسول ﷺ لهذا المتعلِّم .

ب ـ وتركه يحاول تصحيح خطئه بنفسه ، أو يعجز فيسأل . وهذا أصلٌ انبثق عنه أسلوب التعلم بالمحاولة والخطأ ؛ كما يسمُّونه في التربية الحديثة .

ج ـ أنَّ الرسول ﷺ لم يُبيِّنْ له الصلاة الصحيحة حتى سأل عنها بنفسه ، فكان هذا الأسلوب أوقع في نفس المتعلِّم ، وأدعى إلى قبوله ، وانطباع أعمال الصلاة في ذاكرته .

كما أعطى رسول الله ﷺ الصحابةَ الكرام درساً واقعياً في محبة العمل ،

= «تندلق أقتابه» : الاندلاق : خروج الشي من مكانه . والأقتاب : الأمعاء .

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٠ و٢٣١و ٢٣٩) .
«تُـقْرَض» : تُـقَصُّ وتُـقْطَـع . «مقاريض» : آلات القطع والقصّ .

(٢) رواه البخاري (٦٣١) .

(٣) رواه البخاري (٧٩٣) ومسلم (٣٩٧) .

(٤) أصول التربية النبوية ؛ لعبد الرحمن النحلاوي (٢٦٥) .

والحثّ عليه ، وتَرْك التسوُّل ، والقيام بكسب الرزق. فعن أنس - رضي الله عنه - أنَّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ فسأله ، فقال: «أما في بيتكَ شيء؟» قال: بلى ، حِلْسٌ نَلْبَسُ بعضَه ، ونَبْسُطُ بعضَه ، وقَعْبٌ نشرب فيه من الماء. قال: «ائتني بهما». فأتاه بهما ، فأخذهما رسولُ الله ﷺ بيده ، وقال: «مَنْ يشتري هذين؟». قال رجلٌ: أنا آخذهما بدرهم. قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ يزيد على درهم؟» مرَّتين ، أو ثلاثاً ، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إيَّاه ، وأخَذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري ، وقال: «اشترِ بأحدهما طعاماً فانْبِذْهُ إلى أهلك ، واشْتَرِ بالآخر قَدُوماً فائتني به». فأتاه به ، فشَدَّ فيه رسولُ الله ﷺ عُوداً بيده ، ثم قال: «اذهبْ فاحتطبْ وبِعْ ، ولا أرَيَنَّكَ خمسةَ عشر يوماً» ففعل ، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً ، وببعضها طعاماً ، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خيرٌ لك مِنْ أن تجيء المسألةُ نُكْتةً في وجهك يوم القيامة. إنَّ المسألةَ لا تصلحُ إلا لثلاثٍ: لذي فَقْر مُدْقع ، أو لذي غُرْمٍ مُفْظِع ، أو لذي دمٍ مُوجِع»[(١)].

الهدف الخامس: تربية الإحساس بالمسؤولية وتعزيز روح الشورى:

تُعنى التربيةُ الإسلامية بتكوين الفرد؛ ليكون إنساناً صالحاً في مجتمع صالح ، وبالتالي تقوم الأمة على أساس الإيمان بالله ورسوله ، فالإيمان ، وروح المسؤولية ، ونظام الشورى ، هي التي توجِّه الأنشطة ، وتنظِّم العلاقات. قال عز وجل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] وقال سُبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذا النَّصُّ القرآني يدلُّ بشكل قاطع على أن نظام الإسلام يقوم على مبدأ الشورى ، وتبادل وجهات النظر ، وتقليب الآراء؛ وصولاً إلى تحقيق الهدف

---

(١) رواه أبو داود (١٦٤١) والترمذي (١٢١٨) والنسائي (٧/ ٢٥٩) والبيهقي (٧/ ٢٥).
«حِلْس»: كساء غليظ يكون على ظهر البعير ، وسُمِّي به غيره مما يُداس ويُمتهن من الأكسية ونحوها. «قعب»: قدح من خشب. «فقر مدقع»: هو الشديد الملصق صاحبه بالدقعاء ، وهي الأرض التي لا نبات فيها. «غرم»: هو ما يلزم أداؤه تكلُّفاً لا في مقابلة عوض. «مفظع»: هو الشديد الشنيع. «ذو دم موجع»: هو الذي يتحمَّل دية عن قريبه ، أو حميمه ، أو نسيبه القاتل يدفعها إلى أولياء المقتول ، ولو لم يفعل قُتِل قريبُه ، أو حميمه الذي يتوجَّع لقتله.

المأمول؛ بأفضل شكل، وأصدق مضمون. أمَّا شكل الشورى، ووسائلها، فهي تتنوَّع وفق أوضاع الأمة، فالمهمُّ هو إيجاد حقيقة الشورى، دون الاكتفاء بإنشاء مظهرٍ شكليٍّ لها.

وقد طبَّق رسولُ الله ﷺ الشورى في الواقع المعاش، ففي غزوة أُحُد، اختلفت الآراء، فطائفة رأت أن يبقى المسلمون في المدينة، يحتمون بها، حتى إذا داهمهم العدو قاتلوه، وحققوا الانتصار عليه، أمَّا الطائفة الثانية فرأت أن تخرج للقاء المشركين وجهاً لوجه.

قال ابن إسحاق: فلما سمع بهم ـ أي المشركين ـ رسولُ الله ﷺ والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا، قال رسول الله ﷺ للمسلمين: «إني قد رأيتُ واللهِ خيراً، رأيتُ بقراً، ورأيتُ في ذُباب سيفي[1] ثَلْماً، ورأيتُ أني أدخلتُ يدي في دِرْع حصينة، فأوَّلتها المدينة، فإنْ رأيتم أن تُقيموا بالمدينة، وتَدَعُوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مُقَام، وإنْ هم دَخَلُوا علينا قاتلناهم فيها».

وكان رأيُ عبد الله بن أُبيّ ابن سلول مع رأي رسول الله ﷺ، يَرى رأيَه في ذلك، وألَّا يخرج إليهم، وكان رسولُ الله ﷺ يَكْره الخروج، فقال رجالٌ من المسلمين ـ ممن أكْرم الله بالشهادة يوم أُحُد وغيره ـ ممَّن كان فاته بَدْرٌ: يا رسولَ الله، اخْرُجْ بنا إلى أعدائنا، لا يَـرَوْن أنَّا جَـبُـنَّا عنهم وضَعُفْنا. فقال عبدُ الله بن أُبيّ ابن سلول: يا رسول الله، أقمْ بالمدينة لا تَخْرُج إليهم، فو اللهِ ما خَرَجْنا منها إلى عدوٍّ لنا قطُّ إلا أصاب منا، ولا دَخَلها علينا إلَّا أصبنا منه، فَدَعْهُم يا رسولَ الله، فإنْ أقامُوا أقامُوا بشرِّ مَحْبَس، وإنْ دخلوا قاتلهم الرجالُ في وَجْههم، ورماهم النِّساءُ والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإنْ رَجَعُوا رجعوا خائبين كما جاؤوا.

فلم يَزَلِ الناسُ برسول الله ﷺ ـ الذين كان مِنْ أمرهم حبُّ لقاء القوم ـ حتى دخل رسولُ الله ﷺ بيته، فلبس لأمَتَه[2]، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من

---

(١) «ذُباب سيفي»: أي: حدّه الذي يُضْرَبُ به.
(٢) «لأمته»: اللأمة: أداةُ الحرب كلها، من رُمْح، وخُوذَة، ومِغْفَر، وسيف، ودِرْع.

الصلاة ثم خرج إليهم ، وقد ندم الناسُ ، وقالوا: اسْتكْرَهْنا رسول الله ﷺ ، ولم يكنْ ذلك.

فلما خرج عليهم رسولُ الله ﷺ قالوا: يا رسول الله ! اسْتكْرَهناك ولم يكنْ ذلك لنا ، فإنْ شِئتَ فاقْعُد ، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما ينبغي لنبيٍّ إذا لَبس لأمَته أن يضعها حتى يقاتل» فخرج رسولُ الله ﷺ في ألفٍ من أصحابه[1].

ودارت رحى الحرب ، وحَدَث خَلَلٌ في صفوف المسلمين ، وقُتِل مَنْ بقي مِنَ الرماة فوق الجبل ، وكانت الجراح والآلام والهزيمة!

وثمة سؤال يتهادى: لِمَ خَرَج رسولُ الله ﷺ بالجيش خارج المدينة لملاقاة المشركين ، بعد أن رأى ـ ورؤيا الأنبياء حق وصدق ـ البقر التي تُذبح ، وأوَّلها قتلى من أهل بيته ومن أصحابه ، وأوَّل المدينة درعاً حصينة؟!

لقد كان من حقه ﷺ أن يمكث في المدينة ، ويأمر الناسَ بالدفاع عنها ، ويلغي مسألة الشورى ، ولكنه ﷺ أمضاها ، على الرغم من إدراكه للتضحيات الجسام ، والجراح النازفة ، والخسائر المتوقَّعة؛ لأنه ﷺ أراد أن يُقرِّر مبدأ الشورى ، ويربي الأمة عليه ، فتعليمُ المبادىء قد يُرافقه تحمُّل بعض الآلام ، فالتَّدرُّب على قاعدةٍ من القواعد يحتاجُ إلى مِران وممارسة وتجارب عديدة ، ولا بُدَّ من وقوع الأخطاء ، واحتمال النتائج وإن بدتْ علقماً مُرّاً ، فمن يقع في العثرات يتعلم كيف يقف على رجليه مرة أخرى ، وكيف يُصحِّح خطأه ، ويرتِّب أمره بشكل أفضل ، ويتصرف على نحوٍ ينجيه من المهالك في مستقبل الأيام.

وصحيح أن الخسائر كانت كبيرة ، والآلام فوق احتمال القوم ، لكن الحصيلة كانت رائعة ، وافرة ، عميقة الأثر ، جليلة القدر؛ لأنها ساهمت في إنشاء الأمة المسؤولة عن تبعات ما يصدر عنها ، والتي تواجه أعمالها بشجاعة واقتدار ، وتقرأ الأخطاء لتصحِّح المسيرة من جديد ، وتتابع رحلتها على أرض صُلبة ، وبخطى واثقة.

وقام نظامُ الشورى في عهد رسول الله ﷺ واقعاً عملياً ، ودرساً تطبيقياً ، آتى

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٢ ـ ٦٣).

ثماره اليانعة ، وتدرَّب الناسُ ـ على الرغم من الخسائر والعقبات ـ بإشراف النبي ﷺ على ممارسة أمرٍ مهمّ للأمة ، وزاولوه بكل خطورته ، وكانت النتائج إيجابية ، حيث تحمَّل المسلمون تبعات المسؤولية ، ونتائج العمل ، فكان مستقبلهم مثمراً بالخير والصواب ، وها هي غزوة الأحزاب تؤكِّد استفادة المسلمين من درس أُحُد؛ إذ حفروا الخندق حول المدينة ، وتحصَّنوا فيها ، ولم يخرجوا للقاء العدو ، فكان النصر المبين خفَّاقاً براياته .

وللمشاورة فوائد تربوية كثيرة ، ذكر الإمامُ الرازي منها[١] :

* أنَّ مشاورة الرسول ﷺ الصحابة؛ تُوجِبُ علوَّ شأنهم ، ورفعة درجتهم ، وذلك يقتضي شدَّة محبَّتهم له ، وخلوصهم في طاعته ، ولو لم يفعلْ ذلك لكان ذلك إهانة لهم ، فيحصل سوء الخُلُق والفظاظة .

* وأنه ﷺ ـ وإن كان أكمل الناس عقلاً ـ إلاَّ أنَّ علومَ الخَلْق لا متناهية ، فلا يبعدُ أن يخطر ببالِ إنسانٍ مِنْ وجوه المصالح ما لا يخطر بباله ، لا سيما فيما يفعل من أمور الدنيا ، فإنه عليه الصلاة والسلام قال : «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[٢] . وقال ﷺ : «إن كان شيئاً مِنْ أمْر دُنياكم فشأنكم به ، وإن كان من أمور دينكم فإليَّ»[٣] . ولهذا السبب قال ﷺ : «ما تشاور قومٌ قطُّ إلا هُدُوا لأرشد أمرهم»[٤] .

هذا ، وإن أسرةً تقرأ التاريخ ، وتهتدي بمنهج القرآن ، وتأتسي بسُنَّة رسول الله ﷺ ، لابُدَّ لها أن تدرك الحقائق ، وتعي دورها الحضاري في بناء الفرد ، والتأثير في مسيرة المجتمع ، وتربية الشباب تربية مثلى فاضلة ، ترعى جوانب التربية كلها؛ كيلا ينحرف الإنسان عن اتباع الجادّة ، من خلال عَرْض النماذج الحية والواقعية من تاريخنا الإسلامي والعربي ، تلك النماذج الفاضلة؛ التي تُفسِّر التربية الحقة ، وتجعل الأفكار شواهد منبثّة ، تنثال على أرض الواقع

---

(١) تفسير الرازي (٩/ ٦٦).
(٢) رواه مسلم (٢٣٦٣).
(٣) رواه ابن ماجه (٢٤٧١).
(٤) انظره في الدر المنثور (٢/ ٣٥٩).

خطوطاً عريضة للتربية الإسلامية المتفرِّدة والمتميزة في شمولها ، ويقظتها ، وتأثيرها .

وكل ذلك يقع على عاتق الأسرة المتماسكة ، التي ترتبط بمنهج الله عز وجل ، وتستقي من السنة النبوية ، فتنشر النور في فكر أبنائها ، وتعمر المثل الأخلاقية والإنسانية أهدافاً جديرة بالامتثال؛ فترتبط الوسائل بالأهداف ، وتحقق الأسرةُ منهج التربية الإسلامية على مدار الأيام .

* * *

الفصل الثاني

الـدور الحضـاري لـلأسـرة الـمسلمـة فـي بنـاء الـفـرد وحيـاة الـمجتمـع

الأسـرة مـؤسسـة حـضاريـة:

الأسرةُ هي المدرسةُ الأساسية ، والمركز الأول الذي يتلقىٰ الإنسانُ فيه علومه ومعارفه الأولىٰ ، وهي الصرحُ الأساسي التي يغرسُ فينا التقاليد والعادات الجيِّدة ، والأخلاق الحميدة ، وهو المعقلُ الذي تنمو فيه مشاعرنا وأحاسيسنا وانفعالاتنا ، وتتكوّن فيه شخصيتنا ، وتترعرع أفكارنا ، أي أنه التربة الأولىٰ لفسيلةٍ غضَّة يانعة ، تحتاج لعناية خاصة ، ورعاية فريدة حتى تنمو وتنمو لتصبح أجمة وارفة ، تكون أصلاً وظلاً لِفَسيلةٍ جديدة.

من هنا ، ومن هذه المكانة لهذه الخلية المتميزة نبع اهتمام الإسلام ، وكان التوجيه الرفيق الدقيق منذ اللحظة الأولىٰ ، إذ أنه لا مجال للتأجيل أو التسويف ، ولا يمكن لشيء كهذا أن يُتْرك للمصادفة والأيام.

وقد كان التوجيه يبدأ منذ اللحظة الأولىٰ للتفكير ـ مجرد التفكير ـ ببناء هذه الخلية ، يقول عليه الصلاة والسلام: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخُلُقه فزوِّجوه»[1].

---

(١) رواه الترمذي (١٠٨٤) وابن ماجه (١٩٦٧).

ويقول ﷺ: «فاظفرْ بذات الدين تَرِبَتْ يداك»[1].

ويقول أيضاً: «اذهبْ فانظر إليها، فإنه أحرىٰ أن يُؤدم بينكما»[2].

بُنيت الخلية، وابتدأت الحلقة بالدوران، وحان وقتُ الزرع، فكان التوجيُه والتعليم، وكان الأمرُ بالدعاء والابتهال. . . . . وعند الخطوة الأولىٰ:

«اللهم جنِّبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا»[3].

ونمت البذرة، وشقَّت طريقها إلى النور، وكان توجيهُ الحبيب المصطفىٰ أن يكون الأذانُ هو النداء الأول الذي يطرق سمع المولود الجديد، وأوضح الإسلامُ بعد كل هذا حقوق الأهل وواجباتهم، وحقوق الأبناء وواجباتهم؛ ليقف كلٌّ على دوره، ويدرك مهامه، فالحلقة متصلة دائرة، وأبناء اليوم هم آباء الغد، وصغار اليوم هم كبار المستقبل وأمهات الغد القادم.

حقوق الأبناء:

لقد خطَّ الإسلامُ لحقوق الأبناء منحيين:

أولهما: جانب الرحمة والرأفة والعطف، وهو الجانبُ الذي يمنح الطفل توازنه النفسي والعاطفي والعقلي.

فالطفل ـ أي طفل ـ يحتاجُ إلى صدر دافىء يركن إليه، ويد حانية تمسح رأسه، وكلمة رقيقة تدغدغ سمعه، أو قُبلة صغيرة تداعب وجنتيه، ولا يمكن لِلُعبة رائعة، أو سرير وثير، أو غرفة تتلألأ بالأضواء والهدايا؛ أن تمنح هذا الطفل ما هو بحاجة إليه، بعيداً عن حضن الأم الدافىء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: رأىٰ الأقرعُ بن حابس النبي ﷺ يُقبِّل ولده الحسن، فقال له: إنَّ لي عشرة من الولد ما قَبَّلتُ واحداً منهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «من لا يَـرْحم لا يُـرْحم»[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩٠) ومسلم (١٤٦٦).

(٢) رواه الترمذي (١٠٨٧) والنسائي (٦/ ٦٩ ـ ٧٠) وابن ماجه (١٨٦٥).

(٣) رواه البخاري (٥١٦٥) ومسلم (١٤٣٤).

(٤) رواه البخاري (٥٩٩٧) ومسلم (٢٣١٨).

ما علاقة الرحمة بالقبلة تطبعها على وجه ولدك؟ وهل تفي القبلةُ وحدها بحاجة هذا الكائن الغضِّ الرهيف؟

إن تلبية الحاجات كلها من مأكل ومشرب ومسكن وغذاء فكري ، وفوقها المداعبة والملاعبة ، وحتى القبلة ، تُعتبر جميعها من الضرورات ، بل جزءاً من حقوق الطفل المترتبة على أبويه ، وبالتالي فتحقيقها ، أو حتى السعي إلى تحقيقها جزء من واجبات الآباء تجاه أبنائهم ، وبالموازنة فيما بينها جميعاً ننشىء طفلاً سليماً ، وندفع للمجتمع ببرعم صالح يعتمد عليه.

ثانيهما: جانب التربية والتأديب والتنشئة الصالحة؛ وهو الجانبُ الذي يمنح الطفلَ توازنه الاجتماعي ، ويجعل منه شخصاً متزناً متوازناً صالحاً ، يعرف كيف يحاكم الأمور كلها ، ويزنها بميزان دقيق لا ريبة فيه ، فالحقُّ في منظاره واضح بَيِّـن جليّ ، والباطل كذلك ، يعرف ما له وما عليه تجاه نفسه ، وتجاه أهله ، وتجاه الآخرين ، ولكي يكون هذا على أَتَمِّهِ ، وأنصع وجوهه ، يتوجب على الآباء أن يلزموا أبناءهم ، ويُؤدِّبوهم ، وأن يراقبوا تصرفاتهم وسلوكياتهم ، ويحرصوا على عدم اتباعهم للتقاليد والعادات الممجوجة الغريبة ، وألا يتركوا أمر توجيههم إلى مَنْ لا يُحسن ذلك ، وألا يلقوا الأمر برمَّته على رياض الأطفال ودور الحضانة ، وأن يساعدوهم في انتقاء أقرانهم وأصدقائهم.

يقول الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير»[1].

يمكن للناظر أن يلمح في هذين المنحيين من حقوق الأبناء دور الأب والأم ، والذي لا يمكن أن يقوم به أشخاصٌ آخرون ، ويدرك تماماً أن لا بديلَ أبداً يمكن أن يأخذ دورهما ، فلا المربية ، ولا الجليسة ، ولا رياض الأطفال ، ولا المدارس بمقدورها أن تمنح المجتمعَ الكبير طفلاً سليماً معافىً في بدنه وعقله وسلوكه بمعزل تام عن دور فاعلٍ لأب وأم.

يقول علي رضي الله عنه: ثلاثة هي أفضل ما يورثه الآباء الأبناء: الثناء

---

(١) رواه البخاري (٢١٠١) ومسلم (٢٦٢٨).

الحسن ، والأدب الصالح ، والإخوان الثقات.

تلك هي الخطوطُ العريضة ، والملامحُ الواسعة لواجبات الآباء والأمهات تجاه أبنائهم ، ولا شك أن في مقابل ذلك حقوقاً لا يمكن لعاقل أو منصف أن ينكرها.

حقوق الوالدين:

فالأم ـ ذلك الكائن الذي جُبِلَ على الحنان ، وأُشرب الرأفة والعطف ـ قد حملتنا في أحشائها تسعة أشهر سعيدة بذلك ، راضية على الرغم مما تقاسيه من آلام ، وما تتكبده من مصاعب ، ووضعتنا بعد هذا ، واحتملت في سبيل ذلك آلاماً لا تطاق ، وعذاباً لا يُوصف.

وعلى الرغم من هذا الألم وذاك العذاب فإنها تتابع الرحلة مباشرة ، وتلقم صغيرها الضعيف صدرها لتبثّه حنانها ، وترضعه لبنها ، وهي لا تقفُ في ذلك عند حدّ ، ولا تتأخر أبداً ـ ومهما كبر وليدها ـ عن أمر تشعر أنه يُريحه ويرضيه.

أما الأب فإنه وبرغم أنه لا يملك حنان الأم وعواطفها ، إلا أنه لا يملُّ في سعيه وكَدّه ليؤمِّن لنا كل ما نحتاجه ، وحتى قبل أن نطلبه.

فالأب والأم ـ كل أبٍ وأم ـ هذا شأنهما ، يبذلان كلَّ غال لديهما ، ولا ينتظران مقابل ذلك أي شيء ، ولا يفكران عند عطائهما بأي شكر أو جزاء.

أي تضحية تلك؟ بل أي بذل هذا؟!

أي عطاء أسمىٰ ، بل أي نفيسٍ أغلىٰ من عرق ودم وسهر وتعب؟!

لهذا كان تركيزُ الإسلام على طاعة الوالدين ، وبرّهما ، ورعايتهما ، والعناية بهما؛ ولهذا لم يقرن اللهُ عز وجل مع عبادته وشكره إلا الإحسان إلىٰ الوالدين ، وشكرهما ، والبر بهما ، يقول تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦]. ويقول أيضاً: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان: ١٤].

وها هو رسول الله ﷺ يوضِّح أن جزاء البر بالوالدين ، والعناية بهما يكاد يفوق جزاء المجاهد في سبيل الله ، فقد جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ يستأذنه في

الجهاد ، فقال له : «أحيٌّ والداك؟» قال : نعم ؛ قال : «ففيهما فجاهِدْ»(١) .

فرسولُ الله يأمره أن يَدَعَ الجهاد في سبيل الله ليقوم علىٰ العناية بأبوين ؛ طالما أعطياه دون حساب ، ورعياه بغير انتظار لمثوبة أو شكر ، فهل بعد هذا التكريم تكريم؟! وهل بعد هذه المنزلة من منزلة؟!

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «رغم أنف ، ثم رغم أنف ، ثم رغم أنف» قيل : مَنْ يا رسول الله؟! قال : «من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما ، فلم يدخل الجنة»(٢) .

بِرُّ الأبوين إذاً هو طريقُ الجنة ، ولا يقتصر برُّ الأبوين على قُبلة تُطبع على اليد أو الرأس ، أو كلمة لطيفة ، أو ابتسامة عريضة ، بل هو أشمل من ذلك ، وأعم ، وأكبر من ذلك ، وأوسع ، يقول عليه الصلاة والسلام لرجل جاء يشكو أباه لأنه يأخذ من ماله الخاص : «أنت ومالك لأبيك»(٣) .

نعم أنت أيها الإنسان ، وليس مالك وحسب . . . ولقد كان قولُ الشاعر التالي دليلاً على مكانة الأب ، وضرورة حُسْن معاملة الأبناء له :

غذوتُك مولوداً وعِلْتُك يافعاً ... تُعَلُّ بما أدني إليك وتنهلُ
إذا ليلة نابَتْكَ بالسّقم لم أبتْ ... لسقمك إلا ساهراً أتململُ
كأني أنا المطروقُ دونك بالذي ... طُرقت به دوني فعيني تهملُ
تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلمُ أن الموت وقتٌ مؤجلُ
فلما بلغتَ السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنتُ فيك أومّلُ
جعلتَ جزائي غلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المنعمُ المتفضِّلُ
فليتك إذ لم تَرْعَ حقَّ أبوتي ... فعلتَ كما الجارُ المصاقبُ يفعلُ
فأوليتني حق الجوار ولم تكنْ ... عليَّ بمالٍ دون مالك تبخلُ

إن هذا التوازن الرائع الذي خطَّه الإسلامُ للأسرة ، وحدَّد فيه كلَّ ما لَهُ وما عليه ؛ لَكَفيل بأن يُنشيء مجتمعاً كبيراً متكاملاً متكاتفاً ، تكون الأسرةُ هي

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٤) ومسلم (٢٥٤٩).
(٢) رواه مسلم (٢٥٥١) والبخاري في الأدب المفرد (٢١).
(٣) رواه أحمد (٢/ ٢١٤) وابن ماجه (٢٢٩٢).

المثال المصغَّر منه ، والعينة المثالية فيه.

الأساليب التربوية في الإسلام:

لكي نصل إلىٰ العينة المثالية ـ إن صحَّ التعبير ـ علينا أن نفصِّل بعض الشيء في الأساليب التربوية التي يتوجَّب على الآباء أن يتبعوها في تربية أبنائهم؛ ليكون أبناؤهم علىٰ الصورة التي رسمها الله عز وجل للمفلح الناجي. قال عز وجل: ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨].

إن التربية في الإسلام فريدة وشاملة ، فهي الوحيدة التي تتميز بوضوح الطريق والهدف معاً ، وهي الوحيدة أيضاً التي تشمل جوانب الإنسان كله: روحه ، وعقله ، وجسمه.

وهي فوق كل هذا تتميز عن المناهج التربوية الأخرىٰ بوجود نموذج تطبيقي حي ، ألا وهو شخصُ رسول الله ﷺ.

إن الإسلام يسعىٰ إلىٰ تكوين الإنسان المؤمن الصالح بكل جوانبه ، ولا يترك هذا الأمر مجرد شعارات ، ولكنه يُحدِّد صفات الإنسان الصالح ومواصفاته وبدقة ، فهو التقي الذي يتوجَّه بكل سلوكياته وأعماله وتصرفاته لإرضاء الله عز وجل ، وهو الذي يتبع هدي الله وهدي رسوله ، ويستمدُّ منهما جليلَ الأمور ودقيقها في حياته وسلوكه.

إن الإسلام ينظر إلىٰ الإنسان ككل ، ويحاول تأمين مطالب كل جانب من جوانبه ، وطاقاته ، على اعتبار أنه مكوَّن من جسم وعقل وروح ، لا انفصال بينها ، على الرغم من أنه قد يطغىٰ بعضها على البعض الآخر في لحظات معينة ، فللأمور المحسوسة غذاؤها ، وكذلك الأمر فيما هو فوق إدراك هذه الحواس القاصرة ، فلا المادة تطغىٰ على الروح ، ولا الروح يمكن لها أن تأخذ نصيبَ الجانب المادي.

هذا التوازن المتميز في الإسلام بين مختلف الجوانب ، وهذا المزجُ الرائع بين طاقات الإنسان الجسمية والعقلية والروحية ، يضمنُ لنا استغلال طاقاته كلها ، ويحقق لنا توازناً دقيقاً في نفس الإنسان بشكل خاص ، وفي المجتمع برمَّته بشكل عام.

وقد اعتمد الإسلامُ لتحقيق هذا أساليب كثيرة ، وطرقاً شتىٰ ، وسلك في سبيل الوصول إلىٰ الإنسان الصالح منافذ كثيرة ، فكانت هناك الموعظة ، والنصيحة ، والقصة ، والعبرة ، والعقوبة ، وما إلىٰ ذلك .

١ ـ التربية بالقدوة :

إن الارتباط الوثيق بين الطفل ووالديه له أثر بالغ في حياة الطفل ، فمنهما يستقي تصوراته ومبادئه وموازينه وقيمه وطرق تفكيره وتحليله ، فإن كان سلوك الأبوين يشكلُ ترجمة لما يحملون من أفكار ، وكانت تصرفاتهما تنبع من التزام دقيق بشرع الله عز وجل في كل شيء ، بدءاً من ملاعبته ومداعبته ، وانتهاء بكل معلومة يوصلانها إليه؛ بما يوافق سِنّه ، تحوّل المنهج إلىٰ حقيقة واقعة ، وبالتالي تكون التنشئة سليمة صحيحة .

وقد أشار اللهُ عز وجل إلىٰ ضرورة تفهُّم هذا الأسلوب عندما بعث رسولَه عليه الصلاة والسلام ليكون قدوة للناس ، قال عز وجل : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وقد سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله فقالت : «إنَّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآنَ»[١] .

عبارة تصفُ شخصَ الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكنها تؤكد على أن هذا الدين كله بأوامره ونواهيه ، وحلاله وحرامه كان ممثلاً في شخص الرسول ، وقد صدق القائلُ إذ قال : «كان قرآناً يمشي على الأرض» .

فقد كان زوجاً وأباً كمن لا يشغله عن أهله شيء ، وكان رجل سياسة لا يُشَقُّ له غبار . . . كان في الحرب أشجع الشجعان ، وكان في العبادة أعبد الناس وأزهد الزهاد . . . كان كله للدعوة ، ولم يكن لأصحابه وأهله صديق قريب لهم مثله . . . كان القدوة للناس في هذه الأرض ، وكان الهادي لهم بسلوكه قبل كلامه .

وهذا يدلُّ دلالة قاطعة على أن القدوة من أعظم وسائل التربية على الإطلاق ،

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦) .

فالطفل لا بُدَّ له من قدوة في أسرته لكي يتشرب مبادىء الإسلام منذ طفولته ، ومن هنا كان على الأبوين أن يكونا القدوة لصغارهم في القول والعمل؛ لأن هذا الأسلوب أشد فعالية ، وأكبر تأثيراً في ترسيخ ما نريد في أذهان أطفالنا ، وينمُّ عن إيمانٍ عميق بما نقول ، وهو فوق هذا يجنبنا الكثير من مواقع الأمر والنهي ، ويوصل إليهم ما نريد بشكل أدق وأجدىٰ.

إن الولد الذي يرىٰ الكذب من أبويه ، لا يمكن له أن يتعلَّم الصدق ، والفتاة التي تلمح الاستهتار في تصرفات أمها ، لا يمكن لها أن تدرك معنىٰ العفة ، والطفل الذي يرىٰ أبويه يشخصان بأبصارهما إلى منظر فاحش في التلفاز ، لا يمكن له أن يتعلم كيف يغضّ بصره ، والولد الذي يرىٰ أباه يغشُّ في متجره وعمله ، لا يمكن له أن يتعلَّم الأمانة.

إن الأسرة هي المكانُ الأول الذي يبذرُ في الطفل أول بذوره ، ويكيِّف بتصرُّفاته سلوك الطفل ومشاعره ، والطفل يأخذ ما يدورُ أمامه من تصرفات أمه وأبيه على أنه الحق ، والتصرف السليم؛ لذا كان على الأبوين أن يَزِنا كل تصرف من تصرفاتهما ، وكل قول من أقوالهما ، ويتصرفا بكل عدل ومساواة في تعاملهم مع أولادهم ، ضمن نطاق الأسرة؛ لأن الأسرة ـ كما أسلفنا ـ هي المجتمع الأول الذي يعيشُ فيه الطفل ، ويتفاعل معه ، وهو يرقبُ بدقة كلَّ ما يجري من حوله ، فإن كان هناك تمييز ومفاضلة بين الأولاد ، كان هناك البغض بدل الحب ، وكانت هناك الأنانية بدل الأثرة ، وقد أوضح هذا رسولُ الله ﷺ إذ قال: «اتقوا الله ، واعدلوا في أولادكم»[1].

فالتقوى توافق العدل وتجاريه ، وعدم العدل أو التمييز بين الأولاد يبعد صفة التقوىٰ.

جاء النعمان بن بشير إلىٰ رسول الله ﷺ وقال له: «إني نحلتُ ابني غلاماً كان لي» فقال رسولُ الله: «أكلّ ولدك نَحَلْتَهُ مثل هذا؟» قال: لا. فقال: «لا تشهدني على جَوْرٍ»[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٧) ومسلم (١٦٢٣/ ١٣).
(٢) رواه البخاري (٢٥٨٦) ومسلم (١٦٢٣/ ٩).

والمساواة أو العدل لا تشملُ الجانب المادي فقط ، بل تشمل كل الجوانب حتى العاطفي منها؛ لِما لذلك من أثر على نفسية الطفل وسلوكه الاجتماعي مع إخوته والآخرين في المستقبل.

ويتوجَّب فوق هذا على الأبوين أن يدركا ضرورة توحيد سلوكهما تجاه تصرفات أبنائهما؛ إذ أنَّ لكل طفل رغبات وحاجات ، وهو غالباً يميلُ إلىٰ من يُلبِّي له حاجاته ورغباته ، أو يداريه ، ويتجاوز عن أخطائه.

وفي هذا خطرٌ كبير على سلوك الطفل ، إذ أن اختلافَ ردود فعل الأبوين ، وتباين تصرفاتهما تجاه أمرٍ ما ، يساعدُ الطفل علىٰ تحكيم رغباته ، ويفقده دقة الحكم علىٰ الأمور.

وعلىٰ العكس من ذلك فإن اتفاق الأبوين يُعزِّز ثقة الطفل بأبويه ، ويؤكِّد له صدق رأيهما ، وسلامة توجيههما.

كما أنه يحافظُ بهذا على توازنه العاطفي تجاه أمه وأبيه ، فلا تزيد كِفّة أحدهما عنده عن كفة الآخر ، ويجعل هذا في الغالب من الطفل إنساناً سوياً متوازناً حازماً ناجحاً.

إن الطفل يُسجِّل كل ما يرىٰ ويسمع ، وعندما يكون سلوكُ الأب والأم مجانباً للقيم العامة ، والأخلاق الكريمة ، فإن توجيههما لأطفالهما بما يغاير سلوكهما؛ لن يلقىٰ القبول لدىٰ هؤلاء الصغار ، فصدور الكلمات النابية عن الأبوين؛ ستجعل الأطفال يتلفَّظون بها ، ولو زجرهم أهلوهم.

إذاً لا بد من أن يرفد القدوة في السلوك عند الآباء تمسُّكٌ حازم بالأخلاق العامة ، وحرصٌ شديد علىٰ أن توافق تصرفاتهم أقوالهم وتوجيهاتهم.

٢ ـ التربية بالموعظة:

يقول تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ
عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ
لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا
وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ

فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٣ ـ ١٩].

على الرغم من أهمية القدوة كأسلوب في التربية ، إلا أنها بحاجة إلىٰ أساليب أخرىٰ ترفدها ، والموعظة والنصح تشكّل جزءاً مهماً من العملية التربوية ، وخصوصاً إذا كانت في المكان المناسب والتوقيت الملائم ، وذلك لأن النفس جُبلت علىٰ التأثر بكلام الآخرين ، وخصوصاً إذا ما تمَّ تقديمُ هذه الموعظة بأسلوب سهل رقيق ، يسهل فهمه وتقبُّله.

فالموعظةُ المؤثرة التي يستطيع صاحُبها أن يلامس بها الأوتار الحساسة في قلوب المستمعين وعقولهم ، تسلك طريقَها إلى النفس مباشرة ، فتهزها هزاً ، وتثير الوجدان في أعماقها ، وتدفع العقل إلىٰ التفكير والتدبر ، فتعيد التائه إلىٰ صوابه ، وتزيد الصالح التقي العاقل تعقلاً وتقىٰ وصلاحاً.

قد يغضُّ الأبوان بصرهما عن المحارم المزروعة هنا وهناك ، ولكن الطفل قد يتابعها ، ويحرص على تصيّدها بدافع تقليد أقرانه على سبيل المثال.

وقد يكون الأبوان صادقين في كلامهما ، ووعودهما ، وتعهداتهما ، ولكن الطفل قد يجنحُ إلىٰ الكذب ليخفي ما اقترفه من ذنوب ؛ لأنه لابُدَّ مع القدوة الصالحة من موعظة لطيفة مؤثرة ، تعيد الأمور إلىٰ نصابها وترجع المخطىء العاصي إلىٰ جادَّة الصَّواب.

وقد أشار الله عز وجل إلىٰ ضرورة هذا الأسلوب في مواضع كثيرة من القرآن ، فقال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال أيضاً في وصف القرآن ككل: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فالموعظةُ رديفُ القدوة ، وهي المحرِّض اللطيف لمن فاته إدراك المطلوب من خلال القدوة الصالحة.

٣ـ التربية بالعقوبة:

إن النفسَ تملكُ الكثير من ملامح الجسم المادي، فالرفقُ المفرط بها، والتدليل الزائد لها، وعدم إقحامها في عزائم الأمور؛ يؤدي إلىٰ الميوعة والانحراف.

تماماً كما الجسم، فالرفقُ الزائد به، وعدم إخضاعه للجهد والمشقة خشية التعب؛ أو الإرهاق، تجعل منه جسماً مهلهلاً ضعيفاً، غير قادر على احتمال حتى أهون الصعاب، وأتفهها.

من هنا كان لا بُدَّ من اللجوء إلىٰ شيء من الحزم في التعامل مع الأطفال كلما اقتضت الضرورة، وذلك لصالحهم قبل أن يكون لصالح ذويهم، إذا أنَّ الرقة المفرطة، والحنان الزائد، واللطف المبالغ فيه، لن يُنشىء إلا شخصاً ضعيفاً، لا يقدر أن يقوم بذاته، ولا يمكن له أن يعتمد على نفسه.

وقد لا تنفع الأساليب التربوية السابقة مع بعض الأطفال، فالبعض لا تتركُ فيه القدوة الصالحة الأثرَ المطلوب، ولا يزيده الوعظ إلا إمعاناً في غيِّه، وشروده، وتمرده، ومثل هؤلاء هم بأمسِّ الحاجة لأسلوب العقوبة على أخطائهم، لأن تجاهلهم، أو مجاراتهم في انحرافاتهم، وتلمُّس الأعذار لهم، سيزيدهم بعداً فوق بعدهم عن الاستقامة، وسواء السبيل، وسيضعف نفوسَهم أكثر وأكثر؛ ليصبحوا فيما بعد عاجزين عن ضبط مشاعرهم وشهواتهم.

يقول تعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ـ ٢٧٩].

دعوةٌ للتقوىٰ والالتزام بشرع الله، وإلا فالبديل هو حربٌ من الله ورسوله.

ويقول أيضاً: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢].

التوجيهُ بدايةً كان ـ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢] ـ مجرد نصح؛ لأن الزنىٰ سبيلٌ سيىء لإشباع الشهوة، وطريق غير مأمون، ولكن مَنْ غلبته نفسه، ووقع فيما حرم الله، وَجَب عليه أن يشعر بطعم العقوبة في جسده؛ لتكون له ذكرىٰ إن أغوته نفسه مرة أخرىٰ.

٤ ـ التربية بالقصة:

إن القصة بكل اتجاهاتها وأنواعها التاريخية منها أو الواقعية أو الخيالية، تملك تأثيراً خاصّاً علىٰ المستمع أو القارئ، فهي تشدّه إلى أحداثها، وتزجّه في خضمها؛ ليتابع مشاهدها، وينظر إلىٰ شخوصها، يتفاعل معهم، ويتخيل تصرفاتهم وردود أفعالهم؛ ليصل إلى نهايتها، فيوافق على فعل هذا، ويستحسن تصرُّف هذا، ويستنكر فعل هذا.

إذاً فللقصة وقعٌ خاصّ في العقول والنفوس، حيث إنها تزرع الحياة في أشخاصها، وترسم ملامحهم وتصرفاتهم وأفكارهم، وتنقلهم من عالمهم إلىٰ عالمنا؛ لتترك ـ من خلال ما كان بينهم من تصرفات وأحاديث وأفكار ـ العبرةَ والتوجيهَ والتعليم.

إن الله عز وجل قد خَلَق الإنسان بهذا التكوين، وفطره على أشياء، لا يستطيع الفكاك منها، وهو العليم بهذا الكائن، ما يُخيفه وما يهدىء من روعه، وما يَحْفِزُه وما يُقْعِدُه، وما يُحِبه وما يَكْرهه، وما يميل إليه وما ينفر منه.

وقد بثَّ اللهُ عز وجل في كتابه الكريم قصصاً شتىٰ؛ كقصص الأنبياء التاريخية، والقصص الواقعية، والقصص الرمزية التي تشير إلى شيء ما، أو أمر كان فيما مضىٰ، ويمكن أن يكون في أي زمان أو مكان؛ كقصة ولدي آدم، وقصة صاحب الجنتين وما إلى ذلك من قصص منثورة في أرجاء القرآن كله[1].

إن القرآن الكريم ـ ومن خلال اتباعه لهذا المنهج ـ لَيَدُلّ على أهمية القصة كأسلوب توجيهي بشكل عام، وعلى الدور التربوي الذي تؤديه بشكل خاص، فالقرآنُ ليس بكتاب قصص، ولكنه كتاب تربية وتوجيه.

إن الطفل علىٰ وجه الخصوص تستهويه القصة إلىٰ حدٍّ بعيد، وتراه يلحّ

---

(١) يُنظر كتاب: «قصص القرآن» لمحمد أحمد جاد المولى ورفاقه، ضبطه وشرح غريبه وعلق عليه: يوسف علي بديوي.

بشكل مستمر على المحيطين به ليحكوا له القصة تلو القصة ، وتراه يسأل ويسأل ليشبع رغبة المعرفة لديه.

وهنا يأتي دورُ الأهلِ ، ويبرز مقدارُ وعيهم في تقديم المادة الصالحة ، والمعلومة المفيدة ، وتقع على عاتقهم مسؤولية الانتقاء والمفاضلة والتمييز بين قصة وأخرىٰ.

ولا يتوقف الأمر في وقتنا الحالي على ما نرويه نحن ، أو ما نقدمه بأنفسنا ، فهناك التلفاز والمذياع والمدرسة والأقران؛ لذا وَجَب على الأهل أن يقوموا بمراقبة كل المصادر ، وما يقدم فيها ، ومدىٰ موافقتها لأفكارٍ نودّ غرسها في نفوس أطفالنا ، أو مطابقتها لمعتقداتنا ، وأخلاقياتنا ، وعاداتنا ، لكي لا نفاجأ يوماً بتصرفات أولادنا ، أو نُصْدم بسلوكياتهم وأفكارهم وآرائهم وحتىٰ معتقداتهم.

وتكمن أهميةُ القصة كأسلوب تربوي بأنها توصلُ الموعظة إلىٰ المستمع ، أو القارىء ، أو المشاهد بأسلوب سلس رقيق ، ومن خلال شخوص مجسمة متحركة ، فهي أسهلُ في المتابعة من موعظة مجردة ، وكلمة نصح عابرة.

٥ ـ التربية بالعادة:

للعادة دورٌ مهمّ في حياة الإنسان ، فهي تقوم بتحويل الكثير من الأعمال المجهدة الصعبة ، والتي يرىٰ فيها الإنسانُ عنتاً كبيراً إلىٰ شيء سهل يسير ، وخصوصاً إذا كانت مثل هذه الأعمال تلقىٰ مجاهدة النفس ، أو مقاومة الجسد.

فالعادة إذاً توفر قسطاً كبيراً من الجهد البشري ، والذي يمكن أن يستغلّ في ميادين أخرىٰ ، وقد فطن الإسلام إلىٰ هذا الأسلوب المهمّ حيث قام بالقضاء على العادات السيئة؛ التي كانت سائدةً في الجاهلية ، واتبع في ذلك أسلوبين اثنين:

أ ـ نبذ العادات التي تمسُّ العقيدة ـ كعبادة الأوثان ـ بشكل صارم وقاطع.

ب ـ وقام بعلاج العادات الاجتماعية السيئة؛ التي كانت راسخةً في ذلك المجتمع كالزنىٰ والرق ، وما إلىٰ ذلك بشكل تدريجي ، وعلى مراحل متعددة.

كما قام الإسلام باستئصال العادات التي لا تتناسب مع دعوته المتفردة ، فقام بزرع بذور العادات الصالحة ، ولجأ في سبيل تنميتها إلى أساليب شتىٰ ، منها:

أولاً: تنمية عادة تأدية الفرائض، وعدم تأجيلها:

يقول عليه الصلاة والسلام: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناءُ سبع، واضربوهم عليها وهم أبناءُ عشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع»[1].

قد يلقىٰ الإنسانُ بعض المشقة في تأدية الفرائض المختلفة، وقد يجدُ في نفسه مجاهدةً شديدةً لتأديتها، فقد توسوس له نفسُه أن يبقىٰ في فراشه، ويدع صلاة الفجر، وقد تأمره نفسُه بالشح إذ تصوّر له حاجاته التي لا تنتهي؛ عندما يهمُّ بأداء الزكاة.

لهذا وجَّه رسولُ الله ﷺ أتباعه كي يُعوِّدوا أولادهم على الصلاة وهم صغار لم يبلغوا سنَّ التكليف بعد؛ لما كان يرىٰ بثاقب نظره من أهمية ذلك علىٰ التزامهم في المستقبل، وترسيخ ذلك في نفوسهم، وتحويله من واجبٍ شاقّ ومُجْهِد للجسم والنفس إلى عادةٍ يرىٰ فيها الإنسانُ لذّةً لا تعادلها لذة، ويحقّق بها صلةً، وأيّ صلة! سُئِل النبي عليه الصلاة والسلام: أي العمل أحب إلىٰ الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»[2].

يمكن للصلاة أن تُؤدَّىٰ في أي وقت من أوقاتها مع اختلاف المثوبة والأجر، ولكن أن يكون أحبّ الأعمال إلىٰ الله تأدية الصلاة على وقتها، فيه تحفيز على زيادة الأجر، وتعويد على أداء هذه الفريضة في أول أوقاتها، وبالتالي تعويد على القيام إليها حالما ينادي المنادي بذلك.

وبهذا تتحوَّل هذه الفريضةُ التي يجد الإنسان في أدائها أحياناً بعض المشقة إلىٰ مجرد عادة يجدُ الإنسانُ فيها لذة الاتصال بربه، والركون إليه، ويسمو بها بروحه وجسمه إلى عوالم أخرىٰ، ومعارج سامية.

ثانياً: تنمية الجانب الخلقي في النفس، والعمل على إرساء الأخلاق الكريمة:

إن الأسرة المسلمة تحرصُ على أن تنشيء أبناءها علىٰ أخلاقٍ تستوحيها من

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٨٠) وأبو داود (٤٩٥) والحاكم (١/ ١٩٧).

(٢) رواه البخاري (٥٢٧) ومسلم (٨٥).

كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ومن تقاليد المجتمع المسلم ، حيث تزرع فيهم الصدق والأمانة والوفاء والعفاف ، وتُحذِّرهم من الكذب والخيانة والغدر والنفاق والغيبة والنميمة والكبر وما إلى ذلك.

يقول تعالىٰ في وصف المؤمنين الصالحين: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٤].

والأسرة إذ تقومُ بهذا ، وتغرس في نفوس أبنائها هذه المكارم؛ لن تخشىٰ عليهم ما قد يجدونه في المجتمع من حولهم ، فالطفل الذي تعوَّد منذ نعومة أظفاره على عدم استعمال الكلمات النابية ، ولم تطرق سمعه مثل هذه الألفاظ لن يجاري الأطفال الذين يتلفظون بأقذع الكلمات ، وأتفهها.

والطفل الذي نما على الصدق والأمانة في خليته الأولىٰ ، لن يكذب على أستاذه في مدرسته ، ولن يخون ضميره في متجره ومعمله ووظيفته.

والفتاة التي أُنشئت على الفضيلة والعفاف ، لن يبهرها تبرُّج المتبرجات ، ولن تستهويها أساليبُ الإثارة الرخيصة المبثوثة في كل مكان؛ في دور السينما ، أو في المجلات الهابطة.

جوانب التربية الإسلامية:

لكي تتكامل صورةُ الإنسان المسلم؛ الذي يسعىٰ الإسلام لتكوينه في أذهاننا ، يتوجَّب علينا أن نطلعَ على الجوانب المختلفة التي يتوجَّه الإسلامُ إليها

بالتربية والترقية؛ بعد أن عشنا مع الأساليب التربوية المختلفة التي ينتجها الإسلامُ في سبيل تكوين هذا الفرد المسلم.

١ ـ التربية الروحية:

وهي تهدفُ إلىٰ ترسيخ عبودية الإنسان لخالق الكون والإنسان، وانطلاقه من عبودية العباد إلىٰ عبودية رب العباد، بالتأكيد على التوجه إلىٰ الله عز وجل بالعبادات، والتركيز على أن الإنسان في عبادة دائمة في كل صغيرة وكبيرة، وفي كل سكنة، وكل حركة ما دامتْ غايته إرضاء ربِّه عز وجل.

إن التربية الروحية تسعىٰ إلىٰ تنمية الوازع الديني؛ الذي يضبط تصرفات الإنسان، ويراقب أفعاله لتكون جميعها فيما يرضي الله عز وجل.

٢ ـ التربية العقلية:

إن الإسلام قد عني عنايةً شديدة بالتربية الروحية والعَقَديّة، لكنه مع عنايته هذه بالتربية الروحية لم يهمل أبداً دور العقل، فالعقل أو الفؤاد هو القوة المدركة في الإنسان التي زرعها اللهُ فيه، وميَّزه به عن المخلوقات الأخرى؛ ليكون مسؤولاً عن أعماله وتصرفاته.

لقد أدرك الإسلامُ حدودَ العقل البشري، وقام بتحديد المجالات التي يمكن للعقل أن يخوضَ فيها، فمنعه من أن يبدِّد طاقته وتفكيره في المغيبات، أو في أمورٍ تعلو إدراكه، وتفوق مجال استيعابه، فأعطاه نصيباً من الغيبيات بالقدر الذي هو بحاجة إليه وحسب، وجعل ذلك من صلاحيات الروح، وأمر الإنسان أن يؤمن بها دون جدل، ومن غير أن يُشْغل بها عقله.

يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

إن دورَ العقل في الاستدلال على الله، والتعرف إليه ينحصر في تدبُّر الآيات المبثوثة في الكون، والتي يمكن إدراكها بالحواس المختلفة؛ إذ أنَّ هذا التدبر

والتفكر يشكِّل أسلم طريق للوصول ، وهو الذي يبرز دورَ العقل ، ويظهر إمكاناته .

وما أكثر ما حَضّ الإسلام على التفكر وإعمال العقل ، يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١] .

ويقول أيضاً : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٢ ـ ٤] .

إنَّ القرآن يوجِّه العقل إلىٰ التدبُّر في آيات الله في الكون ، ويدفعه إلىٰ اكتشاف القوانين المختلفة؛ التي أوجدها الله عز وجل فيه؛ ليعمل وفق هذه القوانين والنواميس ، ويَعْمر الأرض ، ويحقق الغاية من استخلاف الإنسان في هذه الأرض .

يقول كريسي موريسون في كتابه : «العلم يدعو للإيمان» :

«إن وجود الخالق تدلُّ عليه تنظيمات لا نهاية لها ، تكون الحياة من دونها مستحيلة ، وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض ، والمظاهر الفاخرة لذكائه ، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارىءُ الكون»(١) .

إن الإسلام يوجِّه العقل أيضاً لينظر في أحوال الأمم والشعوب على مرِّ العصور؛ ليستخلص من ذلك سُنَّة الله في خلقه . يقول تعالىٰ : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل : ٦٩] .

ويقول : ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ

---

(١) العلم يدعو للإيمان (٧٨) .

كَانُوٓاْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

فهي دعوةٌ للناس لينظروا تاريخ من قبلهم، ويتفحصوا عواملَ فناء المجتمعات أو بقائها؛ ليصلوا إلىٰ خلاصة دقيقة واعية، فهي تماماً مثل التفكر في الكون وقوانينه، إذ أن اكتشاف هذه القوانين، وإدراك تلك العوامل، يساعد على تطور الجنس البشري وارتقائه، وخصوصاً إن كانت سُبُلُ الاستفادة من هذه المكتشفات تسير في طريق الخير والحق.

إن هذه التربية العقلية عندما تُحقِّق ما أُريدَ لها من ارتقاء في التفكير، وإدراك للنواميس والقوانين، وعندما يرفد ذلك تلك التربية الروحية التي أرادها الإسلام، فإن العقل سيستخدم ذلك كله في سبيل الخير لا محالة، ولن يوظِّف ما توصَّل إليه في شيء لا يرضاه اللهُ عز وجل.

أمَّا إن تمت هذه التربية العقلية بمعزل عن التربية الروحية وأهدافها، فستكون الطامَّة الكبرى؛ إذ لن يكون هناك ضابطٌ يسوسُ ما يمكن أن يستغلّ في مجال الخير أو الشر علىٰ حدّ سواء.

٣ ـ التربية الخلقية:

يقول عليه الصلاة والسلام: «البِرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»[١].

إن التربيةَ الخُلقيةَ في الإسلام تهدفُ بشكل عام إلىٰ صُنْع الإنسان الصالح في سلوكه وتعامله، وبالتالي فهي تهدفُ إلىٰ تربية الضمير، ذلك الأساس المهمّ من أسس تربية الخلق؛ إذ أنه يرتبطُ مباشرةً بالإيمان بالله؛ لأن الله يعلمُ خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

يقول عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمالُ بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرىء مانوىٰ»[٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٥٣).

(٢) رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

ويقول أيضاً في الإجابة عن سؤال جبريل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

فهو توجيهٌ مستمر للإنسان بأن يشعر بأنه مراقَبٌ على الدوام، ليس في مظهره فحسب، بل حتىٰ في أفكاره، وما يجولُ في صدره.

إن الإسلام عندما يسعىٰ إلىٰ إيجاد هذا الوازع النفسي القوي؛ الذي يكون بمثابة مرشدٍ للإنسان في سلوكه عبر سنيّ حياته؛ من خلال اعتقاده بأن الله تعالى مطَّلع عليه، وأنه ـ سبحانه ـ سوف يُحاسبه على كل صغيرة وكبيرة، إنما يضمنُ بذلك محاسبة داخلية مسبقة عن كل فعل، وكل قول قام أو يقوم به.

أي: إن إيجاد الوازع الديني يجعلُ محاسبة الإنسان نابعةً من نفسه؛ لأنه يشعر بالرقابة على تصرفاته، سواء أكان بين الناس أم بعيداً عنهم، وذلك لأن الوازع الداخلي أو الضمير يمثل الحدَّ الفاصل بين رغبات النفس وشهواتها، والواجبات المفروضة على الإنسان.

إن التربية الخُلُقية يجب أن تُغرسَ بذورها في نفوس الأطفال منذ نعومة أظفارهم، وذلك بدفعهم لتأدية العبادات مستجيبين بذلك لأوامر ربهم عز وجل؛ لأن سلوكهم هذا يحقِّق الخير لذاتهم ولغيرهم على حدٍّ سواء، فالغاية من عملهم هي ابتغاء وجه الله عز وجل.

إن نمو إحساس الإنسان بأن الله معه في كل لحظة وكل آن يزرع في نفسه تقوى الله التي تمثل الحارس الدائم، والموجّه الأمين لتصرفاته في كل زمان ومكان.

٤ ـ التربية الجسمية:

إن تكوين الشخصية الإنسانية هو نتاج تفاعل بين العوامل البيولوجية[2] التي يولد مزوداً بها كل وليد بشري، وبين العوامل النفسية والاجتماعية التي تمدُّه بها الثقافة.

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) «البيولوجية»: علم يبحث في علم الأحياء.

والتربية الإسلامية لا تهتم بالتربية الروحية والتربية العقلية والتربية الخلقية فحسب ، ولكنها تهتم أيضاً بالتربية الجسمية لكي يكون المسلم قوياً نشيطاً على الدوام ، فهي تعمل على تهذيب وتوجيه طاقاته المختلفة بشكل دقيق ومتوازن ، يوافق طبيعة الإنسان ، ولا يهمل ميوله .

عن عبد الله بن عمر قال : دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ فقال : «ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟» قلت : بلىٰ ، قال : «فلا تفعل ، قم ونم ، وصم وأفطر ، فإن لجسمك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً ، وإن لزورك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإنك عسىٰ أن يطول بك عمرٌ ، وإن من حسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام ، فإنَّ بكلِّ حسنة عشر أمثالها ، فذلك الدهر كله»[1] .

وعلىٰ هذا فإن التربية الجسمية في الإسلام تهدف إلى خَلْق الإنسان المسلم القوي القادر ، على أن يحقق دوره في هذه الحياة ، ويمكن أن نشاهد منهج التربية الجسمية الإسلامي من خلال تركيز الإسلام على النقاط التالية :

١ ـ تدريب الإنسان المسلم على تنظيم تناول طعامه وشرابه ، وعدم إسرافه في ذلك؛ لأن الطعام وُجِد لبناء الجسد والمحافظة عليه ليس إلا .

يقول رسول الله ﷺ : «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه؛ فإن كان لا محالة فاعلاً ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه»[2] .

فالإنسانُ المسلم يأكلُ ليقوم بدوره في الحياة ، وليس خضوعاً لشهوته ، ولعل الصيام له دور مهمّ في ترويض هذه الشهوة .

لقد وجَّه رسولُ الله ﷺ المسلمين من خلال سلوكه إلىٰ بعض النواحي الصحية المهمة ، فهو لم يجمع بين صنفين من الطعام في وجبة واحدة إلا نادراً ، وقال مُعَلّماً :

---

(١) رواه البخاري (١١٥٣). «زورك» : الزور : الزائر .
(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٠) وابن ماجه (٣٣٤٩) وابن حبان (٥٢١٣) والحاكم (٤/ ١٢١).

«إذا شرب أحدكم فلا يتنفَّس في الإناء»[1].

٢ ـ حضّ الإنسان المسلم على تعلُّم المهارات البدنية المختلفة، كالسباحة والرماية وركوب الخيل.

يقول عليه الصلاة والسلام: «المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير»[2].

فهو يحضُّ المسلم على تطوير مهاراته، وتدريب جسده، ويشير إلىٰ أن الإنسان بشكل عام عليه أن يستخدم صحَّته وفراغَه فيما ينبغي ويُحمد، فَمَنْ عامل اللهَ تعالى بامتثال أوامره فقد ربح، ومَنْ صادَقَ الشيطانَ باتّباعه فقد ضيَّع رأس ماله.

يقول عليه الصلاة والسلام: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[3].

٣ ـ التأكيد على النظافة العامة والخاصة بما يحافظ على صحة الفرد والمجتمع.

إن الإسلام يدعو إلىٰ طهارة الجسد، ولا أدلّ على ذلك من الوضوء الذي يتكرر مع كل صلاة؛ ليزيل الأوساخ والأدران.

ولا يقف الأمر على مجرد الوضوء منها، فها هو ذا رسول الله يشير إلىٰ أهمية النظافة بأسلوب آخر؛ إذ يقول: «خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقصّ الشارب»[4].

ويؤكِّد الإسلامُ على ذلك من خلال موضوع الطهارة، والاستنجاء، والمآكل، والمشارب، والمحرمات، وغير ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٥٦٣٠) ومسلم (٢٦٧).
(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).
(٣) رواه البخاري (٦٤١٢) والترمذي (٢٣٠٤) وابن ماجه (٤١٧٠).
(٤) رواه البخاري (٥٨٨٩) ومسلم (٢٥٧).

٤ ـ الحض على إشباع الحاجات الجسدية من شراب وطعام ونوم وجنس؛ لما لذلك من دور مهمّ في بناء الجسد القوي.

ويؤكد الإسلام على ذلك لأن الإنسان فُطر على ذلك، ومن الخطأ الجسيم منعه من تحقيق حاجاته ورغباته. يقول عليه الصلاة والسلام: «إن في بُضْع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدُنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟» قالوا: نعم، قال: «كذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[1].

٥ ـ فرض العبادات المختلفة لما لها من أثر بالغ على صحة الجسم ونشاطه.

إنَّ الصلاة تعوِّد الإنسان على النظام، وتجبره على النظافة، وتمنح لجسمه النشاط، فهو يؤدي الصلوات في أوقاتها؛ بدءاً من طلوع الفجر وحتى صلاة العتمة. كما أن الصَّوم يطهِّر الجسم، وينظِّم عادات الإنسان الغذائية، ويُعوِّده على الصبر والجلد وقوة الاحتمال، وقِسْ ذلك على بقية العبادات.

فالإسلامُ ليس مجرد عبادات وطقوس، ولكنه نظام محكم دقيق، ومنهج تربوي فريد يعودُ على الإنسان بالخير كل الخير، عندما يلتزم بكل دقائقه، ويتبع كل تعليماته وتوجيهاته، فهو المعينُ الثر الصافي؛ الذي لا ينضبُ أبداً، ولا يعكره شيء.

ونخلص إلى القول بأنَّ الدور الحضاري للأسرة يرتبط بالتربية الحسنة الموجَّهة، بل نقول: إن التربية الصادقة المركَّزة هي النبع الصافي لإرواء غرسة الفرد الصالح، وبناء المجتمع على أساسٍ متين.

* * *

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٦٧ ـ ١٦٨) ومسلم (١٠٠٦) وأبو داود (٥٢٤٣).

الباب الرابع

التحديات التي تواجه الأسرة وسبيل التحصين منها

الفصل الأول:

غلاء المهور.

الفصل الثاني:

الثورة الجنسية والغزو الفكري.

الفصل الأول

غــلاء الــمهــور

١ ـ تعريف المهر لغة واصطلاحاً:

المَهْرُ لغة: الصَّداق، والجمع مهور، وقد مهر المرأة يَمْهَرُها مَهْراً، وأمهرها. وفي حديث أم حبيبة: (وأمهرها النجاشي من عنده): ساق لها مهرها[١]. ومَهَرَها: أعطاها مهراً، فهي ممهورة. وأمهرها: زوَّجها من غيره على مهر[٢]. والمهيرة: الحرة الغالية المهر[٣].

والمهر اصطلاحاً: هو المالُ الذي تستحقه الزوجةُ على زوجها بالعقد عليها أو بالدخول بها حقيقة[٤]. وعرَّفه صاحب «العناية على هامش فتح القدير»: هو المال الذي يجبُ في عقد النكاح على الزوج في مقابلة البُضْع إما بالتسمية أو بالعقد.

وقال الحنفية: إنه ما تستحقه المرأة بعقد النكاح أو الوطء.

وقال المالكية: إنه ما يُجْعل للزوجة في نظير الاستمتاع بها.

---

(١) لسان العرب لابن منظور (مج ٥ ـ ص ١٨٤).
(٢) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي (ج ١٤ ـ ص ١٥٦).
(٣) القاموس المحيط للفيروز آبادي (ص ٦١٥).
(٤) الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي (ج ٩ ـ ص ٦٧٥٨).

وعرَّفه الشافعية: إنه ما وجب بنكاح، أو وطء، أو تفويت بضع قهراً، كرضاع ورجوع شهود.

أما الحنابلة فقالوا: هو العوضُ في النكاح، سواء سُمِّي في العقد، أو فُرض بعده بتراضي الطرفين أو الحاكم، أو العوض في نحو النكاح كوطء الشبهة، ووطء المكرهة[1].

وله عدةُ أسماء منها: مهر، وصداق، ونِحْلة، وأجر، وفريضة، وحِباء، وعُقْر، وعلائق، وطَوْل، ونكاح، يقول تعالىٰ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]، وقال أيضاً: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: ٢٥].

أما حكمه: فإنّ أئمة الفتوىٰ اتفقوا على أنّه شرط من شروط صحة النكاح، وأنّه لا يجوز التواطؤ على تركه لقوله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤] وقوله عز وجل: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥].

ووجه الاستدلال بهذه الآيات: هو أن الأمر يفيد الوجوب.

قال الحطاب: «لا ينبغي للصداق أن يعد في الأركان ولا في الشروط؛ لوجود النكاح الشرعي من دونه، غاية الأمر أنّه يشترط في صحة النكاح ألا يشترط فيه سقوط الصداق».

وجواب ذلك: أن الفقهاء يتسامحون في مثل هذا، فيسمّون ما يتوقف عليه الشيء ركناً، ويسمونه شرطاً[2].

ويجب المهر بأمرين:

١ ـ مجرد العقد الصحيح: إذا تأكد العقدُ بالدخول، أو بالموت، أو بالخلوة عند الحنفية والحنابلة ما لم يكن مُحْرِماً، أو مريضاً، أو صائماً في رمضان، أو

---

(١) العناية بهامش فتح القدير (ج ٢ ـ ص ٤٣٤) الشرح الصغير (ج ٢ ـ ص ٤٢٨) مغني المحتاج (ج ٣ ـ ص ٢٢٠) كشاف القناع (ج ٥ ـ ص ١٤٢).

(٢) يُنظر: حلى المعاصم لفكر ابن عاصم، للتاودي (١/ ٤٤٣).

كانت المرأة حائضاً ، وسبب الاختلاف في هذه المسألة : تعارض حكم الصحابة مع ظاهر الكتاب.

٢ ـ الدخول الحقيقي :

كما في حالة الوطء بشبهة ، أو في الزواج الفاسد. ولا يسقط حينئذ إلا بالأداء أو بالإبراء(١).

٢ ـ المهر في القرآن الكريم :

فرض اللهُ تعالى في كتابه العزيز المهرَ على الزوج؛ حقاً لزوجته عليه ، لا يجوز له أن يأخذَ منه شيئاً إلا برضا واختيار الزوجة نفسها. قال تعالىٰ: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء: ٤].

وقد ورد في تفسير هذه الآية في «التحرير والتنوير»: أن قوله تعالىٰ: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [النساء: ٤] عطف على قوله: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ ، والقول في معنىٰ الإيتاء فيه سواء. والمخاطب بالأمر في أمثال هذا كلٌّ من له نصيب في العمل بذلك ، فهو خطابٌ لعموم الأمة على معنىٰ تناوله لكل مَنْ له فيه يدٌ من الأزواج والأولياء ، ثم ولاة الأمور الذين إليهم المرجع في الضرب على أيدي ظلمة الحقوق أربابها. والمقصودُ بالخطاب ابتداءً هم الأزواج لكيلا يتذرعوا بحياء النساء ، وضعفهن ، وطلبهن مرضاتهن إلى غمص حقوقهن في أكل مهورهن ، أو يجعلوا حاجتهن للتزوج لأجل إيجاد عائل لهن؛ ذريعة لإسقاط المهر في النكاح ، فهذا ما يمكنُ في أكل مهورهن ، وإلا فلهنَّ أولياء يطالبون الأزواج بتعيين المهور ، ولكن دون الوصول إلى ولاة الأمور متاعب وكُـلَف قد يملها صاحبُ الحق فيترك طلبه ، وخاصة النساء ذوات الأزواج. وإلى كون الخطاب للأزواج ذهب ابن عباس وقتادة وابن دريد وابن جريج ، فالآيةُ على هذا قررت دفع المهور ، وجعلته شرعاً ، فصار المهر ركناً من أركان النكاح في الإسلام(٢).

وقال القرطبي: إن هذه الآية تدلُّ على وجوب الصداق للمرأة ، وهو مجمعٌ عليه ، ولا خلاف فيه إلا ما روي عن بعض أهل العلم من أهل العراق؛ أنَّ السيد

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته ، د. وهبة الزحيلي (ج ٩ ـ ص ٦٧٥٩).
(٢) تفسير التحرير والتنوير ، لمحمد الطاهر بن عاشور (ج ٣ ـ ص ٢٢٩).

إذا زوج عبده من أمته أنه لا يجب فيه صداق ، وليس بشيء ، لقوله تعالىٰ: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ ﴾ [النساء: ٤] فعمّ.

وأجمع العلماءُ أيضاً أنه لا حدَّ لكثيره ، واختلفوا في قليله[١].

ويقول القرطبي أيضاً: قوله تعالى ﴿نحلة﴾ النِّحلة والنُّحلة. بكسر النون وضمها لغتان. وأصلها من العطاء ، نحلت فلاناً شيئاً: أعطيته ، فالصداق عطية من الله تعالى للمرأة. وقيل ﴿نحلة﴾ أي: عن طيب نفس من الأزواج من غير تنازع.

وقال قتادة: معنى ﴿نحلة﴾ فريضة واجبة ، وابن جريج وابن زيد: فريضة مسمَّاة. قال أبو عبيد: ولا تكون النِّحلة إلا مسمَّاة معلومة. وقال الزجاج: ﴿نحلة﴾ تديُّناً . والنِّحلة: الديانة والملّة. يقال: هذا نِحْلته ، أي: دينه. وهذا يحسنُ مع كون الخطاب للأولياء الذين كانوا يأخذونه في الجاهلية[٢].

ويقول صاحبُ تفسير «التحرير والتنوير»: إن الصدقات جمع صدُقة ، وهي مهرُ المرأة ، مشتقة من الصدق ، لأنها عطيتها يسبقها الوعد بها ، فيصدقه المعطي.

والنِّحلة: العطية بلا قصد عوض. وسُمِّيت الصدقات نِحْلة إبعاداً للصدقات عن أنواع الأعواض ، وتقريباً لها إلى الهدية ، إذ ليس الصداقُ عوضاً عن منافع المرأة عند التحقيق؛ فإنَّ النكاحَ عقدٌ بين الرجل والمرأة قصد منه المعاشرة وإيجاد آصرة عظيمة ، وتبادل حقوق بين الزوجين ، وتلك أغلىٰ من أن يكون لها عوض مالي ، لكن الله جعله هدية واجبة على الأزواج إكراماً لزوجاتهم[٣].

وبهذا الحق الواجب على الزوج تميَّز عقد النكاح عن بقية أنواع المعاشرة المذمومة شرعاً وعادة ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ نهى عن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (مج ٣ ـ ج ٥ ص ٢٢) والإشراف على مسائل الخلاف؛ للقاضي عبد الوهاب (٢/ ١٠٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (مج ٣ ـ ج ٥ ـ ص ٢٣).
(٣) تفسير التحرير والتنوير؛ لمحمد الطاهر بن عاشور (ج ٣ ـ ص ٢٣٠).

الشِّغار[1]. وهو أن يزوجه وليته على أن يزوجه الآخر وليته، ولا مهر بينهما[2].

٣ ـ المهر في السنة النبوية:

دعا رسول الله ﷺ إلى الزواج وإلى بناء الأسرة المسلمة؛ لأنّ الأسرة هي نواة المجتمع، وبقدر صلاح الأسرة يكون صلاحُ الأمة الإسلامية. وقد بادر ﷺ إلى حث المسلم على الزواج، وقال لمن أراد ذلك: «التمس ولو خاتماً من حديد»[3].

وتُسن تسميةُ المهر في العقد؛ لأن رسول الله ﷺ لم يخلِ نكاحاً عنه.

وجوب المهر:

يدل وجوبُ المهر على إظهار أهمية عقد النكاح، وعلى الحفاظ على حقوق المرأة وإكرامها، وفيه يُـثْـبِتُ الرجُلُ حسنَ نيته مع زوجه، وعزمه على بناء حياة كريمة.

والمهرُ واجبٌ على الزوج؛ انطلاقاً من المبدأ التشريعي الذي يقول بأن المرأة غير ملزمة، ولا تكلف بأي نفقة؛ سواء أكانت أماً أم بنتاً أم زوجاً، وإنما الرجلُ هو المكلف بالإنفاق في كل الحالات، وهذا يشملُ واجبه بأداء المهر؛ لأن الرجلَ أقدرُ من المرأة على السعي للرزق وكسب العيش، وتبقى للمرأة مسؤوليتها الأكبر في بناء الأسرة السليمة، وإعداد المنزل، وإنجاب الأولاد، وتربيتهم، وهذا ليس بالأمر السهل اليسير، قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

والمهر وإن كان واجباً في العقد إلا أنه ليس ركناً ولا شرطاً من شروط الزواج[4]. والدليل قوله تعالىٰ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ

---

(١) رواه البخاري (٥١١٢) ومسلم (١٤١٥/٥٧ ـ ٥٨).
(٢) جامع الأمهات (٢٧٦).
(٣) رواه البخاري (٥١٣٥) وأبو داود (٢١١١) والترمذي (١١١٤) والنسائي (٦/ ١٢٣).
(٤) البدائع (٢/ ٢٧٤) كشاف القناع (٥/ ١٤٤، ١٧٤) مغني المحتاج (٣/ ٢٢٩) بداية المجتهد (٢/ ٢٥).

﴿تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٦]، فإن الله تعالى أباح الطلاق قبل الدخول وقبل فرض المهر.

وفي حديث عقبة بن عامر، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أترضىٰ أنْ أزوِّجَك فلانة؟» قال: نعم، وقال للمرأة: «أترضين أن أزوِّجَكِ فلاناً؟» قالت: نعم، فزوَّج أحدَهما صاحبَه، فدخل بها الرجل، ولم يفرِضْ لها صداقاً، ولم يعطها شيئاً، فلما حضرته الوفاة قال: إن رسول الله ﷺ زوَّجني فلانة، ولم أفرضْ لها صداقاً، ولم أعطها شيئاً، وإني قد أعطيتها عن صداقها سَهْمي بخيبر، فأخذتْ سهمه، فباعته بمئة ألف[1].

وهذا يدلُّ على أنه يمكن أن يكون هناك اتفاق بين الزوجين على الزواج دون تسمية المهر، فالعقد صحيح ويجب للمرأة مهر المثل بالدخول أو الموت.

ولقد أعطانا رسولُ الله ﷺ أحسنَ مثل في دعوته الناس إلى دفع الصَّداق، وذلك حين تزوج امرأةً من بني غفار، فلما دخل عليها وَضَعَ ثوبه، وقعد على الفراش، أبصر بكشحها بياضاً، فانحاز عن الفراش، ثم قال: «خُذي عليك ثيابك» ولم يأخذ مما آتاها شيئاً[2].

مقدار المهر:

ليس للمهر حدٌّ أقصى بالاتفاق[3]؛ لأنه لم يرد في الشرع ما يدلُّ على تحديده بحدٍّ أعلىٰ. قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٢٠]. قال القرطبي: الآية دليل على جواز المغالاة في المهور؛ لأن الله تعالى لا يمثل إلا بمباح.

وقام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وخطب في الناس، فقال: «لا تُغالُوا صَدَاق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى عند الله كان أولاكم

---

(١) رواه أبو داود (٢١١٧).

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ١٣٦).

(٣) البدائع (٢/ ٢٨٦) الدر المختار (٢/ ٤٥٢) المهذب (٢/ ٥٥) كشاف القناع (٥/ ١٤٢).

وأحقكم بها رسول الله ﷺ ، ما أصدق امرأة من نسائه ، ولا أُصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية»[١].

وأقلُّ المهر فيه آراء عدة ، فأولها على رأي الحنفية[٢]: أقل المهر عشرة دراهم.

وقال المالكية[٣]: أقل المهر ربع دينار أو ثلاثة دراهم فضة خالصة من الغش ، أو ما يساويها مما يقوم بها من عروض ، أو من كل طاهر لا نجس ، متمول ، منتفع به شرعاً ، مقدور على تسليمه للزوجة ، معلوم قدراً وصنفاً وأجلاً.

ودليل المالكية:

١ ـ أنه مال يُستباح به العوض ، فوجب أن يكون لأقله تقدير في الشرع ، أصله ما تقطع به اليد.

٢ ـ ولأنَّ المهر في النكاح حق لله تعالى ، بدليل أنهما إذا تراضيا على إسقاطه لم يجز ، فإذا ثبت ذلك وجب أن يكون مقدراً كالزكوات والكفارات.

وقال الشافعية والحنابلة[٤]: لا حد لأقلِّ المهر ، ولا تتقدَّر صحةُ الصداق بشيء ، فصح كون المهر مالاً قليلاً أو كثيراً.

وفي الحديث: عن عامر بن ربيعة أن امرأة من فزارة تزوَّجت على نعلين ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أرضيتِ من مالك ونفسك بنعلين؟» قالت: نعم. فأجازه[٥].

---

(١) رواه ابن ماجه (١٨٨٧).
(٢) الدر المختار (٢/ ٤٥٢) البدائع (٢/ ٧٥).
(٣) الشرح الصغير (٢/ ٤٢٨) بداية المجتهد (٢/ ١٤) جامع الأمهات (٢٧٥) الإشراف في مسائل الخلاف (٢/ ١٠٧).
(٤) المهذب (٢/ ٥٥) مغني المحتاج (٣/ ٢٢) كشاف القناع (٥/ ١٤٢).
(٥) رواه الترمذي (١١١٣) وابن ماجه (١٨٨٨).

روت السيدة عائشة رضي الله عنها: «أن صداق النبي ﷺ على أزواجه خمسمئة درهم»[1].

ويُكره تركُ تسمية المهر في العقد؛ لأنه قد يؤدي إلى التَّنازع في فرضه، كما يُستحبُّ ألا ينقص عن عشرة دراهم، خروجاً من خلاف مَنْ قـدَّر أقلّه بذلك[2].

مُعجَّل المهر ومُؤجَّله:

قال الحنفية في تعجيل المهر وتأجيله[3]: يصحُّ كون المهر معجّلاً أو مؤجّلاً كله أو بعضه إلى أجل قريب أو بعيد، أو أقرب الأجلين: الطلاق أو الوفاة، عملاً بالعُرف والعادة في كل البلدان الإسلامية، لكن بشرط ألا يشتمل التأجيلُ على جهالةٍ فاحشة، بأن قال: تزوجتك على ألف إلى وقت الميسرة، أو هبوب الرياح، أو إلى أن تمطر السماء، فلا يصحُّ التأجيل، إلا إذا اتفق صراحة على تقسيط المهر، فيعمل به؛ لأنَّ الاتفاق من قبيل الصريح، والعرف من قبيل الدلالة، والصريح أقوى من الدلالة. وإذا لم يتفقْ على تعجيل المهر أو تأجيله، عُمل بعرف البلد، وإذا لم يكن لا هذا ولا ذاك استحق المهر حالاً؛ لأنَّ الأصلَ أن المهر يجبُ بتمام العقد.

أما الشافعية والحنابلة[4] فأجازوا تأجيل المهر كله أو بعضه لأجل معلوم، فالمهر عند الشافعية إن أُجِّل فهو فاسد، ولها مهر المثل، وعند الحنابلة: صحيح، ومحلُّه الفرقة أو الموت.

وقال المالكية في حكم التأجيل[5]: إن كان المهر معيناً حاضراً في البلد كالدار والثوب والحيوان، وَجَبَ تسليمهُ للمرأة أو لوليّها يوم العقد، ولا يجوزُ تأخيرُه في العقد، ولو رضيت بالتأخير، فإن اشترط التأجيل في العقد فَسَد

---

(١) رواه مسلم (١٤٢٦) وأبو داود (٢١٠٥) والنسائي (٦/ ١١٦ و ١١٧).
(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي (ج ٩ ـ ص ٦٧٦٦).
(٣) البدائع (٢/ ٢٨٨) الدر المختار (٢/ ٤٩٣).
(٤) مغني المحتاج (٣/ ٢٢٢) كشاف القناع (٢/ ١٧٨) المغني (٦/ ٦٩٣).
(٥) الدسوقي مع الشرح الكبير (٢/ ٢٩٧) الشرح الصغير (٢/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣).

العقد ، إلا إذا كان الأجلُ قريباً كاليومين والخمسة ، ويجوز للمرأة تأجيله من غير شرط ، ويكون تعجيلُه من حقّها.

وفي حالة كون المهر غائباً عن بلد العقد ، صحَّ النكاح إن أجل قبضه بأجل قريب بحيث لا يتغير فيه غالباً ، وإلا فسد النكاح.

وإن كان المهرُ غير معين فيجوز تأجيلُه كله أو بعضه ، ويجوزُ التأجيلُ إلى الدخول إن علم وقته ، فإن كان فقيراً لم يصحَّ العقد ، ويجوزُ التأجيل إلى أن تطلبه المرأة منه ، فهو كتأجيله للميسرة. ولجواز هذا التأجيل شرطان:

١ ـ أن يكون الأجلُ معلوماً: فإن كان مجهولاً كالتأجيل للموت أو الفراق فسد العقد ، إلا إذا دخل الرجل بالمرأة ، فيجب حينئذ مَهْرُ المثل.

٢ ـ ألا يكون الأجلُ بعيداً جداً كخمسين سنة فأكثر؛ لأنّه مظنةٌ لإسقاط الصداق والدخول على إسقاط الصداق مفسد للزواج.

تنازل المرأة عن مهرها:

المرأةُ صاحبة الحق في مهرها ، فهو ملكٌ خاصٌ لها ، لا يحقُّ لأحد مشاركتها فيه ، فلها أن تعملَ به ما شاءت وتتصرف به كما تتصرف بمالها الخاص متى كانت أهلاً للتصرف ، فلها كلُّ الحق في إبراء الزوج منه ، أو هبته له.

قال تعالىٰ: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء: ٤][1].

فقد أعطى الله تعالى للمرأة حقها في التصرف بمالها ، ومهرها من مالها ، فهي بذلك إن استساغت إعطاءَ زوجها من هذا الصداق تكون قد ساعدتْ بمدِّ جسور المحبة ، وأسهمت في بناء حياة زوجية قائمة على أساس من التواصل.

كما سمح الله تعالى للزوج بأخذ هذا المال من المرأة إن كانت قد أعطته إياه طائعة عن طيب نفس.

أما عن حقِّ الولي في قبض مهر ابنته ، فله أحكام: فإذا كانت الزوجة صغيرة

---

(١) قال القرطبي: الهنيء: الطيب المساغ الذي لا ينغصه شيء ، والمريء: المحمود العاقبة الذي لا يضر ولا يؤذي. ومعنى الآية: لا تخافون في الدنيا به مطالبة ، ولا في الآخرة تبعة. الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي (ج ٥ ـ ص ٢٧).

فللأب أن يقبضَ صداقها ، أما إن كانت ثيباً كبيرة فلا يقبضه إلا بإذنها لأنها المتصرفة بمالها ، وكذا البكر البالغة العاقلة فلا يقبض الأب صداقها إلا بإذنها.

وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على مدى اهتمام الإسلام بحقوق الزوجة ، وما يجر هذا الاهتمام من رفع الحالة المعنوية للمرأة ، وحثها على بذل أقصى جهدها في بناء أسرة سعيدة ، محصَّنة ، بعيدة عن أسباب الإخفاق وسوء العواقب.

ضرورة تيسير المهر ، ودعوته ﷺ للتخفيف فيه:

يذهب أغلبُ الناس إلى المغالاة في المهور ، وتحميل الزوج ما لا طاقة له به من الأعباء المادية ، ولكن رسولَ الله ﷺ حضَّ على الزواج ، ودعا إليه بقوله: «يا معشرَ الشباب ، من استطاع منكم الباءةَ فليتزوج ، فإنه أغضُّ للبصر ، وأحصنُ للفرج ، ومن لم يستطعْ فعليه بالصوم ، فإنه له وِجاء»[1].

وطلب تخفيف المهر على الخاطب ، ووردت أحاديثُ كثيرةٌ في ذلك تدعو إلى تيسير المهر. فعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ الصداق أيسره»[2].

وطلب رسول الله ﷺ من أهل المرأة تيسير مهرها لتيسير خطبتها ، فقال عليه الصلاة والسلام: «من يُمن المرأة: تيسير خطبتها ، وتيسير صداقها ، وتيسير رحمها»[3].

ومن البركة تيسير مهر النساء ، فقال ﷺ: «أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة»[4].

وكان لنا في رسول الله أسوةٌ حسنة ، فتجد آثارَ أقواله في أعماله ، فقد زوَّج رسولُ الله ﷺ ابنته فاطمة لعليٍّ بن أبي طالب ، وكان مهرها درعاً لا يزيد ثمنها على أربعمئة درهم.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠).
(٢) رواه الحاكم (٢/ ١٨٢).
(٣) رواه أحمد (٦/ ٧٧) وانظره في مجمع الزوائد (٤/ ٢٥٥ و ٢٨١).
(٤) رواه أحمد (٦/ ١٤٥).

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «لو أنَّ رجلاً أعطى امرأةً ملء يديه طعاماً كانت به حلالاً»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها: «كان صداق النبي ﷺ لأزواجه اثنتي عشرة أوقية ونشاً، فذلك خمسمئة درهم»[2].

وقال عمر رضي الله عنه: «ما علمتُ رسولَ الله ﷺ نكح شيئاً من نسائه، ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من اثنتي عشرة أوقية»[3]. والأوقية: أربعون درهماً.

فالصداقُ لا بُـدَّ منه، وأكثره لا حدَّ له، غير أن المغالاة فيه مكروهة؛ لأنها من باب السرف، والتعسير، والمباهاة.

وبناءً على ذلك نجد أن المرادَ بالمهر ليس القيمة المادية، ولا وفرة المال الذي سيقدِّمه الزوج لزوجه، إنما هو طريقةٌ للتعبير عن طيب نية الزوج، وتكريمه لزوجته، وبداية لحياة زوجية سعيدة مبنية على الود والمحبة لا على المصالح المادية؛ التي يمكن أن تنتهي إذا ما حدث أيُّ أمر طارىء يكون سبباً في زوال هذا المال.

٤ ـ أسباب غلاء المهور:

يمكن أن تجتمع أسباب غلاء المهور في كل من الرجل والمرأة والأهل أيضاً، ويمكننا عرضها في عدّة نقاط، هي:

١ ـ قد تكون المغالاةُ في المهر بسبب عدم الثقة في أخلاق الزوج ودينه وأمانته ومعاملته، ويكون الزواجُ في هذه الحالة قد بُني على أساس من الطمع بالمال والجاه، فيجرّ طمعُ الأهل بالمال إلى تقييد الزوج بمبالغ كبيرة مهراً لابنتهم، ولكن بعد الزواج تكون الأمورُ قد اتَّضحت، ومساوىء الزوج قد بدأت تظهر، ولا تكون الفتاة قد جَنَت من وراء هذا الزواج إلا الهم والغم وسوء

---

(١) رواه أبو داود (٢١١٠) والدارقطني (٣/ ٢٤٣).
(٢) رواه مسلم (١٤٢٦) وأبو داود (٢١٠٥) والنسائي (٦/ ١١٦ و ١١٧).
(٣) رواه أبو داود (٢١٠٦) والترمذي (١١١٤) وابن ماجه (١٨٨٧).

المعاملة ، الذي قد يؤدِّي في النهاية إلى تنازلها عن كل ما أخذته من مهر وغيره؛ حباً في الخلاص من زوجٍ لا يعرف للمرأة حقوقاً ، ولا يرعى لها ذمة ، فالنتيجة هي فَصْم عُرى العلاقة الزوجية الشريفة.

٢ ـ وكذلك الفتاةُ أيضاً قد تكون من المساهمين في إغلاء المهر ، فكيف ذلك؟! إن عدم الثقة في صلاحية الفتاة كزوجة تتمتع بخُلُق جميل ودين متين ، وذلك لأنَّ هذه الفتاة يمكن ألا تكون قد نشأت النشأة الإسلامية الصحيحة ، ولم تأخذ القواعد الدينية التي تمكّنها من بناء أسرة مسلمة معافاة من كل مرض ، فمن هنا كانت المغالاةُ في المهر وسيلةً لإجبار الزوج على السكوت عن أخطاء زوجه ، واحتمال ما يراه منها ، والصبر على ما يلاقيه منها من شدائد ولأواء؛ خوفاً منه على المال الذي أضاعه في أداء حقوق هذه الزوجة والهدايا التي قدَّمها لها ، فلا يحاول أن يتخلص من زوجه؛ لأنه سيخسر المال؛ وبهذا تكون قد تقوَّضت دعائمُ تلك الأسرة التي كان ينبغي أن تُبنىٰ على أساسٍ من المودة والرحمة ، لا على أساس من مهرٍ غال ، وزوجة لا تُحسن بناء أسرة محصنة.

٣ ـ ومن أسباب غلاء المهور: الأهلُ أنفسهم ، عندما يطالبون الزوجَ بما يرهق كاهله من أعباء مادية ومهر كبير حباً منهم بالظهور والتفاخر أمام الناس ، ناسين ما يمكن أن تجرَّ هذه الأعمالُ من أشياء يمكن أن تعكر صفوَ الحياة الزوجية ، وتعرِّض الأسرةَ للشقاء ، فنجد الزوجَ غاضباً ساخطاً ، والزوجة غير سعيدة ، والحياة مهدَّدة بعدم الاستقرار والسعادة ، وكلُّ ذلك بسبب رغبة الأهل في التباهي ، وحب الظهور بمظهر لا يعدو أن يكون فارغاً سخيفاً ، وبالتالي لا يقرُّ للأسرة قرار بسبب وَضْع العراقيل أمام الزوجين ، فيكون الزواج غلاًّ في عنق الزوج ، فيحاول جاهداً أن يتخلص مما تورّط فيه.

٥ ـ مفاسد غلاء المهور:

وبسبب انتشار فكرة غلاء المهور ، نجد الشبابَ يدأبون ، ويعملون ليلاً نهاراً ، ويسعون للسفر والاغتراب بعيداً عن أهلهم وذويهم طلباً للمال الأكثر؛ الذي سيساعدهم على تجهيز مهر الفتاة التي يرغبون في الزواج منها.

فبالمال فقط يمكن أن يُستمال قلبُ الفتاة ، وليس من سبب آخر أبداً. . . هذا منطقُ العصر الآن ، فالمهر كبير ، والطلبات التي تطلبها الفتاة وأهلها كثيرة

جداً ، قد لا يطيقها طالبُ الزواج ، والعادات والتقاليد تتحكم بذلك ، والذهبُ الذي ستلبسه الفتاةُ هو المهم في الحياة الزوجية ، كلُّ ذلك دفع إلى مفاسد عظيمة يمكن أن نذكر منها :

١ ـ إعراض أغلب الشُّبان عن الزواج ؛ لما يكلفهم من تكاليف كثيرة ، وأعباء ثقيلة ، لا تتوافقُ مع إمكاناتهم المادية المحدودة ، فاختاروا الابتعاد عن الزواج توفيراً منهم لكل ذلك ، وعجزاً منهم عن الإيفاء به .

٢ ـ انحراف بعضُ هؤلاء الشبان إلى طريق الرذيلة ، وامتهان الفاحشة ، وانتشار العلاقات غير الشرعية في المجتمع والمعاشرة المحرمة ، فهذا يكون أقلَّ كلفة من الزواج وأعبائه ، وأيسر منه ، وأسهل تناولاً من الحياة الشريفة ، ولا ننسى هنا ما جرّته هذه العلاقات من أمراض وأوبئة زادت في المفاسد سوءاً ، وأعطت نتائج خطيرة .

٣ ـ وبسبب إعراض هؤلاء الشبان عن الزواج ، واتجاه بعضهم إلى إقامة العلاقات غير الشرعية ، كان لا بُدَّ من انتشار العنوسة بين الفتيات ، كما كان لا بُدَّ من شعور الفتيات بالحاجة الاقتصادية ، والفراغ الكبير الذي كان يمكن للزوج أن يملأه في حياتهن ، فمن المفترض أنَّ الزوج مكلَّف بالإنفاق ، وفي حالة عدم وجوده كان على الفتاة أن تبحثَ عن مصدر للعيش لتوفير احتياجاتها في الحياة ، فبدأت الفتياتُ بالاتجاه إلى العمل في المكاتب والشركات والمصانع والمحلات العامة طلباً للرزق ، تماماً كما يفعل الشباب ، وبهذا ابتعدت عن الحصانة التي وَضَعها الإسلامُ لها ، من البقاء في منزلها معزَّزة ، لا ينقصها شيء .

٤ ـ اتجاهُ الكثير من الشبان إلى معاكسة الفتيات في الشوارع ، بشكل بذيء بعيد عن الحياء ، وبجرأة غريبة ، وهذا بسبب تربيتهم الفاسدة ، زِدْ على ذلك ما يرونه على الفتيات من ملابس فاضحة ، مثيرة ، منافية للحشمة ، تكون عاملاً في إثارة غرائز الشبان من حولهن ، وما ذلك إلا خطوة في إفساد المجتمع الإسلامي كله ، فما هكذا يكون الشاب المسلم ، ولا الفتاة المسلمة ، فلو وجد الشابُّ من يردعه ، ومن يربِّيه ، ثم من يُيسِّر له المهر الذي سيدفعه لما حصل ذلك ، وكذلك الفتاة لو نشأت النشأةَ الإسلاميةَ السَّليمة ، لما وجدت نفسها تفعلُ

ذلك أبداً ، ولكانت حياتُها أفضل ، ومعاملة الشبان حولها ـ إن اضطرت لذلك ـ أحسن.

٥ ـ اضطرار الشبان نتيجة غلاء المهر في بلادهم إلى الزواج من خارج بلادهم ، والزواج بأجنبية حصراً؛ مع العلم بآثار هذا الزواج السَّيئة على المجتمع ، وعلى الأسرة ، وعلى الشاب نفسه.

٦ ـ قد يؤدي غلاءُ المهور مستقبلاً إلى مبادرة الفتاة بخطبة الرجل ، ودَفْع المهر له جرياً على عادة غير المسلمين!!

٧ ـ ومن مفاسد غلاء المهور أيضاً: أن الآباء قد يمنعون الشبانَ الأكفاء من خطبة بناتهم لعسر حالهم ، ومطالبتهم بمهر كبير ، ويسمحون بزواج غير الأكفاء ، وغير المؤهَّلين ، طمعاً بما يدفعون من مهر باهظ ، وأموال أكثر.

٦ ـ علاج غلاء المهور:

لا بُدَّ من علاج لهذه المشكلة ، على الرغم مما يقال أنه لا علاجَ لها بسبب أن الناس قد جُبِلوا على تقليد بعضهم ، فالفقيرُ ينظر للغني ويقلِّده ، فكما يفعلُ هو يفعل الآخر ، فإذا رفع الغنيُّ مهر ابنته لا بُدَّ للفقير أن يفعل مثله ، وهذا مردُّه الجهل المطبق.

وقد يتعلَّل بعضُ الأهل بأن القيمة المادية للنقد تتغير ، فلا يمكن لهم التقيد بتحديد مهر ثابت لابنتهم ، فقد لا يقومُ بتأدية حاجاتها ، واستعدادها بما يلزم من ملابس وأثاث. . . وهناك من يقولُ: إن تحديدَ مهر ثابت سوف يجعل الإبقاءَ على الزواج والطلاق بيد الزوج ، فإذا حُدّدت مبالغ قليلة تمكن الزوج من الطلاق في أي وقت أراد ، فهو لا يكلفه الكثير.

هذا إذا قلنا بتحديد المهر. أما بالنسبة للمهر غير المحدد والمهر الغالي ، فيمكن أن نجد له وسائل لعلاجه ، على الرغم من عدم وجود قانون يضبطه ، ولكن هنا سنخاطب العقل ، ونبحث عن علاج لمجتمع بأسره يتجه نحو غلاء المهور ، ومن هذه الوسائل:

١ ـ تربية النشء الإسلامي شباناً وفتيات تربية إسلامية صحيحة ، أساسها التقوى والأمانة ، تمهيداً لبناء أسرة محصنة مؤلَّفة من زوجين صالحين ، يمكن

الاعتماد عليهما في إيجاد السعادة الزوجية؛ مما يزرع الثقة في نفوس الناس.

٢ ـ موافقة الأهل على تزويج الشاب الفقير صاحب الأخلاق والدين القويم، عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا خطب إليكم مَنْ تَرْضَوْنَ دينه وخُلُقَه فزوِّجوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد كبير»(١).

فما المال إلا عرض زائل قد يأتي ويذهب ثانية، فمن الذي يضمن صروفَ الدهر؟! فقد يأتي الشابُ غنياً، وتحكمه ظروف سيئة تُودي بماله كله، فما معنىٰ الجري وراء الشاب الغني؟

فالمهمُّ هنا هو دينُ هذا الشاب وأخلاقه، فالزوجُ الذي يتقي الله، إن أحبّ زوجه أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها خوفاً من ربه، وعقاب خالقه.

٣ ـ الاقتداء بالأشخاص ذوي الشأن والمكانة العالية في المجتمع، فإن يسَّروا المهر كانوا قدوة لغيرهم، وإن كان العكس فالعكس، ومَنْ لنا أحسن من رسول الله ﷺ قدوة في ذلك كما سبق وأسلفنا؟!

٤ ـ توعية الناس بوسائل الإعلام، وبخُطَب المساجد من مضارّ غلاء المهور، وتحذير الأهل من ذلك ومن عضل بناتهم، حيث لا يتجرأ الشاب من التقدم لخطبة أي فتاة خوفاً من المهر الكبير.

٥ ـ منع الناس من الإسراف في مراسم الزواج، فنرى الناس يتبارون في إظهار فرحهم، ويتنافسون في إظهار البذخ والإسراف في حفلات الزواج، وما يصاحب هذه الحفلات من ولائم، وإضاءات، وغناء، ولهو قد يستمر إلى الساعات الأولى من الصباح، وأصوات المغنّين الذين قد تعلو أصواتهم على صوت المؤذن في صلاة الصبح، وما تجرُّ هذه التصرفات من أمور محرمة كالاختلاط، ومباشرة الرجال لخدمة النساء في الفنادق إذا أقيمت هذه الحفلات فيها؛ مما قد يرهق بعض الأزواج بالنفقات، ويضطره أن يتزوج من مجتمع لا يتفق معه ومع عاداته وتقاليده فراراً منه من هذه التكاليف.

وعلى هذا قرر مجلس هيئة كبار العلماء في الرياض؛ في دورته العاشرة المعقودة في مدينة الرياض فيما بين (٢١/ ٣/ ١٣٩٧ هـ ـ ٤/ ٤/ ١٣٩٧ هـ) في

---

(١) رواه الترمذي (١٠٨٤) وابن ماجه (١٩٦٧).

قراره رقم (٥٢) بتاريخ ٤/ ٤/ ١٣٩٧ هـ؛ ما يلي:

١ ـ يرى المجلس مَنْع الغناء الذي أحدث في حفلات الزواج بما يضمُّه من آلات اللهو، وما يستأجر له من مغنين ومغنيات، وبآلات تكبير الصوت؛ لأن ذلك منكر محرم، يجب منعه، ومعاقبة فاعله.

٢ ـ منع اختلاط الرجال بالنساء في حفلات الزواج وغيرها، ومنع دخول الزوج على زوجه بين النساء السافرات، ومعاقبة من يحصل عندهم ذلك من زوج وأولياء الزوجة معاقبة تزجر عن مثل هذا المنكر.

٣ ـ مَنْع الإسراف، وتجاوز الحد في ولائم الزواج، وتحذير الناس من ذلك بوساطة مأذوني عقود الأنكحة، وفي وسائل الإعلام، وأن يرغب الناس في تخفيف المهور، ويذم لهم الإسراف في ذلك على منابر المساجد، وفي مجالس العلم، وفي برامج التوعية التي تُبثُّ في أجهزة الإعلام.

٤ ـ يرى المجلسُ بالأكثرية معاقبة من أسرف في ولائم الأعراس إسرافاً بيناً، وأن يُحال بوساطة أهل الحسبة إلى المحاكم؛ لتعزِّر من تثبت مجاوزته الحد بما يراه الحاكم الشرعي من عقوبة رادعة زاجرة، تكبح جماحَ الناس عن هذا الميدان المخيف؛ لأن من الناس من لا يمتنع إلا بعقوبة، وعلى ولي الأمر أن يعالج مشاكل الأمة بما يصلحها، ويقضي على انحرافها، وأن يوقع على كل مخالف من العقوبة ما يكفي لكفّه.

٥ ـ يرى المجلسُ الحثَّ على تقليل المهور، والترغيب في ذلك على منابر المساجد، وفي وسائل الإعلام، وذِكْر الأمثلة التي تكون قدوة في تسهيل الزواج إذا وجد من الناس من اقتصر على حفلة متواضعة؛ لما في القدوة من التأثير.

٦ ـ يرى المجلسُ أنَّ من أنجح الوسائل في القضاء على السرف والإسراف؛ أن يبدأ بذلك قادة الناس من الأمراء والعلماء، وغيرهم من وجهاء الناس، وأعيانهم، وما لم يمتنع هؤلاء من الإسراف، وإظهار البذخ والتبذير، فإن عامة الناس لا يمتنعون من ذلك؛ لأنهم تبع لرؤسائهم، وأعيان مجتمعهم، فعلى ولاة الأمر أن يبدؤوا في ذلك بأنفسهم، ويأمروا به ذوي خاصَّتهم قبل غيرهم، ويؤكدوا على ذلك اقتداء برسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، واحتياطاً

لمجتمعهم؛ لئلا تتفشَّىٰ فيه العزوبة التي ينتجُ عنها انحرافُ الأخلاق ، وشيوع الفساد ، وولاة الأمر مسؤولون أمام الله عن هذه الأمة ، وواجب عليهم كفّهم عن السوء ، ومنع أسبابه عنهم ، وعليهم تقصّي الأسباب التي تثبط الشباب عن الزواج ليعالجوها بما يقضي على هذه الظاهرة المخيفة .

٧ ـ المرأة بين تخفيف المهر وإلغائه :

المهرُ حقٌّ خالصٌ للزوجة ، يحقُّ لها أن تتصرف به كما تشاء بيعاً أو هبة ونحوهما ، ولها الحقُّ في تخفيف مهرها أو إلغائه . وللفقهاء آراء في الحط من المهر والإبراء عنه ، فالحنفية يقولون[١] : أنه يصحُّ للزوجة الرشيدة غير المريضة مرض الموت دون أبيها الحط من المهر كله أو بعضه عن الزوج بعد تمام العقد ، سواء قبل أم لا ، لكنه يرتدَّ بالرد . أما أبوها فلا يصحُّ الحط منه إذا كانت صغيرة ، ويتوقَّف الحطُّ على إجازتها إن كانت كبيرة ، ولا بُدَّ من رضاها .

لكن فرَّق الحنفيةُ بين الإبراء والهبة في الحطِّ من المهر ، فقالوا : الإبراءُ لا يكون إلا في دين ثابت في الذمة كالنقود؛ لأنَّ الديونَ تتعلَّق بالذمة ، والتنازل عنها يكون بالإبراء . ولا يشترطُ لصحته قبول الزواج ، وإنما يكفي عدم الردّ كهبة الدين ممَّن عليه الدين ، فقد يرد الإبراء دفعاً للمنَّة؛ لأن الحطَّ من المهر ليس تمليكاً على وجه الهبة الصَّريحة ، وإنما هو إسقاطٌ وإبراء للزوج .

أما إذا ورد الإبراء على عين ، فلا يسقط شيءٌ من المهر ، بل يصير أمانةً في يد الزوج ، ويسقط عنه الضمان إذا هلك؛ لأن الإبراءَ ليس من الألفاظ الصريحة في تمليك الأعيان ، فيحمل على نفي الضمان .

لكن إذا قصدتِ الزوجةُ بالإبراء إعفاء الزوج مما عليه كله أو بعضه ، ففي الوقت الحاضر الذي لا يميز فيه الناس بين المصطلحات الفقهية ، يمكن جَعْلُ الإبراء تمليكاً ، ويكون حكمه حكم الهبة[٢] .

أما الهبة : فتصحُّ سواء أكان المهر ديناً أم عيناً كالدار ، أو الحيوان . . . ،

---

(١) الدر المختار ، لابن عابدين (٢/ ٤٦٤).

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته ، للدكتور : وهبة الزحيلي (ج ٩ ص ٦٧٩٧).

وسواء قبل القبض أم بعده. ولا بُدَّ حينئذ من قبول الزوج في المجلس، ولا يُكتفى بسكوته عن القبول أو الرد.

وذهب المالكية[1]: أنه إذا وهبتِ المرأةُ لزوجها جميعَ صداقها قبل الدخول، لم يرجع عليها بشيء.

وقال الشافعية[2]: إنه ليس للولي عفوٌ عن صداق مولّيته ـ على الجديد ـ كسائر ديونها؛ إذ لم يبقَ للولي بعد العقد عقدة، أي: كلام. وإذا أبرأت المرأةُ زوجها من المهر، ثم طلّقها قبل الدخول، لم يرجع عليها بشيء على المذهب، كما قال الشافعية في الهبة؛ لأنها لم تأخذْ منه مالاً، ولم تتحصَّل منه على شيء، وهو بخلاف هبة العين، فإنها لو وهبت زوجَها المهر المعين، كدار معينة، أو حيوان معين، رجع عليها بنصف الصداق إذا طلَّقها قبل الدخول.

ورأى الحنابلة[3]: أنه لا عفو لأب وغيره عن مهر محجورة؛ لأنَّ الذي بيده عقدةُ النكاح هو الزوج. وإذا عفتِ المرأةُ لزوجها عن مهرها، وهي جائزة التصرف، برىء منه، سواء بلفظ عفو، أو بلفظ إسقاط، وصدقة، وترك، وإبراء لمن العينُ في يده.

ولو أبرأت مفوّضة زوجها، ثم طلّقت قبل الدخول، رجع بنصف مهر المثل.

٨ ـ نماذج من المهور في العهد النبوي:

وردتْ أمثلةٌ كثيرة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام عن المهور، ومقاديرها، وأشكالها، كلٌّ بحسب ظرفه، وكل بحسب طاقته، ومن هذه الأمثلة:

١ ـ **المهر خمسمئة درهم**: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه قال: سُئلت عائشةُ زوج النبي ﷺ: كم كان صداقُ رسول الله ﷺ؟ قالت: كان صداقُه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشّاً. قالت: أتدري ما النَّشّ؟ قلت: لا، قالت: نصف أوقية، فتلك خمسمئة درهم، فهذا صداقُ رسول الله ﷺ لأزواجه[4].

---

(١) القوانين الفقهية (ص ٢٠٣).
(٢) مغني المحتاج (٣/ ٢٤٠).
(٣) غاية المنتهى (٣/ ٦٧).
(٤) رواه مسلم (١٤٢٦) وأبو داود (٢١٠٥) والنسائي (٦/ ١١٦ و ١١٧).

٢ ـ **المهر أربعة آلاف درهم**: عن عروة، عن أم حبيبة أن رسولَ الله ﷺ تزوَّجها وهي بأرض الحبشة، زوَّجها النجاشيُّ، وأمهرها أربعة آلاف، وجهَّزها من عنده، وبعث بها مع شُرَحْبِيل بن حَسَنَة، ولم يبعث إليها رسولُ الله ﷺ بشيء. وكان مهرُ نسائه أربعمئة درهم[1].

٣ ـ **المهر دخول الزوج في الإسلام**: عن أنس قال: خطب أبو طلحة أمَّ سُلَيْم فقالت: والله ما مثلك يا أبا طلحة يُرَدُّ، ولكنك رجلٌ كافر وأنا امرأة مسلمة، ولا يحلُّ لي أن أتزوجك، فإن تُسْلِمْ فذاكَ مَهْري، وما أسألك غيره، فأسلم، فكان ذلك مَهْرَها. قال ثابت: فما سمعتُ بامرأةٍ قط كانت أكرمَ مهراً من أم سُلَيْم[2].

٤ ـ **المهر وزن نواة من ذهب**: عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صُفْرَةٍ، فقال: «ما هذا؟» قال: إني تزوجتُ امرأة على وزن نواة من ذهب، قال: «فبارك الله لك، أَوْلِم ولو بشاة»[3].

٥ ـ **المهر خاتم من حديد أو إزار، أو تعليم آيات من كتاب الله**: عن سهل بن سعد الساعدي أن امرأة جاءت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! جئت لأهب لك نفسي. فنظر إليها رسول الله ﷺ، فصعَّد النظر إليها، وصوَّبه، ثم طأطأ رأسَه، فلما رأتِ المرأةُ أن لم يَقْضِ فيها شيئاً، جلستْ، فقام رجلٌ من أصحابه فقال: إن لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها، فقال: «هل عندك من شيء تصدقها؟» قال: لا والله يا رسول الله! قال: «اذهبْ إلى أهلك فانظر هل تجد شيئاً».

فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ! ما وجدت شيئاً. قال: «انظر ولو خاتماً من حديد».

فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ! ولا خاتماً من حديد، ولكن هذا إزاري، ـ قال سهل: ما له رداء ـ فلها نصفه، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما تصنع بإزارك؟! إن لَبِسْتَهُ لم يكن عليها منه شيء، وإن لَبِسَتْه لم يكن عليك منه شيء».

---

(١) رواه النسائي (٦/ ١١٩).
(٢) رواه النسائي (٦/ ١١٤).
(٣) رواه البخاري (٥٠٧٣) ومسلم (١٤٢٧).

فجلس الرجلُ حتى طال مجلسُه ، ثم قام فرآه رسولُ الله ﷺ مولّياً ، فأمر به فَدُعِيَ ، فلما جاء قال : «ما معك من القرآن؟» قال : معي سورة كذا وسورة كذا ، وسورة كذا ـ عدَّدها ـ قال : «أتقرؤهن عن ظهر قلب؟» قال : نعم ، قال : «اذهب فقد ملَّكْتُكها بما معك من القرآن»[1].

٦ ـ **المهر درع حطمية** : عن ابن عباس قال : لما تزوج علي رضي الله عنه فاطمة رضي الله عنها ، قال له رسول الله ﷺ : «أعطها شيئاً» . قال : ما عندي! قال : «فأين درعك الحُطَمِيّة؟» قال : هي عندي . قال : «أعطها إياه»[2].

٧ ـ **المهر حديقة** : عن ابن عباس : أنَّ امرأة ثابت بن قيس أَتَتِ النبيَّ ﷺ ، فقالت : يا رسولَ الله ! ثابتُ بن قيس ما أعتِبُ عليه في خُلُق ولا دِيْن ، ولكني أكره الكفر في الإسلام ، فقال رسولُ الله ﷺ : «أَتَرُدِّين عليه حديقتَه؟» قالت : نعم . قال رسولُ الله ﷺ : «اقْبَلِ الحديقةَ ، وطلِّقْها تطليقةً»[3].

٨ ـ **المهر مئة ألف درهم** : عن عقبة بن عامر : أن النبي ﷺ قال لرجل : «أترضىٰ أن أزوجك فلانة؟» قال : نعم ، وقال للمرأة : «أترضين أن أزوجك فلاناً؟» قالت : نعم ، فزوَّج أَحَدهما صاحبه ، فدخل بها الرجلُ ، ولم يفرض لها صداقاً ، ولم يعطها شيئاً ، وكان ممن شهد الحديبية ، وكان مَنْ شهد الحديبية له سهم بخيبر ، فلما حضرته الوفاة قال : إن رسول الله ﷺ زوَّجني فلانة ، ولم أفرضْ لها صداقاً ، ولم أعطها شيئاً ، وإني أشهدكم أني أعطيتها عن صداقها سهمي بخيبر ، فأخذتْ سهماً فباعته بمئة ألف[4].

هذا ، وإن الضَّمانَ الحقيقي لسعادة المرأة ، واستقرار الأسرة ، ليس في ضخامة المهور وكثرة المال ، وليس في تحميل الزوج من الأعباء ما لا يطيقُ معه صبراً ، إنما هو في إنشاء أسرة قائمة على التقوى ، وذلك باختيار الزوج الصالح التقي الحريص على طاعة الله ، فهذا هو الزوجُ الذي يضمنُ حياةً سعيدة بإذن الله

---

(١) رواه البخاري (٥٠٨٧) ومسلم (١٤٢٥).
(٢) رواه النسائي (٦/١٢٩).
(٣) رواه البخاري (٥٢٧٣).
(٤) رواه أبو داود (٢١١٧).

تعالىٰ ، فيفعل ما يرضي الله تعالى ، ويتقي ربَّه في زوجه وأسرته ، فإن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها. فلِمَ لا نمتثل لأوامر الله تعالى في أحكامه ، ونقتدي بسنة رسوله؟!

إنَّ نظرة متفحصة للأحكام السالفة تكشف لنا الحكمةَ من هذه الأمثلة التي وردت في حياة رسول الله ﷺ ، والتي هدفها الأول بناءُ أسرة محصَّنة ، تواجه الهجمات والتَّحديات التي تُشَنُّ ضدَّها.

* * *

الفصل الثاني

الثورة الجنسية والغزو الفكري

أولاً ـ الثورة الجنسية

أكَّد الإسلامُ على وجوب الزواج ، فهو أصلٌ اجتماعي ذو أهمية لا تُحدّ؛ وهو سبيل الأنبياء ، ومنهج الصفوة المختارة من البشر ، قال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨].

والزواج هو قاعدة الطُّهر ، ومنبع العفاف ، ذلك أن المشرِّعَ العظيم يدرك حقيقة النفس البشرية ، ويعلم أهواءها ، ويدرك شهواتها ، وما يقودها إلى الخير ، أو يدفعها إلى التردي في مهاوي الفساد والشر.

وبيَّن الإسلامُ أن الزواجَ قاعدة نظيفة ، ومأوى طاهر؛ لإقامة أسرة عفيفة ، ومجتمع يتصل بخالقه بعيداً عن الفحش ، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام: ١٥١]. أما الذين يحبون أن تنتشر الفاحشة فهم أعداء الأسرة ، وخصوم المجتمع ، وأعلام العبث والضلال ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [النور: ١٩].

والفواحش كثيرة العدد ، واسعة الجوانب ، متعددة الوجوه والأشكال والألوان ، ويقف خلفها طوائف من الناس لا خَلَاقَ لهم ، فهم يودُّون إيجاد نخرٍ في جسد الأمة ، وزعزعة العلاقات الطاهرة بين الناس ، وتلطيخ سمعتهم بما يأنف منه العاقل المتزن.

ومن الفواحش: التبرج ، والاختلاط المريب ، والكلمات المريضة ، والإشارات الماجنة ، والحركات الملتوية ، والضحكات الفاجرة ، والإغراءات الفاضحة ، والفتنة الظاهرة ، والإغراءات المكشوفة ، وغير ذلك مما يُصنع في فكر الشياطين من بني آدم؛ أولئك الذين ماتت ضمائرهم ، وشردوا عن الصواب ، وصغرت اهتماماتهم ، فأرادوا التهتك ، ونشر الميوعة ، وإثارة الذكر والأنثى إثارة جانحة ، تقضي على البقية الباقية من الخُلُق والدين والحياء.

ولما كانت الفواحش ذات إثارة عنيفة ، وتحمل في طيّاتها إغراءً شديداً ، وجاذبية واضحة ، فلم يكتفِ الإسلامُ بالتحذير منها ، وعدم ارتكابها ، بل نهى عن الاقتراب منها ، مبالغةً في الزجر والردع ، وذلك من باب سدِّ الذريعة ، وإيقافاً للجاذبية عن التأثير ، وإيقاع المرء في حبالها وشَرَكها.

والفواحش: ما عَظُم قُبْحُه من الأفعال والأقوال[1]. وقد نهى عز وجل عنها ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف: ٢٨]. وقال سبحانه: ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وهكذا يرسمُ الإسلامُ ـ وبكل وضوح وحزم ـ طريقَ الطهارة للروح والجسد ، ويحدد خطوط الوقاية للنفس الإنسانية ، والأسرة الطاهرة ، والمجتمع النظيف؛ ليحيا الناسُ بعيداً عن مهاوي الفتنة ، واختلاطاتها ، ولتبقى أعصابهم هادئة ، ونفوسُهم مطمئنة ساكنة ، دون الوقوع في عَنَت مقاومة الفتنة ، وما تجرُّ إليه من موبقات وعقوبات ، فيحمي الإسلامُ أفراده في مشاعرهم ، وجوارحهم؛ لينشر السلم والسلام ، والأمن والأمان في ربوع النفس ، وعلى بساط الواقع.

وسدّاً لباب الفاحشة ، وإغلاقاً لفتحات الفتنة ، دعا الإسلامُ إلى الزواج الشرعي ، السليم في علاقاته ، والنظيف في غاياته ، والمتين في بنائه ، والواضح في أهدافه ، وما كان ذاك كذلك لمجرد قضاء نزوة عابرة ، أو تنفيس عن شهوة حاضرة ، بل أراد الإسلامُ بناء البيت المسلم بعيداً عن فورة الجسد ، وطامّة الشهوة؛ لأن قضاء الوطر ، وتنفيذ مطالب الجسد ، دافع فطري آنيّ ،

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (٦٢٦).

لا بُدَّ من تهذيبه ، ووضعه في المكان المناسب ، بصراحةٍ ونظافة؛ لتحقيق غايات مثلى ، فلا شيء يذهب هدراً دون تحديد غايةٍ ما ، أو تأكيد هدف معين.

ومن هنا وضَّح الإسلامُ الطريقة المثلى لالتقاء الذكر والأنثى ، وذلك عن طريق الزواج الشرعي ، وإقامة مؤسسة الأسرة؛ صيانة للمجتمع من التلوث الأخلاقي ، أو التسبب في الاختلاط بالأنساب ، ودرءاً لخطر الفاحشة والاتصال الجنسي غير المشروع.

فالصورة الوحيدة والمثلى هي النكاح الصحيح المستند على: العلانية ، واستئذان ولي المرأة؛ صوناً لها من التغرير بها ، أو الاندفاع خلف نزوة عابرة ، إلى جانب القبول والإيجاب باختيار وحرية ورضا ، مع دَفْع الصداق؛ لإقامة علاقة الودّ ، وتكريم المرأة في أجمل وأجلّ لحظات حياتها.

وما عدا هذه الصورة النظيفة ، فالعلاقات مشوَّهة ، والرؤى مضطربة ، والنكاح باطل منهي عنه.

أنكحة باطلة:

ذكر الإمامُ البخاري في كتاب النكاح ، باب: من قال لا نكاح إلا بولي؛ حديثَ عائشة: إنَّ النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء؛ فنكاح منها: نكاح الناس اليوم ، يخطبُ الرجلُ إلى الرجل وليَّته ، أو ابنته ، فَيُصْدِقها ، ثم ينكِحُها.

ونكاحٌ آخر: كان الرجلُ يقول لامرأته إذا طَهُرتْ من طَمْثِها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجُها ، ولا يمسُّها أبداً حتى يتبيَّن حَمْلُها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبيَّن حَمْلُها أصابها زوجُها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد ، فكان هذا النكاحُ نكاحَ الاستبضاع.

ونكاحٌ آخر: يجتمعُ الرَّهطُ ما دون العشرة ، فيدخلون على المرأة ، كلهم يُصيبها ، فإذا حَمَلَتْ ، ووَضَعَتْ ، ومرَّ ليالٍ[1] بعد أن تضعَ حَمْلَها ، أرسلتْ إليهم ، فلم يستطع رجلٌ منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم: قد

---

(١) في رواية: ومرّ عليها ليالٍ.

عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدتُ ، فهو ابنُك يا فلان ، تُسمِّي مَنْ أحبَّتْ باسمه ، فيلحق به وَلَدُها ، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل.

ونكاحٌ رابع: يجتمع الناسُ الكثير ، فيدخلون على المرأة ، لا تمنعُ مَنْ جاءها ، وهُنَّ البغايا ، كُنَّ يَنْصِبْن على أبوابهن رايات تكون عَلَماً ، فمن أرادهن دَخَل عليهن ، فإذا حملتْ إحداهن ، ووضعتْ حملها ، جُمِعُوا لها ، ودَعَوا لهم القافة ، ثم ألحقوا وَلَدَها بالذي يَرَوْن ، فالتاطته به ، ودُعي ابنه ، لا يمتنع من ذلك.

فلما بُعِث محمد ﷺ بالحق هَدَم نكاحَ الجاهلية كله؛ إلا نكاحَ الناس اليوم[1].

وسبق أن ذكرنا أن نكاح المتعة محرَّم أيضاً. وكان موجوداً في الجاهلية ، وإليه يُشير الشاعر بقوله:

أَلَا رَجُلٌ جَزَاهُ اللهُ خيراً ... يَدُلُّ على مُحَصِّلَةٍ تُبِيتُ
تُرَجِّلُ جُمَّتي وتَقُمُّ بَيْتي ... وأُعْطِيها الإتاوةَ إنْ رَضِيتُ[2]

والمحصِّلة: المرأة التي تُحصِّل ترابَ المَعْدِن. قال الأزهري: أي: تُبيِّتُني عندها لأُجامعها. وقال في «التهذيب»: هما لأعرابي أراد أن يتزوج امرأةً بمتعة.

أما نكاح الشغار فهو نكاح معروف في الجاهلية ، كان يقول الرجلُ للرجل: شاغِرْني ، أي: زَوِّجْني أُخْتَك ، أو بِنْتَك ، أو مَنْ تلي أمرها ، حتى أزوِّجَك أختي ، أو بنتي ، أو مَنْ ألي أمرها. ولا يكون بينهما مهر ، ويكون بُضْعُ كلِّ واحدةٍ منهما في مُقابَلة بُضْع الأخرى.

وقيل له شِغار؛ لارتفاع المهر بينهما[3].

والمستهدف في هذا النكاح: إشباع شهوة ، وليس المحافظة على علاقةٍ إنسانية لإقامة حياة إنسانية مشتركة ، ووراء هذا الأمر: الاستخفاف بالمرأة ، مع يُسْر التعامل بها كسلعة. وهو نوعٌ من ارتكاس الطبيعة البشرية ، وانحطاطها ،

---

(١) رواه البخاري (٥١٢٧).
(٢) لسان العرب ، مادة (حصل).
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤٨٢).

وهو صورة قائمة في المجتمعات الغربية ، دون اكتراث بالعواقب[1].

إن صُوَر الحرام لا تنتهي ، وطُرُق الفواحش ذات جاذبية؛ كنكاح الخِدان والصداقة ، والخيانة الزوجية ، وكلها صور تزري بواقع المرأة ، وتحطُّ من قيمتها ، وتستخفُّ بها ، وتدلُّ على امتهان القيم ، وعدم احترام الأُسَر واستقرارها.

والمقصودُ من تحريم هذه الأنكحة هو: بناء مجتمع نظيف المشاعر ، صالح العلاقات ، تُصْرف فيه الغريزة الجنسية بطريق مشروع؛ القصدُ منه الولادة ، وإكثار النسل ، وتربية الأطفال ، وغَرْس عواطف الوداد والمحبة؛ لذا كان الزنى فاحشة ، نهى عنها اللهُ تعالى بقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢][2].

خروج محموم عن الفطرة:

إن الذين يريدون للشهوات أن تطفو على سطح المجتمع ، وللغرائز أن تُطلق من عقالها؛ إنما يحاربون الزواجَ الشرعي ، ويقاومون نشوء الأسرة النظيفة العفيفة ، ويتاجرون بالمرأة متاجرة البائع بالسلعة. . . يريدون أن يجعلوا المرأة تتَّقد فتنة ، وتنطلق بسُعارٍ جنسي بلا توقف ، وبالتالي تتهدم البيوت ، وتنحرف النفوس ، وتثور الأعصاب في مراقدها ، ويندفع الجنسان كقطيع من البهائم؛ يدمرون الخُلُق الكريم ، ويفسدون في الأرض ، كل ذلك باسم الحرية الشخصية ، وأيّ حرية في تمجيد الشهوة ، والجري خلف النزوة؟!

لذلك حذَّر القرآنُ الكريم المؤمنين من اتباع الشهوات ، ونبَّه على ضرورة بذل الجهد إثر الجهد للحفاظ على الأخلاق سليمة ، معافاة ، دون أن يمسَّها خدش ، أو نكسة ، أو لطخة ، أو تلوُّث.

ولم يكن الإسلامُ ليقف حجر عثرة في وجه الإنسان ، بل اعترف بفطرته ، ودوافعه ، ونظَّمها ، وجَعَل تصريفها في طريق مأمون ، ومجال مثمر ، وفي جو مفعم بالنظافة الروحية ، دون عَنَت أو كبت أو مشقة. أما الذين يريدون

---

(١) الأخوات المسلمات (٣٤٩).
(٢) حق الزوجة على الزوج (٥٠).

الانفلات ، ويستجيبون لصراخ شهواتهم دون حدّ أو قيد ، إنما ينحدرون بالجنس البشري إلى الهاوية ، ويُقْصُونه عن تحقيق الغاية المطلوبة من التقاء الجنسين.

وليس الزواج مجرد قضاء للشهوة ، وتفريغ للطاقة الجنسية ، وإرواء للغُلْمة ، إنما هو ـ في واقع الأمر وحقيقته ـ حاجة نفسية عاطفية ، تنضج في الإنسان كلما كان سويَّ التكوين ، سليمَ الطبع والسجية[1].

أما الفوضى الاجتماعية؛ التي تسمح لدعاتها بالبقاء دون زواج ، ومحاربة إنشاء بيت يضم الأب والأم والأولاد ، إنما هم من الذين يسعون في الأرض فساداً ، ويُطلقون العنان لشهواتهم بطرق خبيثة ماكرة.

ويلحق بهم دعاة تأخير الزواج ، ليحترق الشبابُ أمام الفتنة ، فلا يصبرون على زيف الحضارة ، فإذا بهم يشردون خلف الانفلات الجنسي ، ويتعلَّلون بما يُصيبونه من آفات قاتلة، يهددهم ويهدد أمتهم بالخطر؛ إذ يهدم الأخلاق، ويُـقوِّض أسس الفضائل والقيم الإنسانية والدينية على حدٍّ سواء.

وتكمن الثورة الجنسية المحمومة في الزنى ، واللواط ، والسحاق ، ومنتديات الشذوذ ، وأماكن التعري ، والمسابح المختلطة ، والأفلام الماجنة ، والكتب الجنسية الفاضحة ، والمجلات الهابطة ، والصور الفاتنة ، والدعايات الخليعة... إن كل ذلك ونحوه يدلُّ على خطر الانفلات من قيود الأخلاق ، ويفتح باب الهوى على مصراعيه ، ويحثّ الشباب اللاهث وراء المتعة؛ كي ينساق ـ بهمجية وتقليد ـ وَفْق مذكّرةٍ شيطانية ، قوَّادها أعداء الأسرة ، وخصوم الإسلام.

وإنَّ كثيراً من الأمور الدنيوية تساعد على الثورة الجنسية العارمة ، والمتفجرة في أماكن عديدة ، وبُؤَر مختلفة ، فوسائل الإغراء متنوعة ومستمرة ومتجدِّدة ، وهي تزرع في نفوس الناس أفكاراً خاطئة ، وتساعدهم على تأجُّج غرائزهم ، والقضاء على العلاقات السليمة بين بني البشر.

---

(١) ماذا عن المرأة؛ للدكتور نور الدين عتر (٣٨).

الأصابع الخفية:

مما لا ريبَ فيه أن هناك أياديَ خفية ، تعدّ العدة لتحطيم الأسرة المسلمة ، وإثارة الفتن ، والعمل على نبذ الفضيلة والمُثُل الروحية ، ودعوة الناس إلى الانطلاق في غيٍّ شهواتهم ، والجري خلف نزواتهم؛ لتسهل السيطرة عليهم ، والإمساك بنواصيهم ، وقَهْرهم مع مرور الزمن.

وتتمثل الأيدي الخفية بالصهيونية العالمية؛ التي وضعت مخططاتها الأولية للسيطرة على الشعوب كافة ، في كتاب عنوانه: «بروتوكولات حكماء صهيون» ورأوا أنَّ إخضاع «الأمميِّين» لا بُدَّ أن يسبقه انحلالٌ في الأخلاق ، ودمارٌ لنظام الأسرة؛ وجَعْل الآخرين يلهثون وراء الإغراء الجنسي ، والشهوات الجامحة.

وتقف الصهيونيةُ مساندةً للأفلام الخليعة وترويجها ، والأزياء الفاضحة؛ بأشكالها المغرية ، إلى جانب المجلات الجنسية ، والقصص الغرامية ، والصور العارية ، فالصهاينة هم أعداء الأخلاق ، والقيم ، والأسرة ، وهم كما وصفهم ربُّ العزة جل جلاله بقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

أمّا الدوافع الرئيسة وراء هذا التخريب الأخلاقي لغزو بلاد المسلمين؛ فإنها ترجع إلى أمرين اثنين ، هما[١]:

* استلاب ثروات المسلمين من معادن وبترول ، وسلب أموالهم من عملة وذهب؛ حتى يستعينوا بها لبناء اقتصادهم ، وتقوية جيوشهم ، وإنعاش شعوبهم على حساب البلهاء والسذَّج.

* إفساد عقيدة المسلمين ، وطمس معالمهم ، وضياع دينهم بإبعادهم عن تعاليمه وقيمه.

وهكذا اندفعت الأصابعُ الخفية تطعن المسلمين في أعزِّ ما يعتصمون به ، أَلَا وهو الخُلُق الكريم ، والدِّين القويم ، فدفعوا بالباحثين كي يخرجوا على الناس بكلمات برّاقة ، ونظريات لامعة؛ لكنها تخفي في ثناياها الانفلات من الضوابط

---

(١) المرأة المسلمة أمام التحديات؛ لأحمد الحصين (٢٣٧).

والآداب ، وسرت تلك الموجات تترى متتابعة في العالم الإسلامي ، وكانت المعاناة شديدة ، والتأثر عميقاً ، والمحاكاة سلوكية مُحطِّمة.

وكل ذلك مذكور في «بروتوكولات حكماء صهيون» ، فنقرأ في البروتوكول الثاني: «لا تتصوروا أنَّ تصريحاتنا كلمات جوفاء ، ولاحظوا ـ هنا ـ أنَّ نجاح داروِن ، وماركس ، ونيتشه؛ قد رتَّبناه من قبل ، والأثرُ غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي ـ غير اليهودي ـ سيكون واضحاً لنا على التأكيد»[1].

وإنَّ مَنْ ينظر في كثير من الصحف والمجلات يجد أغلفتها وصفحاتها الأولى والأخيرة مفعمة بالصور العارية ، وإبراز مفاتن المرأة؛ لمخاطبة غرائز الشباب ، وجعل انفعالاتهم المكبوتة تتفجر على الدوام ، وبالتالي تتحطم الأخلاق ، وتنحلّ القيم في النفوس.

ولا نريد أن نسمي تلك الصحف والمجلات ، فهي معروفة من قِبَل القاصي والداني ، ويراها كلُّ ذي عينين ، حتى أمست تُعرض في الأسواق العامة ، والمحلات التجارية ، وبعض المكتبات دون حياء أو شيء من الحشمة.

إن الصحافة المسمومة نوعٌ من الغزو الفكري؛ الذي أراده أعداء الإسلام للمسلمين ، لتدمير أخلاقهم ، وشحن عقولهم بالثقافة الرخيصة ، وتسعير الثورة الجنسية في دواخلهم ، وبالتالي يندفعون لارتياد أماكن اللهو والأندية الماجنة ، والمواخير الفاسدة ، وهناك يفرغون ما في جيوبهم ، ويتحولون إلى لقمة سائغة بأيدي سماسرة الجنس وتجار الدعارة.

وتنبَّه الصهاينة إلى أهمية الصحافة ، ودورها في تكوين رأي واحد ، وتوجيه الناس نحو فكر مدروس مخطط ، ففي «بروتوكولات حكماء صهيون» نقرأ: «إن الصحافة التي في أيدي الحكومة القائمة هي القوة العظيمة التي بها نحصل على توجيه الناس. . . غير أن الحكومات لم تعرف كيف تستعمل هذه القوة بالطريقة الصحيحة ، فسقطت في أيدينا ، ومِنْ خلال الصحافة أحرزنا نفوذاً ، وبقينا نحن وراء الستار»[2].

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون (١٢٣ ـ ١٢٤).

(٢) المصدر السابق.

فوضى الغريزة الجنسية:

إن الغريزة الجنسية أمرٌ طبيعي ومقبول ، فهي من ضرورات الحياة الإنسانية ، ولا مجال لكبتها أو مَحْقها ، فهي إحساس يتماشى مع الفطرة السليمة ، ولا يحتاج الشعور بها إلى الاستعاذة ، أو تعليق التمائم ، أو فسح المجال لصراع نفسي رهيب.

ولم يسمح الإسلامُ لهاتف الرغبة الجنسية بالانفلات ، أو الانطلاق في أي اتجاه ، بل الأمرُ مضبوط بقواعد الشرع ، فهذا حلال وهذا حرام ، وهذا صحيح وهذا خطأ. وها هو الواقع والتاريخ يشهد بصدق النظرة الإسلامية ، ويؤكِّد نجاحها ، فهي تُوفِّق بين الواقع والمثال؛ ذلك أن الاستجابة الغريزية كانت تتمثل بالزواج ، وفي منتهى اليسر وغاية الطواعية ، دون إعنات يرهق الفرد ، ولا إحباط يقضي على نوازعه؛ إذ تعلَّم المسلمون من دينهم أن ينظروا إلى هذه الغريزة نظرة صادقة ، بحيث لا يضطر الفرد إلى التخفي ، أو الشعور بالصراع النفسي ، فالزواج هو الحل ، وأَمْره ميسور ، وهو يكفل للإنسان كفاية حاجاته الطبيعية ، وتجاوز الصعاب التي تقف في وجه الفطرة ، وتصادم ضرورات الإنسان[1].

وانقسم الناسُ أمام الحاجة الجنسية إلى اتجاهين ، هما:

الأول: إطلاق العِنان لنوازع الشهوة ، وتحريكها للاستجابة لغريزة الجنس؛ بشتى الوسائل المتاحة؛ ليعيش الناسُ حياة الصعلكة الغريزية ، والتشرد الجنسي.

الثاني: تنظيم العلاقات بين الجنسين ، وضبطها بضوابط محددة ، وحدود مقيَّدة؛ دفعاً للإباحية ، وطرداً للفوضى الجنسية ، وإحلالاً للسلم والسلام في نفس الفرد ، وحياة المجتمع.

ومَنْ يتحدث عن الشيوعية الجنسية؛ يتناسى أنها لم تكن يوماً قانوناً عاماً في مجتمع ما ، لأن الإباحية لا تصلح في نظر الجماعة الإنسانية ، على الرغم من أن

---

(١) الإسلام والمشكلة الجنسية؛ للدكتور مصطفى عبد الواحد (١٧).

بعضاً من الأفراد نادى بها على مرِّ التاريخ؛ كأفلاطون الذي أراد للجنود في جمهوريته أن يتجردوا من كل عاطفة غير العاطفة الوطنية؛ ليخلصوا لخدمة المجتمع ، فلا يشغلهم عن ذلك ارتباطات بأسرة أو بنين ، ومن هنا دعا أفلاطون إلى شيوعية النساء ، وإباحة الجنس للجنود.

وكذلك «كامبانلا» في كتابه «مدينة الشمس» دعا إلى أن تكون النساء حقاً مشاعاً لجميع الرجال ، إلا أنه دعا إلى إنشاء وزارة للشؤون الاجتماعية تُشرف على تنظيم الأمور الجنسية كيلا تؤدي شيوعة النساء إلى الفوضى[1].

فالفوضى الجنسية المطلقة لا تلائم أهداف الحياة الإنسانية ، ولا تستقيم مع نُظُم المجتمع ، وإن شذَّ بعض مدَّعي العلم في آرائهم ومعتقداتهم ، فهم شُذَّاذ آفاق ، وخارجون عن قوانين الجماعة ، وخصوم لدعاة الإصلاح ، والأسرة السعيدة.

وبين الآونة والأخرى يتناهى إلى سمع الناس أخبار عن الفوضى الجنسية ، وانتشارها دون رادع ، كنكاح الأم أو البنت أو الأخت وزوجة الأب (نكاح المحارم) وهذه ردّة في عالم النكاح؛ فزواج الأخت الشقيقة كان مباحاً عند الآشوريين والفرس والمصريين القدامى. وجاء في كتاب «زرادشت» أن اقتراناً كهذا من أفضل القُرَب. وكان الإسبرطيون يبيحون زواج الأخت لأم[2].

أما زواج البنت فقد جرى عليه الفرس والميديون[3].

وكان العبرانيون يبيحون زواجَ بنات الأخ والأخت[4]. وما يزال هذا المبدأ قائماً بينهم ، عند طائفة الربانيين (الربائيم) وهم سواد اليهود ، حيث يبيحون زواج الرجل بابنة أخيه ، وابنة أخته ، وابنة امرأة أبيه[5].

ونكاح زوجة الأب كان موجوداً في الجاهلية العربية ، إلا أن العرب كانوا

---

(١) الأسرة والمجتمع؛ للدكتور علي عبد الواحد وافي (٦٧ ـ ٦٨).
(٢) دائرة المعارف؛ للبستاني (٩/٣٣٨).
(٣) المرأة في التاريخ والشرائع؛ لمحمد جميل بيهم (١٧).
(٤) تاريخ الطبري (٢/١٢).
(٥) العقائد؛ لعمر عنايت (٨٠ ـ ٨٢).

يمقتون مثل هذا النكاح، ويُسمّونه: «الضَّيْزَن» ويتهمون فاعلَه بأنه يدين بالمجوسية، قال أوس بن حجر:

والفارسية فيكم غير منكرةٍ فكلكم لأبيه ضَيْزَنٌ سَلِفُ[1]

وفي العصر الحديث، كَثُر الاختلاط، وعمَّت الفتن، وظهر الفساد بين الجنسين، مما هدَّد كيان الأسرة، وحارب استقرارها وهناءتها، واستشرى أعداءُ الإسلام، ونشطوا لدعم الأهواء والشهوات؛ لتكون المرأة سهلة المنال، فيكسبون من وراء المتاجرة بها مبالغ طائلة، فانتشرت تجارة اللهو والترف، والبغاء، والمسكرات، والمخدرات، وكثرت الأفلام الخلاعية، والمجلات الفاحشة، والنتيجة: انهيار الأخلاق عند الذكر والأنثى، والبعد عن تحمُّل نتائج الزواج؛ لأن وسائل الفساد متوافرة، وأصول العربدة منتشرة، فَلِم الزواج وبناء الأُسَر؟!!

وإذا ما حصل حَمْل، فوسائل الإجهاض ميسورة؛ لأن القصد من الفوضى الجنسية إطفاء الشهوة، ونيل اللذة، وتسكين الغريزة، وهذا يتنافى مع بناء الأسرة، وإنجاب الأولاد.

جاء في النشرة الإحصائية لهيئة الأمم المتحدة لعام (١٩٥٩ م) ما نصُّه: إن العالم الغربي يُواجه مشكلة الحرام أكثر من الحلال في شأن المواليد، وأنَّ نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت إلى (٦٠٪) وأنها في بعض البلاد الأمريكية وصلت إلى (٧٥٪)[2].

وكل يوم تخرج بعضُ وسائل الإعلام بأخبار يندى لها الجبين؛ فمن مناداةٍ بممارسة المرأة لحريتها الجنسية كما تشاء ومع مَنْ تشاء!! ومِنْ دعوةٍ إلى جعل الدعارة أمراً طبيعياً كالطعام والشراب!! ومِنْ تسهيل إعطاء موانع الحمل؛ حرصاً على انتشار الإباحية دون وجود ذيول وتبعات لها.

وليتصوَّر الإنسان عاقبة ما يراه ويسمع عنه من خروج كثيرٍ من الناس عن ضوابط الشرع، والنظام الطبيعي للعلاقات الإنسانية، والنأي عن الفطرة

---

(١) ديوان أوس بن حجر (١٧).
(٢) المرأة المسلمة أمام التحديات (٩٣).

وما شرعته الأديان السماوية ، وقامت عليه المؤسسة الاجتماعية المتمثلة بالأسرة.

فالفوضى لا هَدَفَ لها سوى بذر الشقاق في المجتمع ، ونَشْر الشقاء النفسي ، والدمار الاجتماعي ، وتحوُّل الإنسان إلى صنف البهيمية ، والركض لتحصيل اللذة الجنسية ، مع أنها متوافرة ـ وبشكل يليق بالإنسان ـ في الزواج ، علاوةً على وجود العواطف النبيلة ، والمشاعر الحانية ، وارتفاع النفس إلى مرتبة الإيثار والتضحية.

أما الفوضى الجنسية فهروبٌ من الأعباء المترتبة على الزواج ، وإقرار لنظامٍ بلا حدود ، قوامه : الشرود عن الحق ، واختلاس الغريزة ، وتناهب النزوات ، فيزداد الطين بلّة ، ويُصاب المجتمعُ بانتشار الفاحشة ، والاستجابة للآثام.

عواقب وخيمة ونتائج مدمِّرة:

من غرائب السلوك البشري؛ أن طائفة من الناس هم الذين يأسرون أنفسهم في قيود اللُّهاث وراء اللذة الجنسية ، فهم يُوجِدُون المشكلة ، ويضعون حولها هالاتٍ من التقديس والدعاية والتزيين ، ويقنعون الآخرين بأن الجنس مشكلة ، وأن الحياة وسيلة لإرضاء الذات ، وفتح الأبواب مشرعةً لتحصيل وسائل الرغبة ، وتهييج الغرائز.

ويا للأسف أنَّ المرأة هي الفريسة والمصيدة ، فسرعان ما تشارك أولئك الموتورين في صراعهم مع الفضيلة ، فإذا بها تتبرَّج ، وتكشف عن محاسنها ، وتُقلِّد الغرب في الأزياء ، والتسريحات ، وطريقة الكلام ، والتلفظ ببعض الألفاظ الأجنبية ، مع كثيرٍ من الغُنْج والتكسُّر ، وهنا حدِّث بلا حرج عن أولئك الهلكى في شَرَك الفتنة ، وشباك المرأة الماجنة.

وقديماً كان المجون والفتنة والإغراء يصدر من الجواري ، لا سيما في العصر العباسي ، فنقرأ في كتب التاريخ والأدب أن الإدمان على المسكرات ، والتهالك على اقتناص اللذة كان يحدث في الخلوة ، وفي أماكن خاصة يرتادها أصحاب المجون والعبث.

وهذا الفساد الأخلاقي قاد إلى بروز الغزل المكشوف في معانيه ، والصريح

في ألفاظه ، والفاجر في اتجاهه ، وهو شعر يندى له الجبين؛ إذْ يُقاطع الأخلاق الحميدة ، ويجري صارخاً خلف الغريزة الشهوانية .

وفي العصر الحديث دخلت المرأة باسم الحرية الشخصية في أتون الاحتراق بنار المجون ، والسفور ، والمجاهرة بالمنكرات ، وقديماً جاء في المثل: «تجوعُ الحرةُ ولا تأكل بثديَيْها»[1] .

وكأن المرأة في استجابتها لمسلسل الخطايا ، تنشد مع أبي نواس:

يُلائمني الحرامُ إذا اجتمعنا وأَجْفُو عن مُلاءمةِ الحلالِ[2]

ولم تكن المرأة الحرة قديماً تشهد مجالس المجون ، أو تُطلب للهو والزنى ، بل كان الأمرُ متعلقاً بالجواري فحسب ، ونجم عن ذلك غزلٌ حسِّي بنوعيه: الصريح الفاحش وغير الفاحش «فالمرأة العربية الحرة لم تَعُدْ موضوعاً لهذا الغزل إلا في القليل النادر ، وذلك لكثرة الإماء والجواري والقيان ، وغزوهنَّ المجتمع غزواً لم يشهدْ له المجتمع العربيُّ مثيلاً ، فتقدَّم هؤلاء الصفوفَ ، وتنحَّت المرأةُ الحرة جانباً»[3] .

فالعجب ممن يدَّعي حرية المرأة ، كيف يلقي بها في مهاوي الردى؛ والاستجابة لنداء أشباه الرجال ، بما تعرضه من مفاتن أنثوية ، ومحاسن جسدية؛ فيجعلونها مُطاوِعة من غير خجل ، ومَرِنةً دون رادع؟!

إن حرية المرأة في عفَّتها وشرفها ، وقدرتها على امتلاك زمام أمورها ، فهي تذوب تحناناً ، ولكن على أولادها وزوجها ووالديها . وهي عفيفة ، لا يستطيع أحدٌ أن يخدش حياءها ، فهي تضنُّ بمكانتها السامية ، وتبخل ـ ويا نِعْمَ هذا البخل ـ بمحاسنها على الناس ، وتحتفظ بمفاتنها لزوجها وحده ، ولا تعرِّض نفسها لمواقف التُّهم والشبهات؛ لأنها عرفتْ ذاتها ، وأدركتْ ما يُراد بها ، فارتقت في عالم الخُلُق النبيل .

وقد صوَّر المؤرخ «ول ديورانت» الانفلات من قيود الأخلاق ، وبيَّن آثار ذلك

---

(١) جمهرة الأمثال (١/ ٢٥٩) والمستقصى (٢/ ٢٠) ومجمع الأمثال للميداني (١/ ١٢٢).

(٢) ديوان أبي نواس (٣٣).

(٣) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري؛ ليوسف بكار (١١١).

على الفرد والمجتمع ، فكانت الصورة واقعية كما في عصره. يقول[1]: «فحياة المدينة تفضي إلى كل مثبط عن الزواج ، في الوقت الذي تُقدِّم فيه إلى الناس كل باعثٍ على الصِّلة الجنسية ، وتُيسِّر كل سبيل يسهل أداءها. ولكن النمو الجنسي يتمُّ مبكراً عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادي ، فإذا كان قمع الرغبة شيئاً عملياً ومعقولاً في ظل النظام الاقتصادي الزراعي ، فإنه الآن يبدو أمراً عسيراً ، وغير طبيعي في حضارةٍ صناعية أجَّلت الزواجَ حتى بالنسبة للرجال ، فقد يصل إلى سنّ الثلاثين ، ولا مفرَّ من أن يأخذ الجسمُ في الثورة ، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان في الزمن القديم ، وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعاً للسخرية ، ويختفي الحياءُ الذي كان يضفي على الجمال جمالاً.

ثم يفاخر الرجالُ بتعداد خطاياهم ، وتطالب النساء بحقهنّ في مغامرات غير محدودة؛ على قدم المساواة مع الرجال ، ويصبح الاتصال قبل الزواج أمراً مألوفاً ، وتختفي البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة الشرطة. لقد تمزقتْ أوصالُ القانون الأخلاقي ، ولم يعدِ العالمُ المدني يحكم به.

ولسنا ندري مقدار الشر الاجتماعي الذي يُمكن أن يجعل الزواجَ مسؤولاً عنه ، ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر الظن في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية ، وما يحدث من إباحة بعد الزواج ، فهو في الغالب ثمرة التعوُّد قبله.

ولا يقلُّ الجانب الآخر من الصورة كآبة؛ لأنَّ الرجلَ حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكَّعن في ابتذال ظاهر ، ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة في هذه الفترة من التأجيل؛ نظاماً دولياً مجهزاً بأحدث التحسينات ، ومُنظَّماً بأسمى ضروب الإدارة العلمية ، ويبدو أن العالم قد ابتدع كلَّ طريقةٍ يمكن تصوُّرها لإثارة الرغبات وإشباعها...

حتى إذا سئمت فتاةُ المدينة الانتظار ، اندفعت بما لم يُسبق له مثيل في تيار المغامرات الواهية ، فهي واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية ، وهدايا من الجوارب ، وحفلات من الشمبانيا؛ في نظير الاستمتاع بالمباهج

---

(١) مباهج الفلسفة؛ لديورانت نقلاً عن قضايا المرأة؛ لمحمد الغزالي (٤٢ ـ ٤٣).

الجنسية ، وقد ترجع حريةُ سلوكها في بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية ، فلم تعد تعتمد على الرجل في معاشها ، وقد لا يُقبل الرجلُ على الزواج من امرأة برعتْ مثله في فنون الحب ، ولكن قدرتها على كسب دخلٍ حسن هو الذي يجعل الزوجَ المنتظر يتخلَّى عن تردُّده ، إذْ كيف يمكن أن يكفي أجره المتواضع للإنفاق عليهما معاً؛ في مستواهما الحاضر من المعيشة؟!».

وهذا الكلام قيل قبل سنين طويلة تبلغ السبعين ، فما بال المدنية الحاضرة ، والمرأة السافرة ، ودعاة التحضر والمدنية؟!

إن الصورة ازدادت قتامة وسواداً ، وتفتق عقلُ سماسرة المرأة عن أحابيل وحيل جديدة ، وبرعوا ـ بالتعاون مع الأشرار ـ في وَضْع المرأة ضمن قفص الرغبة الجنسية ، لا تتعدَّاها ، فهي الهدف والموئل والغاية المقصودة.

مآسي الزنى وثمرات الخطيئة:

أمام هذا الارتكاس والانتكاس والبهيمية ، ينتفخ الباطل ، ويُشْرَع التعري ، ويتساقط الجُهَّال في مستنقع الرذيلة ، حيث يتعرَّون من التقوى والحياء ، ويدَّعون أنهم أصحاب الحضارة والتجديد ، وما دروا ، أو أنهم يدرون لكنهم ينحرفون ، أن الإثم له عواقب غير محمودة ، وأن البغي عدوان على النفس الإنسانية ، والمجتمع البشري ، فمن انحرف عن الفطرة السليمة ، فقد تعرَّى عن مفاهيم العفة والحرية واحترام الآخرين.

أَلاَ فليدرك الذين يقبعون وراء سعار الفوضى الجنسية ، والتكشف السخيف ، أنهم ينحدرون في دركاتٍ لا قرار لها ، وأن نار الشهوة ستحرق أرواحهم ، وأن حملاتهم المسعورة على المرأة نذير بلاء وفتنة ، ومثار فجور وتبذل سافر ، لا يرعوي ذووه حتى يُقضى على البقية الباقية من الخير والصلاح والصواب.

والزنى جريمة كبرى ، وإباحة للغرائز كي تتفجر في غير مجراها ، وبالتالي لا يسلم المجتمع من النتائج المدمرة لهذا الفعل الإجرامي غير الأخلاقي ، الذي يهدُّ قوى الفرد والمجتمع ، ويُفني الطاقات ، ويعرِّي الفضيلة ، ويشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

الزنى فاحشة خطيرة:

حرَّم اللهُ عز وجل الزنى؛ لما فيه من الأضرار ، والمفاسد ، والمخاطر على الفرد والجماعة ، ولما يجرُّه من عواقب وخيمة على المجتمع كله ، ففي الزنى تضيعُ الأنساب ، وتُهتك الأعراض ، ويُعتدى على الحُرُمات؛ لذا قرنها اللهُ تعالى بالشرك وقَتْل النفس ، وجَعَل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف ، ما لم يُحْدِث العبدُ توبةً وإيماناً وعملاً صالحاً ، قال سُبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

فالزنى فاحشة خطيرة ، وعملٌ قبيح رديء ، وسبيل للهلكة والبوار والافتقار في الدنيا ، والعذاب والخزي والنكال في الآخرة ، وقد حذَّر القرآنُ من الزنى ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وربط القرآنُ الكريمُ بين الفلاح وحِفْظ الفرج ، فقال عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٧].

قال ابن قيم الجوزية[(١)]:

«وهذا يتضمَّنُ ثلاثةَ أمور: أنَّ مَنْ لم يحفظْ فَرْجَه لم يكن من المفلحين ، وأنه من الملومين ، ومن العادين ، ففاته الفلاحُ ، واستحقَّ اسمَ العدوان ، ووَقَع في اللوم ، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسرُ من بعض ذلك».

الزنى يجمعُ خِلالَ الشَّرِّ كلِّها:

عَقَد الإمامُ ابن القيم ـ رحمه الله ـ فصلاً خاصاً في كتابه «روضة المحبين» عدَّد فيه خِلالَ الشر التي تنتجُ عن الزنى ، فممَّا قاله:

«والزنى يجمعُ خِلال الشَّرِّ كلِّها ، من: قِلَّة الدِّين ، وذهاب الورع ، وفساد

---

(١) الداء والدواء (٢٦٥).

المروءة ، وقلَّة الغَيْرة ، فلا تجد زانياً معه ورعٌ ، ولا وفاءٌ بعهد ، ولا صدقٌ في حديث ، ولا محافظةٌ على صديق ، ولا غَيْرةٌ تامَّة على أهله. فالغَدْرُ ، والكذبُ ، والخيانةُ ، وقلَّةُ الحياء ، وعدمُ المراقبة ، وعَدَمُ الأنفة للحُرَم ، وذهابُ الغيرة من القلب؛ من شُعَبه وموجباته.

ومِنْ موجباته: غَضَبُ الرَّبِّ بإفساد حُرَمه وعياله ، ولو تعرَّضَ رجلٌ إلى مَلِكٍ من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة. ومنها: سوادُ الوجه وظلمته ، وما يعلوه من الكآبة والمقتِ؛ الذي يبدو عليه للناظرين. ومنها: ظلمة القلب ، وطَمْسُ نوره. ومنها: الفقر اللازم. ومنها: أنه يُـذْهِب حُرْمة فاعله ، ويُسْقِطُه من عين ربِّه ومِنْ أعين عباده. ومنها: أنه يسلبُه أحسنَ الأسماء ، وهو اسمُ العِفَّةِ ، والبرِّ ، والعدالة ، ويعطيه أضدادها ، كاسم: الفاجر ، والفاسق ، والزاني ، والخائن. . .

ومعصية الزنى لا تتمُّ إلا بأنواع من المعاصي قَبْلَها ومَعَها ، ويتولَّد عنها أنواعٌ أخرى من المعاصي بعدها ، فهي محفوفةٌ بِجُنْدٍ من المعاصي قبلها ، وجُنْدٍ بعدها ، وهي أجلبُ شيءٍ لشرِّ الدنيا والآخرة ، وأَمْنَعُ شيء لخير الدنيا والآخرة».

الزنى يُنافي الإيمان:

جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[1]. فَسَلَب عنه اسمَ الإيمان المطلق. قال ابنُ عباس: يُنْزَعُ منه نورُ الإيمان. وقال ابنُ حجر: قيّد نفي الإيمان بحالة ارتكابه لها ، ومقتضاه أنه لا يستمرُّ بعد فراغه ، وهذا هو الظاهر ، ويُحتمل أن يكون المعنى: أنَّ زوالَ ذلك إنما هو إذا أقلع الإقلاعَ الكلي ، وأمَّا لو فَرَغ وهو مُصِرٌّ على تلك المعصية ، فهو كالمرتكب ، فيتَّجه أنَّ نَفْيَ الإيمان عنه يستمرُّ.

وقال الحسن البصري ومحمد بن جرير الطبري: معناه: يُنزع عنه اسمُ المدح الذي سمَّى اللهُ به أولياءه ، فلا يُقال في حقّه مؤمن ، ويستحقُّ اسمَ الذم ، فيقال: زانٍ. والمعنى: المؤمن لا ينبغي له أن يفعل ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧).

وسُئِل جعفر بن محمد عن هذا الحديث ، فخطَّ دائرةً في الأرض ، وقال: هذه دائرةُ الإيمان ، ثم خَطَّ دائرةً أخرى خارجةً عنها ، وقال: هذه دائرة الإسلام ، فإذا زنى العبدُ خَرَج من هذه ، ولم يخرجْ من هذه.

حُـرْمَـةُ نساء المجـاهـديـن:

يخرجُ المجاهدون في سبيل الله ، ويتركون زوجاتهم أمانة في عُنُق المجتمع ، فعلى أفراده واجبُ حمايتهن من الأذى ، واحترامهنّ ، والكفّ عن إلحاق الأذى بهنّ ، وألا يُتَعَرَّضَ لهنَّ ، صَوْناً للكرامة ، وحفظاً للعَهْد.

إنَّ خيانةَ الغازي في أهله أعظمُ من كلِّ خيانة؛ وقد غلَّظ ﷺ هذه الجريمة النكراء ، وشدَّد فيها ، وأشار إلى أنَّ حُرْمة نساء المجاهدين على القاعدين كحُرْمة أُمَّهاتهم ، ومَنْ اعتدى عليهن فعقوبته في الآخرة شديدة ، وذلك بأنْ يُسَلَّطَ الغازي على حسنات المعتدي ، ويُمَكَّنَ منها ، حتى لا يُبْقِي له منها شيئاً ، ويكون مصيرُه إلى النار.

قال ﷺ: «حُرْمَةُ نساء المجاهدين كحرمة أُمَّهاتهم ، وما مِنْ رجلٍ من القاعدين يَخْلُفُ رجلاً من المجاهدين في أهله ، فيخونُه فيهم ، إلا وُقِفَ له يومَ القيامة ، فيأخذُ من عمله ما شاء ، فما ظنُّكم؟»[1].

وفي روايةٍ للنَّسائي: «يُقال: يا فلان! هذا فلان ، فَخُذْ من حسناته ما شئت» ثم التفتَ النبيُّ ﷺ إلى أصحابه ، فقال: «ما ظنّكم تَـرَوْنَ يَدَعُ له من حسناته شيئاً؟!»[2].

وقد صوَّر ﷺ المعتدي على حُرُمات المجاهدين أبلغَ تصوير ، من خلال صورةٍ بشعة؛ تحذيراً لمن امتلك نَفْساً مريضة ، واقتنص فرصة غياب المجاهدين عن بيوتهم ، فإذا بهذا المعتدي يتعرَّضُ للنساء ، ويُصْدِرُ أصواتاً كصوت التيس عند السِّفاد... وقد حذَّر ﷺ هذا الفاعلُ بأشد العقوبات من التنكيل ، والإساءة ، والرجم للمحصن ، والجلد لمن لم يحصن.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٥٢ ـ ٣٥٥) ومسلم (١٨٩٧) وأبو داود (٢٤٩٦).

(٢) رواه النسائي (٦/ ٥٠).

فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قام رسولُ الله ﷺ من العشيِّ فقال: «أَوَ كُلَّما انطلقنا غزاةً في سبيل الله تَخَلَّفَ رجلٌ في عيالنا، له نبيبٌ كنبيب التيس، عليَّ ألاَّ أُوتى برجلٍ فَعَل ذلك إلا نَكَّلْتُ به»[1].

حُرْمة نساء الجيران:

إنَّ أذى الجيران ذنبٌ كبير، وشَرٌّ مستطير، يُخْرِجُ صاحبَه من دائرة الإيمان الكامل، ويُعرِّضه لعذاب الله ونقمته؛ فأذيَّةُ الجار تُحْبِطُ ثوابَ العمل الصالح، وتنزعُ عن الإنسان أثواب المروءة، والرجولة، والشهامة.

ونحن نعلمُ علماً يقينياً أنَّ الإسلامَ حرَّم الزنى تحريماً شديداً، وأوجب لمن يرتكب هذه الفاحشة الحدَّ المنصوصَ عليه، وهذه الجريمةُ أشدّ فظاعة، وأكثر إثماً، وأعظم ذنباً إذا ارتُكِبَتْ بحقِّ الجيران؛ لأنَّ إيذاء الجار يُضاعَفُ العذابُ عليه، فهو إيذاءٌ، وخيانةٌ، وجحود.

ولنستمع إلى هذا الحوار النبوي مع الصَّحْب الكرام في هذا الموضوع. قال ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزِّنى؟».

قالوا: حرامٌ حرَّمه اللهُ ورسولُه، فهو حرامٌ إلى يوم القيامة.

قال عليه الصلاةُ والسَّلام: «لأن يزنيَ الرجلُ بِعَشْر نِسْوةٍ أَيْسَرُ عليه مِنْ أن يزنيَ بامرأةِ جاره»[2].

فخيانةُ الجار أشدُّ عقوبة عند الله بعشرة أضعاف لو ارتُكِبَتْ بحقِّ غيره.

والزاني بحليلةِ جاره لا ينظر اللهُ تعالى إليه يوم القيامة، ولا يزكّيه، قال ﷺ: «الزاني بحليلةِ جاره لا ينظرُ اللهُ إليه يوم القيامة، ولا يُزكّيه، ويقول: ادْخُلِ النَّارَ مع الداخلين»[3].

---

(١) رواه أحمد (٥/١٠٣) ومسلم (١٦٩٤/ ٢٠) وأبو داود (٤٤٣٢).
(٢) رواه مسلم (٢٦٢٦).
(٣) رواه الخرائطي في مساوىء الأخلاق رقم (٤٨٥) والديلمي في مسند الفردوس (٣٣٧١) وانظره في فيض القدير (٤/ ٧٠).

وفي هذا عقوبة أليمة للزاني، ووعيد شديد لمن تُسوِّلُ له نَفْسُه المريضة التعدِّي على حُرُمات الجوار.

شناعةُ زنى الكبير في السِّنِّ:

من المعلوم أنَّ الزنى جريمة اجتماعية، وفاحشة خبيثة، وكبيرة من أعظم الذنوب، يتطلَّعُ إليها ذو الغريزة المسعورة، والنظرة البهيمية، حينما يقعُ في أعراض الناس، ويكون مُفْسِداً وشريراً بآن واحد.

وفي الغالب يقوم بهذه الجريمة من يمتلك قوَّة، وشباباً، وغنى، وقدرة جسمية... أمَّا أن يقترفَ هذا العمل الشائن رجلٌ عجوز، تقدَّمتْ به السن، وبلغ من الكبر عِتِيّاً، وكان عاقلاً، عركته الحياة، وقَرُب أَجَلُه، وضعفتْ لديه داعيةُ النكاح، عند ذلك يكون ضالاً أشدَّ الضلال إن أقدم على جريمة الزنى! فهو عند ذلك ميَّالٌ إلى المعصية، مُعَانِدٌ للحق، مُسْتَخِفٌّ بالقيم، والمُثُل، والأخلاق، غَيْرُ مُعْتَبِر بما وَقَفَ عليه، ووصل إليه، فهذا عقوبتُه شديدة؛ إذ يُعْرِضُ اللهُ عز وجل عنه، ولا يرحمه، بل يُعذِّبُه العذابَ الأليم.

قال ﷺ: «ثلاثةٌ لا يكلمهم اللهُ يومَ القيامة، ولا يزكِّيهم، ولا ينظرُ إليهم، ولهم عذابٌ أليم: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذَّاب، وعائِلٌ مُسْتَكْبِر»[1].

وجاء الوعيدُ لهذا الشيخ الزاني بقوله ﷺ: «لا يدخلُ الجنَّةَ مسكينٌ مستكبر، ولا شيخٌ زانٍ، ولا مَنَّانٌ على الله بعمله»[2].

وعن بُرَيْدَةَ، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ السَّموات السبع، والأرضين السَّبْع، لَـتَـلْعَنُ الشيخَ الزاني، وإنَّ فروجَ الزُّناةِ ليؤذي أهلَ النارِ نَـتَـنُ رِيحها»[3].

وعن ابن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا ينظرُ اللهُ إلى الأُشَيْمِطِ الزاني، ولا العائِلِ المَزْهُوِّ»[4].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٣٣ ـ ٤٨٠) ومسلم (١٠٧) والنسائي (٥/ ٨٦).
«عائل»: صاحب عيال.
(٢) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٦/ ٢٥٥).
(٣) رواه البزار كما في كشف الأستار (١٥٤٨).
(٤) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٦/ ٢٥٥).

تحريم الزِّنى بالمحرَّمات:

ثمة أناس لا خَلاَق لهم ، جَنَحُوا عن جادة الفطرة ، وانتكسوا في وُحُول الرَّذيلة ، وماتتْ عندهم الغَيْرة ، فإذا بهم لا يُحلِّلون ولا يُحرِّمون ، يعتدون على نساء المسلمين ، ويزيدون الطين بلَّة باعتداءاتهم على أقربائهم ، وأخواتهم ، وبناتهم ، وأمهاتهم!!

وهم في هذا التجاوز الخطير لا بُدَّ من عقوبةٍ رادعةٍ لهم ، تستأصلُ شأفةَ الرذيلة من المجتمع ، وتقطعُ دابر الشر أينما كان.

عن البراء بن عازب قال: لقيتُ عمي ومعه الراية ، فقلتُ: إلى أين تريد؟ قال: بعثني رسولُ الله ﷺ إلى رجل نكَحَ امرأةَ أبيه مِنْ بَعْدِه؛ أن أَضْرِبَ عُنُقَهُ ، وآخُذَ ماله[1].

وعن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ وَقَع على ذات مَحْرَمٍ فاقْتُلُوه»[2].

وعن عبد الله بن مطرف قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ تخطَّى حَرَمَ المؤمنين فَخُطُّوا وَسَطَهُ بالسيف»[3].

قال ابن قيم الجوزية في كتابه الداء والدواء[4]: اتفق المسلمون على أنَّ مَنْ زنى بذات محرمه فعليه الحدُّ ، وإنما اختلفوا في صفة الحدِّ ، هل هو القتلُ بكلِّ حال ، أو حدُّه حدُّ الزاني؟ على قولين:

فذهب الشافعي ومالك وأحمد ـ في إحدى روايتيه ـ أنَّ حَدَّه حدُّ الزاني.

وذهب أحمد وإسحاق وجماعة من أهل الحديث إلى أنَّ حدَّه القتلُ بكلِّ حال.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٩٥) وأبو داود (٤٤٥٧) والترمذي (١٣٦٢) والنسائي (٦/ ١٠٩ ـ ١١٠) وابن ماجه (٢٦٠٧).

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٠٠) والترمذي (١٤٦٢) وابن ماجه (٢٥٦٤).

(٣) ذكره الرازي في علل الحديث (١/ ٤٥٦) والطبري في تهذيب الآثار ، السفر الأول رقم (٨٨٧ ـ ٨٨٨ ـ ٨٨٩).

(٤) (ص ٣٠٢ـ٣٠٣).

عقوبة الزاني في الدنيا والآخرة:

١ ـ في الدنيا:

كان حَدُّ الزِّنى في أول الإسلام؛ بأن تُحْبَسَ المرأة، ويُعَيَّر الرجلُ ويُؤْذَى بالقول، وذلك واضحٌ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥ ـ ١٦]. ثم نُسِخ هذا الحُكْمُ بقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ [النور: ٢].

فَحَدُّ المحصن ـ المتزوِّج ـ الرَّجم بالحجارة حتى الموت، وحَدُّ البكر ـ غير المتزوِّج ـ جَلْده مئة جلدة، وتغريبه مدّة عام عن بلده.

ولكن هل تُغَرَّبُ المرأة؟ قال الشافعي وأحمد: إن النفيَ عامٌّ للرجال والنساء، فَتُغَرَّبُ المرأةُ مع محرم، وأجرته عليها.

وقال ابن كثير: يُغرَّبُ عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ فإنَّ عنده أن التغريبَ عائدٌ إلى رأي الإمام، إن شاء غَرَّب، وإن شاء لم يُغَرِّبْ.

يقول الشيخُ السايس في كتابه: «تفسير آيات الأحكام»:

«ويمكن الجمعُ بين هذه الأخبار بإبقاء الآية على حُكْمها، وأنَّ الجَلْدَ هو تمامُ الحدِّ، وجعل النفي على وَجْه التعزير. ويكون النبيُّ ﷺ قد رأى في ذلك الوقت نَفْيَ البكر لأنهم كانوا حديثي عَهْدٍ بالجاهلية، فرأى رَدْعَهم بالنفي بعد الجَلْد، كما أمر بشقّ روايا الخمر، وكَسْر الأواني؛ لأنه أبلغُ في الزجر، وأحرى بقطع العادة».

٢ ـ في الآخرة:

جاءت الأحاديثُ النبوية تُحذِّر من الزنى، وتُبيِّن عقوبتَه في الآخرة، ومن تلك الأحاديث:

* عن سمرةَ بن جُنْدُب، عن النبي ﷺ قال: «رأيتُ الليلةَ رجلين أتياني فأخرجاني

إلى أرضٍ مُقَدَّسة. . .» فذكر الحديث إلى أن قال: «فانطلَقْنا إلى ثُقْبٍ مثل التـنُّور، أعلاه ضَيِّق، وأسفلُه واسع، يتوقَّدُ تحته ناراً، فإذا ارتفعت ارتفعوا؛ حتى كادوا أن يخرجوا، وإذا أُخْمِدَتْ رَجَعُوا فيها، وإذا فيها رجالٌ ونساءٌ عُراةٌ. . .» وفي آخره: «وأمَّا الرجالُ والنساءُ العُراةُ الذين هم في مَثْل بناء التنُّور، فإنهم الزُّناةُ والزَّواني»[1].

* وعن أبي موسى: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنة: مُدْمِنُ الخمر، وقاطع الرَّحِم، ومُصَدِّق بالسِّحْر. ومَنْ ماتَ مُدْمِنَ الخَمْرِ سَقَاهُ اللهُ جلَّ وعلا مِنْ نَهْر الغُوطة» قيل: وما نَهْرُ الغُوطة؟ قال: «نَهْرٌ يجري مِنْ فُروج المومسات، يُؤْذي أهلَ النارِ رِيْحُ فُـرُوجهم»[2].

* وعن أبي أُمامة الباهلي قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «بَيْنا أنا نائمٌ أتاني رجلان، فأخَذَا بِضَبْعَيَّ، فأتيا بي جَبَلاً وَعْراً، فقالا: اصْعَدْ. . .» وفيه: «فإذا أنا بقوم أشدّ شيءٍ انتفاخاً، وأَنْتَنه رِيْحاً، كأنَّ رِيْحَهُمُ المراحيضُ، قلتُ: مَنْ هؤلاء؟ قالا: هؤلاء الزَّانون والزَّواني»[3].

كلمات مضيئة:

قال ابنُ قيِّم الجوزية في كتابه: «الداء والدواء»: خَصَّ سُبحانه حَدَّ الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات، وحيث خَفَّفه جَمَع فيه بين العقوبة على البدن بالجَلْد، وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهى عبادَه أن تأخذَهم بالزُّناة رأفة في دِيْنه، بحيث تمنعهم من إقامة الحدّ عليهم؛ فإنه سُبحانه مِنْ رأفته ورحمته بهم شَرَع هذه العقوبة، فهو أرحم بهم، ولم تمنعه رحمتُه من أَمْره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أَمْره. وهذا، وإن كان عاماً في سائر الحدود،

---

(1) رواه البخاري (١٣٨٦ ـ ٢٧٩١ ـ ٧٠٤٧).

(2) رواه أحمد (٤/ ٣٩٩) وأبو يعلى في مسنده (٧٢٤٨) وابن حبان في صحيحه (٥٣٤٦ ـ ٦١٣٧) والحاكم (٤/ ١٤٦).

(3) رواه ابن خزيمة (١٩٨٦) وابن حبان في صحيحه (٧٤٤٨) والحاكم (١/ ٤٣٠).

ولكن ذُكِر في حَدِّ الزنى خاصَّةً؛ لشدَّة الحاجة إلى ذِكْره ، وإن الناسَ لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق ، والقاذف ، وشارب الخمر ، فقلوبهم ترحمُ الزاني أكثر مما ترحمُ غيرَه من أرباب الجرائم ، والواقعُ شاهدٌ بذلك ، فَنُهُوا أن تأخذهم هذه الرأفةُ ، وتحملهم على تعطيل حَدِّ الله .

الثالث: أنه سُبحانه أَمَر أن يكون حَدُّهما بمشهدٍ من المؤمنين ، فلا يكون في خلوةٍ بحيث لا يراهما أحد ، وذلك أبلغُ في مصلحة الحدِّ ، وحكمة الزَّجْر .

وقال الزمخشري في تفسيره «الكشاف» :

الصَّحيحُ أن هذه الكبيرة ـ الزنى ـ من أُمَّهات الكبائر؛ ولهذا قَرَنها اللهُ بالشِّرْك ، وقَتْلِ النفس في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان : ٦٨] وفي قوله : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء : ٣٢] ولذلك وفَّى اللهُ فيه عَقْد المئة بكماله ، وشرع فيه القَتْلَةَ الـهُـوْلَـةَ [1] ، وهي الرجم ، ونَهَى المؤمنين عن الرأفة بالمجلود ، وأَمَر بشهادة الطائفة للتشهير ، فوجَبَ أن يكونَ طائفةٌ يحصلُ بها التشهير ، والواحد والاثنان ليسوا بتلك المثابة ، واختصاصه المؤمنين؛ لأنَّ ذلك أفضح ، والفاسق بين صُلَحاء قومه أخجل ، ويشهدُ له قولُ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : أربعة إلى أربعين رجلاً من المصدِّقين بالله .

وقال الشيخ محمود حجازي في «التفسير الواضح» : إنَّ الزنى ينشأ غالباً وللمرأة فيه الضّلع الأكبر ، فخروجُها سافرةً ، مُتبرِّجةً ، متزيِّنةً ، داعيةً لنفسها بشتّى الوسائل المغرية من أصباغ ، وعطور ، وملابس ضيِّقة ، ونظرات كلّها إغراء للشباب ، وفتنة ، فهذه كلها حبائل الشيطان .

وليس معنى هذا أنَّ الرجالَ بريئون ، بل عليهم قِسْطٌ كبيرٌ في الجرم ، وقسطُ المرأة أكبر؛ ولهذا قدَّمها تعالى على الزاني .

وقال الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه : «الحلال والحرام في الإسلام» :

---

(١) «الهُولَة» : العجب ، وكلّ ما هالك .

لا عجب إذا رأينا أنَّ الأديانَ السَّماوية كلَّها مُجْمِعَةٌ على تحريم الزِّنى ، ومحاربته ، وآخرها الإسلام الذي شَدَّد النَّـهْيَ عنه ، والتحذيرَ منه؛ لِما يُؤدِّي إلى اختلاط الأنساب ، والجناية على النَّسْل ، وانحلال الأُسَر ، وتفكُّك الروابط ، وانتشار الأمراض ، وطغيان الشهوات ، وانهيار الأخلاق ، وصَدَق اللهُ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

والإسلامُ إذا حَرَّم شيئاً سَدَّ الطُّرُقَ الموصِلة إليه ، وحَرَّم كلَّ ما يفضي إليه من وسائل ، ومُقدِّمات.

فما كان مِنْ شأنه أن يستثيرَ الغرائزَ الهاجعة ، ويفتحَ منافذَ الفتنة على الرجل أو المرأة ، ويغري بالفاحشة ، أو يقرب منها ، أو يُيَسِّر سبيلها؛ فإنَّ الإسلامَ يَنْـهَى عنه ، ويُحرِّمه؛ سَدّاً للذَّريعة ، ودَرْءاً للمفسدة.

مِـنْ وَحْـي التـفاسيـر:

شدَّد الإسلامُ في عقوبة الزِّنى بوصفه نكسة حيوانية ، تذهبُ بكلِّ المعاني الإنسانية الراقية ، وتطيحُ بكلِّ الأهداف العليا ، وتردُّ الكائنَ الإنسانيَّ مسخاً حيوانياً ، لا يُفَرِّقُ بين أنثى وأنثى ، ولا بين ذَكر وذَكرٍ. . . مسخاً كلُّ همِّه إرواء جوعة اللحم والدم في لحظة عابرة ، فإن فرّق وميّز فليس وراء اللذَّة بناءٌ في الحياة ، وليس وراءها عمارةٌ في الأرض ، وليس وراءها نتاج ولا إرادة نتاج! بل ليس وراءها عاطفة حقيقية راقية؛ لأنَّ العاطفةَ تحملُ طابعَ الاستمرار ، وهذا ما يفرِّقها من الانفعال المنفرد المتقطع؛ الذي يحسبه الكثيرون عاطفة يتغنّون بها ، وإنما هي انفعالٌ حيواني يتزيَّا بزيِّ العاطفة الإنسانية في بعض الأحيان!

والزِّنى يُجرِّدُ الميلَ الفطريَّ من كلِّ الرفرفات الروحية ، والأشواق العلوية ، ومن كلِّ الآداب التي تجمَّعتْ حول الجنس في تاريخ البشرية الطويل ، ويبدو عارياً غليظاً قذراً كما هو في الحيوان ، بل أشدّ غلظاً من الحيوان.

إن دَفْع هذه النكسة عن الإنسان هو الذي جَعَل الإسلامَ يُشدِّدُ ذلك التشديد في عقوبة الزنى ، وذلك بسبب الأضرار الاجتماعية من: اختلاط الأنساب ، وإثارة الأحقاد ، وتهديد البيوت الآمِنة المطمئنة. . . وكلُّ واحدٍ من هذه الأسباب يكفي

لتشديد العقوبة ، ولكن السبب الأول ، وهو دَفْعُ النكسة الحيوانية عن الفطرة البشرية ، ووقاية الآداب الإنسانية التي تجمَّعتْ حول الجنس ، والمحافظة على أهداف الحياة العليا من الحياة الزوجية المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد. . . هذا السببُ هو الأهم ، وهو الجامعُ لكلِّ الأسباب الفرعية الأخرى.

والذين يرتكبون هذه الفعلة لا يرتكبونها وهم مؤمنون ، إنما يكونون في حالةٍ نفسيَّةٍ بعيدةٍ عن الإيمان ، وعن مشاعر الإيمان. . . وبعد ارتكابها لا ترتضي النفسُ المؤمنةُ أن ترتبط في نكاحٍ مع نَفْسٍ خرجتْ عن الإيمان بتلك الفعلة الشنيعة؛ لأنها تنفرُ من هذا الرباط ، وتشمئزّ ، فَطَبْعُ المؤمن ينفر من نكاح الزانية ، وطبع المؤمنة ينفر من نكاح الزاني ، وبالتالي يستبعدُ قيام ذلك الرباط ﴿ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٣] وبذلك تُقْطَعُ الوشائجُ التي تربطُ هذا الصِّنْف المدنَّس من الناس بالجماعة المسلمة الطاهرة النظيفة.

واجب الأمة الإسلامية تجاه الثورة الجنسية:

إنَّ المتتبِّع لوضع المرأة في الأمة ، يجدها في وضعَيْن ، كلاهما ينذر بالشر والفساد ، ويدلُّ على جهل مقيت ، وعمى عن فَهْم وظيفة المرأة في المجتمع.

فالأول: أغلق على المرأة كل منافذ العلم والرقي ، وجعلها قابعة في زاوية الإهمال والنسيان ، فهي كالمتاع لا قيمة له ، ولا إحساس ، ولا رأي ، فكأنها خُلِقت تابعة دون تفكير ، فهي رهينة المحبسين: البيت والجهل.

وكم سمعنا ممن يدَّعي حيازة العلم من أطرافه؛ أن المرأة يحق لها أن تخرج من البيت مرتين في العمر ، المرة الأولى: من بيت أهلها إلى بيت زوجها ليلة زفافها ، والمرة الثانية: من بيت زوجها إلى القبر بعد وفاتها!

وكم من داعية جاهل يرفع عقيرته ليصرخ: خُلِقت المرأة للإنجاب ، فلا ضرورة لأن تتعلم ، وتنشط اجتماعياً ، وتنال الثواب في دعوتها إلى الله عز وجل!

ولعلَّ بعض أنصاف المتعلمين تقع أبصارهم على بعض الأخبار الباطلة ، فيتمسكون بها تمسُّك الغريق بالقشة ، كالخبر الذي رُوي عن عمر بن الخطاب

ـ رضي الله عنه ـ: لا تُسْكِنُوا نساءكم الغُرَف ، ولا تُعلِّموهن الكتابة[1] .

وهذا خبر مردود ، فعمر بن الخطاب رجل علم ودراية ، وهو يدرك أن الأمة لا تتقدم إلا بالمعرفة والاطلاع والتجربة العلمية والعملية ، وقد سمع قوله عز وجل: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

والوضع الثاني للمرأة: يتمثَّل في إطلاق حريتها المزعومة ، بجعلها تسعى بين أهل الفسوق والضلال ، وتنخدع بمظاهر الحضارة الحاضرة ، فتتبرَّج ، وتختلط بمسوِّغ وبغير مسوِّغ ، فتسيطر عليها الشهوات ، وتُظلم الأسر ، ويشقى الرجل ، وتضيع المرأة حين تتراءى أمامها وسائل الإغراء الجذّابة ، والمثيرات الجنسية ، والإعلانات الفاضحة ، فتتلاشى الأخلاق رويداً رويداً ، وتشتعل فتائل النزوات في تفاقم مستمر ؛ مما يُكوِّن خطراً لا يستطيع أحدٌ أن يتوقع نتائجه الفاسدة .

وكلا الوضعين يُنذر بالشر ، ويترك المرأة حائرة ، ضائعة بين الجهل والتفلُّت ، وتتعالى الصيحات لتدارك الأمر ، وإيجاد الحلول المناسبة قبل وقوع الكارثة .

وكان موقف الإسلام من الغريزة الجنسية موقفاً واضحاً ، فندَّد الإسلامُ بالرهبانية ، وشجب الإباحية ، وأتاح لهذه الغريزة أن تحقق دورها المأمول في استدامة الحياة ، واستمراريتها ، بكل حب ووداد وسكينة ورحمة .

أما الغرب فعاشوا النقيضين ؛ الرهبانية والإباحية ؛ لذا كثر عندهم الانحراف الجنسي ، والنهم الشهواني ، والأمراض التي ما عُرِفت من قبل ، وكان ذلك نتيجة للبعد عن الدين والخُلُق الكريم ، حيث اهتم الغربُ بالشهوة الجنسية ، وأعطوها من العناية أكثر مما تستحق ، وجعلوها في أولوية الحقوق ، فنشروا الاختلاط المطلق دون قيود ، وتوجَّسوا من المتدينين ، وبالغوا في زجِّ المرأة في أتون الحياة ، ونتج عن ذلك تمرُّدٌ على الفضيلة ، وعدوان على الحق العام ، وعلى المجتمع كله .

---

(١) مجمع الأمثال (٤/ ٥١).

ومن يبحث عن الحلِّ يجد أن الزواج الرشيد هو الحلُّ الفذّ للمشكلة الجنسية المتفاقمة ، فالزواجُ الشرعي صلة نبيلة بين الذكر والأنثى؛ لتكوين الأسرة ، وتربية الأولاد ، وإعدادهم لبناء المجتمع بناءً صالحاً طاهراً زكيّاً ، فالزواج ينشر العفاف ، ويقضي على التفلُّت ، ويحمي الأعراض ، ويُعلي من مكانة المرأة؛ فانتهاك الأعراض يتساوى مع الشرك وإزهاق الروح ، أما المؤمنون فأخلاقهم تتنافى مع الفواحش ، وسلوكهم يعارض اللهو المقيت ، والانفلات الجنسي المسعور.

قال عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا. . . ﴾ [الفرقان : ٦٨ ـ ٧٠].

قال محمد الغزالي :

«كما تحاربُ الأمةُ المسلمةُ الكبيرةَ الأولى ـ وهي الشرك بالله ـ والكبيرة الثانية ـ وهي قتل النفس ـ التي صانها الله ، يجب أن تحارب الفاحشة الأخرى.

وحَرْبُها لا يكون بالكَبْت الدائم ، أو بفرض الرهبانية سنين عدداً ، على مَنْ يستحيل عليه قبولها. . . كلا ، كلا. فهذه علاجاتٌ لا تزيد الأمة إلا خبالاً.

وأمتنا تسكتُ الآن عن الفواحش التي يرتكبها الشباب المسعور ، وتفترض في حياة كل شاب بضع سنين يقضيها في اللهو الحرام قبل أن يظفر بنكاح صحيح.

إنـه ـ لكي يشيع الزواج بدل أن تشيع الفاحشة ـ لا بُـدَّ أن تُزاح من أمامه العوائق المصطنعة ، وأن تتعاونَ الأمة والدولة على جعل عَقْده حَدَثاً مُحبَّباً للأطراف التي تتَّصل به جميعاً ، لا حادثة تلاحقها الأزمات والضوائق القابضة. . .

والمجتمع الذي ننشده يُؤسَّس ـ قبل كل شيء ـ على الضمائر اليقظة ، والفضائل القوية ، والحراسة المشدَّدة من الرأي العام ، والقوى الحاكمة جميعاً. . .

وحبذا لو دَرَسَ المسلمون كيف انتظمت العلاقاتُ بين الجنسين في الصدر الأول ، وكيف اجتمع أفراد الأسرة كلهم في ساحة المسجد طَرَفي النهار وزُلَفاً من الليل»[1].

* * *

(١) ليس من الإسلام ، لمحمد الغزالي (٢٤٦ ـ ٢٤٩).

ثانياً ـ الغزو الفكري

لم يقتصر الاستعمار الغربي على الغزو المادي المسلَّح ضد المسلمين ، بل استخدم الغزو الفكري والنفسي والخُلُقي عن طريق أُجرائه؛ الذين قاموا بدور خبيث في تحطيم المرأة ، وتحويلها إلى سلعة ، تحت ستارٍ كثيف من المبادىء الإنسانية ، وأثاروا الشبهات؛ لإفساد الدين والقيم. وكان هذا الغزو الفكري له أخطار فادحة؛ لأنه أفسد المفاهيم ، وأوجد مزالق خطيرة ، وهزَّ النفوس من الأعماق ، وأنشأ مشكلات كبرى ، وتعاونت في ذلك أجنحةُ المكر : الاستشراق والتبشير والاستعمار بأنواعه وأشكاله ، ومن ورائهم الصهيونية العالمية ، ودسائسها ، وكيدها.

وكان العداءُ واضحاً ، والصراع ممتداً بين الحق والباطل على مدى أزمان وأعوام ، وهو صراع مستمر ، لا يخفى على أحد ، حيث يستخدم فيه الأعداء كل ما يملكون للصد عن سبيل الله تعالى ، ولن يرضوا دون تحقيق هذا المطلب. قال تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة : ٢١٧].

وقال عز وجل : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة : ١٢٠].

وكانت الحملاتُ الصليبية بدايةَ غزو مادي سياسي اقتصادي ضد المسلمين ، عبر محاولةٍ لإخراج الذين آمنوا عن دينهم ، والانتقام من تماسكهم وتعاضدهم ، ولكن الله سبحانه ردَّ كيد المعتدين بعد جهادٍ طويل تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي ، حيث دَفَع غاراتهم ، وهاجم حصونهم وقلاعهم ، وكان أعظم انتصار له على الصليبين «يوم حطين» ثم افتتاح القدس سنة (٥٨٣ هـ).

فأيقن الصليبيون أن المسلمين مهما عانوا من الضعف والتفرق والتمزق ، فلن

يستطيع أحد أن يستمر في الاعتداء عليهم ، والنيل منهم؛ فسرعان ما تجتمع القوى ، ويُرأب الصدع ، وتكون الكرة لهم ، ففكَّر الأعداءُ بغزو جديد؛ يحققون مبتغاهم من خلاله ، وكان لهم ذلك عن طريق الاستشراق وغيره[١] .

وأُطْلِق الاستشراقُ على الدراسات التي قام بها غير الشرقيين لعلوم الشرقيين ، ولغاتهم ، وأديانهم ، وتاريخهم ، وأوضاعهم الاجتماعية ، ونحو ذلك[٢] .

وكان للمستشرقين وسائل كثيرة لتحقيق أهدافهم ، وبثِّ آرائهم ، ومنها: تأليف الكتب في موضوعات مختلفة حول الإسلام وتاريخ المسلمين ومجتمعاتهم ، وهنا قاموا بالتحريف والتشويه والتضليل ، ونأوا عن الأمانة العلمية في بحوثهم وتفسيراتهم واستنباطاتهم. كذلك قاموا بإصدار المجلات ، ونشروا فيها بحوثهم حول الإسلام والمسلمين ، وألقوا المحاضرات ، ودسُّوا فيها سموم أقوالهم وتفكيرهم ، فحققوا أهدافاً رسموها ، وغايات أرادوا الوصول إليها. كما أنشؤوا «الموسوعة الإسلامية» وفيها السم في الدسم ، ومن المخزي أنَّ كثيراً من الباحثين المسلمين يعتبرونها مرجعاً موثوقاً ، وحجة قوية ، مع أنها تتهاوى في كثير من الآراء والموضوعات تحت مطارق البحث ، وسندان الحقائق.

وتعاون الاستعمار مع الاستشراق في بثّ الضلالات الفكرية ، وإفساد المفاهيم ، وتحريف الضوابط ، وفكّ الروابط الاجتماعية ، وربط المسلمين ـ ذكرانهم وإناثهم ـ بقيود ضاغطة من الشهوات ، وحرية الأهواء ، والحديث عن التقدم وشروطه ووسائله ، فإذا بالنفوس الضعيفة تجد مُتنفَّساً لها في عادةٍ جانحة ، أو سلوك شائن ، أو رغبة جامحة ، أو شهوة ضاغطة ، أو الجري وراء مفهوم منحرف عن جادة الحق ، ومنهج الصواب والفضيلة.

وبثَّ الاستعمارُ وعملاؤه التضليل الفكري في المدارس ، والمعاهد العلمية ، والجامعات ، والأندية ، ومراكز التوجيه والإرشاد ، والجمعيات على

---

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي؛ لعلي جريشة ومحمد الزيبق (١٦).
(٢) أجنحة المكر الثلاثة؛ لعبد الرحمن حبنكة (٨٣).

اختلاف مستوياتها وأنواعها ، وعشَّش في وسائل الإعلام ، وكانت له كتبٌ وصحف ومجلات.

إضافةً إلى ذلك فإن الغزو الفكري امتلك من أدوات العبث النفسي شيئاً كثيراً ، فتلاعب بالعواطف ، وهزَّ المشاعر من الأعماق ، وضرب على الأوتار الحسَّاسة ، وآثر استغلال الشعوب ، والتجمعات الغوغائية؛ ليبثَّ سمومه ، ويستثمر دراساته ، فيردّد الآخرون مقالاته وهتافاته ، فإذا بالاتجاه الشعبي يصفق طويلاً للأصداء النفسية المنبعثة من الذات ، ومن مكنوناتها ، وهنا يأخذ المغرضون أدوارهم المرسومة ، ويقودون الغوغاء إلى ميدان فتنةٍ لا تُبقي ولا تذر ، حيث يتمُّ نَسْج خيوط المؤامرة ضد المسلمين ، والعمل على تقويض الروابط الأسرية ، وامتصاص إمكانيات المرأة في معركةٍ ، الخاسر الوحيد فيها هو المرأة والرجل على حدٍّ سواء ، فإذا بالأسر تتهدم ، والعلاقات تتقطع.

وعندما يقعُ الذكر والأنثى في شباك الشهوات ، ويترنحون في مستنقعات اللذات والمغريات ، فإنهم يقاطعون الحق والفضيلة ، وينحرفون عن الخير إلى الشر ، وهنا يأتي دور المغرضين وأجنحة المكر العدائي للمسلمين؛ ليزيِّنوا طريق الشرور والمفاسد ، ويغوون الناس للمصالحة مع العبثية ، والانزلاق ، والمفاتن ، والمغريات بصورة تدريجية ، فإذا بهم يستمرئون تلبية نداء الشهوة ، ونزغة الشيطان والهوى والنفس. وكما قال المتنبي :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليه ما لِجُرْحٍ بميِّتٍ إيلامُ[1]

وكانت حبائلُ التلاعب كثيرة ، ومنها : حبائل الإفساد عن طريق النساء ، ببثّ العاريات الفاسدات في المجتمعات العامة ، وتسهيل الاختلاط بهنَّ؛ دون أيّ ضوابط دينية أو خُلُقية؛ حتى تصبح المجتمعات الإسلامية مفتوحة لكل وارد من واردات الإفساد[2].

لقد حرَّض أعداءُ الإسلام المرأة تحريضاً خاصّاً ، فأثاروا الشبهات في وجهها ، وجعلوها تُعلِّق الآمال على الفكر الجديد ، المفعم بالسموم والكذب

---

(١) ديوان المتنبي (٤/ ٢١٧).
(٢) أجنحة المكر الثلاثة (١٧٣).

والغش والتحايل، وهذا المنفذ أعطى نتائج مذهلة، وأفرز تلقُّفاً غير متوقع حتى من قِبَل المخططين. وكانت الصهيونية العالمية لها دور كبير في نصب الشباك، وإيهام الآخرين، وتلقين السُّذَّج مفاهيم ضالة، وأفكاراً عَفِنة.

جاء في البروتوكول التاسع من «بروتوكولات حكماء صهيون»: «ولقد خدعنا الجيل الناشىء من الأمميين، وجعلناه فاسداً متعفناً؛ بما علَّمناه من مبادىء ونظريات، معروفٌ لدينا زيفها التام، ولكننا نحن أنفسنا الملقِّنون لها»[1].

جذور «تحرير المرأة»:

تبلورت حركة تحرير المرأة في الغرب، وبدأت جذورها في فرنسا، في عصر الثورة الفرنسية، ولا سيما بعد الانتصار على الكنيسة، وإعلاء صوت العقل. وسعى جنودُ المادية الغربية لبثِّ تفسيراتهم في عقول الناس، ونفث فلسفاتهم النفعية، وقرَّروا فَصْل الدين عن السياسة.

«وأحدث الأدباء والمؤلِّفون وأصحابُ البراعة والقريحة والذكاء ـ خصوصاً في ثورة فرنسا وبعدها ـ الثورة على الأخلاق القديمة، والنظم الاجتماعية، وزيَّنوا للناس الإثم، ونشروا دعوة الإباحية، وإطلاق الطبائع من كل قيد، والفرد من كل مسؤولية، ودعوا إلى التهام الحياة البهيمية، وإرضاء الشهوات، وانتهاب المسرَّات، واستعجال الطيبات، وغَلَوا وأسرفوا في تقدير قيمة هذه الحياة، وجحدوا كلَّ شيء سوى اللذة العاجلة، والنفع المادي الظاهر المحسوس»[2].

وأعلنت الثورةُ الفرنسية مبادىء: الحرية، والإخاء، والمساواة، وحلت القومية الفرنسية مكان العقيدة المسيحية، وأُعْلِي شأنُ الوطن، وأصبح القوة المحرِّكة للبذل والتضحية بالنفس والمال.

وطبَّقتْ الثورةُ الفرنسية مبادىء مونتسكيو، وجان جاك روسو، وفولتير؛ في ضرورة فَصْل الحكم عن الدين، وظهرت الحريات بأنواعها، ومنها: الحرية

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون (١٤٧).
(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؛ لأبي الحسن الندوي (١٩٤).

الشخصية ، والمذاهب الهدَّامة ، والأفكار المسمومة ، ونُودي بالحرية الفردية غير المنضبطة ، ومنها: حرية المرأة.

وخرجت المرأةُ إلى العمل ، تشارك الرجل في كل شيء؛ كردٍّ فعل على قيود الكنيسة التي كانت تقيِّد المرأة ، وتعتبرها وعاءً للخطيئة.

وظهرت كتابات ماجنة تدور في حلقة المرأة ، وانفعالاتها ، والتغني بجمالها ، ومفاتنها ، فحلَّت الفوضى ، وثارت الشهوة ، وعمَّ الانحلال.

المرأة في تاريخ أوروبة:

صحيح أنَّ الكنيسة أعطت المرأة بعض الإعزاز ، ووهبتها شيئاً من الحماية ، في وقتٍ عانت فيه المرأة من الكراهة والنفور ، واعتبارها متاعاً لا قيمة له؛ مما دعا كثيراً من النساء إلى اعتناق المسيحية للنجاة من المعاناة والمقاساة.

وقامت المسيحية وانتشرت بجهود النساء ، فكنَّ مبشرات ، وواهبات للمال ، وداعيات من طراز فريد ، واعتُرِف بهن كقسِّيسات[(١)] ، وأظهرن شجاعةً لا توصف ، وإيماناً عميقاً ، واحتملن القهر والعذاب بنفس رضية[(٢)].

وقدَّرت الكنيسة صنائع المرأة ، فأعطتها بعضاً من النعم ، ومن ذلك: تحريم تعدُّد الزوجات ، والتسري ، والحدّ من الطلاق[(٣)].

لكن ذاك الإعزاز ، وتلك المكانة ، كان ضئيلاً هشاً ، إذا اعتبرت الكنيسةُ المرأة سبباً رئيساً في انتشار الفواحش ، ووجود المنكرات ، فقرروا أن الزواج رجسٌ ينبغي الابتعاد عنه ، فالمرأة حبل من حبال الشيطان ، ومصدر لتوزيع الغواية والفتنة ، وكان هذا سبباً في وجود الرهبنة ، وانتشار التبتُّل.

وعدّوا المرأة خادماً للرجل ، ترعى شؤونه ، وتقوم على خدمته ، حتى إنهم تجادلوا حول المرأة ، هل تُعدّ من جنس البشر أو لا؟! واجتمعوا في مجمع ماكون سنة (٥٨١ م) وانتهى النقاش إلى أن المرأة لها نفس ، وهي من صنف البشر[(٤)].

---

(١) تاريخ العالم ، عدد (٧) ، مجلد (١) ص (١٩٣).

(٢) المرأة في العصور؛ لأحمد خاكي (٣١).

(٣) المصدر السابق (٣٦).

(٤) المرأة في التاريخ والشرائع؛ لجميل بيهم (٦٢).

وكان القانون الإنكليزي حتى عام (١٨٠٥ م) يبيحُ للرجل أن يبيع زوجته ، وقد حدَّد ثمن الزوجة بستة بنسات (ربع ليرة سورية في الستينيات)[١] .

وفي عام (١٩٦١ م) باع إيطاليٌّ زوجَته لآخر على أقساط ، فلما امتنع المشتري عن سداد الأقساط الأخيرة؛ قتله الزوجُ البائع[٢] .

وفي عام (١٩٦٣ م) صدر قانون في ألمانيا الغربية ، يُبيح تبادل الزوجات بين الأزواج ، في يومٍ معين من السنة؛ لإزاحة الملل الناتج عن عدم التغيير[٣] .

وهذا غيض من فيض؛ مما كان يجري في المجتمعات الأوروبية ، فعندما ثارت أوروبة على الكنيسة لم تحسب خطواتها بشكل موزون ومتعقل ، بل جنحت إلى النقيض تماماً ، حيث تردَّت في موجة الانحلال ، وبوتقة الابتذال ، فتدهورت الأخلاق ، ولعب اليهود دورهم بإحكام ، وظهر ذلك في قالب التحرر ، وكانت الوجودية مذهباً فلسفياً مادياً ، متعطشاً لإثارة الشهوات ، وإبراز التصورات البهيمية ، والإعلاء من مقام المتعة الجسدية ، ونَبْذ رباط الزواج .

ولا يغربُ عن البال اسم «جان بول سارتر» وعشيقته «سيمون دي بوفوار» وهما يهوديان ، ومن كبار دعاة الانحلال ومحاربة الأخلاق ، وإظهار العبثية في الحياة ، ودُوِّن ذلك في كتاباتهما المنشورة .

وارتفع صوتُ «تحرير المرأة» عالياً ، وتمَّ بناؤه على أسس غير أخلاقية ، وعلى أركان مُدمِّرة ، وإن كان الظاهر هو الإعلاء من شأن المرأة ، ورفعة قدرها .

وكانت النداءات عديدة ، ولكل منها تفسيراته وتعليلاته ، لكنها جميعاً تشترك في المبادىء التالية[٤] :

١ ـ إنَّ الأسرة ليست نظاماً فطرياً ، ولكن الاتصال الحرّ بين الرجل والمرأة هو الفطرة الطبيعية .

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون؛ للدكتور مصطفى السباعي (٢١).
(٢) مجلة حضارة الإسلام؛ سنة (٢) ص (١٧٨).
(٣) الأخوات المسلمات (٢٣٣).
(٤) المصدر السابق (٢٣١).

٢ ـ إنَّ إطلاق حريات المرأة هو الطريق الصحيح لحركتها في المجتمع.

٣ ـ إنَّ خروجَ المرأة للعمل هو العامل الأكيد في قدرتها على امتلاك إرادتها إزاء الرجل.

٤ ـ إنَّ المرأة على قدم المساواة مع الرجل في كل الخصائص، ولكن السر في ضعفها هو الحيلولة بينها وبين حرياتها في العصور الماضية؛ التي منعتها من ممارسة هذه الحرية.

٥ ـ إنَّ من حق المرأة أن تُباشر رغبتها الجنسية دون الحاجة إلى الزواج أو الأولاد، فإنَّ هناك من وسائل الطب ما يمنع الحمل.

٦ ـ المرأة بهجة المجتمع، ولا يتشكل المجتمع إلا باشتراكها فيه، ولا تُولد القصة الأدبية إلا بتحرر المرأة، حيث تُولد القضايا، والمآسي العاطفية، والأحداث الساخنة المثيرة.

٧ ـ إنكار الدعوات الدينية؛ التي تدعو إلى العفاف، والبكارة، والبيت؛ بحجَّة إفساد الحمل والولادة لجمال المرأة، وجسدها.

٨ ـ عدم التفريق بين امرأة المجتمع الفاضلة وبين الغانية والراقصة، وجعل الأخيرة نموذجاً للأزياء الحديثة، وأدوات الزينة؛ لتقلِّدها كلُّ النساء.

٩ ـ ظهور أندية العراة، واختلاط الرجال والنساء في أحواض السباحة؛ تحت اسم: الرياضة، وظهور اختلاط النساء بالرجال على شواطىء البحار بالمايوهات[1] العارية، والاهتمام بمسابقات جمال السيقان والصدور؛ لانتخاب ملكات الجمال.

١٠ ـ استشراء أدب الجنس، والأدب المكشوف، وقصص الإباحية؛ باعتبارها ظاهرة طبيعية في المجتمع.

١١ ـ ظهور حق تحرر المرأة اقتصادياً، واختيار الزوج دون الرجوع إلى أوليائها،

---

(١) «المايوه»: هو «التُّبَّان» في المعاجم العربية، وهو سراويل صغيرة بلا ساق، يستر العورة المغلظة، يلبسه الملاحون والمصارعون، وقد يلبس للسباحة. المعجم المدرسي (ص ١٤٨).

ودفعها للعمل ، والاعتماد على ما تكتسبه؛ لإيجاد شخصية نسائية جديدة ، لها استقلالها التام ، لا فرقَ بينها وبين الرجل.

١٢ ـ الدعوة إلى إيجاد فترة تجربة لاختبار الزوج قبل الزواج ، ويتعلق تمام الزواج بنجاح التجربة في فترة الخطوبة المفتوحة.

١٣ ـ ظهور ما يُسمَّى بـ «صديق العائلة» ، والقول بأن طول فترة الحياة الزوجية على رجل واحد ، وامرأة واحدة ، تبعث على الملل. وظهرت الدعوةُ إلى تبادل الزوجات بين الأزواج للتغيير ، والتنويع ، وظهور الخليلة بجوار الحليلة.

١٤ ـ أصبح لدور البغاء حقوق قانونية لدى الدولة لحمايتها ، علاوةً على حماية المجتمع بأوضاعه ، وأعرافه ، وتقاليده.

وهذه المفاهيم والأسس تُعتبر خطراً على الأسرة ، وتحدِّياً سافراً لها ، ولأنظمتها ، وأهدافها ، والغاية هي: استعباد المرأة بحجة تحريرها. وظهر نتيجة للمفاهيم السالفة الذكر جيل من النساء متحلل من السلطة الأبوية ، وكاره للأسرة ، بل يعتبرها مجرد فندق للنوم ، ومطعم للأكل والشرب ، فليس ثمة رابط بين الأولاد والأهل ، فلكلٍّ اتجاهه ، وطريقة تفكيره ، ونظام حياته الذي يريد أن يتأقلم وَفْقه.

كذلك فإن التقدم الطبي ، وتطور عمليات الإجهاض ، وأساليب منع الحمل ، وتيسير الحصول عليها ، كل ذلك شكَّل حثّاً على الانطلاق نحو الشهوة ، وتنفيذ الرغبات المحمومة دون تفكير بالنتائج؛ لأن الطب الحديث قادر على مَنْع الحمل ، وإعادة البكارة والعذرية للمرأة الجانحة.

وأدَّى ذلك إلى تمرُّد المرأة ، ونشوزها ، وإسقاط قوامة الرجل ، والتقليل من هيبته ضمن الأسرة ؛ لذا فإنَّ الفوضى تدبّ ، وتتغير المفاهيم ، وتشتعل نيران الشنآن بين أفراد الأسرة الواحدة.

وقد عبَّر المؤرِّخُ «ول ديورانت» في كتابه «مباهج الفلسفة» عن قضية تحرير المرأة في الغرب ، فقال: «نحن غارقون في تيارٍ من التغيير سيحملنا ـ بلا ريب ـ إلى نهايات محتومة ، لا حيلة لنا في اجتيازها ، وأيّ شيء قد يحدث مع هذا

الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنُّظُم ، لا حيلةَ لنا في صدِّها. فالآن وقد أخذ البيت في مدننا الكبرى في الاختفاء ، وفَقَد الزواجُ القاصرُ على واحدةٍ جاذبيته المهمَّة ، وإن زواج المتعة سيظفر منّا بتأييد أكثر وأكثر ، حيث لا يكون النسل مقصوراً على رجل بعينه ، وسيزداد الزواج الحر ، ويصبح مباحاً أو غير مباح ، وستحثّ المرأةُ الرجلَ بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج ، وسينمو الطلاق ، ثم يُصاغ الزواجُ بأسره في صورة جديدة أكثر مرونة ، وأكثر تسيُّباً ، وسيصبح ضبطُ الحمل أمراً شائعاً في كل طبقة ، ويصبح أمرُ الحمل أمراً عارضاً في حياة كل امرأة».

وعانت أوروبة من ويلات المناداة بـ«تحرير المرأة» وطَفَتْ على سطح الأحداث أزمات كثيرة ، يرجع أكثرها إلى تفكُّك الأسرة ، وشيوع أدب الجنس ، وقد نشرت مجلة «حضارة الإسلام»[1] ترجمة مقال للكاتب «ج. س. يولاك» تحدَّث فيه عن أخلاق الشباب في الغرب ، والفوضى التي يحيون فيها ، وعرَّج على سلوكهم الشاذ والمنحرف ، وبحث في أسباب المشكلة الطارئة ، ومما قاله:

«إننا نلاحظ منذ سنوات أنَّ عصرنا يفقد بالتدريج حرارة الحياة فيه ، ويخسر باطراد: الدفءَ والطمأنينة من القلب البشري ، فحياةُ الفرد المعاصر لا تعرف الارتباطات والواجبات الاجتماعية كما عرفها إنسان الأمس ، ولم يعد المرءُ يشعر نحو جواره بذلك الشعور الذي كان معروفاً في الماضي ، كما أن روابط الأسرة لم تعدْ كما كانت ، بل فقدت كثيراً من مقوِّماتها. إننا ـ في الحقيقة ـ وسائل للميكانيكية (التصنيع) التي غيَّرتْ كل الروابط الاجتماعية حتى روابط الأسرة. . .

وهكذا ينقلب الفتيان حول الثانية عشرة إلى قطّاع طرق ، ويتحول الشباب والشابات الطبيعيون عادة في رقصة «روك أندروك» إلى فوضويين مُخرِّبين. لقد بلغتْ خسائر رقصة «روك أندروك» وما نتج عنها من فوضى الراقصين في إحدى مقاهي برلين في الشهر الماضي مبلغ (٣٠٠،٠٠٠) شلن ، وفي هامبورغ (١٢٠،٠٠٠) شلن».

---

(١) مجلة حضارة الإسلام ، مجلد (٣) عدد (٢) ص (١٠٠).

ثم تحدَّث عن أثر كُتُب الجنس والأفلام السينمائية على أخلاق الشباب ، ووصولهم إلى حالة سيئة لا تُوصف ، فقال:

«إن (٦٢٪) من مجموع الفتيان هم زُوَّار نظاميون للسينما ، وبذلك نجد أن الفيلم يحتلُّ مقعد التوجيه المنتظم لثلثي شباب اليوم. . . الفيلم بما يحمله من قصص قُطَّاع طُرق ، ومجرمين ، وقصص خيانة اجتماعية ، وما إلى ذلك.

وإني لأتساءل ـ هنا ـ بشدَّة: ألم ينتبه المسؤولون حتى الآن كم لعبت السينما دورَ مدرسة المجرمين؟! وبالإضافة إلى السينما تلعب هذه «الكُتيِّبات» الحقيرة التي تُطبع منها ملايين النسخ ، والتي يُقْبِلُ الفتيانُ على قراءتها وتداولها؛ بلهفةٍ شديدة ، إنها كتبٌ لا تحوي سوى قصص الخيانة والإجرام.

لقد دلَّت الإحصاءات على أن (٤٠٪) من طلاب المدارس يقرؤون هذه الكتب ، وأنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء يملك ما بين (١٠) إلى (٢٠) كتاباً منها. ولقد اعترف أحدُ هؤلاء الفتيان أنه يقرأ أسبوعياً (١١) كتاباً من هذه الكتب الجذَّابة».

ويتابع الكاتبُ بحثه فيقول:

«ما أظنُّ أنَّ أحداً لا صلةَ له بالكتب السيئة ومخازنها ، يستطيعُ أن يُقدِّر الأثر السيىء الذي تُسبِّبه هذه الكتب. إن دور نشرٍ كبيرة ، وعبيد الربح أيّاً كان مصدره ، يقومون بإنتاج وتوزيع هذه الكتب الوسخة ، مُستغلِّين أوضاع الشباب النفسية ، وقلقهم ، واضطرابهم الداخلي ، وحبّهم للتطلع.

إنَّ هذه الكُتيبات تكنسُ كلَّ ما في الفتوة من خجل واحترام وكيان ، وتهدم كل مقومات صيانة الأخلاق الطبيعية؛ التي يحملها الفتى في نفسه بحكم فطرته.

وما أظنُّ أحداً يستطيعُ أن يقدِّر المقود الضخم الذي تملكه الكلمة المطبوعة بالنسبة للذين لم يتمَّ نموَّهم بعد ، والذين لا يزالون في منتصف مرحلة النمو ، وخصوصاً تلك الكلمات المنتقاة ، مثل: جنس ، عمل اغتصابي ، انحراف جنسي. إنَّ لهذه الكلمات قوة هائلة على نفوس هؤلاء الشباب. . .

ولم يعدْ في مقدور الآباء أن يُقدِّموا لأطفالهم ما يملأ فراغ عالم إدراك الشاب؛ الذي لم يبلغ من العمر الثلاثين أو الأربعين ، وذلك بما تُقدِّمه له الأفلام والصحف المصوّرة والتلفزيون من مشاهد لا يُراعى في انتقائها واختيارها أيّ وقع

لهؤلاء الفتية ، ومن ثم تسلم ضمائر هؤلاء الأطفال إلى اضطراباتها. . .

وأخيراً فقد كانت العائلةُ في الماضي تضمُّ أفرادها مدة أطول تحت سلطانها ، وليس الأمرُ كذلك بالنسبة لإنسان اليوم ، فسلطةُ والديه عليه ضعيفة ، وما الأب سوى شكل جانبي في الأسرة ، بينما كان يمثل الشخصية المحترمة الأولى التي تدير الأسرة ، وتقودها.

إن اشتراكَ المرأة في العمل والوظيفة شَغَل جلَّ وقتها ، ونتج عن هذا أمرٌ خطير؛ هو شَلَلُ شعور الأمومة فيها ، فلم يعدْ عند الأم فراغ تهتمُّ به بأبنائها ، بل تركت للمال الذي تُقدِّمه لهم بسخاء؛ أن يُعوِّض عن الحب والاهتمام بشؤونهم ، وبهذا انعدم وجودُ نساء يستطعن أن ينمين في أطفالهن شعورَ الإيثار ، والتضحية ، وحبّ الإنسانية ، والاستعداد للعيش مع الآخرين بوئام وانسجام. لقد تحوَّل العالم ، وتغيَّر الإنسان ، وأصبحت الأمهات يتسابَقْنَ في تحقيق كل رغبة لأطفالهنَّ ، فتجاوز دلالُ الأطفال كلَّ حدّ ، وطفح كيل تزويدهم بكل حديث ، وفتحتْ لهم أبواب تحقيق مسراتهم على مصراعيها: السينما والسيارة ـ والدراجة النارية ـ والألعاب الأوتوماتيكية ، ومزاولة الرقص في كل ساعة من ساعات اليوم. . .».

الغزو الفكري للمرأة المسلمة:

إن المتتبع للغزو الفكري للمرأة المسلمة يجد أن هذا الغزو يرتبط بالاستعمار الصليبي ، وسقوط الخلافة العثمانية ، وتجزُّؤ الدول الإسلامية إلى دول وإمارات ، فقد سبق لتركيا أن اختلطت بالأجانب ، واطلعت على إنتاجهم الفكري ، والتمدن الجديد ، وقامت محاولات للمناداة بحرية المرأة ، سطَّرها يراعُ أحمد فارس الشِّدْيَاق (ت ١٣٠٤ هـ ـ ١٨٨٧ م) وهو عالم باللغة والأدب ، وُلِد في قرية عشقوت بلبنان ، وأبواه مسيحيان مارونيان ، سمَّياه فارساً ، ورحل إلى مصر ، فتلقى الأدب عن علمائها ، ورحل إلى مالطة ، فأدار فيها أعمال المطبعة الأميركانية ، وتنقل في أوروبة ، ثم سافر إلى تونس فأعلن فيها الدين الإسلامي ، وتسمَّى «أحمد فارس» فدُعي إلى الآستانة ، فأقام بضع سنوات ، ثم

أصدر بها جريدة الجوائب سنة (١٢٧٧ هـ) فعاشت (٢٣) سنة[١].

وقام أحمد فارس الشِّدْياق بالمناداة بحرية المرأة على صفحات «الجوائب».

وفي عهد محمد علي باشا، تمَّ إرسال البعثات الطلابية؛ لتلتقي الخبرات والمهارات الفنية في فرنسا، فعادت تلك البعثات تحمل في جعبتها أفكاراً ليست من الإسلام، وهي منقولة من الكتب التي شاهدوها هناك، وما صاحبها من قلق وثورة واضطراب، واحتل أولئك القادمون مراكز قيادة ذات أهمية، فنشروا أفكارهم المستوردة، ومنها أفكار: فولتير، وروسو، ومونتسكيو.

وكان من ضمن تلك البعثات: رِفَاعة الطَّهْطَاويّ (١٢٩٠هـ ـ ١٨٧٣ م)، وقد أرسلته الحكومةُ المصرية إماماً للصلاة والوعظ، فدرس الفرنسية، وثقف الجغرافية والتاريخ. ولما عاد إلى مصر ولي رئاسة الترجمة في المدرسة الطبية، وأنشأ جريدة «الوقائع المصرية» وألَّف وترجم عن الفرنسية كتباً كثيرة[٢].

وكتب رِفاعة الطهطاوي آراء مستوحاة من الفكر الفرنسي، والمجتمع الأوربي، وسواء كتب ذلك عن سوء قصد أو حسن توجّه، فإنه وَضَع البذور لتحرير المرأة، من خلال الدعوة والجرأة في مواقف وقضايا نسوية، كتعدد الزوجات، وتحديد الطلاق، واختلاط الجنسين، ومما قاله:

«إن وقوعَ اللخبطة[٣] بالنسبة لعفة النساء لا تأتي من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة أو الخسيسة»[٤].

وكتب الطهطاوي كتابين حَشَر فيهما آراءه التحررية، وهما: «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» و«المرشد الأمين للبنات والبنين».

---

(١) الأعلام؛ للزركلي (١/ ١٩٣).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٢٩).

(٣) هذه لفظة عامية. وقد سبق لرفاعة الطهطاوي أن كتب كتاباً سمَّاه: «أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل» سنة (١٨٦٨م)، وعقد فيه فصلاً ذكر فيه فضل العربية ووجوب إحيائها، ولكنه ضمَّنه دعوةً إلى استعمال العامية، بَيْـدَ أن هذه الدعوة لم تلق سميعاً ولا مجيباً، وذهبتْ أدراجَ الرياح. انظر: أباطيل وأسمار لمحمود محمد شاكر (ص ١٥٩ ـ ١٦٠).

(٤) تخليص الإبريز في تلخيص باريز (٣٠٥).

وهو ينفي أن يكون الاختلاطُ والتبرج داعياً إلى الفساد ، أو الغواية ، يقول : «ولا يظن بهم ـ أي : الفرنسيين ـ أنهم لعدم غَيْرتهم على نسائهم لا عِرْضَ لهم ؛ لأنهم وإن فقدوا الغَيْرة ، لكنهم مع ذلك إذا علموا شيئاً مهيناً كانوا شرَّ الناس عليه ، وعلى مَنْ خانهم ، وعلى أنفسهم ، وإن كانت المحصنات لا يخشى عليهن شيئاً ، وغاية الأمر : أنهم يُخطئون في تسليم القياد للنساء»[1] .

ودافع الطهطاوي عن الرقص بين الرجال والنساء ، وذلك حين وصف محلاًّ للرقص يُسمَّى «البال» فقال : «يتعلق بالرقص كلُّ الناس في فرنسا ، وكأنه نوعٌ من العياقة والشلبنة ـ أي : الأناقة والفتوة ـ لا الفسق ، فلذلك كان الرقص دائماً غير خارج عن قوانين الحياء ؛ بخلاف الرقص في مصر ؛ فإنه من خصوصيات النساء لتهييج الشهوات ، أما في باريس فإنه غير مخصوص ، لا يُشتمُّ منه رائحة العهر أبداً»[2] .

أمَّا كتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين» للطهطاوي ؛ فيتحدث فيه عن قدرة المرأة على تعاطي أعمال الرجال ، يقول :

«يمكن للمرأة ـ عند اقتضاء الحال ـ أن تتعاطى الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال ، على قدر قوتها وطاقتها ، فكل ما يطيقه النساء من العمل يُباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ؛ فإنَّ فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء ، وافتعال الأقاويل ، فالعملُ يصون المرأة عما لا يليق ، ويُقرِّبها من الفضيلة»[3] .

وفي موضع آخر من الكتاب المذكور ، تعرَّض رِفاعة الطَّهْطاوي لقضية تعدد الزوجات ، فدافع عن الزوجة الواحدة دفاعاً مستميتاً ، وكأنه يرفض فكرة التعدد في حال الضرورة!

وهكذا كان الطهطاوي من الأوائل الذين تحدَّثوا عن حرية المرأة ، وخروجها

---

(١) المصدر السابق (٣٠٤).
(٢) المصدر السابق (١٦٨).
(٣) المرشد الأمين (١٦٦).

للعمل مع الرجال جنباً إلى جنب ، وجاء بآراء مثيرة للجدل ، والمناقشة ، وفيها جرأة على الدين والأحكام الشرعية.

ثم جاء قاسم أمين ، وهو رأس الفتنة ، وداعية السفور العلني؛ والذي بدأ حياته مدافعاً عن الحجاب ، فردَّ على أحد المؤلِّفين في كتابه «المصريون» سنة (١٨٩٤ م) ، واستنكر قاسم أمين تشبُّه بعض المصريين بنساء أوربة في السفور والاختلاط بالرجال.

ثم ارتدَّ قاسم أمين على عقبيه ، ورجع القهقرى بأفكاره ، فكتب بعد خمس سنوات ، أي في عام (١٨٩٩ م) كتابه «تحرير المرأة».

ولو أردنا التعرف على شخصية هذا الكاتب ، لرأيناه ضالعاً من مفرق رأسه إلى أخمص قدمه في قضية الخروج عن تعاليم الإسلام ، ومناهضة النصوص النقلية القطعية ، حتى إن شاعراً كبيراً ، كأحمد شوقي ، حار في فَهْم ما صنعه قاسم أمين «أهو غيرةُ المدافع عن النصوص الإسلامية ، أم هو إغارة المحرِّف لها عن مواضعها»[1] فقال:

ولـــكَ البيـــانُ الجَـــزْلُ فـــي ... أثنـــائِـــه العلـــمُ الغـــزيـــرْ
فـــي مطلـــبٍ خَشِـــنٍ كَثيـ ... ـــرٌ فـــي مَـــزَالِقِـــه العُثُـــورْ
مـــا بـــالكتـــابِ ولا الحـــديـ ... ـــثِ إذا ذكَـــرْتَهمُـــا نكيـــرْ
حتـــى لَنَسْـــأَلُ: هـــل تَغـــا ... رُ علـــى العقـــائـــد أم تُغيـــر[2]؟!

ولعلَّ أوضح تعريف لشخصية قاسم أمين ما نشرته جريدة الجمهورية في عددها الصادر في (٢٠/ ٤/ ١٩٧٨ م) في الذكرى السبعين لوفاته ، إذ جاء فيها:

«تحليل شخصية قاسم أمين:

كان أول مَنْ أنصف قاسم أمين صديقه سعد زغلول ، وهو الذي أحيا ذكرى قاسم أمين حين تولى وزارة التعليم ، دون أي ضجة ، وذلك بافتتاح عددٍ من مدارس البنات. ولما تولى سعد زغلول زعامة الشعب في عام (١٩١٩ م) اشترط

---

(١) حصوننا مهددة من داخلها؛ للدكتور محمد محمد حسين (١١٦).
(٢) الشوقيات؛ لأحمد شوقي (٢/ ١٦٨).

على السيدات اللواتي يحضرن لسماع خطبه أن يزحن النقاب. وكانت هذه أول مرحلةٍ عمليةٍ للسفور».

وتقول جريدة أخبار اليوم، في عددها الصادر في (١٣/ ٩/ ١٩٦٩ م):

«إن قاسم أمين فيما بين حصوله على إجازة الحقوق سنة (١٨٨١ م) وبين إخراجه لكتابه تحرير المرأة سنة (١٨٨٩ م) كان قد مرَّ بأحداث هادئة، على عكس الأحداث الضخمة التي عاشها في مصر، ففي خلال تلك السنوات تعرَّف قاسم أمين على جمال الدين الأفغاني في باريس، ومحمد عبده، وسعد زغلول».

وهؤلاء الثلاثة ـ الأفغاني وعبده وزغلول ـ معروفون بانتمائهم للماسونية. أما الأفغاني فنشرت مجلة الإخاء الإيرانية في العدد (٤٥٠) في ١٨ أيلول ١٩٧٦ م؛ صورة طلبٍ لجمال الدين الأفغاني يريد منه الانتماء إلى المجمع الماسوني. وكان ذلك في (٢٢) ربيع الثاني سنة (١٢٩٢ هـ).

وكذلك كان محمد عبده كأستاذه الأفغاني، إذ دخل معه المحفل الماسوني البريطاني، ثم غادره إلى المحفل الشرقي الفرنساوي، ثم ساهم مع أستاذه في تكوين الحزب الوطني الحر؛ الذي كان واجهةً للمحفل الماسوني، وبهذا فإنَّ الأستاذ محمد عبده كان ماسونياً كبيراً[1].

وسعد زغلول كان ماسونياً، فقد نشرت مجلة المصور في عددها الخاص الصادر في (٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٧ م) بعد وفاة زغلول؛ صورة الجنازة تحت عنوان: «الأمة والحكومة تشيعان الفقيد العظيم». وتحت الصورة مباشرة كُتبت العبارة التالية: «وفد البنائين الأحرار ـ الماسون ـ في تشييع جنازة الزعيم الكبير، وكان قطباً من أقطاب الماسونية».

وجاء في جريدة المقطم قريب من هذا، في عددها الصادر يوم الجمعة في (٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٧ م).

وهذه النصوص تؤكد التقارب الفكري بين قاسم أمين وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وسعد زغلول، وهي لا تحتاج إلى تعليق، فخير الكلام ما قلَّ ودلَّ.

---

(١) شهادات ماسونية؛ لحسين حمادة (٨٣).

وثمة رأي مفاده أن قاسم أمين لم يكن الرأس المدبِّر ، بل كان الرأس المنفذ لقضية تحرير المرأة ، بحيث شاركت جهات دينية وسياسية ـ كما ذكر الدكتور محمد عمارة ـ في تأليف كتاب «تحرير المرأة» فقال الدكتور عمارة: «والرأي الذي أُؤمن به ، والذي نبع من الدراسة لهذه القصة ، هو: أن هذا الكتاب إنما جاء ثمرةً لعمل مشترك بين كلٍّ من الشيخ محمد عبده وقاسم أمين ، وأنَّ في هذا الكتاب عدة فصول قد كتبها الأستاذ الإمام وحده ، وعدة فصول أخرى كتبها قاسم أمين»[١].

أما دعمُ هذا الكتاب من الناحية السياسية فلسعد زغلول دور كبير ، وكذلك نازلي فاضل ـ حفيدة إبراهيم باشا ـ كما شاركها في ذلك هدى شعراوي[٢] ، وغيرهم كثير.

وكل هذه الرؤوس المدبِّرة هي في حقيقتها أدوات منفِّذة في يد المستعمر الخبيث؛ الذي قام بتشويه أفكار هذه الفئة من المسلمين ، وجعلهم أدوات هدم وتخريب في المجتمع المسلم[٣].

وترجع بداية المؤامرة على الأسرة المسلمة إلى كتاب ظهر في مصر سنة (١٨٨٤ م) لمحامٍ مصري قبطي يُدعى «مُرْقُس فَهْمي» (ت ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م) وقد تخرج في كليِّة «إكس» الفرنسية ، وألَّف كتابه «المرأة في الشرق»[٤].

وفي هذا الكتاب حُدِّدت خطة الاستعمار ـ وكان مُرْقُس فَهْمي صديقاً للُّورد كرومر ومواليأً له ـ وتطالب تلك الخطة بما يلي:

أولاً: القضاء على الحجاب الإسلامي.

ثانياً: إباحة الاختلاط للمرأة المسلمة بالأجانب عنها.

ثالثاً: تقييد الطلاق ، ووجوب وقوعه أمام القاضي.

---

(١) الأعمال الكاملة لقاسم أمين (١٣٨).
(٢) هي أول مصرية مسلمة رفعت الحجاب. الأعلام؛ للزركلي (٨/ ٧٩).
(٣) المرأة المسلمة المعاصرة؛ للدكتور أحمد أبابطين (٣٧٣).
(٤) الأعلام (٧/ ٢٠٤).

رابعاً: منع الزواج بأكثر من واحدة.

خامساً: إباحة الزواج بين المسلمات وغير المسلمين(١).

وبعد خمس سنوات صدر كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين، وهو يتناول أربع مسائل، هي: الحجاب، واشتغال المرأة بالشؤون العامة، وتعدد الزوجات، والطلاق. وكان في كل مسألة يتبع الفكر الغربي، طارحاً الشرع الإسلامي، بل زاعماً أن ما ذهب إليه هو الإسلام في ذاته. ودعا في آخر الكتاب بصراحة إلى تقليد الحضارة الغربية، واتباع أساليبها، فقال بعد أن ذكر إعجاب المسلمين والمصريين بالماضي:

«هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه، وليس له دواء إلا أننا نُربِّي أولادنا على أن يتعرَّفوا شؤون المدنية الغربية، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها، إذا أتى ذلك الحين ـ ونرجو ألا يكون بعيداً ـ انجلتِ الحقيقةُ أمام أعيننا ساطعةً سطوع الشمس، وعرفنا قيمة التمدُّن الغربي، وتيقنّا أنه من المستحيل أن يتمَّ إصلاح ما في أحوالنا، إذا لم يكن مُؤسَّساً على العلوم العصرية الحديثة. وإن أحوال الإنسان مهما اختلفت، وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم؛ لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها في الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابهاً عظيماً؛ في شكل حكوماتها، وإدارتها، ومحاكمها، ونظام عائلتها، وطرق تربيتها، ولغاتها، وكتابتها، ومبانيها، وطرقها، بل في كثيرٍ من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكلِ، هذا هو الذي جعلنا نضرب الأمثال بالأوربيين، ونشيد بتقليدهم، وحَمَلَنا على أن نستلفتَ الأنظارَ إلى المرأة الأوربية».

وبعد سبع سنوات من صدور كتاب «تحرير المرأة» وقبل وفاة قاسم أمين بسنة ونصف، أي عام (١٩٠٦ م) تراجع المؤلف عن آرائه السابقة، في حديثٍ له لصحيفة «الظاهر» التي كان يصدرها محمد أبو شادي المحامي، فأعلن قاسم أمين عن بطلان أقواله السابقة، وأنها ضلال وغيّ، وبينَّ أنه كان مخطئاً في دعوته إلى تحرير المرأة.

---

(١) الأخوات المسلمات (٢٤٥).

والجدير بالذكر أن هذه الأقوال جاءت بعد زوال اللورد كرومر ، وانطفاء نفوذ نازلي فاضل ، فتغيرت الظروف؛ لذا تغيرت الأقوال!!

ولكن دُعاة تحرير المرأة ، ووكلاء الغزو الفكري للإسلام ، دافعوا عن دعوة قاسم أمين ، واعتبروها أنها الأصلح للمجتمعات ، وأمسك أذنابُ الاستعمار بأقلامهم ، وتابعوا خوض المعركة ، وتوزَّعوا الأدوار ، كل في مجاله ، وميدانه.

واستطاعت حركة «تحرير المرأة» أن تستقطب كثيراً من الدعاة ، والكتبة ، والمأجورين ، فحققت أهدافها في قطاعات عريضة ، ومجالات مختلفة ، وأحدثتْ تشويهاً لصورة المرأة المسلمة ، وانقلاباً في مفاهيمها الفكرية والخُلُقية والسلوكية.

والمتأمل في المجتمعات يجد أن الحواجز بين الذكر والأنثى قد انهارت ، فما أشبه الجميع ببحرٍ هائج ، أمواجه مضطربة ، وتحيط به براكين هادرة ، أكثرها قد خرجت منه الحمم ، وبعضها ينتظر إتاحة الفرصة ، بينما باطنه يغلي ويفور.

كذلك فإن الأخلاق الأصيلة قد نُزعت من نفوس الناس ، وحلَّ محلّها الأدب المكشوف ، والفكر المادي ، حتى أصبح حديثُ الجنس ، وكُتُبه ، وقصصه؛ في المحل الأرقى من أحاديث الناس ، واهتماماتهم ، ونَبَذَ كثيرٌ منهم فكرة الزواج؛ إذ وَجَدُوا في الحرام بديلاً سهلاً ، فانتكستِ النفوس ، وغَلَت المراجل ، وصار كثير من الشباب يمضون حياتهم في اللهو والفراغ والتسلية والغواية والانحراف.

وابتعدت أُسرٌ كثيرة عن مفاهيم الإسلام ، فعمَّت الفوضى ، وانتشر الاضطراب في الفكر والعمل؛ تحت بريق التحضر ، ونَيْل المنى بيسر وسهولة. وكم سمعنا عن حالات الطلاق والتشرد والانحرافات السلوكية ، والوَهَن النفسي ، والتخلي عن مسؤوليات البيت ، والجري بلهاث متلاحق خلف الجنس!!

واستمرت المؤامرة على المرأة المسلمة في العصر الحديث؛ لاقتلاع المجتمع الإسلامي وقيمه من الجذور ، بدعوى إعطاء المرأة حرِّيتها ، وإقناعها

أن الرجل يهضم حقوقها ، ويغتصب مبدأ المساواة معها ، فهو الثعلب الماكر ، والقاسي القلب ، فلا بُدَّ للمرأة أن تخرج من إسار استبداده .

*** جميل صدقي الزهاوي[1]:**

وكان الفَهْم الخاطىء لقضايا الدين ، أحد الدوافع التي انطلق منها أعداء الأسرة ، ومنهم الشاعر جميل صدقي الزهاوي (ت ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٦ م) ، أليس هو القائل عن المرأة:

«هي مهضومة؛ لأنَّ عقدة الطلاق بيده ، يحلّها وحده! ولا أدري لماذا يجب رضا المرأة في الاقتران ، ولا يجب رضاها في الفراق؛ الذي تعود تبعته عليها وحدها. وهي مهضومة لأنها لا ترث من أبويها إلا نصف ما يرثه أخوها الرجل! وهي مهضومة لأنها وهي في الحياة مقبورة في حجابٍ كثيف ، يمنعها من شمٍّ الهواء ، ويمنعها من الاختلاط ببني نوعها ، والاستئناس بهم ، والتعلم منهم في مدرسة الحياة الكبرى .

وليست المرأةُ المسلمة مهضومةً في الدنيا فقط ، بل هي مهضومة كذلك في الأخرى؛ لأنَّ الرجل المصلِّي يُعطى من الحور العين من سبعين إلى سبعين ألفاً ، وأما المرأة المصلِّية فلا تُعطى إلا زوجها ، وربما اشتهته في الجنة التي وصفوها قائلين: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزخرف: ٧١] على حين يشتهي هو غيرها من الحور العين»[2].

ولسنا بحاجة إلى الردِّ على هذه المهاترات ، والهجوم الصارخ على النصوص القطعية في الشرع ، فطلاب العلم يدركون ذلك ، وقد غاب الحق عن ذهن الزهاوي!! وكأنَّ الحجاب عدو لدود له ، إذ شنَّ عليه حرباً ضروساً لا تكاد تهدأ ، في نثره وشعره ، فكان مما قاله نثراً:

«وأما ما يترتب على الحجاب من مضار فكثير:

---

(١) كتب الزهاوي عن نفسه : كنتُ في صباي أُسمَّى «المجنون» لحركاتي غير المألوفة ، وفي شبابي «الطائش» لنزعتي إلى الطرب ، وفي شيخوختي «الزنديق» لمجاهرتي بآرائي الفلسفية. الأعلام (٢/ ١٣٧).

(٢) الزهاوي: دراسات ونصوص ، جمعها: عبد الحميد الرشودي (١١٥).

أولها: أن المرأة المحجوبة تفقد الثقة بالرجل ، فلا يكبر عليها أن تخونه.

والثاني: أن المحجوبة إذا مشت إلى محل الريبة فلا تخشى أن يعرفها أحد في الطريق ، وأما المكشوفة فهي تخاف على شرفها وعلى سمعتها من الدخول في باب الريب؛ لعلمها أن الناظرين إليها يعلمون أنها بنت فلان ، وأخت فلان ، وزوجة فلان.

والثالث: أن الحجاب منع ، والإنسان لمَّا كان حريصاً على ما منع ، كان مقدماً على هتكه بطريق غير مشروع ، وأما المكشوفة ، فلما كان النظر إليها عادة لم يحرص الرجل على معرفة ما تحت الحجاب ، والتمتع به.

والرابع: أن الحجاب سبب لاعتزال النساء ، وشيوع ما تحرمُ الإنسانية خجلاً منه في منادمة الغلمان؛ الأمر الذي يكسر من عزة النفس ، ويضاد الطبيعة ، ويجلب الأمراض ، ويقلل النسل.

والخامس: أن الحجاب يسيء ظن الغربيين بنا؛ فإنهم يقولون: لو كان المسلمون واثقين بعفة نسائهم لما ضغطوا عليهن هذا الضغط اللئيم ، فأخفوهن عن عيون تطمع في النظر إلى وجوههن النضرة؟؟!!

والسادس: أن الحجاب فيه مخالفة للطبيعة ، وإضعاف للبصر ، الذي هو أهم الحواس التي يتجهز بها الإنسان لكفاح الحياة ، وظلم وظلام وغم دائم ، وحزن طويل لا ينقضي إلا عند انقضاء الحياة ، عندما يتغير هذا الحجاب إلى حجاب القبر ، ويأس ينخر سلُّه الرئتين فيعجل الموت.

والسابع: أن الحجاب سبب في الأكثر لتنافر الزوجين ، فلا يعيشان في وئام؛ لأنهما لم يقترنا بانتخاب الواحد للآخر ، ولا يغني اختيار أمّ الزوج لها؛ لأنها ليست هي المتزوجة ، ولا اختيار أبي الزوجة؛ لأنه ليس هو المتزوج. وهي كثيراً لا تعلم ماذا تصادف في مستقبلها القريب أملكاً يرفعها ويسعدها ، أم شيطاناً يغويها ، ووحشاً ضارياً يفترسها ، وقد زاد الشافعي ـ عليه الرحمة ـ الطين بلة حيث أجاز أن تقترن بزوج لا تعرفه ولا ترتضيه لمجرد رضا وليّها الطماع.

والثامن: أن الحجاب يُراد للعفة ، والعفة لا تدوم بالضغط؛ فإن الإيماء كثير عند شديدات التحجب ، وقليل عند البدويات المكشوفات.

والتاسع: أن الحجابَ مضيعةٌ للحقوق؛ فإن كثيراً من الطامعين سجَّلوا أنهم اشتروا عقاراً من امرأة، وشهد بذلك الشهود، ثم تبين أخيراً أن البائعة ليست المالكة للعقار المبيع، ولكن الشهود جهلوا هويتها بسبب الحجاب.

والعاشر: أن الحجابَ سببٌ لعدم الاختلاط، وعدم الاختلاط سبب للجهل ذلك الحاطّ بالإنسان إلى منزلة البهيمية، وهل يرجى نهوضٌ لأمة نصف أهلها جاهلات؟! والجهل إذا دام أعصراً فإنه سبب للبلادة، تنتقل لرسوخها بطول أمد وجودها إلى الأعقاب الذكور منهم والإناث، فيكونون بأجمعهم بليدين، ولذلك لا ترى في المسلمين حتى بين الطبقة المستنيرة بالعلوم منهم من يكتشف اليوم أمراً جديداً، كما يكتشف الغربيون الذين لا يحجبون نساءهم كل يوم سراً من أسرار الطبيعة ينفعهم في حياتهم. وهذا ضررٌ فادح بالهيئة الاجتماعية لا يمكن إزالته إلا إذا انتبه له عقلاء المسلمين، فكسروا سلاسل العادات، ورفعوا سببه الذي هو الحجاب. وليس ذلك بثقيل إذا أتوه من باب الحكمة، فأشاعوا مضارّه، ورفعوه تدريجاً، وإلا دارت عليهم الدائرة، وانحط المجتمع، فلم يقدر أن يزاحم الغربيين المشمِّرين للسعي في طريق الارتقاء»[1].

ودأب الزهاوي في شعره على مهاجمة الحجاب، رمز العفة والصيانة والطهر، فمما قاله:

هــزؤوا بــالبنــات والأمهــات	وأهــانــوا الأزواج والأخــوات
هكــذا المسلمــون فــي كــل صقــع	حجبــوا للجهــالــة المسلمــات
سجنــوهــن فــي البيــوت فشلّــوا	نصــفَ شعــب يهــمّ بــالحــركــات

(١) نشر الزهاوي هذه المقالة في صحيفة (المؤيد) في عددها المرقم ٦١٣٨ الصادر في ٢/ شعبان سنة ١٣٢٨ الموافق ٧/ آب/ ١٩١٠ وقد جرّت عليه كثيراً من المتاعب، هذا وقد اضطر والي بغداد آنذاك حسين ناظم باشا إلى عزله من وظيفته ـ وكان مدرساً لمجلة الأحكام العدلية ـ في مدرسة الحقوق على إثر التظاهرة الاحتجاجية التي أقيمت ضد الزهاوي في ٢٨/ أيلول سنة ١٣٢٨ هذا وقد انبرى للرد عليه في مصر محمد حمدي النشار في كتابه «المرأة في الإسلام والسفور والحجاب» المطبوع في مطبعة الواعظ بمصر سنة ١٣٢٩ هـ سنة ١٩١١ م وكذلك انبرى للرد عليه في بغداد الشيخ سعيد النقشبندي فأنشأ رسالة سماها «السيف البارق في عنق المارق».

منعـوهـن أن يـريـن ضيـاء   فتعـوَّدن عيشـة الظلمـات
دفنـوهـن قبـل مـوت مُـريـح   فـي قبـور سـود مـن الحجـرات
فـي بيـوت لـزمنهـا كقبـور   أظلمـت كـم سكبـن مـن عبـرات
إن هـذا الحجـاب فـي كـل أرض   ضـرر للفتيـان والفتيـات
إنـه فلتـة مـن الطبـع فـي الإنـ   ـسان والطبـع فيـه ذو فلتـات
لـم يكـن وضعـه مـن الـديـن شيئـاً   إنمـا قـد أتـى مـن العـادات
طـالمـا قـد وقفـت أدرأ عنهـن الـرزايـا فيـا لهـا وقفـات

* * *

رب عـذراء لسـت تسمـع منهـا   عنـد تحـديثهـا سـوى الـزفـرات
ولهـا فـي حجـابهـا نظـرات   يـا لهـا فـي الحجـاب مـن نظـرات
وفتـاة كـزهـرة الـروض حسنـاً   ذبلـت وهـي فـي ربيـع الحيـاة
نـاهـد فـي شبـابهـا وَأَدوهـا   ضحـوة بيـن دجلـة والفـرات
وإذا مـا شكـت هنـالـك كـربـاً   لـم تجـد مـن يصغـي لتلـك الشكـاة
إن هـذا الحجـاب قبـر كثيـف   حـال بيـن الفتـاة والنسمـات
إن هـذا إثـم أقبّحـه مـا   جـاء حـضّ عليـه فـي الآيـات
تلـك أعمـالهـم مـن الجهـل عـدّوهـا علـى سـوئهـا مـن الحسنـات
ثمـرات مـن غـرسهـم قـد جنـوهـا   بئـس مـا قـد جنـوه مـن ثمـرات
أيهـا المـدلجـون فـي جنـح ليـل   إنكـم أخطـأتـم طـريـق الحيـاة[1]

وقال أيضاً:

أَخَّـر المسلميـن عـن أمـم الأر   ضِ حجـابٌ تَشْقَـى بـه المسلمـاتُ

فانبرى له الشيخُ ابنُ الخطيب ، وعارضه قائلاً :

بئـسَ مـا يـدَّعـي فـلاسفـةُ العصـر   مـن أنَّ السفـور فيـه الحيـاةُ
بنـتَ مصـرَ هـاتـي سفـورَك واغشـي   كـلَّ نـادٍ ولتمـلَّ منـكِ الجهـاتُ[2]
عَـرِّفـي نَفْسَـكِ الغـداةَ وطـوفـي   لا تَفُتْـكِ الأسـواقُ والحـانـاتُ

---

(١) ديوان الزهاوي (٣١٩).
(٢) هذا أمرٌ قُصِد منه التهكُّم والاستهزاء .

ولعمري لقد بكى الدينُ حزناً   حين قال الخطيبُ: يا سيداتُ[1]

* نزار قباني:

أمّا نزار قباني، فقد امتهن المرأة، وابتذلها، فكانت غالبية النساء اللواتي تحدث عنهن من صنف الساقطات، فكنَّ نماذج قميئة، مزرية، ضالة، وكأن هذا الشاعر لم يصادف حرة، ولم يسمع عن الطاهرات العفيفات. لقد غلبتْ عليه النزوة الشهوانية بشبقها، فكانت نظرتهُ للمرأة نظرة مَنْ تُحرِّكه الشهوة، ويجرفه الحرام في غيهبٍ موحش لا قرار له.

وديوانه «قالت لي السمراء» يعجُّ بقصائد تجعل المرأة ذات شهوة جائحة، وجوع جنسيّ قديم، لا يهدأ حتى ترتمي في حضن الحرام. يقول:

حسبي بهذا النفخ والهمهمة
يا رعشة الثعبان.. يا مجرمة
زلقتِ من أهلك لم تستحي
زحفاً إلى غرفتي الملهمة..
مفكوكة الأزرار عن جائع
يصبو إلى النجم لكي يقضمه
وشعرك المسفوح.. خصلاته
مهملة ألا تعرف اللملمة
أفي قميص النوم، يا ذئبتي
تائهة كالفكرة المبهمة
ونهدك الملتف في ريشه
كأرنب إليّ يُدني فمه
كالأرنب الأبيض في وثبه
الله.. كم حاولت أن أرسمه
هذا الذي يطفر في مخدعي
هل ظل شيء بعد ما حطَّمه

---

(١) حقائق ثابتة في الإسلام؛ لابن الخطيب (٨١ ـ ٨٦).

آمنت باللذات مسلولة
تفور من مقلتك المضرمه
وكم لدى المرأة من مطلب
في جوع عينيها له ترجمه
شهية العطر أنا مارد
فحاذري أن تكسري قمقمه
ما أنت؟ ما نهداك؟ إن قهقهت
عواصفي ، وشهوتي الملجمه
لا يعرف الطوفان في جرفه
ما حلَّل الله . . وما حرَّمه

وما دام الشاعرُ يقوم بمهمة الأداء الجنسي ، فلا يتوجَّب على المرأة أن تُفكِّر فيمن يعلوها ، فهو يُمطرها بماء الشهوة ، ولا يُـفـكِّر إلا بأدوات الجنس. يقول في قصيدة «التفكير بالأصابع» من ديوان «الرسم بالكلمات» :

ماذا يهمك من أكون؟
حجرٌ . . كتابٌ . . غيمةٌ
ماذا يهمك أن أكون؟
خليك في وهمي الجميل . .
فسوف يقتلك اليقين
ماذا يهمك من أنا؟
ما دمت أحرث كالحصان على السرير الواسع . .
ما دمت أزرع تحت جلدك ألف طفل رائع . .
ما دمت أسكب في خليجك
رغوتي وزوابعي . . . .
ما شأن أفكاري؟ دعيها جانباً . . .
إني أفكر عادة بأصابعي . . .

وقد وصف نزار قباني المرأة وصفاً مادياً في ليلة حمراء ، حيث عرضت تلك المرأة مفاتنها ، وأبدتْ رغبتها ، فتحدث عن غريزته ، وأن تلك المرأة هي مبتغاه

المنشود. يقول في قصيدة «عند امرأة» من ديوانه «طفولة نهد»:

كانت على إيوانها
وكان يبكي الموقد
وكل ما في بيتها
معطّر.. ممهد
يمد لي ذراعه
يقول: عندي الموعد
حتى الرسوم تشتهي
هنا.. ويندى المقعد
ومن وراء بابها
يعوي شتاء ملحد
وفي الذرا رعد.. وفي
أعماق روحي ترعد
وفي صميمي غيمة
تبكي.. وثلج أسود
وكنتُ في جوارها
تصبُّ لي.. وأنشد
وعدّة الشتاء
شعر.. ونبيذ جيد
وشمعة مسلولة
أتعبها التنهد..
لم يبق إلا شعلة
وبعدها تستشهد
كانت تئن مثلما
يئن ذئب مجهد
ترنو إلى لبوة
برغبةٍ لها يد..
وساقها من عتمة

الغطاء.. أفعى تشرد
وجسمها تحت اللهيب
مرعب.. مورد
والعقد فوق ناهديها
سابح.. مغرد
كعقدها غريزتي
تنهار.. ثم تصعد..
كانت كما أريدها
يحار فيها الموجد
قد أدركت ذوقي وما
من النساء أعبد..
فشعرها كما أحب
مهمل مبدد
ونهدها كسلّة
من ياسمين يعقد
كانت إذاً ممدودة
وكان يُشكو الموقد
وكانت الأحراج تبكي
والخليج يزبد
وفي صميمي غيمة
تبكي.. وثلج أسود

إنه الشذوذ في وصف المرأة، والعداء لها، وجَعْلها متعةً رخيصة، تمارس الجنس، وتضاجع مَنْ تريد، ويغشاها الدون من الناس كالحوذي واللوطي... ويبقى الشاعرُ يشعر بأنوثتها الكاملة، وهذه نرجسية كبرى. يقول في قصيدة «إلا معي» من ديوان «الرسم بالكلمات»:

ستذكرين دائماً أصابعي
لو ألف عام عشتِ يا عزيزتي

ستذكرين دائماً أصابعي . .
فضاجعي مَنْ شئتِ أن تضاجعي . .
ومارسي الحب . . على أرصفة الشوارع
نامي مع الحوذي ، واللوطي
والإسكافي . . والمزارع . .
نامي مع الملوك ، واللصوص ،
والنساك في الصَّوامع
نامي مع النساء . . لا فرق
مع الريح ، مع الزوابع . .
فلن تكوني امرأة . .
إلا معي . . إلا معي . .

وتحدَّث نزار قباني عن نهد المرأة الخائنة حديثاً مستفيضاً ، فالعشيق يمصُّ حليبه ، وهي غارقة في حمأة الرذيلة ، ويُحرم طفلها من رضاعه ، وهي تخون زوجها الواثق بعفافها. يقول في قصيدة «مدنّسة الحليب» من ديوانه «قالت لي السمراء» :

أطعميه . . من ناهديك أطعميه
واسكبي أعكر الحليب بفيه
اتقي الله . . في رخام معرى
خشب المهد كاد أن يشتهيه
نشفت فورة الحليب بثدييك
طعاماً لزائر مشبوه . .
زوجك الطيب البسيط بعيد
عنك ، يا عرضه ، وأم بنيه . .
ساذج ، أبيض السريرة ، أعطاك
سواد العينين كي تشربيه . .
يترك الدار خالي الظن . . ماذا؟
أيشك الإنسان في أهليه؟

أو أذاك يا لئيمة . . حتى
في قداسات نسله تؤذيه؟
كم غريب أدخلت للمخدع الزوجي
يأبى الحياءُ أن تُدخليه . .
استغلي غيابه . . رُبَّ بيتٍ
هدمته تلك المقيمة فيه
والرضيع الزحّاف في الأرض يسعى
كل أمر من حوله لا يعيه
أمه في ذراع هذا المسجَّى
إن بكى الدهـرَ سوف لا تأتيه
أأبو الطفل ذلك الزائر الفظ
العميق العاهات والتشويه . .
أأبوه هذا . . ويا ربّ مولود
أبوه الضجيع . . غير أبيه
إن هذا الغذاء يفرزه ثدياك
ملك الصغير لا تسرقيه
إن سقيت الزوار منه فقديماً
لعق الهر من دماء بنيه

ويبلغ كرهُ نزار قباني للمرأة حين وَصَف مضاجعته لامرأة ماجنة مع سبعة من أصدقائه؛ بطريقة فظّة ، عنيفة. يقول في قصيدة «المذبحة» من ديوانه «أشعار خارجة عن القانون»:

كنا ثمانية معاً . .
نتقاسم امرأة جميلة
كنا عليها كالقبيلة . .
كانت عصور الجاهلية
كلها تعوي بداخلنا
وأصوات القبيلة . .

كنا ثمانية . . .
وكان البدو فينا يصرخون . . .
ويرقصون على الوليمة
كنا نعبر عن فحولتنا . . .
فوا خجل الفحولة . . .
كنا ثمانية إذاً . . .
ووجوهنا . .
كانت مربعة الخطوط ومستطيلة
كنا نهاجمها كثيران . .
وكانت تقبل الثيران صابرة ذليلة . .
كنا نمزمز لحم نهديها . .
ونفترس الطفولة . .
ونردِّد الأشعار والحكم القديمة
«إن مات منا سيد . . .»[1]
كنا نرددها بإعجاب ،
ونفرك في شواربنا الطويلة . .
كنا ثمانية على امرأة . .
وكان الليل يرثينا . .
وترثينا الرجولة . .

ولو شئنا استقصاء الحديث لطال المقام ، وامتلأت أكداسٌ من الصفحات ، ولكن الإشارة تكفي ، وهي تدلُّ على أنَّ طائفة من الشعراء عبر العصور صوَّروا المرأة مجرد ألعوبة للهو ، وإثارة الشهوة ، فهي مجموعة جميلة تثير الغريزة ، وتدعو إلى التهتك والفجور والمجون ، فخرج أولئك عن جادة الاستقامة والخُلُق النبيل ، وعصوا تقاليد المجتمع وأعرافه السائدة ، وجاهروا بمعاصيهم

---

(١) إشارة إلى قول الشاعر:
إذا مات منا سيد قام سيد ... مكانه قؤول لما قال الكرام فعول

وآثامهم. . . إنهم تجارٌ في بضاعة الكلام ، وأعداء للأسرة المسلمة العفيفة ، بل خصوم للمرأة ، وماذا يريدون منها غير الانطلاق في حمأة الرذيلة ، والاستجابة لشهوات الماجنين؟!

إنه مسلسل الخروج عن تعاليم الإسلام ، ودَفْع النساء إلى خطوط الفساد والرذيلة ، والمقامرة بالشرف والعفة والفضيلة.

المرأة بين سماسرة القول وتجار الأدب المكشوف:

عانت النساء ، لاسيما الجواري منهن من أساليب الامتهان التي كُنَّ يتعرَّضْنَ لها ، من البيع ، والشراء ، والابتزاز ، وإقامة العلاقات مع الشبان العابثين اللاهين؛ لذا تعلَّمنَ طُرُقَ جَذْب الرجل إليهن عن طريق الفتنة الجسدية ، والإغراء في المظهر ، مع العلاقة المشبوهة التي تسودها الريبة والعبث والمجون ، وبعضهن لا تكتفي بإقامة علاقةٍ مع رجل واحد ، بل كانت تعدِّد في علاقاتها مع خلاّنها ، وبذا ينتفي عنها العفاف والحياء.

قال الجاحظ: «وكيف تسلمُ القينةُ من الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة؟! وإنما تُكتسبُ الأهواء ، وتُتعلَّم الألسنُ والأخلاق بالمنشأ ، وهي تنشأ من لَدُن مولدِها إلى أوانِ وفاتها بما يصدُّ عن ذِكْر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والأخانيث ، وبين الخُلعاء والمُجَّان ، ومَنْ لا يُسْمَعُ منه كلمةُ جِدٍّ ، ولا يُرْجَعُ منه إلى ثقةٍ ولا دِيْن ولا صيانة مروَّة»(١).

بشار بن برد:

وهذا الفسادُ الأخلاقي قاد إلى بروز الغزل المكشوف في معانيه ، والصريح في ألفاظه ، والفاجر في اتجاهه ، وهو شعرٌ يندى له الجبين ، إذْ يُقاطِعُ الأخلاق الحميدة ، ويجري صارخاً خلف الغريزة الشهوانية ، وهذا واضح في قول بشار:

حَسْبي وحَسْبُ الذي كُلِفْتُ به ... مني ومنه الحديثُ والنَّظرُ
أو قُبلةٌ في خلال ذاك وما ... بأسٌ إذا لم تُحَلَّ لي الأُزُرُ
أو عَضَّةٌ في ذراعها ولها ... فوق ذراعي مِنْ عَضِّها أثَرُ

---

(١) رسائل الجاحظ (٢/ ١٧٦).

أو لَمْسَةٌ دون مِرْطِها[1] بيدي والبابُ قد حالَ دونه السُّتُرُ
والسَّاقُ بَرَّاقةٌ مُخَلْخَلُها أو مَصُّ ريْقٍ وقد علا البُهُرُ[2]
واسترختِ الكفُّ للعِراك وقا لتْ إيهِ عني والدَّمْعُ مُنْحَدِرُ
انْهَضْ فما أنتَ كالذي زعموا أنتَ وربِّي مُغَازِلٌ أشِرُ
قد غابتِ اليومَ عنكَ حاضِنتي واللهُ لي منكَ فيكَ ينتصرُ
يا ربِّ خُذْ لي فقد ترى ضَرَعي من فاسِقٍ جاء ما به سَكَرُ
أهوى إلى مِعْضَدي[3] فرضَّضَهُ ذو قُوَّةٍ ما يُطاقُ مُقْتَدِرُ
ألصق بي لحيةً له خَشُنَتْ ذاتَ سوادٍ كأنَّها الإبَرُ
حتى عَلاَني وأسرتي غَيَبٌ[4] وَيْلي عليهم لو أنَّهم حَضَرُوا
أُقْسِمُ باللهِ لا نجوتَ بها فاذهبْ فأنتَ المساوِرُ الظَّفِرُ
كيف بأمِّي إذا رأتْ شَفَتي أمْ كيف إن شاع منكَ ذا الخبرُ
قد كنتُ أخشى الذي ابتُليتُ به منك فماذا أقولُ يا عبرُ؟![5]
قلتُ لها عند ذاك: يا سَكَني لا بأسَ إنِّي مُجَرِّبٌ خَبِرُ
قُولي لها بَقَّةٌ لها ظُفُرٌ إنْ كان في البَقِّ ماله ظُفُرُ[6]

ولمَّا وصل هذا الشعر وأمثالُه إلى الخليفة المهديّ، أنذر الشاعرَ بالعقوبة إن لم يرتدع ويكفّ عما هو فيه.

ديك الجن الحمصي:

ومن الشعراء الذين صوَّروا المرأة بدوافع حسية ماجنة: ديك الجن الحمصي، فقد كان شبابُ الشاعر اندفاعاً ليس له حدود باتجاه اصطياد اللذة الجسدية؛ التي اعتبرها هدفاً ينبغي أن يسعى خَلْفَه لتحقيقه في الواقع المعاش، مهما كان مصدرُ تلك اللذة، ذكراً أو أنثى، وقد عبَّر عن ذلك بقوله:

---

(١) «مرطها»: المِرْط: كساء من صوف أو خَزٍّ أو كَتَّانٍ يُؤْتَزَرُ به.
(٢) «البهر»: تتابع النَّفَس من الإعياء.
(٣) «معضدي»: المعضد: الدملج، وهو سوارٌ تحلّى به العضد.
(٤) «غيب»: جمع غائب.
(٥) «عبر»: هو الجريء القوي.
(٦) الأغاني (٣/ ١٨٣ ـ ١٨٤).

حَـــدُّ مـــا يُنْكَـــحُ عنـــدي حيـــــــــوانٌ فيـــــــــه روحُ
أنـــا مِـــنْ قـــولـــي مليـــحٌ أو قبيـــــحٌ مستـــــريـــــحُ
كـــلُّ مَـــنْ يمشـــي علـــى وَجْـ ـــه الثَّـــرى عنـــدي مليـــحُ[1]

فالمهمُّ عند ديك الجن هو إدراك اللذة ، وتحصيلها من أيِّ جُحْر كانت؛ لإطفاء نار الرغبة الجنسية عنده ، وبشكل أدق : لاصطياد اللذة المادية ، والتهتك في المجون الجريء ، حتى إنه كان يتهجّم على النساء المتزوجات ، ويقتحم ـ أو يحاول اقتحام ـ البيوت الآمنة على أهلها ، جَرْياً حثيثاً لا يعرف الهوادة ، مع جَمْعه بين التهتك الفاضح وشُرْب الخمر . يقول :

لأُغـــاديـــنَّ[2] الـــراحَ وهـــي زُلالُ ولأطْـــرُقَـــنَّ البيـــتَ فيـــه غـــزالُ
ولأتـــركـــنَّ حليلهـــا وبقلبـــهِ حُـــرَقٌ وحَشْـــوُ فـــؤادِه بَلْبـــالُ[3]
ولْيَشْفِيَـــنْ حُبِّـــي فَـــمٌ وجَنَـــى يَـــدٍ وكـــلاهمـــا لـــي بـــاردٌ سَلْســـالُ[4]

وهذا نوعٌ من الانحراف في السلوك الجنسي ، وجرأة غير عادية في مواجهة الحياة الاجتماعية ، التي عاش الشاعرُ بين جنباتها ، فهو مُدْمِنٌ على المسكرات ، ولا يحترمُ القانونَ العام ، ولا يبالي بالقيم الإنسانية .

ويمكن أن يسأل المرء : أكانت صحَّته النفسية غير سليمة؟ ولِمَ لَمْ يستطع التكيُّف مع الواقع الذي عاشه؟ أيرجع ذلك إلى اعتداده بنفسه ، وثقته بكبريائه ، وأنه رجلٌ بقدراته يحقُّ له أن يمارسَ ما يشاء ، ويحقق ما يصبو إليه ، ولو كان في ذلك خَرْق للنظام العام السائد في المجتمع ، أو تحدٍّ لمشاعر الناس الآخرين من حوله؟

كان همُّه الأكبر أن يلتقي بالأنثى ، ويحادثها ، ويرنو إليها ، ويصف مفاتنها ، ويحقق ذاته إلى جانبها ، فلا بُد من الاجتماع بها ، ولو كان مكان اللقيا في الجنة أو النار ، يقول :

---

(١) الديوان (٧٧).
(٢) في ديوان المعاني (١/ ١٠٦): لأنادمن.
(٣) «بلبال»: شدّة همّ ووسواس.
(٤) الديوان (١٥٣).

ألا ليتنا كُنّا جميعَيْنِ في الهوى تُضَمُّ علينا جَنَّةٌ أو جَهَنَّمُ[1]

وأعلن ديكُ الجن مجونه على الملأ ، بقصد البحث عن المتعة المادية ، واللذة الحسيّة ، وأين يجد مثل هذا إلا في نساء الحانات؟! وهو القائل :

مَـوْلاتُنـا يـا غـلامُ مُبْتَكِـرَهْ فبـاكِـرِ الكـأسَ لـي بـلا نَظِـرَهْ[2]
غَـدَتْ على اللهـو والمجون على أنَّ الفتـاةَ الحَيِيَّـةُ الخَفِـرَه[3]
لِحُبِّهـا ـ لا عَـدِمْتُهـا ـ حُـرَقٌ مطـويَّـةٌ فـي الحَشَـا ومُنْتَشِـرهْ
مـا ذُقْـتُ منهـا سـوى مُقَبَّلِهـا وضَـمٍّ تلـك الفُـروعِ مُنْحَـدِرَهْ[4]
وانْتَهَـرَتْنـي فَمِـتُّ مِـنْ فَـرَقٍ يـا حُسْنَهـا فـي الـرِّضـا ومُنْتَهِـرَهْ
ثـم انثنـتْ سَـوْرَةُ الخُمـار بنـا خِـلالَ تلـك الغَـدائِـرِ الخَمِـرهْ[5]

وقد وصف ديكُ الجن إحدى مغامراته مع ثلاث جميلات ، قد اغتنين بالحسن عن الزينة ، وعَقَدْن على أصداغهن خُصلاً من الشعر بشكل جميل كالعقارب ، وكُنَّ يتحدثن بألفاظ ساحرة ، رقيقة ، تخلب اللب ، أما جفونهن فكالسيوف الماضية ، ولما اقترب منهن أسمعهن رائق الكلام ، وحاول التحرُّش بهن ، حتى أنه قال : إنَّ عناقكن اللذيذ يمثل الحياة برمّتها ، وعند ذلك خجلت الفتيات بعد أن تركت كلماتُ الشاعر أثرها على خدودهن . قال :

بـأبـي الثـلاثُ الآنسـا تُ الـرائعـاتُ الغـانيـاتُ
أقْبَلْـنَ والأصْـداغُ فـي وَجَنَـاتِهِـنَّ مُعَقْـرَبـاتُ
ألفـاظُهـنَّ مُـؤَنَّثـا تٌ والجفـونُ مُـذَكَّـراتُ
حتـى إذا عـايَنْتُهُـنَّ ولـلأُمـورِ مُسَبَّبـاتُ

---

(١) الديوان (١٧٣).
(٢) «نظرة»: تأخير.
(٣) «الخفرة»: الشديدة الحياء.
(٤) «الفروع»: جمع فرع ، وهو الشعر التام.
(٥) «سورة الخمار»: حدّته. «الغدائر»: جمع غديرة ، وهي الخصلة من الشعر. «الخَمِرة»: الكثيفة ، والخَمَر: كل ما واراك من شجر وغيره. والأبيات في الأغاني (١٤/ ٥٢ ـ ٥٣) والديوان (١٠٠ ـ ١٠١).

جَمَّشْتُهُنَّ وقلتُ طِيْبُ عِناقِكُنَّ هو الحياةُ[1]
فَخَجِلْنَ حتى خِلْتُ أنَّ خدُودَهُنَّ مُعَصْفَراتُ[2]

وها هي امرأة ماجنة ، لها علاقة بديك الجن ، كانت وإياه تحت غطاء واحد ، وكان الوقتُ ليلاً ، والمكان آمن بعيد عن أعين الرقباء ، فأخذا يتساقيان الهوى ، وينهلان من مورده ، بينما الشاعر يصف تلك المغامرة بقوله :

ومَعْدُولةٍ مَهْما أمالتْ إزارها فَغُصْنٌ وأمّا قَدُّها فَقَضِيبُ
لها القمرُ السَّاري شقيقٌ وإنها لَتَطْلُعُ أحياناً له فيغيبُ
أقولُ لها والليلُ مُرخٍ سُدُولَه وغُصْنُ الهوى غَضُّ النَّباتِ رَطيبُ
ونحنُ بِهِ فَرْدان في ثِنْيِ مِئْزَرٍ بِكِ العيشُ ـ يا زينَ النِّساء ـ يطيبُ
لأنتِ المنى يا زَيْنَ كلِّ مليحةٍ وأنت الهوى أُدْعَى له فأُجيبُ[3]

وبقي ديكُ الجن يتنقَّل من امرأة إلى أخرى ، وهو يعتبر العلاقة بين الرجل والمرأة مادية صِرْفة ، إلى جانب تقلُّبه في علاقاته ، وعدم ثباته على امرأةٍ بعينها .

ولكن ما الظروف التي دفعت هذا الشاعر أو ذاك إلى تصوير المرأة بطريقة لا أخلاقية مكشوفة؟! أليس للبيئة التي عاش في رحابها أثر معيَّن في اتجاهه نحو المجون؟!

لقد كثرت الجواري في المجتمع العباسي على اختلاف أجناسهن ومشاربهن ، كما ارتبط الحديث عنهن بالغناء والرقص والظرف ، مما ساعد على ظهور اللهو ، وانتشاره على نطاق واسع ، وبالتالي نَجَم الغزلُ الحسِّي بنوعيه الصريح الفاحش وغير الفاحش «فالمرأة العربية الحرة لم تَعُدْ موضوعاً لهذا الغزل إلا في القليل النادر ، وذلك لكثرة الإماء ، والجواري ، والقيان ، وغزوهنّ المجتمع غزواً لم يشهدْ له المجتمع العربي مثيلاً ، فتقدَّم هؤلاء الصفوفَ ، وتنحَّتِ المرأةُ الحرَّة جانباً»[4] .

---

(١) «جمشتهن» : جمش : قرص وداعب.
(٢) الديوان (٦٩) والمحب والمحبوب (١/ ٨٣).
(٣) الديوان (٤٩ ـ ٥٠) وأعيان الشيعة (٨/ ١٥) والمستطرف في كل فن مستظرف (٢/ ٢٧٠).
(٤) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ليوسف حسين بكار (١١١).

وإن التحوُّل في الحياة الاجتماعية نتج عنه أن المرأة صارت تُباع في الأسواق ، ومَنْ يملك المالَ يشتري المرأة ، وبمقدار ما يملك يستطيع أن يحظى بالأجمل والأنقى والأذكى ، وبالتالي انتشرت الجواري في كل مكان ، في قصور السادة ، وفي حانات الخمَّارين ، وفي بيوت الناس ، وانتشر مع هذه الظاهرة الغِناء ، واللهو ، والعبث ، والمجون «ولهذا السبب هبط الغزل من عليائه عند أغلب الشعراء ، ولم نعد نعرف فيهم عاشقاً خالط العشقُ قلبه ، ونفذ إلى قرارة نفسه إلا قليلاً ، وأصبح الغزلُ في جملته تعبيراً عن لذَّة عابرة ، وشهوة طارئة ، لا تصل إلى طوايا النفس ، ولا تثبت على حال ، وهكذا كانت الحضارةُ جنايةً من بعض الوجوه على الغزل»[١] .

وكانت الإماء مظهراً مألوفاً في الدولة العباسية ، وله وجه سيىء للغاية؛ لأنَّهن كُنَّ مبتذلات ، خليعات ، يتهالكن على اللهو والهوى ، ويسرفن في المجون ، ويتخذن من الخلاعة سلاحاً يتملّقن به لذَّة الرجال ، ويقضين شهواتهم؛ بما اتصفن به من انحطاطِ خُلُقي ، وإسراف في المجون[٢] .

وجاء ديكُ الجن ليصف المرأةَ الماجنة اللعوب ، والتي تُبادله المغامرة والمتعة واللذة ، وعدم التحرُّج من إقامة أكثر من علاقة مع هذا وذاك . . إنها امرأة تستجيب لنداء الرجال؛ بكل ما تملكه من مفاتن أنثوية ، ومحاسن جسدية ، وقدرة على اصطياد الآخرين ، فهي مطاوِعة من غير خجل ، ومَرِنة دون رادع .

وقد وصفها ديكُ الجن وصفاً مركَّزاً، فَعَرَض ما تملك من إثارة، وجسم معتدل كأنه الغصن ، وقوام ممشوق كالقضيب في حُسْن تمايله ، وجودة استقامته ، مع جمالٍ كالقمر ، والليل يرخي سُدوله على رجل وامرأة يلتفان بمئزرٍ واحد .

ويبدو ديكُ الجن في تصويره للمرأة الماجنة منقلباً على الحب العفيف؛ فهو يبتغي التأرجح من فتاة لأخرى ، سعياً وراء الجمال والمتعة المادية المتمثّلة بجسد المرأة .

ويُصرِّح ديكُ الجن بذكر أعضاء المرأة الماجنة؛ التي تُلبّي مطالبه ، وتحقق

---

(١) الشعر في بغداد ، لعبد الستار الجواري (٢٠٧).

(٢) حديث الأربعاء ، لطه حسين (٢/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

رغباته الجنسية ، ويشير إلى مراكز الفتنة في جسدها؛ بكل عبثية وقصف وخلاعة. يقول :

ظَلِلْتُ بها أجْني ثِمارَ نُحُورِها فَتُوسِعُني سَبّاً وأُوسِعُها صَبْرا[(١)]

وكأنَّ الشاعر أصبح معروفاً لدى النساء الماجنات ، بأنه يدَّعي محبَّتهن ، ويسكب دموعه على فراقهن كذباً ومَيْناً ، فهو بعيد عن صدق المشاعر ، لا يدرك حرارة الهوى ، ولم يكتو بتباريح الجوى ، وها هو يصف إحداهن وقد كشفتْ دخيلةَ نفسه ، ووصفت كامنَ وجدانه. يقول :

وقائِلَةٍ وقَدْ بَصُرَتْ بِدَمْعٍ على الخَدَّيْنِ مُنْحَدِرٍ سَكُوبِ
تكذِبُ في البكاءِ وأنتَ خِلْوٌ قديماً ما جَسَرْتَ على الذُّنوبِ
قميصُكَ والدُّموعُ تجولُ فيه وقَلْبُكَ ليس بالقلبِ الكئيبِ
شَبيهُ قميصِ يوسُفَ حين جاؤوا على لَبَّاتِهِ بِدَمٍ كَذُوبِ[(٢)]
دُمُوعُ العاشقينَ إذا توالَتْ بِظَهْرِ الغَيْبِ أَلْسِنَةُ القُلُوبِ[(٣)]

ومِنْ كثرة مغامرات ديك الجن مع الخليعات الماجنات ، صار لا يثق بالنساء؛ لأنهن لا يفين بالوعود ، ولا يحفظن العهود ، والغدر منهن بادٍ ، والهوى يُوقع في مكرهن. يقول :

أخا الرَّأْيِ والتَّدبير لا تَرْكَبِ الهَوَى فإنَّ الهَوَى يُرْدِيْكَ مِنْ حَيْثُ لا تَدْري
ولا تَثِقَنْ بالغانياتِ وإنْ وَفَتْ وَفَاءُ الغَواني بالعُهُودِ مِنَ الغَدْرِ[(٤)]

وتظهر المرأة الماجنة بشكل واضح في الحانات ، حيث تعمل ساقية للخمر ، أو بائعة للهوى ، حيث تتودَّد للزبائن الذين يرتادون الحانة لاحتساء كؤوس الخمر ، وعَقْد مجالس الشراب واللهو.

امرؤ القيس :

وهذه المغامرات ليست جديدةً في عالم الأدب العربي ، فقد تعاورها الشعراء

---

(١) الديوان (١٠٧) وثمار القلوب (٣٣٩).
(٢) «لباته»: جمع لبة ، وهي موضع القلادة من العنق.
(٣) الديوان (٦٥ ـ ٦٦) ومصارع العشاق؛ لابن السراج (٢/ ٢٠٠ ـ ٢٠١).
(٤) الديوان (١١١).

قبل ديك الجن ، فكانت لهم مغامراتهم وتصوُّراتهم الخاصة بالمرأة العابثة . وكان امرؤ القيس من أقدم الشعراء المؤسِّسين لهذا الاتجاه ، ولا بأس بإطلالة على الشاعر امرىء القيس ، في عبثه ، ولهوه ، ومجونه ، لا سيما في النصف الأول من حياته ، أي : قبل أن يُقتَل والده .

فامرؤ القيس يتصيَّد النساء ، حتى شُهِر بأنه من عُشَّاق العرب الزُّناة[1] . ومِنْ أشهر ما عُرِف عنه من أيام اللهو والعبث : دارة جُلْجُل ، وبيضة الخِدْر ، وغير ذلك .

ففي يوم دارة جُلْجُل يصف أن صاحبته عُنيزة كانت تتأبَّى عليه ، فيردُّ إباءها ، لينال من حُمْرة خدَّيها بالقُبَل ، ويدعوها لتعلِّله بشذا فمها الذي يشبه زهر القرنفل ، ثم يصف ثغرها ، وبياض أسنانها ، ونقاء ذلك كزهر الأقاح ، وريقها صافٍ رقيق . وفي الوقت الذي قضاه مع صاحبته عُنيزة يفخر بذاته وصفاته ؛ بأن الحبالى والمرضعات يرغَبْنَ فيه ، على الرغم من عدم رغبتهن في الرجال . يقول :

ألاَ رُبَّ يومٍ لكَ مِنْهُنَّ صالحٍ ... ولا سِيَّما يَوْمٍ بِدَارةِ جُلْجُلِ[2]
ويومَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ ... فقالتْ : لكَ الويلاتُ إنَّكَ مُرْجِلي[3]
تقولُ وقد مالَ الغَبيطُ بنا معَاً ... عَقَرْتَ بعيري يا امرأَ القيسِ فانْزِلِ[4]
فقلتُ لها سِيرِي وأرْخِي زِمَامَهُ ... ولا تُبْعِدِيني مِنْ جَنَاكِ المُعَلَّلِ[5]
فَمِثْلُكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ ... فَأَلْهَيْتُها عَنْ ذِيْ تمائِمَ مُحْوِلِ[6]
إذا ما بكَى مِنْ خَلْفِها انصرفَتْ لهُ ... بِشِقٍّ وتحتي شِقُّها لم يُحوَّلِ[7]

---

(١) الشعر والشعراء (١/ ١٢٢).
(٢) «دارة جلجل»: من منازل حُجر الكندي بنجد. معجم البلدان (٢/ ٤٢٦).
(٣) «الخدر»: الهودج. «عُنيزة»: اسم عشيقته ، وهي ابنة عمه. «الويلات»: جمع ويل ، وهو شدَّة العذاب.
(٤) «الغبيط»: نوع من الهوادج.
(٥) «المعلل»: المكرّر.
(٦) «طرقت»: أتيتُ ليلاً. «تمائم»: جمع تميمة ، وهي العوذة. «محول»: أتمَّ الحول.
(٧) ديوان امرىء القيس (١١٣) وشرح المعلقات السبع للزوزني ، تحقيق يوسف علي بديوي (٣٩ ـ ٤٣).

ويُتابع امرؤ القيس مغامراته اللاهية ، فهذه صاحبته غادة مُخَدَّرة ، لا يُستطاع الوصولُ إليها ، بسبب الحراسة المشدَّدة ، لكن الشاعر يقتحم خلوتها ، ويلهو بها على مهل ، غير خائف من أحد ، ولمّا جاءها امرؤ القيس وجدها قد خلعت ثوبها ، ولبست غلالةً شفافة ، يَظْهر جَسَدُها الجميل من خلالها ، وهي لا تجدُ لنفسها حيلةً في دَفْعه أو منعه ، وتوافقه على الخروج من خِدْرها لقضاء وقت المتعة ، فأخذها بطيب نفسٍ منها ، وراحتْ تجرِّر ثوبها لتمحو آثار الخطوات ، وتخفي معالمَ الأثر. ثم يصفُ الشاعرُ مغامرته مع تلك اللعوب؛ بأنه جَذَبها من جانبي رأسها ومِنْ شعرها ، وأمالها نحوه من أجل تقبيلها ، وبدأ يتحسَّس نواحي جسدها المادية. يقول:

وبَيْضَــةِ خِــدْرٍ لا يُــرَامُ خِبــاؤُهــا ... تَمتَّعْــتُ مِــنْ لَهْـوٍ بهـا غَيْـرَ مُعْجَـلِ
تجـاوزتُ أحـراسـاً إليهـا ومَعْشَـراً ... علـيَّ حِـرَاصـاً لـو يسـرُّونَ مَقْتَلـي
فجئــتُ وقـد نَضَّــتْ لِنَـوْمٍ ثيـابَهـا ... لـدى السِّتْـرِ إلاَّ لِبْسَـةَ المُتَفَضِّـلِ[1]
فقــالــتْ يميــنَ اللهِ مــالَــكَ حِيلــةٌ ... وما إنْ أرَى عنكَ الغَوايةَ تَنْجَلي[2]
خَـرَجْـتُ بهـا أمْشـي تجـرُّ وراءنـا ... علـى أثَـرَيْنـا ذَيْـلَ مِـرْطٍ مُـرَحَّـلِ[3]
فلمَّـا أجَـزْنـا سـاحـةَ الحيِّ وانتَحَـى ... بنا بَطْنُ خَبْتٍ ذي حِقافٍ عَقَنْقَلِ[4]
هَصَـرْتُ بِفَـوْدَيْ رأسِهـا فتمـايلـتْ ... عليَّ هَضِيْمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخلْخَلِ[5][6]

والذي نريد أن نصل إليه: أنَّ امرأ القيس أستاذ ديك الجن في قضية الأدب المكشوف ، والجرأة في تصوير الخلاعة وسفاسف الأمور ، وضروب الفتنة ، ومكامن الإثارة ، والعبث الماجن.

---

(١) «نضَّت»: خلعت. «المتفضل»: اللابس ثوباً واحداً إذا أراد الخفة في العمل.
(٢) «الغواية»: الضلالة. «تنجلي»: تنكشف.
(٣) «مرط»: هو كساء من خز أو صوف. «مرحّل»: منقّش بنقوش تشبه رحال الإبل.
(٤) «أجزنا»: تجاوزنا وقطعنا. «الحي»: القبيلة. «بطن»: مكان مطمئن حوله أماكن مرتفعة. «خبت»: أرض مطمئنة. «حقاف»: جمع حقف ، وهو رمل مشرف معوج. «عقنقل»: منعقد متلبّد.
(٥) «هصرت»: جذبت. «بفودي»: هما جانبا الرأس. «هضيم»: ضامر. «الكشح»: منقطع الأضلاع. «المخلخل»: موضع الخلخال من الساق.
(٦) ديوان امرىء القيس (١١٤) وشرح المعلقات السبع (٤٦ ـ ٥٠).

عمـر بـن أبـي ربـيـعـة:

ويستمر نهج الأدب الإباحي يحثُّ خطاه في شعر عمر بن أبي ربيعة (ت ٩٣هـ) الذي تعدَّدتْ محبوباته، وعُرِف بالمجون والغزل الحسّي.

ولا يمكن فَهْمُ الرسالة الشعرية لشاعرٍ ما إلا من خلال معرفة الزمن والبيئة التي عاش فيها، فلكل عصر عقليته، وانفتاحه أو انغلاقه، وها هو ابنُ حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـ) يشير إلى عقلية القرون المتلاحقة؛ إذ كان يُمنع الكلام عن العشاق الملوك، فيقول: «وإنما يجبُ أن تذكر من أخبارهم ما فيه الحزم، وإحياء الدِّيْن، وإنما هو ـ أي: العشق ـ شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم، فلا ينبغي الإخبارُ به عنهم»[١].

وهذا منطلق خاصٌّ يرتبط بالأخلاق، والسمعة العامة، والرموز الاجتماعية والدينية، بَيْد أن كثيراً من الشعراء كسروا هذا القيد، وانطلقوا يُعبِّرون عن نفوسهم، ومشاعرهم، بما يرونه الترجمة الصحيحة عن المجتمع وتصوُّراته، وعن العلاقات القائمة في الزوايا المظلمة، فسلّطوا عليها الأضواء، ونالوا من جرَّاء ذلك الأذى والعقوبة.

ويقرأ الباحث بعضاً من نزوات عمر بن أبي ربيعة؛ تلك النزوات المعبِّرة بصراحة عن المغامرات العاطفية، وفيها فَضْح للحرائر، وهجوم على الذوق الاجتماعي العام؛ ومِنْ أشهر تلك المغامرات قول عمر بن أبي ربيعة:

ونـاهـدةِ الثَّـدْيَيْـنِ قلـتُ لهـا: اتّكـي ... على الرَّمْلِ مِنْ جَبَّانةٍ لم تُوَسَّدِ[٢]
فقالتْ: على اسمِ الله، أمْرُكَ طاعةٌ ... وإن كنـتُ قـد كُلِّفْـتُ مـا لـم أعَـوَّدِ
فلمَّا دَنَا الإصباحُ قالت: فَضَحْتَنِي ... فقُمْ غيرَ مَطْرُودٍ وإن شِئْتَ فازْدَدِ[٣]

---

(١) طوق الحمامة (١٠٠).

(٢) «جبّانة»: هي الصحراء، وتُسمَّى بها المقابر؛ لأنها تكون بها، وشرحها سليمان الخش بأنها: الربوة من الأرض. يُنظر كتاب: مقتطفات من الأدب الإسلامي والأموي (٥٢٦).

(٣) الأغاني (١/ ١٩٢).

وفي قصيدةٍ أخرى يرسم عمر بن أبي ربيعة شيئاً من الأدب المكشوف؛ المعبِّر عن مغامرةٍ عاطفية ، مستوحاة من مغامرات امرىء القيس ، يقول :

قالتْ وعَيْشِ أخي ونعمةِ والدي ... لأُنَبِّهَنَّ الحيَّ إنْ لَمْ تَخْرُجِ
فخرجتُ خَوْفَ يمينها فتَبَسَّمتْ ... فَعَلِمْتُ أن يمينَها لم تَحْرَجِ[1]
فتناولتْ رأسي لتَعْرِفَ مَسَّهُ ... بِمُخضَّبِ الأطرافِ غيرِ مُشَنَّجِ[2]
فَلَثَمْتُ فاهَا آخِذاً بِقرونِها ... شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ[3][4]

وجاء الشاعر الماجن ووجد أمامه كثيراً من شعر الأدب المكشوف ، فأفاد منه في تجربته الشعرية ، ومِنْ خلال المعطيات المستجدَّة في المجتمع ، الذي عاش في كنفه ، إن لم نَقُلْ: إنه عبَّر عن تلك النسوة اللواتي عرفهن ، ومثلهن كثير في ذاك المجتمع .

وكان تصويره للمرأة الماجنة يتصف بالنزعة المادية الخالصة ، بقصد نَيْل اللذة ، ولو كان في ذلك إساءة لأخلاق المجتمع وأحكامه .

كما يُلحظ التقلُّب الشديد من ماجنة لأخرى؛ لكثرتهن ، مع التعبير الصريح عن العلاقات الناشئة بين الذكر والأنثى ، تلك العلاقات القصيرة المدى ، والتي لا تلبث أن تنتهي بانتهاء قضاء الوطر . وكل هذا يستدعي تصوير جمال المرأة ، وإبراز مفاتنها ، إكمالاً لمشهد التهالك على اقتناص المتعة ، والظفر بالجمال المادي البحت ، ولا بأس بشيء من العواطف ، ولو كانت غير صادقة .

مطيع بن إياس:

والناظر في ديوان الشعر العربي يلحظ وجودَ قدر لا بأس به من الوصف الحسي الفاحش للمرأة ، كما يتجمع لديه طائفة من الأخبار المتعلقة بالمرأة الماجنة ، ودورها في التأثير والتلاعب واستقطاب طالبي الشهوة ، ففي كتاب

---

(١) «لم تحرج»: لم تضق، ولم تكن جادّة في حلفها ، فلا تأثم إذا لم تبرَّ فيه.
(٢) «مشنج»: متقبّض.
(٣) «النزيف»: المنزوف. «الحشرج»: النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو، أو: هو كوز صغير لطيف.
(٤) الأغاني (١/ ١٩١).

الأغاني[١] أن «بربر» جارية آل سليمان كان لها جوارٍ مغنيات، من بينهن «جوهر»، وكانت توجّه بهن إلى عسكر الخليفة المهدي؛ لبثِّ الفساد بينهم، حتى قال مطيع بن إياس:

خافي اللهَ يا جوهر ... فقد أفسدتِ ذا العسكر
أفضتِ الفسقَ في الناس ... فصار الفِسْقُ لا يُنكر
ومَنْ ذا يملك الناسَ ... إذا ما أقبلتْ بربر؟!

وطَلَبَ «مطيعٌ» أيضاً من النساء تحقيق رغباته بكل صراحة وجرأة، فطلب من جارية مغنية أن تُقبِّله، فيعطيها مبلغاً من المال. فقال:

قَبِّليني سعادُ بالله قُبْله ... واسأليني لها فديتُكِ نِحْله
فوربِّ السماءِ لو قلتِ لي صَـ ... ـلِّ لوجهي جعلتُه الدهرَ قِبْله[٢]

إلى هذا المستوى بلغت الجرأة والوقاحة بشاعر كمطيع بن إياس، وكأنَّ المرأة مجرد ألعوبة يُتسلَّى بها، أو متاع يحقق مطالب الرجل الماجن كلما شاء ذلك.

وذكر مطيع أنه كان يخلو بالمرأة، ويُقبِّلها، وينتشي باللقاء معها، فيقول:

وكأني ذائقٌ من فمها ... كلما قَبَّلْتُ فاها سُكَّرَه
وكأني حين أخلو معها ... فائزٌ بالجنة المُخْتَضِرَه[٣]

أبو نواس:

أمَّا أبو نواس فإنَّ المجون ينضح من شفتيه، فلا يريد من صاحبته أن تسترسل في العتاب، وأن تُقلِّل الكلام، بل تؤجِّله إلى يوم آخر، وتجعل يومها هذا للفراش، يقول:

قد مَلَلْنا العتابَ وهو كثير ... فاقْصدي قصْد ما عليه ندور
واجعلي للعتاب يوماً سوى ذا ... وانهضي لا بوجهك التصفير
واجْعلي للفراش منكِ نصيباً ... فهو مما به يتمُّ السُّرور

---

(١) الأغاني (٢١/ ٨٦).
(٢) الأغاني (١٤/ ٣٥٤).
(٣) شعراء عباسيون (٥٧).

فاستقلَّتْ[1] على الفراش، عليه حُلَلٌ حشوهُن طيب ونور
فنسينا عتابنا وتواهبنـ ـا إساءاتنا وصحَّ الضمير
ما ذكرنا من الذي كان شيئاً بعد إذ ضمَّني الغزال الغرير[2]

الخليع:

أما «الخليع» فكان كلامه فاحشاً كغيره من شعراء الأدب المكشوف، حيث اغتنم فرصة مرض «نُجْح» خادم مولاة المغنية «فتن» والذي كان يجيء معها، فقال:

لستُ أنسى من الغَريرة إذْ بُحْتُ بالشَّجَنْ
قولَها إذْ سَلَبْتُها عن كثيبٍ وعن عُكَنْ
ليس يرضيك يا فتى من هوى دون أن تَهنْ
فامتزجْنا معاً مُما زجةَ الروح للبدنْ
وكُفينا من أن نُرا قِبَ «نُجْحاً» إذا فطنْ
وأمناه أن ينمَّ وما كان مؤتمنْ
كل ما كان من حبيـ ـبك مستظرفٌ حَسَنْ[3]

مسلم بن الوليد:

واعترف مسلم بن الوليد بمجونه، ولهوه، وانغماسه في طلب اللذات، وتصوير المرأة تصويراً غير لائق بها، يقول:

وإن شئتُ أن ألتذَّ نازلتُ جيدَها فعانقتُ دون الجيد نَظْمَ القرنفلِ
أُنازِعُها سِرَّ الحديث وتارةً رُضاباً لذيذَ المطعم عَذْبَ المُقبَّلِ
وما العيشُ إلا أن أبيت مُوسَّداً ـ صريعُ مدامٍ ـ كَفَّ أحورَ أكحلِ

واستمرَّ تدفُّقُ شعراء المجون؛ الذين عادوا المرأة، فحرَّضوا على الفساد والفاحشة، وحملوا لواء العري، ووصْف المرأة بشكل مادي، وبعبارات بذيئة، تُوحي بالفجور، وتُروِّج للتفريط بالأخلاق، حتى صار لسانُ كل شاعر فاجر ينادي:

وكنتُ امرأً من جند إبليس فارتقى بي الحالُ حتى صار إبليسُ من جندي

---

(1) «فاستقلت»: انفردت.
(2) ديوان أبي نواس، شرح محمود واصف (٣٧٦ ـ ٣٧٧).
(3) أشعار الخليع (١٠٨).

ربيعة الرقي:

ومن جملة أولئك الضالين المضلِّين: الشاعر ربيعة الرقي، الملقَّب بالغاوي؛ لفساده، وضلاله، وانهماكه في الباطل، وشغفه به، وفحشه الفاضح، فقد كان لاهياً، ماجناً، شارداً في حياته وسلوكه.

وأشار الدكتور شوقي ضيف إلى أن «ربيعة» هذا لُقِّب بالغاوي لتقصيره في واجباته الدينية، وانشغاله بالغزل والقيان والجواري؛ حيث يركضُ خلفهن دائماً[1].

والحق أن «ربيعة الرقي» قد ذهب مذهباً بعيداً في المتعة، وأراد من المرأة أن تحقق له رغباته الجسدية، يقول:

الحبُّ داءٌ عياءٌ لا دواءَ له ... إلا نسيمُ حبيبٍ طيبِ النَّسَمِ
أو قبلة من فمٍ نِلْتُ مخالسةً ... وما حرامٌ فمٌ ألصقتَه بفَمِ
هذا حرامٌ لمن قد عدَّه لمماً ... ولن يُعذِّبنا الرحمنُ باللمَمِ[2]

ويغَصُّ شعرُه بإشارات صريحة إلى التهتك، وإشاعة موجةٍ عاتية من الفتنة، وإثارة الشهوات، والتغزل ببائعات الهوى. يقول:

وأنتِ طيبةٌ في القيظِ باردةٌ ... وفي الشِّتاءِ سخونٌ ليلةَ الصَّردِ
تسقي الضَّجيعَ من مُقَبَّلها ... من باردٍ واضحِ الأنياب كالبردِ
يا ليتني قبلْ موتي قد خلوتُ بها ... على الحشيَّةِ بين السجف والنَّضد[3]
قد وسَّدتني اليدَ اليمنى ويا رِقَّها ... ودملج العضدِ اليسرى على عضدي[4]

وصوَّر خلوته بفتاة لعوب، قضى معها وقتاً طويلاً استمر إلى أن تنفَّس الصباح، وسمع صياح الديك، يقول:

وفتاةٍ غير راح ... ذات لهوٍ ومزاحِ
قد تجشَّمتُ إليها ... هولَ ليلٍ ونباحِ

---

(١) العصر العباسي الأول؛ للدكتور شوقي ضيف (٣٨٠).
(٢) طبقات الشعراء؛ لابن المعتز (١٦٧).
(٣) «السجف»: الستران بينهما فرجة. «النضد»: السرير، والفُرش المنضَّدة المرتبة.
(٤) طبقات الشعراء؛ لابن المعتز (١٧٠).

فخلـــــونـــــا بفتـــــاةٍ غـــادةٍ غـــرثـــى الـــوشـــاحِ
فلبســـتُ العكـــنَ البيـــضَ مـــن الخـــودِ الـــرَّداحِ
ثـــم لمـــا صـــاح ديـــكٌ قبـــل إبـــان الصبـــاحِ
قلـــتُ: صِـــخ يـــا ديـــكُ ألفـــاً ليـــس ذا وقـــتُ البـــراح
أو أرى الصبـــــح وإن كـــــا نَ لفـــي الصبـــح افتضـــاحـــي[1]

وهذا تعدٍّ سافر على المرأة ، وتمرُّد على الفضيلة ، ودعوة إلى ارتكاب الكبائر ، ومصادقة الفتن ، والمروق من الأخلاق ، وممالأة الشر والرذيلة .

* * *

(١) المصدر السابق (١٧١).

الباب الخامس

رسالة الأسرة المسلمة اليوم

الفصل الأول:

اعتماد التربية الإسلامية باعتبارها الحلّ الأمثل

الفصل الثاني:

مواجهة التغريب الثقافي والإعلامي

الفصل الثالث:

تأكيد الاستقرار النفسي لتمتين العلاقات الأسرية

الفصل الأول

اعتماد التربية الإسلامية باعتبارها الحلّ الأمثل

تمتازُ التربيةُ الإسلامية بجُمْلة خصائص ، تتفوّق من خلالها على كثيرٍ من النظريات التربوية في القديم والحديث ، سواء من حيث الأسس التربوية ، أم من حيث الأهداف المرجوّة ، أم الأساليب المتَّبعة ، فهي تربية تستقي قواعدها من التشريع الرباني ، وتتوجَّه لغرس الأخلاق الفاضلة في النفوس المؤمنة ، وبالتالي ينشأ جيلٌ لديه العقيدة الصحيحة ، والمعارف الأساسية ، والتوجيه المُرشِد ، ويأخذ بالعلوم الدينية والدنيوية لعمارة الكون ، وتحقيق قضية الاستخلاف في الأرض.

ومِنْ خصائص التربية في الإسلام :

(أ) الاهتمام بالطفل ككائن حيّ مستقل :

وقد سبقتِ الشريعةُ الإسلامية كل المواثيق الدولية في حماية الطفولة ، إذ كان إعلانُ جنيف الخاص بحقوق الطفل الصادر سنة (١٩٢٤م) بمثابة أول اهتمام عالمي بفلذات الأكباد ، أمّا القرآنُ الكريم فقد نظَّم الأسرة ، ورعى حقوق وواجبات الزوجين ، واعتنى بالأمومة والطفولة عناية متفرِّدة ، باعتبار أن الطفل أساس المجتمع ، والأسرة أول حاضنٍ له.

وهذا عمر بن الخطاب يفرضُ لكلِّ مولودٍ عطاءً من بيت المال ، وكلما نما الولد زاد العطاء. وقد جرى على هذه القاعدة عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، ومَنْ بعدهم من الخلفاء.

ورغَّب الإسلامُ أن يحمل الطفلُ اسماً حسناً ، قال رسولُ الله ﷺ: «إنكم

تُدْعَوْن يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فحسِّنُوا أسماءكم»[1].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : أنَّ ابنةً لعمر كان يُقال لها عاصية ، فسمَّاها رسول الله ﷺ جميلة[2].

ومن الثابت في التاريخ أنَّ مِنْ بين الأوقاف الخيرية التي أوقفها صلاح الدين الأيوبي : «وقفاً لإمداد الأمهات بالحليب اللازم لأطفالهن ، جعل في أحد أبواب قلعة دمشق ميزاباً يسيل منه الحليب ، وميزاباً آخر يسيل منه الماء المذاب بالسكر ، فتأتي الأمهات يومين في كل أسبوع فيأخذن لأطفالهنَّ ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر.

ومن أطرف المؤسَّسات وقف «الزبادي» للأولاد؛ الذين يكسرون «الزبادي» وهم في طريقهم إلى البيت ، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا «زبادي» جديدة بدلاً من المكسورة ، ثم يرجعوا إلى أهليهم وكأنهم لم يصنعوا شيئاً»[3].

وكل هذا كان جَبْراً لخاطر الطفل ، ودَفع العقاب عنه ، وتأمين احتياجاته.

كما أولت الشريعةُ الإسلامية الطفل أعلى أنواع الرعاية الاجتماعية ، حيث أعطته حق الرضاع ، والحضانة ، وعدم تنفيذ عقوبة القتل في المرأة الحامل؛ حماية للجنين ، كما أسبغت رعايتها على اللقيط ، وعلى كل طفل لا عائلَ له.

واهتمت الشريعة الإسلامية بتعليم الطفل وتربيته ، والتسوية بين الولد والبنت ، وعدم ترك الأطفال بين أيدي الخدم والحشم؛ لئلا يتأثروا بأخلاقهم وأفعالهم[4].

ولم يكن الطفل وافداً غريباً في الأسر الإسلامية ، بل كان مبعث سرورهم ، ومنبع حفاوتهم ، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة؛ إذ كان يُسلِّم على الصبيان ، ويُقبِّل الحسنَ والحسين أبناء فاطمة الزهراء ، ويلاعبهما ، ويسابق بينهما. وكان يحمل أمامة بنت ابنته زينب ، وهو في الصلاة.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٩٤) وأبو داود (٤٩٤٨) وابن حبان (٥٧٨٨).
(٢) رواه الترمذي (٢٨٣٨) وابن ماجه (٣٧٣٣).
(٣) من روائع حضارتنا؛ للدكتور مصطفى السباعي (١٢٧).
(٤) تهذيب الأخلاق؛ لابن مسكويه (٦٣).

ولم يسمح الإسلام باستخدام الطفل في الأعمال المرهقة ، والقاسية ؛ إذا كان دون سن الخامسة عشرة من عمره ، فيكون قادراً على تحمُّل بعض الأعباء.

قال ابنُ عمر: عَرَضَني رسولُ الله ﷺ يوم أُحُد في القتال وأنا ابنُ أربع عشرة سنة ، فلم يُجِزْني ، وعَرَضَني يوم الخندق وأنا ابنُ خمس عشرة سنة فأجازني. قال نافع: فقدمتُ على عمر بن عبد العزيز ، وهو يومئذٍ خليفة ، فحدَّثتُه هذا الحديث ، فقال: إنَّ هذا لحَدٌّ بين الصغير والكبير ، فكتب إلى عُمَّاله أن يفرضوا لمن كان ابنَ خمس عشرة سنة ، ومَنْ كان دون ذلك فاجعلوه في العيال[(١)].

(ب) مراعاة الفروق الفردية:

لا يمكنُ أن نطبِّق نظاماً تربوياً بكل فروعه وتفاصيله على الناس قاطبة ، فثَّمة فروق فردية واضحة بين هذا وذاك ؛ تبعاً لكثير من العوامل الخَلْقية ، والثقافية ، والأسرية ، والاجتماعية.. ومِنْ هنا راعى الإسلامُ تلك الفروق في سياسته التربوية ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أُمِرنا أن نُكلِّم الناسَ على قَدْرِ عقولهم»[(٢)].

وقال عليُّ بن أبي طالب: حَدِّثوا الناسَ بما يعرفون ، أَتُحِبُّون أن يُكذَّب اللهُ ورسولُه[(٣)]؟! والمراد بـ «يعرفون»: أي: يفهمون.

وعن عبد الله بن مسعود قال: ما أنتَ بِمُحَدِّثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولُهم إلا كان لبعضهم فتنة[(٤)].

وقد اهتم علماءُ الإسلام بالفروق الفردية بين الأطفال ، وراعوها في التربية والتعليم والتهذيب ، فقال أبو حامد الغزالي: «وكما أنَّ الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاجٍ واحد قتل أكثرهم ، كذلك المربِّي لو أشار على المريدين بنمطٍ واحدٍ من الرياضة أهلكهم ، وأمات قلوبهم. وإنما ينبغي أن ينظر في مَرَض

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦٤) ومسلم (١٨٦٨).
(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس (١٦١١).
(٣) رواه البخاري موصولاً (١٢٧) وموقوفاً (١/ ٢٢٥).
(٤) رواه مسلم (٥) وأبو داود (٤٩٩٢).

المريد ، وفي حاله ، وسنِّه ، ومزاجه ، وما تحتمله نَفْسُه من الرياضة ، ويبني على ذلك رياضَتَـهُ»[١].

وتحدَّث ابنُ قيِّم الجوزية عن دور الأب في العناية بقدرات ولده ، وممارسة حسِّه التربوي عليه ، فيقول: «ينبغي أن يتأمَّل حال الصبي ما هو مستعدٌّ له من الأعمال ، ومُهيَّأ له منها ، فيعلم أنه مخلوق له ، فلا يحمله على غيره مما كان مأذوناً فيه شرعاً»[٢].

ثم يوضِّح ضرورةَ توظيف قدرات ولده في مواضعها المناسبة ، فيقول: «فإذا رآه حَسَنَ الفهم ، صحيح الإدراك ، جيِّد الحفظ ، واعياً ، فهذا من علامات قبوله ، وتهيئته للعلم ، فلينقشه في لوح قلبه ، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه ، وأنه لا فَهْم له في العلم ، مكِّنه من الفروسية ، والتَّمرُّن عليها ، وإن رآه بخلاف ذلك ، وأنه لم يُخلَقْ لذلك ، ورأى عينه مفتوحةً إلى صنعةٍ ، مستعداً لها ، قابلاً عليها ، وهي صنعة نافعة للناس ، فيمكِّنه منها. هذا كله بعد تعليمه ما يحتاجُ إليه في دينه»[٣].

ثم يأتي دور المدرِّس للتعرُّف على أحوال الطلاب ، ومعرفة اتجاهاتهم وميولهم ، واختيار ما يناسبهم ، يقول طاش كبرى زاده: «ينبغي لطالب العلم أن يُفوِّض ترتيب العلوم في التحضير إذا رأى الأستاذ الناصح... وهو أعرف بما يليق طبعه منك ، ولا يدَّخر نصحه عنك؛ لأن الأستاذ قد حصل له التجارب ، وكيفية الاهتداء إلى المطالب والمآرب»[٤].

أما الطالب المقصِّر؛ الذي لا يملك القدرة على التوسع في العلوم والمعارف ، فإن تعليمه يقتصر على الموضوعات الأساسية ، يقول صاحب «مفتاح السعادة»: «ومن جملة آداب الدرس: أن ينظر في الطالب إن كان له زيادةُ فَهْم؛ بحيث يقدر على حلِّ المشكلات ، وكَشْف المعضلات ، يهتمّ لتعليمه أشدَّ

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٥٢).

(٢) تحفة الودود بأحكام المولود (٩٢).

(٣) المصدر السابق.

(٤) مفتاح السعادة (١/ ٢٦).

الاهتمام ، وإلاَّ فيعلِّمه قدر ما يعرف من الفرائض والسُّنَن ، ثم يأمره باشتغال المكاسب ، ونوافل الطاعات»[1].

ولا بُدَّ أن يكون المربِّي بصيراً بأحوال المتعلِّمين ، خبيراً برياضة الأطفال ، لأن التربية والتعليم يحتاجان إلى خبرة طويلة ، ودربة مستمرة؛ ليستطيع التعامل مع طلابه ، ويتغلَّب على الصعاب التي تعترض طريقه.

(ج) التربية الإيجابية الأخلاقية:

إنَّ أسمى هدف تريد التربيةُ الإسلامية أن تصل إليه هو التربية الأخلاقية ، وتكوين جيلٍ مهذَّب ، يتمتَّع بالإرادة الصُّلْبة ، والعزيمة الصادقة ، والأخلاق القويمة. . . جيل يرى الفضيلة فيتسربل بأثوابها ، ويسعى باتجاهها ، ويراقب اللهَ عز وجل في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو حال.

وتُعنى التربيةُ الأخلاقية بتعويد الأطفال على حبِّ الخير ، والنزاهة ، والعفّة ، والمودَّة ، والصدق ، والرحمة ، ممَّا يُساعد في تهذيب النفس ، وصَقْل الطبع ، والاعتياد على الخُلُق الحسن.

فالأخلاق الكاملة هي الهدف المراد من التربية ، إلى جانب العناية بصحة الطفل ، وعقله ، وجسمه. . . فتعمل التربيةُ الإسلامية على بثِّ الفضائل في نفس المتعلم ، وتعليمه الآداب الرشيدة ، والمعاملة الجيدة ، مع الإخلاص والتفاني في العمل.

ويتكوَّن الجانبُ الأخلاقي في المتعلِّم بإحدى الطرق التالية:

* الطريقة المباشرة؛ وهي طريقةُ الوعظ والإرشاد والنصح ، وذِكْر الفوائد والمضارّ ، وحثّ المتعلِّمين على التحلي بمكارم الأخلاق ، وتجنُّب الرذائل[2]. يقول ابنُ مسكويه داعياً إلى تربية النشء على آداب الشريعة ، والتعوُّد على شرائطها ، والقناعة الفكرية بها؛ لتتأتّى الأخلاق طوعية تلقائية: «فمن اتفق له في الصبا أن يُربَّى على أدب الشريعة ، ويُؤخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعوَّدها ، ثم

---

(١) المصدر السابق (١/ ٤٠).

(٢) التربية الإسلامية وفلاسفتها؛ لمحمد عطية الأبراشي (١١٥).

ينظر بعد ذلك في كُتُب الأخلاق؛ حتى تتأكَّد تلك الآداب والمحاسن في نفسه بالبراهين»[1].

* الطريقة غير المباشرة ، وهي طريقةُ الإيحاء ، كأن يُلقَّن الأطفالُ أحسن الشعر في الحِكَم ، وأحسنِ النصائح والأخبار؛ لِما في ذلك من التأثير في تهذيب الأخلاق؛ نتيجة تأثر المتعلِّمين بها ، وهي تُفيدهم في الكبر.

كما يجدر بالطفل أن يتعلم محبة الطبيعة؛ ويكون ذلك من خلال أشعار لطيفة ، خفيفة الوزن ، تشدُّ الطفل بصورها الجميلة ، كقول صالح هواري:

انظـــــر إلــــى الــــربيـــــع بِسِحْــــــره البـــــديـــــع
يكـــــــــــاد زهـــــــــــرُه يقـــــــــولُ للجميـــــــــع

أهلاً بكم أهلاً

بســـــاطُــــــه الأخضـــــــر ثـــــوبٌ مــــــن العشـــــب
بـــــالمســــــكِ والعنبــــــر معطَّــــــــر الهُــــــــذب[2]

(د) التــوازن بيــن حــاجــات الـجسم ومتطلبــات الـروح:

مِنَ الثابت أن الطبيعة الإنسانية مزدوجة ، تجمع بين شهوات الجسد وأشواق الروح ، وتهدف التربيةُ الإسلامية إلى إيجاد التوازن بين الناحيتين المادية والروحية ، بحيث لا تطغى ناحيةٌ على الأخرى ، بل يجري التوازنُ على اتِّساق مطَّرد.

وقامت التربيةُ القرآنية على أساس التوازن ، وتعميق الصلة بين تربية روح الإنسان ، ورَبْطه بمعايير الخير ، والتقوى ، وذِكْر الله عز وجل ، وبين تربية الجانب المادي ، وهو السعي لتأمين مقتضيات الحياة في الأرض ، من الكدِّ والعمل والكسب ، فيجمع الإنسان بين نشاط المعاش ، وبين تذوُّق ذِكْر الله تعالى ، والاتصال بالملأ الأعلى. يقول الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩

---

(١) تهذيب الأخلاق (١٧٠).
(٢) عصافير بلادي ، لصالح هواري (٨١).

فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩ ـ ١٠].

وتدعو التربيةُ القرآنية الإنسان إلى ضرورة الربط بين العبادة والعمل، وذِكْر الله تعالى والسعي لتحصيل الكسب، فتكون مصالح الدنيا مُحقَّقةً وراعية لجانب الله سُبحانه، فإذا بتلك التربية تُزكِّي الروح، وتسمو بالشعور، وتُربِّي المكلَّف على التكوين المتوازن، والنظرة الشمولية المتكاملة، قال عز وجل: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٧ ـ ٣٨].

وهذه الخصائص للتربية الإسلامية وغيرها، تهدف إلى إنشاء الإنسان الصالح، والمجتمع الراشد، وتدعو إلى التمسُّك بمنهج الله تعالى، وقيمه؛ وتأصيل أفكاره، وتعميقها في النفوس.

* * *

الفصل الثاني

مواجهة التغريب الثقافي والإعلامي

الإعلام والتغريب الثقافي :

إنَّ الهويَّة الثقافية العربية والإسلامية تتعرض في الوقت الحاضر إلى أشرس هجمة غربيَّة عدوانية؛ للتشكيك فيها ، ومحاولة طمس معالمها ، ودفع المسلمين إلى التنكُّر لها ، والسعي نحو إحلال الهويَّة الثقافية الغربية المنافسة لها محلَّها. ولسنا نمارسُ نرجسيةً عنصريةً عندما نقرّر أن خطر ذوَبان الهوية العربية الإسلامية في الهوية الغربية ، أشدّ فداحةً ، وأسوأ أثراً من ذوَبان هويَّات الأمم الأخرى فيها ، ذلك أنَّ تذويب الهويَّة الثقافية العربية الإسلامية ، لا يُعدُّ خسارةً للعرب والمسلمين وحدهم ، بل هو ـ إلى جانب ذلك ـ خسارة للإنسانية كلِّها. فالهوية العربية الإسلامية ، رمز للدِّين الخاتم ، وعنوان للحضارة الربَّانية الهاديَة.

إنَّ الإسلام ـ عقيدة وحضارة ـ هو هَدْيُ الله للعالمين كافَّة ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، فهو ـ وفقاً لذلك ـ يستهدف خيْر البشرية جمعاء. إنَّه البديل الحضاري المنافس للحضارة الغربية؛ التي أفْلَسَتْ في ميْزان الحق والقيَم والأخلاق الإنسانية ، فإذا سقط البديل ـ لا سمح الله ـ فتلك خسارةٌ عالميّة فادحة. إنَّ الإسلام ، هو الأمل الذي تتطلَّع إليه الإنسانية كلّها ، وسقوط الأمل يعني استمرار حالة الضَّياع والتّيه التي تعيش فيها البشرية اليوم[١].

---

(١) الإعلام والتغريب الثقافي ، د. عبد القادر طاش (ص ١٠ ـ ١١).

أهداف الغزو الفكري والثقافي:

كان للإعلام ـ بوسائله المتعددة ـ دور بارز في تحقيق أبلغ أهدافه أثراً ، وهو تغريب الهويّة الثقافية للأمّة. لقد كانت وسائل الإعلام من أخطر الوسائل التي سخَّرها الغربيون وامتدادهم التغريبي في البُلدان الإسلامية؛ لخدمة محاولاتهم لطمْس معالم الهوية الثقافية الذّاتيّة للمسلمين ، وجري المجتمعات الإسلامية إلى تقليد النَّمط الغربي في الفكر والحياة.

إنَّ الغزو الثقافي الغربي؛ يعبر اليوم إلى العقول والقلوب ، عن طريق الخبر الذي تبثُّه وكالات الأنباء ، والتحليل السياسي ، والاقتصادي الذي تكتبه الصحف ، والصورة المبْهِرَة التي ترسلها الوكالاتُ المصوِّرة ، كما أنَّ هذا الغزو ، يعبر إلى العقول والقلوب ، عن طريق «الفيلم» التلفزيوني المدهش ، وشريط الفيديو الفاتن ، والبرنامج الإذاعي المشوِّق ، و«فيلم» الكرتون المتْقَن. وبذلك يمكن القول: إنَّ وسائل الإعلام نقلت حركة التغريب الفكري والثقافي من مرحلة «النخبويّة» ، إلى مرحلة «الجماهيرية» وأصبح هذا التغريب ـ بفضل هذه النقلة الخطيرة ـ داء يَسْتشري في كيان الأمَّة كلِّها ، يدخل كل بيت ، ويؤثِّر في كل أسرة ، وكلّ قطاع من قطاعات حياتنا المعاصرة.

وهذا الغزو يتمُّ دون مجهودٍ من الجهة الغازية ، ودون أن يُدرك ضحية الغزو؛ أنَّه معرَّض لأيّ خطر ، فَيُقْبلُ في حماسةٍ وبلاهةٍ ، لا على قبول الغزو فحسْب ، بل إلى اعتناقه واحتضانه. وهذا مَكْمَنُ الخطرِ؛ إذ كيف يمكن أن تقاوِم عدوّاً لا تشعرُ بوجوده؟!

الإمبرياليـة الإلكترونيـة:

إنَّ هذه الإمبريالية التي تمارسها وسائل الإعلام الغربية في المجتمعات النامية هي: «علاقة التبعية التي تأسَّست باستيراد معدَّات الاتصال ، والبرامج الأجنبية وغيرها. . . ، وذلك بإيجاد الأسس لمجموعة من المعايير والقيم الأجنبية ، والتوقُّعات التي يمكن أن تغيِّر الثقافة المحليَّة ، وعمليات التنشئة الاجتماعية إلى درجات مختلفة.

فالاستيراد يتنوَّع ، من الكتب الهزليَّة إلى الأقمار الصِّناعية ، ومن الحاسوب

(الكمبيوتر) إلى الليزر ، وبجانب منتجاتها الأكثر تقليدية ، مثل البرامج الإذاعية ، والمسرح ، وأشرطة السينما ، وخدمات البرق ، وعروض الإذاعة المرئية»[1].

إنَّ عمليات وأنشطة الإعلام الدّولي الحاليّة ، هي جزء أصيل من علاقات التبعيَّة التي تحدِّد التنظيم السياسي والاقتصادي والثقافي للنظام العالمي الرَّاهن.

التَّبعية الإعلامية:

لتحقيق أهداف الإمبريالية الثقافية الغربيّة ، سُخِّرَتْ وسائل الإعلام الجماهيري لتغريب الهوية الثقافية للأمة العربية والإسلامية. وكما كُرِّست في حياة الأمَّة مظاهر التبعية السياسية والاقتصادية ، فقد كان من الطبيعي أَنْ تنعكس هذه المظاهر على تركيبة الإعلام الغربي والإسلامي ، وممارساته الواقعية. وشملت التبعية الأمور التالية:

١ ـ التبعية في مجال التقنية.

٢ ـ التبعية في مجال البرامج ، والأنباء وبحوث الإعلام[2].

البرامج المستوردة:

إنَّ البرامج الإذاعية والتلفزيونية التي تُملأ بها أوقات أجهزة الإعلام في الدول العربية والإسلامية ، أكثرها مستورد من الغرب ، ففي الدراسة التي أجرتها منظمة «اليونسكو» عن التداول الدّولي للبرامج التلفزيونية ، نجد أنَّ غالبية الدُّول النامية ـ ومنها العربية والإسلامية ـ تستورد ما لا يقلّ عن نصف البرامج التي تعرضها في محطاتها التلفزيونية ، وأن (٧٠٪) من جملة الواردات العالمية من البرامج التلفزيونية ، تأتي من الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ، وأنَّ الدول التي تحتكر تصدير هذه البرامج هي على التوالي: الولايات المتحدة الأمريكية ، بريطانيا ، فرنسا ، ألمانيا ، وأنَّ حجم البرامج المستوردة في التلفزيونات العربية يصل إلى نسبة تقرب من (٤٠٪ إلى ٦٠٪) من مجموع النتاج الذي يقدَّم عليها.

---

(١) المصدر السابق (ص ٢٥ ـ ٢٩).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٤ ـ ٣٥).

الاعتماد على المناهج الغربية:

تعتمد مؤسسات البحث الإعلامي ومعاهد التدريس الأكاديمي والمهني للإعلام في الدول العربية والإسلامية على المناهج الغربية، وهي مناهج ونتائج بعيدة الصِّلة عن واقع المجتمعات العربية والإسلامية، وغريبة كل الغرابة عن السِّياق الفكري والاجتماعي والسياسي والاقتصادي لهذه التجمّعات. وبذلك تُسْهم هذه التبعية المنهجية، والعلمية، في تغريب وسائل الإعلام، وتوسيع الفجوة بينها وبين جماهير المتلقِّين[١].

القوة التأثيرية لوسائل الإعلام:

إنَّ وسائل الإعلام أصبحت من الضروريّات الأساسية في حياة الفرد في المجتمع، وقد أظهرت الدِّراسات التي استمرَّت إلى وقتنا الحاضر، أنَّ تأثير وسائل الإعلام عملية مستمرَّة، متفاعلة، ذات جوانب متعدّدة، لا تخضع لعاملٍ واحد، وأنَّ التأثير يخضع لظروف المستقبل، والعوامل المساعدة، وأنَّ غالب التأثير لا يظهر إلاَّ بعد فترات طويلة.

وبعد أن أصبح التلفزيون يملك هذا الانتشار العريض، والاهتمام الكبير، لا يمكن أن يظلَّ تأثيره حيادياً، وقد صار جزءاً من حضارتنا المعاصرة، وعنصراً كبيراً في تشكيل آرائنا، واتِّجاهاتنا، وسلوكنا.

وقد برزت مشكلات كثيرة بسبب هذا الجهاز، يحسُّها الآباء، والمربُّون، وغيرهم؛ لهذا فرضت ألمانيا حَظْراً على جميع إعلانات التلفزيون قبل الساعة الثامنة مساءً، وذلك لحماية الأطفال من أن يصبحوا «ضحايا المجتمع الاستهلاكي».

وقد قال أحد علماء الطبِّ النّفسي للأطفال، حول القيود المقترحة على إعلانات التلفزيون في الولايات المتحدة الأمريكية: «إنَّ الأطفال الصغار، قد يصبحون متشكّكين في والديهم، ومدرِّسيهم، أو أيِّ شخصيَّة أخرى تنتقص من أهمية منتجات غذائية مغلقة، أو لعبة أطفال سيئة الصنع، يجري الإعلان عنها

---

(١) المصدر السابق (ص ٨ ـ ٤١).

بدهاء». وأضاف: «إنَّ الشعور بعدم الثِّقة، ينشأ عندما تصمت شخصيّاتٌ لها سلطة شرعية، مثل: الأبوين، أو تفقد حجيَّتها، إذا ما استخدمت أساليبها الضعيفة للإقناع في مواجهة الإعلانات التلفزيونية لدى الأطفال الصغار».

هذا في قوة تأثير الإعلان، فكيف تكون قوّة تأثير «الدّراما» التي تعتمد على الخيال، والحبكة الفنيّة التي تشدّ انتباه الكبار والصغار، والتي تُقدَّم الإعلانات خلالها، اعتماداً على قدرتها في شدِّ الانتباه؟.

إنَّ إنكار تأثير التلفزيون، أو التَّقليل منه، أمر يخالف المنطق والواقع، والتَّجربة، وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر في هذه النقطة، فإنَّ الدِّراسات العديدة أثبتت أنَّ التلفزيون يؤثِّر على الصِّغار والكبار على حدٍّ سواء، وأنَّه أثَّر عمليّاً على المشاهدين. كما أثبتت دراساتٌ في جامعة شمال كارولينا[١]، على أطفال الحضانة، حيث خُصِّصَ أطفالٌ لرؤية إحدى عشرة حلقة من برامج العنف، والآخرون لرؤية إحدى عشرة حلقة، من برامج تخلو من العنف في الوقت نفسه، وعند مراقبتهم عن بُعد، في أثناء لعبهم العادي، وُجِد الفَرْقُ واضحاً في مسلك الأطفال. كما أوضحت أبحاث أخرى في روايات الهنود الحمر، والكاوبوي، والجريمة، والتجسّس، والكوميديا، وغيرها من برامج التلفزيون المحبَّبة لشريحة كبيرة من جمهور المشاهدين، قد أثبتت فعاليَّتها في توضيح أساليب العنف الإنساني، والانتقام، والسَّطو، والفرار، والقتال، وبالتالي سهُل تعلُّمها وتقليدها، مع أنَّ التلفزيون ليس وحده الأداة المثيرة للعنف، والأخلاق السيئة، إلاَّ أنَّه أكثر الأدوات فعالية.

التلفزيون وأصحاب المصالح:

إنَّ تأثير التلفزيون السَّلبي يقابله تأثير إيجابي في التثقيف، والتعليم، والتَّوجيه، والدِّعاية، وهذه أمور لا تتحقَّق إلا بعد التسليم بقدرته على التأثير.

فتأثير التلفزيون السَّلبي، يقلِّل من خطره وآثاره فئاتٌ عدّة، وأكثرهم من أصحاب المصالح، أمَّا الشَّركات المنتجة للبرامج، فيهمّها رواج إنتاجها بغضِّ

---

(١) كارولينا الشمالية: إحدى الولايات المتحدة الأمريكية على الأطلسي، بين فرجينيا وكارولينا الجنوبية، عاصمتها: راليه.

النَّظر عن آثاره ، والمسؤولون عن برامج التلفزيون ـ خاصة في الدول النامية ، التي منها الدول العربية الإسلامية ـ هم عاجزون عن تقديم البديل الجيِّد لتلك البرامج ، فَيبرِّرون عجزهم بالتقليل من أخطار تلك البرامج[1] .

ولا يخفى أنَّ صاحب المصلحة مجروحُ العدالة فيما يخصّ مصلحته ، ومما يؤكِّد هذه النقطة أَنَّ أحدهم عندما يكون مسؤولاً ، يدافع عن البرامج التي تُقدَّم ، ولا يرى بأساً أن يقلِّل من ضررها ، وإذا انتقل من المسؤولية ، أو انتقلت منه ، بدأ يحذِّر ويُنذر من أخطار تلك البرامج . وهذا دليل على أنَّ تقليله للأخطار في السَّابق ، لم يكن بناءً على دليل ، ولكنَّه الدفاع عن المصلحة ، فينبغي ألاَّ يُنظرَ إلى تلك الآراء على أنّها آراء علميّة قوية ، حيث ينقصها الدليل والحجّة والبرهان ، وهي لا تُضْعِف من دلالة الدِّراسات ، والأبحاث ، والتجارب التي تجزم بقوّة تأثير التلفزيون .

وهذه الأدلّة القوية التي كوّنت اقتناعاً بقوّة تأثير التلفزيون ، لا تنفي أن تُعارض إطلاقاً ، مع حقيقة أَنَّ الاتصال عملية معقَّدة ، تتحكم فيها مجموعة متشابكة من العوامل النفسية ، والثقافية ، والاجتماعية .

ونحن نبحث في موضوع تأثير وسائل الإعلام على الفرد والأسرة ، يجب أن نعلم ، أنَّ معظم الدِّراسات التي تبحث في التلفزيون تتَّجه إلى الإعلان التجاري ، فصاحب البضاعة لا يريد أن يثبت عمليّاً أنَّ بضاعته ، أو خدماته ، وصلت إلى المستهلك بسبب الدِّعاية المؤثِّرة؛ لأن معنى ذلك التقليل من جودة البضاعة الحقيقية . وهذه النقطة ، ذات دلالة على عدم الحسم في قضيَّة التأثير ، فالوصول إلى أنَّ وسائل الإعلام تؤثِّر أو لا تؤثِّر ، ليس هدفاً لأصحاب الإعلان التجاري ، وإن كانوا في قرارة نفوسهم يدركون جدواها التأثيرية ، خاصَّة وهم أهل دراسة الجدوى الاقتصادية ، وينبغي أن نربط بين هذا وبين الاتجاه إلى تمييع قضية التأثير .

ولا يخفى أنَّ معظم المواد المبرمجة؛ التي تصدَّر إلى البلاد النامية ، هي من بين تلك المواد المستهلكة في الغرب ، وتحمل كل التَّناقضات بين الأهداف

---

(١) التلفزيون والتغيير الاجتماعي (ص ١٤٧ ـ ١٥١).

والغايات ، من مصادر الإنتاج ، وأماكن الاستهلاك ، وإن تلك المواد الوافدة هي أحد العوامل المساعدة على التغريب ، الذي يتمّ في البلاد النامية بمعدّلات كبيرة ، خاصة تلك الدول التي تدور في فَلَك الغرب[١] .

أهميّة التلفزيون :

يشكل استخدام التلفزيون ـ جوهريّاً ـ جزءاً لا يتجزّأ من عمليّات التواصل؛ الذي تولِّده وسائل الاتصال القائمة في مجتمعنا ، فهو يُحدِث في سلوكنا تبدّلات عميقة ، من الواجب معرفتها ، والسيْطرة عليها ، ويُضاف إلى ذلك : أَنَّ التلفزيون يمثِّل التَّعبير السَّمعي البصري؛ الذي يُعدُّ الظَّاهرة الأكثر أهميّة ، والأكثر غموضاً ، فعلى العاملين في التربية ، الأخذ بعيْن الاعتبار هذه الظاهرة الثقافية . والدعوة للعمل بها[٢] .

خصائص جمهور الدول الإسلامية :

إنَّ أبرز تلك الخصائص ذات العلاقة بالتأثُّر ببرامج التلفزيون هي :

١ ـ ارتفاع نسبة الأميّة .

٢ ـ ارتفاع نسبة الأطفال في مجموع السّكان .

٣ ـ انتشار البطالة .

٤ ـ محدودية ثقافة الآباء .

٥ ـ انشغال الآباء في سبيل تحصيل أسباب العيْش .

وهذه الخصائص الخمس ذاتُ علاقةٍ بحصانة المستقبل في التأثر بالبرامج المعروضة ، فأثر التلفزيون يتعمَّق ، ويمتدّ أكثر في طائفتيْن من النَّاس : الأميّين ، والأطفال . وأسباب التأثير مشتركة بين الطائفتين تقريباً ، وهي : الانبهار ، وفقدان الحصانة الثقافية ، وعدم القدرة على الانتقاد ، والاختيار ، أما البطالة ، فإنَّها تعطي أصحابها من الوقت ما يعجزون عن قضائه؛ ممّا يجعل

---

(١) التلفزيون والتغير الاجتماعي (ص ١٥١ ـ ١٥٤).

(٢) الطفل والتلفزيون/ ميريه شالفون وآخرون/ ترجمة: علي وطفة ، فاضل حنا/ دمشق وزارة الثقافة ، ١٩٩٦ م (ص ١٩٥ ـ ١٩٦).

الفرصة مهيَّأة للبرامج؛ لتصل إليهم وهم في حالة نفسية عاجزة عن أدنى مقاومة.

وفي فئة الأطفال، ذات النسبة العالية في تلك المجتمعات، يتضافر انشغالُ آبائهم عنهم، وثقافة الآباء المحدودة؛ لتكون إمكانيَّة التعرّض لبرامج التلفزيون، والتأثرُ بها بشكل أكبر.

البعثات التلفزيونية والثقافة الوافدة:

من الخصائص التي ينفرد بها الإعلام المرئي في الدول الإسلامية: عدم وضوح الأهداف لمحطَّات الإرسال التلفزيوني في كثير من تلك الدول، واغتراب معظم القائمين على محطّات التلفزيون بحكم التكوين الثقافي؛ لأن المبعوثين إلى البلاد الأجنبية للتَّحصيل العلمي في مجال التلفزيون، قضَوْا مدَّة التدريب الفنِّي، وقد صبغت الكثير منهم ثقافات وأخلاق وسلوك المجتمعات التي ذهبوا إليها، وعندما يتولّى أحدُهم عمله في تلفزيون بلده، تظهر آثار الثَّقافة الوافدة، ويصبح داعية لها، وربَّما لا يكون هذا من باب عدائه لثقافته المحلية، ولكنَّه الانبهار والإعجاب بما شاهده في بعثته من مظاهر الحضارة المادّية المتقدِّمة، وارتبط هذا في ذهنه بنبذ ثقافته، وهو حالُ بعض أبناء هذه الدول عند عودتهم من بعثاتهم.

الخطر الدَّاهم:

لاشكَّ أنَّ الخطر الدَّاهم على الثقافات المحلية هو ما يُقدَّم من خلال المواد البرامجية من أفكار وقيم، وعادات وتقاليد، تختلف عن النَّسَق الثقافي المحلّي. ولا شكَ أن الإنتاج المحلِّي ـ إذا وُجِدَ ـ يخفِّف هذا التأثُّر، ويحول دون الانتشار الخطِر لمحتويات الثقافة الوافدة، إلاَّ أَنَّ التَّأخر في قيام الإنتاج المحلِّي، يتيح المجال لقبول بعض البرامج الدَّخيلة، وإذا كثُرت البرامج المستوردة، لضَعْفِ الإنتاج المحلِّي، فإنها تعطي في نظر المشاهد تبعية للبرامج الوافدة.

إنَّ التلفزيون أصبح أخطر وأهمَّ أقنية الاتصال الجماهيري في هذه الأيام، إذ قلَّ أن نجد بيتاً في أيّ جزء من أجزاء العالم، غنيِّه وفقيره، يخلو من جهاز تلفزيوني، ولعلَّ أبلغ وصف يوضِّح مدى التأثير الذي يتركه التلفزيون، ما ورد

في الموسوعة الأمريكية عام ١٩٨٠ م حيث وصَفَت التلفزيون: بأنّه أصبح عين الإنسان وأذنه في العصر الحديث.

والخصائص الفنية التي يتمتَّع بها التلفزيون، مكَّنته من تفاعله الاجتماعي مع جمهور المشاهدين بكفاءة عالية، لم تتوافر لأيٍّ وسيلة أخرى في تاريخ وسائل الإعلام.

وفي الحقيقة إن الإنسان المتأمِّل في قوة تأثير الوسائل الإعلامية الوافدة على مجتمعات البلاد الإسلامية، خاصَّة تأثيرها على جيل الشباب، يستغرب كيف حصل هذا التأثير ـ بشكل خاص ـ مع ثقافة هذه البلاد؛ لأنَّ الدِّراسات النفسية والاجتماعية لمعرفة طبيعة الجمهور والتعامل معه، وفق تلك النتائج بتقديم البرامج المناسبة، تتَّفق مع الحالة المزاجية التي يعيشها الأفراد.

مع الاهتمام العلمي من قِبَل دول الغرب بإعداد الرسائل الإعلامية؛ فإنَّ البلدان النامية، لا تزال تعتمد في كثير من برامجها المحلية على الغرب، دون معرفةٍ حقيقيّة تعتمد على دراسة علميّة جادّة. وهذا أحد الأسباب الرئيسية لضعف تأثير الرسائل الإعلامية المعدَّة محليًّا[1].

فساد وسائل الإعلام ودورها في إشاعة الانحلال الخُلُقي:

يُعدُّ هذا العنصر من أهم أسباب ضعف الأمة الإسلامية، إذ إنَّ للإعلام دوره الخطير في المجتمع، إيجاباً أو سلباً. وممّا يثير في النفس الحسرة والألم أَنَّ وسائل الإعلام في الدول الإسلامية ـ مقروءة كانت، أو مسموعة، أو مرئيّة ـ قد سارت في ركاب الإعلام العالمي التي تسيطر عليه الصهيونية والصليبية العالمية، فجعلت أهمّ وأعظم أهدافها: التّفنن في إثارة الغرائز والشهوات بالبرامج التافهة، والمسلسلات الخليعة، والأفلام الماجنة، والصور العارية... الخ... كل هذا، بدعوى التطوّر ومسايرة العصر.

وبنظرةٍ سريعة إلى أغلب وسائل الإعلام، يتبيَّن أنَّها تجعل جُلَّ اهتمامها منصباً على أخبار «الفن والفنانين» أو «الرّياضة» أو متابعة أحداث صيْحات

---

(١) التلفزيون والتغير الاجتماعي (ص ١٦٧ ـ ١٧٢).

«الموضة» العالمية ، ولا ننسى حفلات انتخاب ملكات الجمال وما يحصل في فقراتها ، وكذلك تسليط الأضواء على أهل هذه المجالات ، وتقديمهم إلى المشاهد ، أو المستمع ، أو القارىء؛ باعتبارهم النجوم اللامعة ، أصحاب القُدْوة الصَّالحة ، وفي المقابل تتوارى بقية المجالات وخاصَّة المجال الدِّيني ، حيث لا تُعطى له إلا مساحة ضئيلة لا تكاد تُذكر ، وفي الوقت نفسه لا روْح لها ولا تأثير ، حيث أُريد لصفحات الفكر الديني في الصحف ، وللبرامج الدينية في الإذاعة والتلفزيون أن تتناول موضوعات محدَّدة ، لا صِلَة لها بالواقع الذي يعايشه المسلم؛ ممّا يجعلها باهتة ، ضعيفة التأثير ، إن لم تكن معدومة التأثير أصلاً.

نتيجة لهذا الوضع المقلوب ، بات المجتمع المسلم في معظم الدول الإسلامية يغصُّ بالانحرافات الخُلُقيّة ، النَّاتجة ـ حتماً ـ عن هذا الطّوفان الهائل ، والإعصار المدمّر[1].

دور الإعلام الغربي في تشجيع السلوك السَّيِّء والانحراف:

تركز أكثر البرامج الوافدة على أساليب الإثارة ، واستغلال الغرائز البشرية؛ لشدِّ الجمهور إليها ، وتخديره عبر برامج الترفيه ـ التي لا تتطلب أيَّ مجهود ـ بل تتلمّس رغباته الغريزية ، وتحاول إثارتها ، وإشباعها حتى تتضخَّم ، وتُزاحم بقيّة مكوِّنات شخصيَّته؛ مما يجعله فرداً ضعيف التوازن ، تحكمه غرائزه ، ووسائل إشباعها ، وهذه حال الكثير من شباب بلادنا؛ الذين يعتمدون في ثقافتهم ، وتكوينهم ، على تلك البرامج المصدَّرة لهم من الخارج ، والتي لا تتَّفق مع القيم ـ حتى في البلاد التي صدرتْ منها ـ لمخالفتها معايير تلك المجتمعات.

وقد صنِّفت بعض الدراسات العلمية؛ لتقييم البرامج السينمائية ، والتلفزيونية في الغرب ، ووزِّعت إلى خمسة أصناف ، تتراوح بين القبول ، والقبول النسبي ، والحياد ، والرَّفض النِّسْبي ، والرَّفض المطلَق؛ للأسباب التالية:

---

(١) النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي ، ياسر أبو شبانة ط١ ١٩٩٨ ، دار السلام بالقاهرة (ص ٦٩٧ ـ ٧٩٨).

أولاً: تشجيعها للسلوك الجنسي اللا أخلاقي.

ثانياً: تشجيعها للسّلوكيات اللا أخلاقية، بصورة عامّة.

ثالثاً: تشجيعها على الطلاق، وإسهامها في فساد الحياة الزوجية.

رابعاً: تشجيعها لظاهرة السلوك العدواني، والقسوة السَّاديّة، والعنف.

خامساً: تشجيعها للسلوك الإجرامي، والانحراف.

سادساً: تعرُّضها للدِّين، ومساسها بالعقيدة الدينية.

سابعاً: تقليلها من أهمية حياة الإنسان، وتشجيعها على الانتحار.

ومع هذه النَّوعيَّة الهابطة من المواد البرامجية، تجد من يعارضها، ويطالب بمنعها في بلاد الغرب، إلا أنها تنتشر في بلاد العالم الثالث بشكل مخيف، عبر المحطات الرسمية، أو عبر أشرطة الفيديو، والمحصِّلة النهائية هي: صُنْعُ شبابٍ وأطفالِ تلك البلاد، وفق القيم، والسلوكيات، والأخلاق الوافدة؛ التي تملأ تلك المواد البرامجية، خاصّة إذا عرفنا النِّسَبَ العالية للأميَّة، والبطالة، والفراغ في البلاد المذكورة؛ والتي تشكِّل عوامل مؤثِّرة في الموادّ البرامجية.

وقد أثبتت الدِّراسات الكثيرة، أَنَّ التأَثُّر بمضامين الرسائل الإعلامية يتناسب طرديّاً مع تلك العوامل... والكمُّ الهائل من المواد البرامجية، أو من الثقافات، والقيم، والعقائد، والتصوّرات الوافدة، هذه العوالم كلها ساهمت في إضعاف قدرة دول العالم الثالث، على إيجاد الاتجاهات، أو تشكيل الآراء بين شعوبها، حيث إنَّ هذه المهمَّة أصبحت من اختصاص القوى الأجنبية القادرة، والتي يمكنها توصيل فِكْرها، بوسائل إعلامها القويّة إلى تلك الدول، بل تفرض على أكثرها ألاَّ تسمع، ولا ترى، إلاَّ ما تريده لها تلك الدول القادرة.

إنَّ عجز حكومات الدول الضعيفة عن التَّوجيه، والإشراف على المحتوى الثقافي؛ الذي يُقدَّم لأبنائها عبر وسائلها الخاصَّة، أو عبر الرسائل العالمية؛ أمر واضح، فتلك الحكومات تُدرك أنَّ الأمر لم يعُدْ تشويهاً لصوَرِها في الخارج فقط، بل إنَّه وصل إلى تخريب المجتمعات في الدَّاخل؛ بهدم مكوِّنات ثقافتها الخاصة.

إنَّ كل الحكومات القادرة على التصدِّي للغزو الثقافي تفعل ذلك،

وما سكوت حكومات الدول الضعيفة على ذلك الغزو ، إلاّ دليل على عجزها[1].

مسؤولية المسلم ووسائل الإعلام وتأثر الثقافات :

إن مسؤولية المجتمع المسلم تكمن في ألاَّ يتيح الفرصة للسلوك المخالف للإسلام أن ينتشر في المجتمع المسلم حتى يصبح عادة متَّبعَة ، وسُنَّة ماضية ، بل عليه إنكاره حتى يزول.

ومع انتشار وسائل الإعلام القوية اليوم ، استطاعت العاداتُ الفردية والاجتماعية ؛ أن تنتقل بين المجتمعات الإنسانية بشكل أسرع ؛ مما يشكّل تهديداً لعادات بعض الثقافات التي تُجابه بغزوٍ ثقافيّ مكتسح عبر وسائل الإعلام القوية ، والتي تسيطر جماعات معيَّنة بسبب تفوُّقها التكنولوجي في هذا المجال.

فإذا سيطر نوعٌ من الإعلام الخارجي ، فإن العادات التي يحتويها ، ستكون أكثر تأثيراً من أيّ عادات غيرها ، ودراسات وسائل الإعلام على الثقافات المحلية خير شاهد في هذا.

إنَّ معظم الدراسات التي أُجريت لقياس تأثّر الثقافات المحليّة بالبرامج الإعلامية ، تثبت حصر القدوة في أصحاب السلطات ، مثلما قال «ابن خلدون» وغيره من دارسي أحوال المجتمعات : «كان قبل ظهور وسائل الإعلام الجماهيرية التي سيطرت على عقليّة الناس ، وأصبحت تقدّم لهم القيمَ والعادات والأذواق ، وتساهم في تشكيل اتجاهاتهم وآرائهم بِنِسَبٍ متزايدة ، ومما يثبت ذلك أَنَّ أصحاب السلطات أنفسهم ، يستفيدون من قُدرات وسائل الإعلام للتَّمكين لما يعتقدونه من قيم ، ونشر السلوك الذي اعتادوه ، ويرغبون في نشره بين الناس».

المُنكر في وسائل الإعلام :

لا شكَّ أنَّ الانحرافات الفكرية ، والخُلُقية ، والسلوكية التي تظهر في وسائل الإعلام أكثر انتشاراً من الانحراف والمعصية ؛ التي يرتكبها فرد في أحد شوارع المدينة أو القرية ، ولا يراه إلاَّ المحيطون بالفاعل ، فشرط إعلان المنكر متحققٌ بوسائل الإعلام ، أكبر من تحقُّقه بغيرها ، وخطر انتشار الجرائم والانحرافات عن

---

(١) التلفزيون والتغير الاجتماعي (ص ١٨٩ ـ ١٩٢).

طريقها بالنظر إلى مصلحة المجتمع؛ التي يهددها إعلان المنكر والدعوة إليه، واستمالة الناس إلى فعله[1].

تأكيد الشخصية القومية والثقافة الوطنية:

نستطيع أن نقول: إنَّ الهيْمَنة الثقافية، وما يتبعها من تبعية فكرية، تحقق أشكال التبعية الأخرى لذلك، فإنَّ مسؤولي الدول الإسلامية خاصّة، يشدِّدون على ضرورة تأكيد الشخصية القومية، والثقافة الوطنية.

ولا شكَّ أن برامج الترفيه التي قتلت طاقة الإنتاج التي تحتاجها تلك البلاد؛ للنّهوض من تخلُّفها، فإن الإعلام العالمي، يعمل على تبديدها بما يقدِّم من مواد تقضي على الوقت، دونما إنتاج، بالإضافة إلى التخريب الفكري والعقائدي، والتخدير لكل المواهب.

وهذه النتائج تحدث نتيجة لتخطيط سابق أحياناً، وبطرق عَرَضيّة أحياناً أخرى، لكنّها في النهاية، تحقق أهدافاً كبرى مرسومة مِن قِبَل الدول المتقدِّمة، وهي استدامة التخلُّف في الدول النّامية ـ ومنها الإسلامية والعربية ـ أطول فترة ممكنة، أو إلى الأبد[2].

تأثير التلفزيون على العلاقات الاجتماعية:

إنَّ الروابط الأسريّة بين أفراد الأسرة الواحدة، وأسرهم الكبيرة، من مميّزات المجتمع المسلم، حيث إنَّ من القيم المرعيّة لدى المسلمين: صلة الرَّحِم بين ذوي القربىٰ، كما أن من عادات المسلمين الفاضلة التزاور بينهم بشكل عام؛ لتفقُّد أحوال الجيران، والمعارف، والتي قد لا تُعرف بغير الزيارة، وما يحصل من هذه الزيارات ـ إذا حسُنت النيّات ـ من خيرٍ كثير، من عيادة مريض، وإصلاح ذات بَيْن، وتعليم جاهل، ونصح غافل، وبناء مودَّة لا يمثِّلها إلاَّ حديث الرسول ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدنيا؛ نَفَّسَ اللهُ عنه كُرْبَةً من كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ؛ يسَّرَ اللهُ عليهِ

---

(١) المصدر السابق (ص ١٣٧ ـ ١٤١).

(٢) المصدر السابق (ص ١٨٣ ـ ١٨٤).

في الدنيا والآخرة ، ومَنْ ستر مُسْلِماً ؛ ستره اللهُ في الدنيا والاخرة ، واللهَ في عَوْن العَبْدِ ، ما كان العَبْدُ في عَوْنِ أخيه»[1].

فالتَّزاور بين المسلمين ، من أسباب التَّـعرُّف على أحوال بعضهم؛ ليتحقَّق ما ورد في حديث الرسول ﷺ ، وليكون كل منهم في عون أخيه ، ولا شكَّ أنَّ المتغيّرات التي أصابت المجتمعات المعاصرة ، قد أثَّرت على هذه الروابط بسبب تباعد الأحياء السَّكنية للانتشار الأفقي للأحياء ، وتباعد أطراف المدن ، إضافة إلى المسؤوليات التي أغرقت الأوقات ، وقتلتها.

لكنَّ التلفزيون أحد هذه العوامل التي أثَّـرت على الوقت بشكل عام ، ووقت قضاء الفراغ بشكل خاص ، وهو وقت الزيارات ، أو بعضه على الأقلّ كان يُصرف فيها ، وهذا الأمر يدركه الملاحظُ للعلاقات الاجتماعية ، فمعرفة أحوال الناس ، يتمُّ أكثرها بالتزاور بينهم ، بل إنَّ كثيراً من صلات المصاهرة تتمّ عن طريق تلك الزّيارات ، وإذا استمرت آثار هذه الدَّلالة بين المسلمين فإنَّها نذير شؤم على المجتمع[2].

وقد يقول قائل: إن تقليل الزيارات الصباحية بين ربّات البيوت له مردوده الجيّد من ناحية التفرّغ لأعمالهن المنزلية ، والإشراف على تربية أطفالهن ، لكن ظهر أنَّ التلفزيون أثَّـر في انشغال ربَّة البيت عن أعمال منزلها.

تأثير التلفزيون على أوقات النوم:

إنَّ تنظيم الأوقات يرتبطُ بثقافة الأمّة ونظامها الاجتماعي؛ بحيث تنسجم المواعيد المهمَّة مع المصالح الكبرى ، وإذا كانت الأمم الأخرى غير ملزمَة في دينها بالاستيقاظ المبكِّر لأداء الصلاة مع أول خيوط الفجر ، ولم يرد من أوامر دينها ما يحثُّها على التبكير في أداء أعمالها ، فإننا ـ معشر المسلمين ـ لسنا كذلك ، وينبغي ألاَّ نقلِّد غيرنا في نظام حياته بما يتعارض مع مصالحنا الدينية والدنيوية.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٧٢) ومسلم (١٦٣١) وأبو داود (٣٨٨٠) والترمذي (١٣٧٦) والنسائي (٦/ ٢٥١).

(٢) التلفزيون والتغيّر الاجتماعي (ص ٢١٢ ـ ٢١٦).

وإن من أبرز مظاهر النظام الاجتماعي في كل أمة: نظامها الخاص بالوقت، متى تعمل؟ متى تنصرف من الأعمال؟ متى تنام؟ متى تستيقظ؟ وإذا قدِم شخص إلى مدينة من العواصم الإسلامية، ووجد أنَّ الحياة لا تدبُّ فيها إلَّا بعد التاسعة أو العاشرة صباحاً، وكذلك مراجعة دواوين الحكومة لا تتم إلا بعد العاشرة، هلٍ يقول هذا الزائر: إن هذه المدينة مهتدية بهدي الإسلام في نظام وقتها؟ أم أنَّها تُقلِّد غيرها في الأمور التي نهاها الإسلام عن تقليدها؟

فالشَّرع الحنيف يرغِّب في بدء الأعمال من أول النهار، قال ﷺ: «اللهمَّ بارك لأمَّتي في بكورها»[1]. وهذا التَّبكير في الأعمال لا يستطيع المجتمع تحقيقه إلَّا من خلال التنسيق بينه وبين مواعيد النوم المبكِّرة.

وقد يكون السَّهر ـ خاصة للمسلم ـ سبباً لتأخُّره عن صلاة الفجر مع جماعة المسلمين، كما أنه يُضْعِف الإنتاج لدى العمَّال والموظفين، ويُضْعِف التَّحصيل العلمي لدى الطَّلبة، كل ذلك يأتي من السَّهر الفوضوي الذي يؤثِّر في نشاط اليوم التالي، فأثر التلفزيون في تأخير جمهوره عن مواعيد النوم يزداد خطره، وبخاصة في فئاتٍ هي في أمسِّ الحاجة إلى الرَّاحة[2].

الطفل العربي والتلفزيون:

يُعدُّ التلفزيون من أهمِّ وسائل الإعلام بالنسبة للطفل؛ لما يتميّز به من خصائص، وفي مقدِّمتها: أنَّـه وسيلةٌ سمعية بصرية، تعتمدُ على الصوت والصورة الملوَّنة المتحرِّكة، ولا تتطلب مشاهدته استعدادات سابقة، كالتردّد على السينما، حيث نُقِل المشهد إلى المنزل، كما تتزايد عاماً بعد عام نسبة امتلاك أجهزة الاستقبال، وبالتالي يتزايد الإقبال على مشاهدته، حيث تشير نتائجُ البحوث الميْدانية العديدة التي أُجريت في معظم الدول العربية على مشاهدة التلفزيون؛ إلى وجود سلوك اتصالي شائع بين الجميع، الكبار والصغار، المتعلمون والأميّون، الحضَريون والرِّيفيون. . . إلخ.

وتُولي هيئات التلفزيون العربية اهتماماً كبيراً لبرامج الأطفال، وتُخصِّص

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٠٦) والترمذي (١٢١٢) وابن ماجه (٢٢٣٦).

(٢) التلفزيون والتغيّر الاجتماعي (ص ٢١٤ ـ ٢١٥).

جزءاً من ساعات إرسالها لهذه البرامج ، وللتلفزيون قدْرات كبيرة تجعله في مقدمة وسائل الاتصال بالأطفال ، حيث يُمضون مُدداً غير قصيرة في التطلُّع إلى شاشته .

وعلى الرغم من أهميّة برامج الأطفال التلفزيونية ، ودورها في تثقيف الطفل العربي ، وإمداده بالمعلومات والقيم ، فلا تزال تلك الهيئات تعاني من العديد من المعوِّقات والمشاكل ، وتفتقر المكتبة الإعلامية العربية إلى دراسةٍ حول واقع هذه البرامج في كلّ أو معظم الدول العربية .

دراسة إعلامية عربية ميدانية :

رغبةً في التعرُّف على واقع برامج الأطفال التلفزيونية في الوطن العربي بأسلوب علمي ، أجرى أحد المسؤولين الإعلاميين دراسة بتكليفٍ من اتحاد إذاعات الدول العربية أواخر (١٩٨٥ م) ، وأسفرت هذه الدراسة عن تصوير واقع هذه البرامج في ست دول عربية ، تبين منها : أنَّ هذه البرامج تسعى إلى تحقيق عدة أهداف ، منها توجيه الأطفال إلى الأنماط السلوكية المقبولة اجتماعياً ، وتنمية ملكات الطفل العقلية ، وتنشيط مداركه ، وتنمية معلوماته ، وتسليته ، وتنمية الروح الوطنية عنده ، وتبَيَّنَ أن الأطفال يشاركون في بعض برامج الأطفال التلفزيونية .

ويوجد تخطيط لهذه البرامج بصفة دائمة في (٦٦,٧٪) من الدول عيّنة الدراسة ، وهي : الجزائر ، تونس ، سورية ، الأردن ، الكويت ، السعودية ، وأهم الأساليب المتَّبعة في التخطيط : التخطيط لدورة واحدة .

ويوجد تقييم بصورة دورية لبرامج الأطفال في (٥٠٪) من الدول العربية المذكورة ، وأجرت دولتان فقط بحوثاً حول هذه البرامج ، وتعقد ثلاث دول دورات تدريبية للعاملين في برامج الأطفال ، كما توجد رقابة على المضمون الأجنبي في برامج الأطفال ، وتواجه هذه البرامج العديد من المشاكل في كل الدول عيِّنة الدراسة .

دراسة تتـبُّعية :

للتعرّف على مدى التطوّر الذي حدث في برامج الأطفال التلفزيونية منذ عام (١٩٨٥ م) والوقوف على واقع هذه البرامج بعد مرور مدّة زمنية معقولة نسبيّاً ، أعاد المجلس العربي للطفولة والتنمية هذه الدراسة مستخدماً نفس استمارة الاستبيان السابقة ، بعد إجراء بعض التعديلات الطفيفة بها ، واستكمالها شكلاً ومضموناً بحيث تُلبّي الاحتياجات المطلوبة بدرجة عالية من الكفاءة ، وعُرضت على لجنة استشارية من الخبراء في مجالات ثقافة الطفل على مدى يومين خلال شهر حزيران (١٩٨٨ م)[١] .

نتـائـج الدراسـة الميدانيـة :

تخصّص بعض الدول قنوات تلفزيونية بأكملها لبرامج الأطفال ، والفقرات العلمية ، وتشغل هذه البرامج مكاناً متميزاً من بناء البرامج ، وخريطة الإرسال التلفزيوني في الدّول المتقدّمة بصفة عامة ، حيث لا تقل عن (١٥٪) من إجمالي ساعات البثّ ، وتصل إلى (٢٠٪) في بعضها الآخر ، كما في التلفزيون البريطاني .

وتشير نتائج العديد من الدراسات؛ التي أُجريت حول برامج الأطفال التلفزيونية في الدول العربية؛ إلى تزايد الإقبال على مشاهدتها ، وتبين من خلاصة الدّراسة : إقبال الأطفال على مشاهدة برامجهم التلفزيونية ، وقد يرجع ذلك إلى أن الأطفال يفضّلون البرامج التي تتناولهم ، ويجدون أنفسهم فيها ، وقد تكون بينهم وبين هذه البرامج رابطة؛ من خلال مشاركتهم فيما تقدمه بالمراسلة ، أو الحضور إلى «الاستديو» ، أو المشاركة في التّنفيذ .

واستهدفت هذه الدراسة : التعرّف على مدى وجود برامج للأطفال في تلفزيونات الدول العربية .

وتبيّن وجود برامج للأطفال في تلفزيونات كل الدول العربية ـ عيِّنة الدراسة ـ

---

(١) الطفل العربي وأجهزة الثقافة (ص ٢١٩ ، ٢٢٠).

وإن تراوحت ما بين برنامج واحد وأكثر من ثلاثين برنامجاً[1].

الأهداف التي تسعى برامجُ الأطفال العربية إلى تحقيقها:

إن تلك الأهداف كثيرة، ويمكن أن نذكر منها:

١ ـ توجيه الأطفال إلى الأنماط السلوكية المقبولة اجتماعياً.

٢ ـ تنمية ملكات الطفل العقلية، وتنشيط مداركه، وتنمية معلوماته.

٣ ـ تسلية الأطفال، والتّرفيه عنهم.

٤ ـ تنمية الروح الوطنية عند الأطفال.

٥ ـ تطوير التعليم الذاتي في نفس الطفل، مع تأكيد ارتباطه بالعالم من حوله.

٦ ـ تنمية المهارات اليدوية للأطفال.

٧ ـ تدريب الذاكرة، وقوّة الانتباه عند الأطفال.

٨ ـ إشباع الحاجات النفسية عند الأطفال، وغيرها، ومنها: تنمية ذوق الأطفال وإحساسهم بالفنون، إعداد الأطفال بدنياً، احترام الملكية العامة والمحافظة على الممتلكات العامّة، التحلِّي بالروح الديمقراطية.

لقد استهدفت الدراسة الميْدانية التعرف ـ أيضاً ـ على مدى كفاية العدد الحالي من برامج الأطفال لتحقيق الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها في الدول العربية ـ عيّنة الدراسة ـ[2].

الشروط الموضوعية للتواصل بين الأطفال والتلفزيون:

لقد أصدرت منظمة اليونسكو عام (١٩٦٥ م) بياناً بالأبحاث المهمّة التي كُرِّست لدراسة تأثير التلفزيون على الأطفال والناشئة، ومنذ تلك اللحظة ظهرت أبحاثٌ علمية متكاملة، فالتلفزيون ـ في بعض الآراء ـ يؤثِّر كالمخدَّرات،

---

(١) الطفل العربي (ص ٢٣١ ـ ٢٣٤).
(٢) المصدر السابق (ص ٢٤٠ ـ ٢٤١).

ويؤدي إلى الاعتياد ، وإلى تناقص تدريجي في الإرادة والرّوح النقدية ، وتكريس العنف ، وخاصة عندما ينفلت من عِقاب الرَّقابة والتّوجيه ، فعنفُ «الأفلام» والمسلسلات التلفزيونية يغزو الحياة اليومية ، وبالتالي فإنَّ الحدودَ بين الخيال التلفزيوني والعالم الواقعي يتميّز بشفافيّته .

إن الوسائل الإعلامية الأخرى التي لا تقلُّ أهميَّة عن التلفزيون ، هي أدوات تتكامل مع التلفزيون ، وتُسهم مجتمعةً في تحقيق التغيُّر الاجتماعي .

فالعلاقة التي تربط كلّ راشد مع التلفزيون تؤثِّر ـ في رأيه ـ حول دوْر التلفزيون في التأثير على حياة الأطفال. وإذا كان أحدنا يشاهد التلفزيون ، مسترخياً في أريكته ، بعد عمل يومٍ شاق ، وينظر إلى الصور التلفزيونية ، فإنه يميل إلى الاعتقاد بأنَّ الأطفال يعيشون الحالة نفسها ، ولكنّنا سنغيِّر رأينا إذا راقبنا الأطفال وهم في وضعية المشاهدة ، إذ نرى أن لكلٍّ منهم ممارسته الخاصة .

وتستند المقولات المتناقضة إلى وجهات نظر تربوية متناقضة ، فالمربّي الأب ، أو المعلّم يعامل الطفل وفق تصوّرات تربوية هي في أغلب الأحيان نتاج لتجربة طفولته الخاصة ، وللتربية التي تلقّاها هو نفسه ، ولذلك يتأرجحُ بين الثّقة والإحساس بالقلق والخوف .

وإذا كنت تعيش في دائرة القلق لما قد يحصل للطفل ، فإنك تبحث عن وسيلة لحمايته من عدوانية التلفزيون ، وإذا كنت تثق به ، فإنك تشعر بأنَّ الطفل قادرٌ على الاستفادة من كل الوضعيّات التلفزيونية[(١)] .

أهمية برامج المعلوماتية :

يلاحظ أن «أفلام» الخيال ، والمسلسلات ، والحلقات ، تأخذ أهميّة كبرى بين البرامج التلفزيونية الأخرى ، كما يلاحظ أيضاً أنّ برامج الشباب ، بالإضافة إلى برامج الألعاب والمنوّعات ، تأخذ حيّزاً مهماً من وقت المشاهدة عند الشباب .

ولا بدّ من الإشارة في النهاية إلى الجانب المهم المدهش ؛ الذي احتلّته برامجُ

---

(١) الطفل والتلفزيون (ص ٩ ـ ١١).

المعلوماتية ، وهنا يمكن الإيماء ـ بالتأكيد ـ إلى وقت مشاهدة غير إرادية ، فالأطفال يتلقّون وهم صغار جداً معلوماتٍ حول العالم ، والحروب ، والكوارث ، والأحداث المختلفة . . .

إن التلفزيون هو الأداة التي تغمر حياةَ الطفل منذ مرحلة مبكِّرة في حياته ، وتبيَّن أيضاً أن ما نريد أن نعلِّمه للطفل من خلال التلفزيون ، لا يمكن أن يقف عند حدود برامج الأطفال ، أو عند محتوى هذه البرامج ، أو تأثيرها ، بل يجب أن يمتدَّ ليشمل الجوانبَ المختلفة للصورة التلفزيونية .

الأنواع المفضّلة :

سُئِل أطفال الفئة العمرية الممتدة من (٨ ـ ١٣) سنة ، حول ما يفضِّلون مشاهدته من البرامج التلفزيونية ، فأعلن (٦٧٪) منهم ، أنهم يُحبّون الأفلام ، ثم أعلن (٦٣٪) منهم أنَّهم يفضِّلون برامج الحيوانات ، وحظيَت المنوّعات على (٥٣٪) ، والألعاب على (٥٢٪) ، بينما حظيت برامجُ الرياضة على (٥١٪) ، والأفلام المتحرّكة على (٥٧٪) ، ولكنَّ الصور المتحركة تحظى على أهمية أكبر عند الأطفال الصغار في الفئة العمرية من (٨ إلى ١٠) سنوات ، حيث بلغت النسبة (٨٤٪)[(١)] .

التلفزيون والأسرة :

يوجد التلفزيون ـ غالباً ـ داخل المنزل ، ونادراً ما يشاهده الأطفالُ بمفردهم ، إذ يجتمعون ـ حتى في وضح النهار ـ حول الشاشة الصغيرة ، إخوة وأخوات وجيران ، وفي المساء يجمع التلفزيون بين أفراد الأسرة جميعاً ، بعد عملٍ مضنٍ .

وعلى الرغم من الإمكانيات الجديدة المتاحة التي يقدّمها على المستوى الفردي ، فإنَّ هذه الإمكانيات تغدو أكثر أهميّة على المستوى الجماعي ؛ إذ يمكِّن مشاهديه جميعهم من متعة التبادل ، والاتصال ، والمشاركة الانفعاليّة الجماعية .

ويسعى الشبابُ في عمر المراهقة ، إلى تحقيق استقلالهم الشخصي ، وفي

---

(١) المصدر (ص ١٦ ـ ١٧) .

هذه المرحلة العمرية بالذَّات ، تنخفض درجةُ تعلُّقهم بالتلفزيون ، حيث يُفضِّلون في هذه المرحلة البحث عن الأصدقاء.

واليوم يرفض الشبابُ المجتمع ، ولا يجهدون أنفسَهم من أجل الاندماج فيه. وإذا كانوا يُعرِضون عن مشاهدة التلفزيون ، فإنَّ ذلك يأتي تعبيراً عن رفضهم لبرامجه التي لا تعبِّر عن اهتماماتهم ورغباتهم ، ومع ذلك ، فإنَّهم يشاهدون برامجه على الرغم من اعتراضهم. وبالتالي فإنَّ انخفاض معدَّل مشاهدة الشباب للتلفزيون ، يتوافق مع مستوى الشعور بالاستقلال عن الأسرة؛ إذ يفضِّل الشباب في هذه المرحلة القراءة ، والاستماع إلى المذياع ، أو الخروج مع الأصدقاء.

ويلعب التلفزيون داخل الأسرة دوراً مزدوجاً ، فهو يولِّد الصِّراعات من جهة ، ويعمل في الوقت نفسه على إزالتها ، وإخفائها من جهة أخرى ، وإذا كان ينافس الأسرة في مشاريعه التربوية ، فإنَّه يتحالف معها في تعزيز بعض المعطيات التربوية التي يقدِّمها.

اختيار البرامج:

غالباً ما يخضع اختيارُ البرامج داخل الأسرة إلى خصوصيّة الجماعة ، وإلى علاقات السُّلطة التي تسودها ، والتي يمكن أن تتمثّل وفقاً للحالة في الأب أو الأم ، أو في الأطفال الذين يفرضون خياراتهم ، وهم نادراً ما يكونون الأخوة الأصغر سنّاً في الأسرة ، وبما أن برامج مختلف الأقنية التلفزيونية تتشابه؛ لذلك كلما زاد عددُ الأقنية ، كلّما قلَّت الخيارات.

وفي أغلب الأحيان يقوم ربُّ الأسرة باختيار البرامج ، وذلك يُعدُّ مؤشِّراً على سلطة تحظى بالاعتراف ، وخاصة داخل الطبقات المتوسطة. ويؤكّد الشبابُ ذلك بقولهم: «التلفزيون هو شأن الآباء»[1].

تعلُّم الإشارات الاجتماعية:

إن الطفل يتلقّى من التلفزيون منظومةً من المفاهيم والمبادىء؛ التي تساعده على التكيّف مع حياة الجماعة ، والاندماج في معطياتها الثقافية ، وهذا يعني أنَّنا

---

(١) المصدر السابق (ص ٧٣ ـ ٧٥).

سننظر إلى كيفيّات اكتساب الطفل للمعطيات الثقافية، وذلك منذ المرحلة التي يبدأ فيها بتعلّم الكلام، وحتّى المرحلة التي يستطيعُ فيها أن يوظِّفه في التعبير عن مسار تفاعلاته الاجتماعية.

لقد أخذ التلفزيون أهميّة خاصّةً في مجال التَّنشئة الاجتماعية، فما كان يُكتسَبُ سابقاً بوساطة الأسرة، أو المدرسة، يتمُّ اكتسابه اليوم، وتلقّيه عن طريق الشاشة الصغيرة.

وغنيّ عن البيان أن دخول الطفل إلى عالم الكبار أمرٌ مرهون بعملية إدراكه لمركزه ودَوْره، ويتحدد الدّور - عادة - بمنظومة السّلوك التي ينتظرها الآخرون من الطفل في إطار الأسرة، والمدرسة، أو في جماعة الأقران. ويعرف المركز بمنظومة التصرّفات التي ينتظرها الطفل من الآخرين تجاهه. وفي سياق هذا الإدراك للدَّور والموقف، يقدِّم التلفزيون للطفل النماذج السلوكيّة التي يحتاجها في تفاعله مع الآخرين[1].

صراعات أسرية:

إذا كان اختيارُ البرامج التلفزيونية لا يمثِّل مصدراً فعليّاً لصراعات عنيفة، فإنَّ التَّوقيت، وعلى خلاف ذلك يمثل هذه الناحية. ويجب هنا أن نأخذ بعين الاعتبار؛ أن الطفل لا ينظر إلى برامج التسلية وفقاً لمنظور الرّاشد نفسه، فالسعادة التي يحققها أكثر تأجّجاً، إذ يعيش اللحظةَ التلفزيونية بدرجةٍ عاليةٍ من الحماسة النفسية. وإذا أضفنا إلى ذلك كله: الدّفء الناجم عن اجتماع الأسرة حول الشاشة الصغيرة؛ كحضور الأم، والبسمة التي يتقاسمها الجميع، يجعل الذهاب إلى النوم قطيعة تولِّد المرارة، والشَّقاء بالنسبة للأطفال. ومن الطبيعي أن تترافقَ هذه القطيعة بردود أفعالٍ عنيفة، تتوافق مع درجة الإكراه الحاصل.

إنَّ وَضْع الطفل منفرداً في غرفة مظلمة، تصلُ إليها ضجّةُ الأسرة التي تجتمعُ حول التلفزيون، في أجواءٍ من السَّعادة، يمكن أن يُسبِّب له إحباطاتٍ أكثر تأثيراً من البرامج التلفزيونية نفسها. وهناك مصدر آخر للصراع، يتمثَّل في تحقيق التوافق بين عمر الطفل والبرامج التلفزيونية الممكنة.

---

(١) المصدر السابق (ص ٩١).

إزالة الصراعات:

إذا كان التلفزيونُ يشكِّل مصدراً للصّراعات، فإنَّه في الوقت نفسه، قادر على حصارها، وهناك طرق متعددةٌ لذلك، لقد أجريت دراساتٌ عديدةٌ لمعرفة ردود أفعال الأسرة في حال غياب التلفزيون عن المنزل، إذ يمكن الاسترسالُ في الحوار والثرثرة، والقيام بألعاب اجتماعية، ثم الخروج من المنزل، والأطفال يتابعون القراءة في كتب مختلفة، وبعد ثلاثة أيام اعترف الجميع بأنهم يعانون من الضَّجر. وفي نهاية اليوم العاشر، بدأت المشاحناتُ بالظُّهور، وفي اليوم الخامس عشر أصبحت الحالة غير محتملة، وطالبت الأم بانفعال كبيرٍ بإعادة التلفزيون قائلة: «من غير التلفزيون يراقب أحدُنا الآخر، ونجد الأسباب الحقيقية للمنازعات والخلافات. قد حان الوقت لإعادته، وعندما يعود، فإن السلام سيحلُّ في المنزل، ويصبح للأمسيات طعمها وجمالها»... وتكررت الدراسةُ، غير أنه تأكد أنّ التلفزيون بسببه يتبدَّى السَّلام، حيث ينسى كل فرد من أفراد العائلة انتقاداته اللاَّذعة، مهتماً بما يراه على الشاشة الصغيرة[1].

التلفزيون بين الأطفال والراشدين:

كانت عملية التنشئة الاجتماعية ـ قديماً ـ تقعُ على عاتق الآباء والمربِّين وحدهم، وبإشراف أشخاص يعرفهم الطفلُ، ويتواصل معهم. أمَّا اليوم فإن التلفزيون يأخذُ مكانه في وسط الأسرة، ويشكِّل مصدراً لا ينضب للمعلومات التي تشكِّل الطفل معرفياً وعقليّاً، وهي معلوماتٌ تمارس تأثيراً كبيراً على عقول الأطفال وحياتهم، وذلك لأنها تصدرُ من خارج الأسرة.

فالأطفالُ يشعرون بأنّهم يستقبلون، وبشكل مباشر، هذا التدفُّق الكبير من الصُّور، من غير تدخُّل الرّاشدين الذي يحيطون بهم، وذلك يجلبُ لهم سعادة غامرة.

وبتأثير التلفزيون، يفقد المربُّون جانباً مهمّاً من العمل التربوي الذي كانوا

---

(١) المصدر السابق (ص ٧٦ ـ ٧٨).

يؤدّونه ، ويمكن التأكيد ـ هنا ـ بأن التلفزيون يقلّل من أهمية التّدخل الشخصي للمربّين.

أدوات أخرى:

ليس التلفزيون وحده الأداة التي تنقل المعلومات ، إذ يوجد في إطار متكامل ، ويشكِّل عنصراً من عناصر المعرفة الأخرى. فالطفلُ يعيشُ وسط فيضٍ من المعلومات؛ التي تتدفَّق من كل حدبٍ وصوْب. فالإسطوانات ، والأشرطة السينمائية ، والصحف ، والبريد ، والملصقات ، و«الكاسيت» ، والراديو ، والإشارات اللاَّسلكية ، تشكِّل جميعها نظاماً متكاملاً للمعلومات ، يأخذ فيه التلفزيون مكانه الخاص ، وهو مكان يتميَّز بالأهميّة دون أدنى شك ، ولكنّه لا يمثّل ، في أيِّ حال من الأحوال؛ العامل الوحيد ، ولا يخفى ذلك على المربِّين الذين يدركون دور التلفزيون وأهميته.

ويقوم معلِّمُ المدرسة بتطوير معلومات الطفل عن طريق الكتابة والقراءة والتعليم؛ الذي يتميز بدرجة أعلى من التأمل والأصالة ، وذلك بما يناسب مستوى الطفل وقدراته[١].

التلفزيون ومتعة الأطفال:

يفضِّل الأطفالُ مشاهدة أفلام الخيال وبرامجه ، وهم ـ في هذا الخصوص ـ لا يختلفون عن ذويهم؛ الذين يفضِّلون بعضَ البرامج دون الأخرى.

فالخيال الذي يتيحُ للأطفال أن يعيشوا حياة الأبطال ، يوفِّر لهم سعادة ، تفوق السعادة الحقيقية التي تغمرهم في الحياة اليومية. وليس غريباً على الإطلاق أن ينعمَ الأطفالُ بالمغامرات الخيالية ، ولا سيّما الأطفال الذين لا يستطيعون أن يجدوا هذه المتعة في إطار وسطهم الاجتماعي ، الخالي من المفاجأة والإثارة ، عندما يتخيل الطفل نفسه أميراً مشهوراً ، أو رجل شرطة حاذقاً ، أو قائد مجموعة أسطورية ، فإنَّه عبر هذا كله ، يستطيع أن يتحمَّل عبءَ الحياة اليومية ، وأن يتجاوزها نحو عالم أفضل. فالتلفزيون يستطيعُ أن يوفِّر للأطفال المحرومين حياة

---

(١) المصدر السابق (ص ٨٣ ـ ٨٥).

حالمة ، وخاصة بالنسبة لهؤلاء الذين لا يملكون إمكانيّات مثل هذه الحياة. فالطفل الذي يجدُ نفسه مُحاطاً بجدار من الممنوعات ، والمحظورات ، لا يملك في مواجهتها سوى الهروب والتواصل مع مغامرات الآخرين.

وبالتالي فإنَّ الأفلام التي ينسجم معها الطفل تساعده على حلِّ مشاكله الحيوية الصَّعبة[1]. . وفي كل القصص تكون العدالةُ القيمة الأساسية التي تناسب الأطفال ، وهي القيمة التي تسمو على كل شيء آخر. ومن هذا المنطلق ، فإنَّ خصائص الشجاعة ، والتضحية من أجل مساعدة الآخرين ، ومساندة الضعفاء ، وسعة الحيلة ، هي القيم التي يتميّز بها أبطال الأطفال[2].

التلفزيون واللَّعب:

يُعاب على التلفزيون أنَّه يمنع الأطفال من اللَّعب ، وذلك صحيح إلى حدٍّ ما ، وخاصة عندما يشاهده الأطفال في الوقت المخصص للَّعب. . . ولكن التلفزيون نفسه يزوِّد الأطفال بمادة غزيرة يوظّفونها في ألعابهم ، إذ اللعب ضرورة حيويّة لنمو الأطفال سيكولوجيّاً[3].

التلفزيون وقلق الأسرة:

يُسبِّبُ التلفزيون القلق للأهل ، إذ يُوجِد لديهم الانطباعَ بأنّهم يتركون أطفالهم لخطاب أناس لا يخضعون للمراقبة ، وأنَ أطفالهم بالتالي يعيشون صور مغامرات لا يعرفونها ، ويسمعون عباراتٍ لم يسبقْ لهم أن تعلَّموها. ومن هذا المنطلق يشعر ذوي الأطفال أنَّ تربية أطفالهم تكاد تفلتُ من أيديهم ، فيعيشون في دائرة القلق والحيرة.

وإزاء هذه المشاهد تحضر الأهلَ صورةُ طفولتهم القَلِقة ، ويشقُّ عليهم أن يشاهدوا أطفالهم من حولهم يعيشون هذه الانفعالات القوية. . . يقتتلون كما في أفلام رُعاة البقر (الكابوي) ، ويهاجمون بعضَهم بالسَّيْف كما يفعل (زورو) فيقع

---

(١) الطفل والتلفزيون (ص ١٣٧).
(٢) المصدر السابق (ص ١٤١).
(٣) المصدر السابق (ص ١٤٧) والأطفال والإدمان التلفزيوني (ص ١٢٩).

في أيديهم: أنَّ أولادهم الصِّغار قد تحوَّلوا على الرغم منهم إلى مجرد عصابات تستخدم أسلوبَ العنف!

وتشكل الدّعاية التلفزيونية مصدراً آخر للقلق عند ذوي الأطفال، فالأهل يشاهدون انحداراً كبيراً في المستوى الأخلاقي لأطفالهم، ويكفي أن نلقي نظرةً واحدة على مشاهدة الإثارة الجنسية التي تقدمها الشاشةُ الصَّغيرة؛ لندرك مدى الخطر اللاخلاقي الذي يحيط بالأطفال، ويداهمهم، ومن هنا نعرف أيضاً لماذا يشكِّل التلفزيون مصدراً كبيراً لقلق الأهل ومخاوفهم[1].

وهنا يقع الأهلُ في حيرة من أمرهم؛ أيتركون أطفالهم يشاهدون هذه البرامج المرعبة التي لا تنتهي، أم يتوجَّب عليهم منعهم من رؤيتها، ويسببون لهم حزناً كبيراً؟!

ويكمن الجانبُ التربوي في مساعدة الطفل على اختيار برنامج آخر، يرتبط به، ويعبِّر عن حاجاته، فالأطفال مخلصون لعاداتهم، ويحبُّون العيشَ في أُلفةٍ دائمةٍ مع البطل، ولكنهم غالباً ما يكتفون بالذين اعتادوا عليهم، أو الذين نُصِحُوا بهم من قبل أصدقائهم[2].

الطفل العربي والمستقبل:

تمثِّل الرعاية السليمة للطفولة المستقبل الزاهر لأيِّ أمَّة، فأطفال اليوم رجال الغد، ولذلك أولَت الدولُ العربية اهتماماً كبيراً بالطفولة، وجاء إنشاءُ المجلس العربي للطفولة والتنمية مواكباً لهذا الاهتمام؛ إذ يستهدفُ عدَّةَ أهداف، منها:

* تحديد حاجات الطفل العربي الراهنة والمستقبلية تحديداً علميّاً.

* رسم أوليّات العمل الملائمة لتطوير هذه الأوضاع من خلال رؤية تنموية شاملة.

* توعية الأسرة والرأي العام العربي بمشكلات الطفولة العربية، واستنباط الأساليب، والوسائل لتعبئته في مواجهة هذه المشكلات.

---

(١) الطفل والتلفزيون (ص ١٦٣ ـ ١٦٤) والأطفال والإدمان التلفزيوني (ص ١٦٧).
(٢) الطفل والتلفزيون (ص ١٧١).

* صياغة المشروعات والبرامج، والأنشطة التجديدية في مجال تنمية الطفولة العربية وغيرها.

* التعاون والتنسيق مع المنظّمات العربية، والدولية في حدود اهتمامات المجلس[1].

التلفزيون وأثره الاجتماعي:

منذ أن وُجِد الإنسانُ على وجه الأرض، وحاجته قائمة لمعرفة كثير من الأمور التي تهمُّه، في مستقبله القريب والبعيد، ولا شكَّ أنَّ هذا يدفعه إلى التحرِّي، والتعرُّف، والبحث عن حقائق الأمور؛ لأن الكثير من الأمور المجهولة، بالنِّسبة للإنسان، يمكن التعرُّف عليها، وإزالة الجهل بها، والاستفادة من المعلومات المتوافرة عنها، من: علاقات اجتماعية، وموروثات تاريخية، وأخبار محليّة ودولية، وتعليم، وتوجيه، وترفيه.

وهذه مَهمَّة إعلامية أصبحت في العصور الحديثة تتكفَّل بها الأجهزة الإعلامية بمختلف أشكالها؛ لتقدِّمها للفرد والمجتمع بكفاءةٍ عاليةٍ، ونجاحٍ كبير، لما تتمتَّع به من قوة وانتشار[2].

فمع ثورة المعلوماتية، وهجمات الفضاء، و«الساتليات» أصبح مصير الإنسان الثقافي والذهني مرهوناً إلى حدٍّ كبير بقدرته على المواجهة الواعية، إزاء هذا المدِّ السَّرطاني الرَّهيب.

وإذا كان علينا أن نوفِّر الحماية لأنفسنا ثم لأطفالنا ـ الأكثر عرضة للاستلاب الإعلامي ـ علينا أن نسلِّح أنفسنا وأطفالنا بإمكانيات معرفية وعلميّة حول آثار التلفزيون في مدارات إيجابياته، وسلبيّاته، وعوامل تأثيره[3].

---

(١) الطفل العربي ووسائل الإعلام وأجهزة الثقافة، دراسة ميدانية في ست دول عربية، ١٩٨٨م، عاطف عدلي العبد (المقدمة). وانظر: مجلة الكويت، العدد (١٤) (ص ٣٤).

(٢) التلفزيون والتغيّر الاجتماعي في الدول النامية، د. سعيد بن مبارك آل زعير (ص ١٧٥ ـ ١٧٦).

(٣) المصدر السابق (ص٣).

وفي هذا الإطار ، على الأسرة المسلمة أن تكون أكثر يقظة وحيطة؛ تجاه ما يقدِّمه التلفزيون ـ هذا الأخطبوط ـ الذي يمسك بتلابيب أفرادها كلهم؛ لذلك من واجبها التربوي أن تحرص كل الحرص على توجيه أفرادها لمعرفة البرامج المفيدة من الضارّة ، والبرامج التي تراعي قيمَنا ومبادئنا ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

التلفزيون غزو ثقافي :

إنَّ الهجمة الفكرية الشَّرسة على الإسلام تستدعي منّا وقفة تأمّل ، ودراسة واعية لأحوال الأمم ، وظروفها ، وأساليب تأثّرها ، وتأثيرها ، والتعامل معها بمنطق الحكمة ، واستخدام كلّ ما يُمكِّننا من تحقيق البلاغ المبين ، ومخاطبة الأجيال المعاصرة بلغتها التي تفهمها ، وبالأسلوب الذي يؤثِّر فيها .

إن التلفزيون ـ فيما ينقل ـ ينقل الفساد والضَّلال ، ويقدِّم القدوة السيئة في مجالات عديدة؛ ممّا يهدمُ نفسيَّات الأفراد والجماعات ، وينقل التخلّف والبَوار ، وإنَّ إدراك الواقع يوقد في العزم الرغبة في تحويله إلى وسيلة بناءٍ ، تساهمُ في إنقاذ البشرية؛ مما هي فيه من ضلال ، وأول خطوة نحو ذلك : هي أن يتَّجه عددٌ من أبناء الأمَّة المسلمة إلى الدِّراسة الجادَّة الواعية للتَّعرف على خصائصه وإمكاناته ، والاستفادة منها لتحقيق أهدافنا .

تأثير التلفزيون :

إنَّ الدِّراسات التي تناولت التلفزيون ، أظهرت كثيراً من النتائج المتفاوتة ـ بل والمتعارضة أحياناً ـ ، فبينما نجد الدِّراسات المبكِّرة ، تؤكِّد قوة تأثير وسائل الاتصال ، حيث ساد الخوف في الولايات المتحدة الأميريكية من قوَّة ونفوذ وسائل الإعلام ، والتَّهديد الذي يكمن في استخدام الدِّعاية ، وتأثير الثقافة الجماهيرية التي تُضعِفُ القدرات النقدية للجماهير ، وتجعلها تقبل ـ بلا مقاومة ـ ما يُقدَّم إليها ، وتستسلم بلا تفكير ، إلاَّ أنَّ هذه النظرة تغيَّرت بناءً على دراسات تالية .

وفي محيط العالم الإسلامي قامت دراساتٌ متعددة؛ حول تأثير التلفزيون ، لكنَّها دراسات جزئية محدّدة من الطرفين غالباً ، فهي تدرس تأثير برامج محدَّدة

على سلوكٍ معيَّن للجماهير ، أو تدرس رأي الجماهير في نوع البرامج ، أو تدرس تأثير برامج محو الأميّة ، أو دور التلفزيون في البرامج التعليمية وتطوير التعليم ، وهكذا. . . لذا فإنَّ هذه الدِّراسات على أهميَّتها ، ودقَّة بعضها ، لم تتعرّض للتغيُّر الاجتماعي بعمومه في علاقاته مع تأثير التلفزيون.

فالإعلامُ اليوم نال من الانتشار والسيطرة على أوقات الناس وعقولهم وأموالهم؛ حظّاً كبيراً ، ولعلَّ هذا يبرّر الاستثمارات العالمية الهائلة في مجالات الاتصال المختلفة ، وهذه الاستثماراتُ الضخمة ، تفسِّر بدوْرها التأثير الكبير الذي يُحدثه الإعلام في عقول الناس ، ومداركهم.

ومع هذه الأهميّة المتنامية للإعلام في بلاد العالم المتقدِّمة ، إلاَّ أنَّ غالب البلاد النامية ، ومنها البلاد الإسلامية ، لم ينَل الإعلامُ الأهميّة المتناسبة مع حجمه وقوّة تأثيره ، وذلك نتيجة لعدم إدراك خطورة الإعلام.

ومن هنا أصبحت الأمَّةُ الإسلاميةُ ضحيَّة سهلة للغزو الفكري عبر برامج الإعلام القويّة ، الموجّهة من خارج الحدود ، وإذا كان اختراقُ الجيوش للحدود يُعتبَرُ عُدواناً ، يجد مَنْ يقاومه ، فإنَّ اختراقَ الوسائل الإعلامية لهذه الحدود ذاتها ، أو للضمائر نفسها ، لا يُعتبَر ـ حتى الآن ـ عُدواناً ، ولا يجد من يتصدّى له؛ لأنَّ التصدِّي له ، يحتاجُ إلى مهارة هائلة ، وتقدُّمٍ تقنيٍّ ليس متاحاً للدول التي يغزوها الاستعمار الثقافي(١).

تأثير سلبي في ثقافتنا:

إنَّ الاستيراد المتزايد للمواد الإعلامية الغربية ، من كتب ، وصحف ، ومجلات ، وبرامج تلفزيونية ، وأشرطة ، ومواد تعليمية وترفيهية ، وغيرها ، قد أثَّر سلبياً في ثقافتنا الذاتية ، ذلك أنَّ معظم هذه المواد تُصوِّر الحياة وَفْقَ النَّسَق القيمي الغربي.

والأخطر من ذلك: أنَّ كثيراً من هذه المواد ، تقوم بتمجيد الثقافة الغربية ، وتقديمها إلى الجماهير ، على أنَّها هي الثقافة الإنسانية المتحضِّرة ، وفي هذا

---

(١) التلفزيون والتغيّر الاجتماعي في الدول النامية (ص ١٠ ـ ١٣).

إيحاء بِدونيّـة الثقافات الأخرى ، وعدم إنسانيّتها[١].

سبيل الخلاص:

بعد كل ما عرفناه عن الغزو الثقافي الغربي لأمتّنا العربية والإسلامية ، علينا أن نبحثَ عن طريقٍ للخلاص من هذه التَّبعيّة ، والهيْمنة المقيتة ، فنقف في مواجهة هذا الغزو الخطير ، وإذا صَلُحت النوايا نتحرّر من كل دخيل.

لذلك في ضوء الحقائق التي أشرنا إليها نستطيع أن نقول: إنّ علاج التبعية الإعلامية ، لن يتمّ لها النّجاح ، ما لم يرتبط بعلاج ظواهر التبعية في المجالات الأخرى. إننا بحاجة ـ حقاً ـ إلى منهجٍ شمولي؛ لعلاج أزمة التبعية بمختلف صورها ، وألوانها.

أ ـ إنَّ نقطة الارتكاز في علاج هذه المشكلة تكمن ـ في تصوّرنا ـ في إعادة صياغة نظرتنا للإعلام ، فلسفةً ، وتنظيماً ، وتطبيقاً؛ لذلك ينبغي أن تتضافر جهود الباحثين والمؤسّسات الأكاديمية ، والتشريعية الإعلامية ، في سبيل صياغة فلسفة عربية إسلامية للإعلام ، تستقي أصولها من مصدَريْن:

أولهما: النَّسَق العقائدي ، والفكري ، الذي يؤمن به المجتمعُ الإسلامي.

ثانيهما: معطيات البيئة الثقافية ، والسياسية ، والاجتماعية التي تعمل فيها وسائل الإعلام.

ب ـ تشجيع ودعم كل القدرات ، والطّاقات ، والمواهب المبدعة ، حتى يمكن أن تقدِّم للجماهير البدائل الذاتيّة المقنعة ، والمؤثِّرة ، ولا نكون بذلك متعلّقين بالمنتجات المستوردة التي تُـبْهِرنا.

لقد نجحت دول عديدة في تقليل اعتمادها على البرامج المستوردة ، بفضل سياساتها الوطنية الواضحة. ولا يمكن لَوم الناس ، عندما يرحِّبون بأكثر أشكال المواد الترفيهية الأجنبية تفاهةً وسطحيَّـةً ، إذ تُقدَّم ـ كما نعلم ـ في إطار فنيٍّ راقٍ إذا ماسُمِحَ لأشكال الثقافة الوطنية أن تضمحلَّ. ولكي تبقى هذه الأشكال حيّةً ،

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٨ ـ ٤٩).

وشعبيّـةً ، وجذَّابـةً ، يجب أن يتمَّ تجديدها دائماً بقدرات ، ومواهب حديثة ، وبمحتويات جديدة .

وينبغي أن يلقى الكُتَّاب المبدعون ، تشجيعاً كاملاً من جانب المجتمع ، والهيئات الحكومية المعنية ، وأن يُسمحَ لهم بإعطاءِ أفضل ما عندهم ، في جوٍّ من الحريّة. تلك هي الحياة الحقيقية للذاتية الثقافية[١] .

التلفزيون والتغيير القادم :

مع إدراك أنَّ التلفزيون بتأثير برامجه ، تتحكم فيه مجموعة من العوامل ، وهو لا يمثِّل العامل الوحيد لإحداث التَّغيير ، إلا أنَّ المعلومات التي تقدَّم من خارج الإطار الثقافي الذي ينتمي إليه المشاهدون ، تُشكِّل بذورَ التَّغيير القادم .

وإذا أدركنا خصائص التلفزيون ، وقدرته على التَّـكرار ، وتقديم المعلومات بأشكال متعدِّدة التي تضمن له التكرار غير المملّ ، تبيَّنت لنا خطورة الآثار التّراكمية للقيم الوافدة على المدى البعيد ، وحتى على المدى المتوسط؛ لأنَّ التأثير القليل الهادىء ، يكون أقدر على الثَّبات لعدم وجود التنافر الواضح بينه وبين القيم الأصيلة ، والتي تمثّل أحد خطوط الدِّفاع القويَّة أمام القيم الدخيلة ، فإذا كانت البرامجُ الوافدة تدرك ذلك ، فإنَّها تعمل على تخطّي ذلك الخط الدِّفاعي بهجوم غير مباشر على الآراء القائمة .

ومع القوة الهائلة للبرامج الأجنبية ، فإنَّ القيمَ الأصيلة في البلاد النامية والبلاد الإسلامية ـ بشكل خاص ـ مهدَّدة من قبل القيم الواردة عبر البرامج ، وما يتبع ذلك من آثار أكثر خطورة تتمثَّل في السيْطرة الثقافية ، وهذا التهديد هو المقدّمات للتغيّر الثقافي الذي هو أساس عملية التغيّر الاجتماعي[٢] .

وتبيّن لنا أن معظم القيم في البرامج الأجنبية هي قيم بعيدة عن الثقافة الإسلامية ، وتشكِّل تهديداً لها . . . هذه القيم الدخيلة التي تعمُّ الإنتاج العالمي ، هي السِّمة العامّة التي تروَّج في كل بلاد الدنيا . . . وهذا الأمر الخطير الذي يُهيْمن

---

(١) المصدر السابق (ص ٥١ ـ ٥٥).
(٢) التلفزيون والتغيّر الاجتماعي (ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦).

على فكر البشرية ، ويصوغ عقلها بعيداً عن التصوّرات المهتدية ، يجعل مسؤولية القادرين من علماء المسلمين وقادة الفكر تتضاعف لإيجاد مخرج للإنسانية من هذا الضَّلال المدمِّر ، والذي لا تزال ظلماته تغمر الأفق[١] .

* * *

(١) المصدر السابق (ص ٢٦٥) .

الفصل الثالث

الاستقرار النفسي ودوره في تمتين الأسرة

الاستقرار النفسي في التصور الإسلامي:

لقد أثبت الواقعُ التاريخي الطويل أنَّ الإنسانَ عبر مراحل تطوره، لم يصل إلى أفق المعرفة الحقة، والاستقرار النفسي والاجتماعي، كما وصل إليه في ظل المنهجية الإسلامية؛ التي تتعامل مع المعطىٰ الاجتماعي والنفسي بآليات أكثر دقة وفاعلية، انطلاقاً من مرجعيتها العليا (القرآن والسنة).

لقد راعى الإسلامُ في معالجته لقضايا الإنسان الجوانب النفسية؛ التي تُعتبر المحرك الحقيقي للإنسان، فأراد من أول وهلة مخاطبته انطلاقاً من فطرته التي فطر عليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ولقد خلق اللهُ الإنسانَ، وفطره على الميل والرغبة إلى شريك آخر... هذا الآخر الذي يتمِّم ما نقص في حياته ومنذ أن وُجدَ الإنسان على وجه الأرض، وهذا الميل والرغبة دافعه في القرب من الآخر، فأبونا آدم ـ عليه السلام ـ كان أول مَنْ شرع قضية الزواج، ثم كان الزواجُ سنة الأنبياء والمرسلين، وسُنَّة سيدنا محمد ﷺ؛ الذي قال: «أصوم وأفطر، وأصلِّي وأرقُد، وأتزوَّج النساءُ، فمن رغب عن سنّتي فليس مِنِّي»[(١)].

ما أعظم هذه الواقعية التي امتاز بها سيدنا محمد ﷺ، فالإسلامُ ليس دين

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

الرهبانية ، بل دين الاعتدال والوسطية ، وهذا حقاً ما ميَّزه عن باقي الأديان والفلسفات؛ التي عالجت قضايا الإنسان ، فنلاحظ التعبير القرآني في تصويره لتلك العلاقة كيف يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

لقد خلق الله كلا الجنسين (الذكر والأنثى) على نحو يجعله موافقاً للآخر ، ملبياً لحاجته الفطرية؛ النفسية والعقلية والجسدية ، بحيث يجد كلٌّ واحد منهما الراحة ، والطمأنينة ، والاستقرار ، والمودة ، والرحمة؛ لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظٌ فيه تلبية رغائب كلّ منهما في الآخر ، وائتلافهما ، وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة تتمثل في جيل جديد[١].

إنَّ هذا الميل لا تحدُّه حدود ، ولا يقيده وقت ، وليست هناك قوة تقف به عند حدِّ الوظيفة الجنسية ، فكل منهما يميل للآخر ميلاً دائماً ، وقد رُكِّب فيهما الكثيرُ من أسباب الارتباط والانجذاب ، وأُشربا في قلوبهما حب الجنس الآخر ، والولع به. وقد جعل اللهُ الميل الجنسي في الإنسان أضعاف ما فيه من قوة الجماع ، وذلك لغاية سامية ، وهو أن يكونَ الإنسانُ مدنياً متحضراً ، فليست العلاقةُ بين الرجل وزوجه علاقة قضاء مأرب وحسب ، بل هناك الصلة القلبية ، والتعلق الروحي: ﴿ لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا... ﴾ [الروم: ٢١].

هذه هي فطرةُ الإسلام لحقيقة الإنسان ، ووظيفة الزوجية في تكوينه ، وهي نظرة كاملة وصادقة ، جاء بها هذا الدين منذ أربعة عشر قرناً ، يوم أن كانت الديانات المحرَّفة تعدُّ المرأة أصل البلاء الإنساني.

والأصل في التقاء الزوجين هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار؛ الذي يكونُ دائماً عاملاً للاستمرار ، والمحافظ على كيان الأسرة التي تنطلق من خلال هذا الالتقاء.

فالنفسُ الإنسانية واحدة ، ذات خصائص متألقة ، تُميزها عن جميع

---

(١) دستور الأسرة؛ لأحمد فايز (٥٨).

المخلوقات ، قال تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : ٣٦].

فكل مخلوق في هذه الأرض كان من أصل واحد ، ثم نتج عن هذا الأصل فرعان متغايران ، فالذكر والأنثى عند بني آدم ، وعند الحيوان ، والسالب والموجب في الجمادات ، والعلاقة بينهما قائمة على أصل واحد هو الزوجية ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩].

وليس الهدف من التقاء الزوجين قضاء الحاجة الجنسية بشكل آلي عشوائي ، إنما الهدف أن تتحول هذه العلاقة إلى سكن نفسي ، واستقرار روحي بينهما. يقول العلامة رشيد رضا في كتابه «حقوق النساء في الإسلام» : «إن السكون النفسي الجنسيّ بين الزوجين هو تعبير بليغ عن شعور الشوق واللّذة والحبِّ الذي يجده كلّ منهما باتصالهما ، وإفضاء أحدهما إلى الآخر الذي تتمُ به إنسانيتهما ، وبه يزول أعظمُ اضطراب فطري في القلب والعقل ، ولا ترتاح النفس ، وتطمئن في سريرتها من دونه»[(١)].

لقد عارض الإسلامُ الكبت ، والامتناع عن إتيان العمل الغريزي ، بل راعى الفطرة البشرية ، وحاول تهذيبها ورَفْعها ، لا كَبْتها وقَمْعها ، بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ . . . ﴾ [آل عمران : ١٤] فهي شهوات مستحبّة مُستلذة ، وليست مستقذرة ، كما يخيل للكثيرين . والنساء والبنون شهوة من شهوات النفس الإنسانية قوية.

وقد عمل الإسلام على تهذيب الروح والنفس جميعاً. . . فصحيح أن الإسلام لا يبيحُ للناس أن ينساقوا وراء الشهوات ، إلى الحد الذي يجعلهم عبيداً لها ، لكنه يعترفُ بالدوافع الفطرية من حيث المبدأ ، وعدم كبتها ، حتى يتسنّى للإنسان مواصلة حياته انطلاقاً من فطرته السَّليمة ، في نطاق الحل المشروع ؛ الذي جعله الله السياج الذي يحفظ للإنسان كرامته كإنسان.

ودعوةُ الإسلام في كل هذا الذي ذكرناه ليست سوى الدعوة إلى بناء كيان ، من خلال تلك العلاقة التي أراد أن يوجهها الوجهة الصحيحة. . . هذا الكيان

---

(١) حقوق النساء في الإسلام (٢٦).

الذي كان سنة الأنبياء والمرسلين. . . هذا الكيان الذي يكون الدعامة الثانية بعد الفرد في صناعة المجتمع المسلم ، الذي يسعى الإسلام إلى توظيف كل الإمكانات المادية والبشرية والأخلاقية في قيامه ، فهو أملُ البشرية كلها ، بعد أن أخفقت الأنظمة المادية الحديثة في إعطاء الإنسان التفسير الصحيح لحل القضايا الطارئة ، وأعلنت إخفاقها الذريع في أن تصنع المجتمع الفاضل؛ الذي سعت إليه جميعُ الفلسفات عبر التاريخ ، ومن ثم بقي الحلُّ الإسلامي هو أمل إنسان القرن الواحد والعشرين. . . ليس هذا من قبيل الافتخار ، وإنما هذا ما أكَّده التاريخُ وجميع آراء المفكرين المعاصرين في دراسات لهم اتَّسمت بالموضوعية الفكرية ، وأعلنت صراحةً أن أمل الإنسانية هو في الرجوع الديني ، وخصوصاً الإسلام.

وبعد أن رأينا الإسلام يدعو صراحة إلى حُسْن العلاقة بين الذكر والأنثى ، ويعالجها في إطار النظام العام للمجتمع ، ويعتبر هذه العلاقة هي دعامة بنائه ، فقد أعطى الإسلامُ لهذه العلاقة نظاماً تقوم عليه ، فجعل للزوج حقوقاً كما للزوجة ، فلا يتم الزواجُ الصحيحُ إلا في ظل هذه الحقوق ، فعدم توفير هذه الحقوق يُخلُّ بالاستقرار الذي يسعى الإسلامُ لتجسيده في ظل الأسرة المسلمة؛ والتي أعطاها قسماً كبيراً ، وأولاها مكانة مرموقة في نظامه التشريعي.

الحقوق الزوجية دعامة الاستقرار:

تقوم العلاقةُ الزوجيةُ على أساس أنه حقّ يقابله واجب ، فللزوج على زوجه حقوق ، ولها عليه واجبات مقابل هذه الحقوق ، وهي التي تساعد على استقرار الأسرة ، وبذلك تقومُ الحياةُ على قواعد ثابتة من التقدير والمحبة ، ويكتب لها الدوام والاستمرار؛ لأنها حياة ساهَمَ فيها كلٌّ من الزوجين بحسب قدراته.

وقد قسم الإسلامُ هذه الحقوق إلى ثلاثة أقسام هي: حقوق مشتركة ، حقوق للزوج ، حقوق للزوجة.

وقد تحدَّثنا عن هذه الحقوق في فصل سابق ، فلا حاجة للإعادة ، إلا أننا نؤكِّد على أن الرجل يسعى دوماً لتوفير أسباب الراحة كلها لأسرته ، وهي تدأب لتعزيز السكينة ، وإشاعة جوٍّ من الاطمئنان ، والهدوء النفسي ، وراحة البال ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ. . . . ﴾ [النساء: ٣٤].

* بيت النبـوة مثـال للاستـقرار النـفسي :

لقد كان النبي ﷺ كما وصفه المولى سبحانه وتعالى ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] مثالاً للزوج الرحيم والعطوف على أزواجه ، فعن أنس رضي الله عنه : «أنَّ نساء النبي كُنَّ يجتمعن كلَّ ليلة في بيت صاحبة النَّوبة منهن ، فدخلت زينب بيت عائشة ، فمدَّ النبيُّ ﷺ يده ، فقالت عائشة : إنّها زينب . فكفَّ النبي ﷺ يده ، فتقاولتا حتَّى ارتفعت أصواتهما ، فمرَّ أبو بكر فسمعهما ، فقال : يا رسول الله ! أُحْثُ في أفواهِهِنَّ التُّراب ، وجاءت الصلاة ، فخرج ﷺ ولم يكلِّمهما ، ولكنَّ أبا بكرٍ عاد بعد الصَّلاة فعنَّف عائشة»[1] .

وتصفُ السيدة عائشة حلم النبي ﷺ عندما تواطأ أزواجُه عليه ، يطالبنه بتسويتهنَّ مع عائشة ، فلم يتوجَّه إليهنَّ بكلمة لومٍ أو عتاب ، فقالت : إنَّ نساء رسول الله ﷺ كنَّ حزبَيْن ، فحزبٌ فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة ، والحزب الآخر : أُمُّ سلمة وسائر نساء النبي ﷺ ، وكان المسلمون قد علموا حبَّ رسول الله ﷺ عائشة ، فإذا كانت عند أحدهم هديَّةٌ يُريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أخَّرها ، حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة ، بعث صاحبُ الهديَّة بها إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة ، فكلَّم حزبُ أُمِّ سلمة أمَّ سلمة ، فقلن لها : كلِّمي رسولَ الله ﷺ يكلِّم الناس ، فيقول : من أراد أن يهديَ إلى رسول الله ﷺ هدية فليهديها إليه حيث كان من بيوت نسائه ، فكلَّمته أمُّ سلمة بما قلنٍ لها ، فلم يقلْ لها شيئاً ، فسألنها ، فقالت : ما قال لي شيئاً ، فقلن لها : فكلِّميه . قالت : فكلَّمته حين دار إليها أيضاً ، فلم يقل لها شيئاً ، فسألنها ، فقالت : ما قال لي شيئاً ، فقلن لها : كلميه حتَّى يكلِّمك ، فدار إليها فكلَّمته ، فقال لها : «لا تؤذيني في عائشة ، فإن الوحي لم يأتني ، وأنا في ثوب امرأة؛ إلا عائشة» .

قالت : فقلتُ : أتوبُ إلى الله من أذاك يا رسول الله !

ثم إنهنَّ دعونَ فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، فأرسلت إلى رسول الله تقول : إنَّ

---

(١) رواه مسلم (١٤٦٢).

نساءك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر ، فكلَّمته ، فقال: «يا بُنَيَّة ألاَ تحبِّين ما أحب؟» قالت: بلى ، فرجعت إليهنَّ ، فأخبرتهنَّ ، فقلن: ارجعي إليه ، فأبت أن ترجع ، فأرسلن زينب بنت جحشٍ. فأتته فأغلظت ، وقالت: إنَّ نساءك ينشدنك العدل في بنت ابن أبي قحافة ، فرفعتْ صوتها؛ حتى تناولت عائشة وهي قاعدةٌ فسبَّتها ، حتى إنَّ رسول الله ﷺ لينظُرُ إلى عائشة هل تتكلَّم؟ فتكلَّمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها. قالت: فنظر النبيُّ ﷺ إلى عائشة ، وقال: «إنها بنْتُ أبي بكر»[1].

وعن النعمان بن بشير قال: استأذن أبو بكر على رسول الله ﷺ فسمع صوت عائشة عالياً ، فأهوى إليها أبو بكر ليلطمها ، وقال: يا بنية فلانة ، ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ؟! فأمسكه رسول الله ﷺ ، وخرج أبو بكر مُغضباً ، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة ، أنقذتُكِ من الرجل» ثم استأذن أبو بكر بعد أن اصطلح رسول الله ﷺ وعائشة ، فقال: أَدْخِلاني في السِّلم ، كما أدخلتماني في الحرب ، فقال رسول الله ﷺ: «قد فعلنا»[2].

هكذا كانت تربيةُ رسول الله ﷺ ، يُعلِّمنا دائماً كيف نجعل من البيت جنّة ، يخيّم عليها الحب والوئام والاستقرار ، الذي هو دعامة الحياة الزوجية.

اهتمام الإسلام بالأسرة:

تأتي عنايةُ الإسلام بالأسرة باعتبارها اللبنة التي ينهضُ عليها المجتمع ، وليس ذلك إلا لأنَّ الإسلام دينُ نظام ، كما أنه ينفردُ عن جميع الأديان بمنهجية فكرية حضارية ، تظهر خصوصيته كدين جاء للبشرية كلها ، فهدفه الأول صناعة المجتمع الإسلامي المنشود ، والأسرة باعتبارها القاعدة التي ينهض المجتمعُ على أساسها ، فهي محورُ اهتمام النظام الإسلامي ، فإذا صلحت صلح المجتمع ، وإذا فسدت فسد المجتمع كله؛ ولهذا كان اهتمامُ الإسلام بالأسرة انطلاقاً من العلاقة الزوجية والأولاد ومشكلاتهم في إطار الأسرة؛ كي تُصان من كل مظاهر الانشقاق والتمزق والانحلال ، فكان خطابه الأول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨١) ومسلم (٢٤٤١) والترمذي (٣٨٧٤) والنسائي (٧/ ٦٨).
(٢) رواه أبو داود (٤٩٩٩) وأحمد (٤/ ٢٧١ ـ ٢٧٢) والنسائي في عشرة النساء (٢٧٣).

رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

هذا الخطاب الموجَّه إلى الناس كافة؛ دعوةٌ للإنسان إلى الرجوع إلى الله؛ باعتبار البشرية كلها خُلقت من نفس واحدة. وهذا الخطاب الذي أراد الله سبحانه وتعالى تذكير الناس بالمصدر الذي صدروا عنه، ومن ثم إرجاعهم إلى خالقهم الذي أنشأهم في هذه الأرض، واستعمرهم فيها، ليس لهم مهمة سوى ما خُلِقُوا من أجله وهي العبادةُ لله سبحانه وتعالى، ثم التمكين الذي يقوم على الاعتراف بقدرة المولى عز وجل.

فقاعدة الحياة البشرية هي الأسرة منذ خَلَقَ الله آدم، فقد بدأ الخَلْقَ بنفس واحدة، ثم خلق منها زوجها، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء، ولو شاء الله سبحانه وتعالى لخلق من أول وهلة أسراً كثيرة، بعيدة عن بعضها، لا رحم بينها، ولا رابطة تربطها، لكن الله سبحانه وتعالىٰ لحكمةٍ يعلمها بدأ الخلق بأسرة واحدة، ثم تتابعت هذه الأسرة بأسر كثيرة.

وإن النظام الإسلامي قد أبدى عناية فائقة بالأسرة، وتوثيق عراها، وتثبيت بنيانها، وحمايتها من جميع المؤثرات التي توهن هذا البناء، وفي أول هذه المؤثرات: مجانبة الفطرة، وتجاهل استعدادات الرجل واستعدادات المرأة، وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها، وتكاملها لإقامة الأسرة من ذكر وأنثى[(١)].

وينبثق نظامُ الأسرة في الإسلام من معين الفطرة، وأصل الخلقة: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وندرك من خلال سَرْد هذه الآيات التي تظهر عناية الإسلام الفائقة بالأسرة؛ أنَّ النظام الأسري يخضعُ لمنطق الفطرة، ومن ثم كان نظامُ الأسرة هو النظام

(١) دستور الأسرة(٥١ ـ ٥٢).

الطبيعي الفطري المنبثق من أصل التكوين الإنساني ، بل من أصل تكوين الأشياء كلها في الكون ، على منهج الإسلام في ربط النظام الذي يقيمه للإنسان بالنظام الذي أقامه الله للكون كله .

إن الإسلام أقام نظام الأسرة على أسس واقعية متينة ، وهو في الوقت ذاته يقيم بناء المجتمع على قاعدة حقيقية قوية؛ بما فيها من الحق ، ومن مطابقة الواقع الفطري العميق ، وكل نظام يتجاهل حقيقة الأسرة الطبيعية هو نظام ضعيف الأسس ، ولا يمكن أن يستمر .

ولقد عُني الإسلام بصيانة الأسرة ، وإبعادها عن كل شبهة وحمايتها من كل دخل ، وأمارات تلك العناية ما يلي :

١ ـ عنايته بالعلاقة الزوجية ، واهتمامه بكل مرحلة من مراحلها ، حيث تعرَّض لمقدمة الزواج وهي الخطبة ، ودعا الزوجين إلى حسن الاختيار ، ليتعرف كل من الزوجين على الآخر من صفات النفس الخُلقية ، وصفات البدن الخَلْقية ، حتى إذا أقدم الطرفان على الزواج ، وأتمّاه ، فإنهما يقدمان وقد اقتنع كلٌّ بصاحبه وشريكه في حياة طويلة ، ولا شكَّ أن هذا التعارف يتم بالنظر إلى المخطوبة .

روىٰ النسائي وابن ماجه والترمذي أن المغيرة بن شعبة خطب امرأة ، فقال له النبي ﷺ : «انظرْ إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»[١] .

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة قال : كنتُ عند النبي ﷺ ، فأتاه رجلٌ ، فأخبره أنه خطب امرأة من الأنصار ، فقال له الرسولُ ﷺ : «أنظرتَ إليها»؟ قال : لا ، قال : «فاذهبْ فانظر إليها ، فإن في أعين الأنصار شيئاً»[٢] .

وروى أبو داود عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : «إذا خطب أحدُكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إليها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»[٣] .

وإذا كان الإسلامُ يدعو الرجل إلى النظرِ إلى مخطوبته ، فإنه أباح للمرأة النظر

---

(١) رواه الترمذي (١٠٨٧) والنسائي (٦/ ٦٩ ـ ٧٠) وابن ماجه (١٨٦٥).
(٢) رواه مسلم (١٤٢٤/ ٧٤ و٧٥) وأحمد (٢/ ٢٩٩) والنسائي (٦/ ٦٩).
(٣) رواه أبو داود (٢٠٨٢).

إلى الرجل الذي يخطبها؛ كنوع من المساواة التي يدعو إليها الإسلام بين الرجل والمرأة.

٢ ـ ما يترتَّب على الزواج من حقوق وواجبات ، قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٣ ـ العناية بثمرة الزواج ، من رضاعة الأولاد ، وحضانتهم ، والإنفاق عليهم ، وحسن تربيتهم.

٤ ـ عنايته بما قد يحدث من خلاف بين الزوجين ، حيث دعا إلى الصلح ، فعلى المرأة أن تحاول إصلاح زوجها ، وعلى الرجل مثل ذلك ، وإذا لم يتم الصلح تدخَّل حكمان أحدهما من أهله والآخر من أهلها.

٥ ـ تشريعه كلَّ ما يصون الأعراض؛ حماية للبيوت من التصدع والانهيار ، ومن ذلك:

أ ـ تحريمه الزنى ، قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢].

ب ـ تحريمه القذف ، فالإسلام يحرمُ مسّ العرض ولو بالكلام ، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟... ﴾ [النور: ٤ ـ ٥].

ج ـ تشريعه اللعان ، وذلك حين يجد الزوجُ انحراف زوجه ، ووقوعها في جريمة الزنى ، وليس لديه بينة ، فإنه يلاعن ، ويقوم لعانه مقام البينة.

د ـ الاستئذان عند الدخول؛ حتى لا ينكشف الداخل على عورات الناس ضمن البيوت.

هـ ـ على المرأة والرجل غضّ البصر ، ونَبْذ الاختلاط ، وبهذا يبتعد الناسُ عن المثيرات ، ويحمون أنفسهم من الوقوع في الزلات ، وهذا ضمان لعيش الأسرة في سلام ووئام.

*** الترغيب في الزواج من أهداف الإسلام لبناء المجتمع واستقرار الأسرة:**

الزواج هو الارتباط بين الرجل والمرأة، ومن معاني هذا الارتباط:

الاستئناس، والتناسل، وهذا هو المعنى المتداول. كما تُستعمل كلمة النكاح في معنى الزواج، وهذا كثير في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣].

فالزواج سُنَّة حميدة من سنن الله في هذا الكون، فقد اقتضت حكمته أن يخلق من كل شيء زوجين ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وعلى هذا فالازدواج سُنَّة من سنن الله في هذا الكون، وعمران الأرض، واستمرارُ الحياة متوقّفٌ عليه؛ لأن التكاثر بين الإنسان، والتكاثر بين الأنعام يتم عن طريق الزواج، قال تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

منافع الزواج:

من جملة المنافع التي يحققها النظام الأسري في العلاقة الزوجية:

أ ـ أنه الطريق الوحيد والسليم لإرواء الغرائز التي أودعها الله بدنَ كلٍّ من الرجل والمرأة، كما أنه يشبع الجانب الروحي عند الإنسان من التعاطف والتآلف؛ لأنه يُؤدي إلى استقرار النفس وسكونها.

ب ـ الزواجُ أحسنُ وسيلة للإنجاب، وتكثير النسل، وعمران الكون، فقد فُطرت النفوس على حب الأولاد: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ [النحل: ٧٢].

ج ـ يؤدي الزواج إلى تكامل عاطفة الأبوة والأمومة، ونمو مشاعر العطف والحنان، وهي ضروريةٌ لبناء مجتمع متماسك متآزر.

هـ ـ يدفعُ الزواجُ كلاًّ من الزوج والزوجة للعمل، فينطلق الزوج إلى العمل الجادّ من أجل تأمين مطالب الأسرة، وتسعى الزوجة جاهدة من أجل تربية أولادها التربية الحسنة.

و ـ يؤدي الزواج إلى ترابط الأسر، وتقوية أواصر المحبة بين أبناء المجتمع، فهذه الأسرة تصاهر تلك، وتلك ترتبط بأخرى، وبهذا يصبح

المجتمع كله أسرة واحدة ، وهذا هو مسعى الإسلام ، وهو من جملة أهدافه ، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤].

ومن أبلغ ما جاء في كتاب الله تصويره سبحانه وتعالى لتلك المنافع من الزواج قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٧] فكل من الزوج والزوجة يسعى ليحفظ الآخر ، ويحميه من المؤثرات التي تفسد أخلاقه ، فاللباس فيه الحفظ والمتعة والراحة ، فصدق الله العظيم.

ومن جملة ما حاول الإسلام حفظ الأسرة منه؛ ما أفرزته الحضارة الغربية المعاصرة في كثير من فلسفاتها ، ونقصد بذلك الإباحية ، التي تعني في الغرب حرية الممارسة الجنسية ، لكن الإسلام أدرك المخاطر التي تنتج عن الإباحية ، فسعى إلى إبعاد الأسرة المسلمة عن مضار هذه الدعوة الرخيصة. قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

نعم لقد فضل الله سبحانه وتعالى الإنسان ، فأعطاه نظاماً راقياً جعله ينظم حياته الجنسية وفق وسيلة راقية ، تبعده عن الحيوانيَّة ، وتجعل اتصاله الجنسي يعبِّر عن التكريم الذي كرمه الله به؛ ولهذا حرم الله الإباحية للاعتبارات التالية:

* حفظ منزلة الإنسان المكرم ، المتطلع إلى الكمال ؛ إذ لا يليق به أن يشبه الحيوان.

* قد تشبع الإباحية الجانب الجنسي ، لكنها لا تستطيع إشباع الجانب الروحي لدى الإنسان.

* تجعل الإباحية المرأة مجرد وسيلة للمتعة ليس إلا ، وبذلك تخرج المرأة عن طبيعتها الإنسانية من التكريم ، والحياء.

* تجعل الإباحية الحياة فوضىٰ ، حيث لا يكون للأولاد أهل معروفون ، يعنون بتربيتهم ، فيكون مآلهم الضياع ، وبالتالي يُحْرَمُون من عناية الأب ، وعطف الأم.

* الإباحية تنتج أبناء ليس لهم نسب يحافظون عليه ، ويعتزون به ، ولا أسرة

ينتمون إليها؛ مما يجعل الفرد مقطوع الأواصر والوشائج.

* الإباحية تتسبَّب في الكثير من الأمراض الضارة (كالإيدز مثلاً) وتشيع الكثيرَ من الأخلاق الفاسدة، وتنحدر المعاملات بين الناس إلى المستوى الغريزي البدائي، البعيد عن القيم الإنسانية الرفيعة. والأمم التي رضيت بالإباحية بادت وهلكت، والتاريخُ خيرُ شاهد على ذلك، فقوم لوط دليلٌ واضحٌ للأمم التي ذكر لنا القرآن حالهم، فقد جعل عالي قريتهم سافلها، وأمطرهم حجارة من سجيل كيلا ينتشر وباؤهم، فهم عبرة لمن يعتبر.

ومن جملة ما أباح الإسلام للرجل التعدد في الزوجات، فقد يظنّ الذي لا يدرك المعنى الحقيقي لإباحة التعدد أن هذا الأخير وسيلة لهدم الأسرة، وليس وسيلة مساعدة في بنائها، لكن الإسلام لم يبح التعدد إلا للضرورات التي تأتي لتقوِّض بنيان الأسرة، فأباح الإسلامُ التعدُّد للمحافظة على سياج الأسرة، وفي كثير من الحالات يكون التعددُ في صالح الزوجة الأولى، فقد تكون عاقراً، أو مريضةً، لا تستطيع أن تعتني بزوجها، فتكون الزوجة الثانية مساعدة لها ولزوجها، وبالتالي يبقى بنيانُ الأسرة متماسكاً.

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء: ٣].

إن إباحة تعدُّد الزوجات بذلك التحفُّظ الذي قرره الإسلام يجب أن يُؤخذ بيسر ووضوح وحسم، وأن تعرف الملابسات الحقيقية والواقعية التي تحيط بها[(١)].

جاء الإسلامُ لا لِيُطْلِق، ولكن ليحدِّد، ولا ليترك الأمر تابعاً لهوى الرجل، ولكن ليقيد التعدُّد بالعدل، وإلا امتنعت الرخصة المعطاة!.

فالتعدُّد ليس مطلوباً لذاته، كما يتبادر إلى الذهن، فهو متعب بلا مبرر من ضرورة فطرية أو اجتماعية، وبلا دافع إلا التلذذ الحيواني، والتنقل بين النساء! إنما هو ضرورة وحلّ لمشكلة، وهو ليس متروكاً بلا قيد، فإذا انحرف الرجل في استخدام الرخصة، فليس ذلك هدف الإسلام في تحليل التعدد، بل هو انحراف

---

(١) دستور الأسرة في الإسلام (١٧٨).

لجيل أساء التعامل مع النظام الإسلامي ، بل أكثر من ذلك راح يأخذ ما يوافق هواه ومزاجه ، فلو كان للإسلام سلطان في حياتنا المعاصرة ما استطاع أي متهور أو منحرف أن يستغل هذا النظام في إشباع رغباته ، وليقول أخيراً: هذا شرع الله.

إننا نوجِّه هذا الخطاب للذين يتَّهمون الإسلام بأنه دين امتهن المرأة ، ولم يجعلها سوى أداة للمتعة الجنسية ، نكرر فنقول: إن الإسلام لم ينشىء التعدد ، إنما حدَّده ، ولم يأمر به ، إنما رخَّص فيه ، وقيَّده. وإن هذه الرخصة لا تكون إلا لمواجهة واقع الحياة البشرية.

*** أسباب التعدد:**

من جملة أسباب تعدُّد الزوجات في الإسلام ما يلي:

* لقد خلق الله سبحانه وتعالى الذكر والأنثى ، وأودع في كل واحد منهما الميل للآخر ، وخشية استغلال هذا الميل من الاستمتاع بالنساء بشكل إباحي ، فقد أباح التعدد ليتم الاستمتاع عن طريق زواج شرعي ومحدود.

* في حال عدم استطاعة الزوج إحصان نفسه بزوجة واحدة ، بسبب ما تتعرض له من حمل وولادة وحيض أو بلوغ سن اليأس في وقت مبكر ، فلا بد أن يجمع إليها غيرها.

* إصابة المرأة بمرض لا تستطيع معه أن تقوم بواجباتها الزوجية ، فالأكرم لها أن تشاركها أخرى كيلا يضطر الزوج إلى طلاقها ، فيكسر خاطرها ، ويعكر عليها صفوَ حياتها.

* قد تكون الزوجة عقيماً لا تنجب ، ويكون الزوجُ يحبُّها ، ولا يريد الانفصال عنها ، وهي كذلك ، لكنه يحبُّ الأولاد في الوقت نفسه.

* زيادة عدد المطلقات والعوانس ، فليس لهن حل سوى الزواج بهن ومشاركتهن زوجات أخريات.

ولم يُبح الشرعُ التعدد على الإطلاق ، بل جعل له شروطاً منها:

١ ـ ألا يزيد العدد عن أربع في وقت واحد لأسباب لا تخفى ، وهذا ما صرَّحت به آية التعدد ، ونصَّت عليه السنة النبوية.

٢ ـ أن يعدل بين زوجاته ، ويسوّي بينهن في الحقوق ، وخاصة المادية ، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانت له امرأتان ، يميلُ مع إحداهما على الأخرى ، جاء يوم القيامة ، وأحدُ شِقَّيْه ساقِط»(١).

٣ ـ الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] يفيد الإباحة ولا يفيد الوجوب ، وبالتالي الزواج بأكثر من واحدة غير ملزم ، فالتعدد استثناء ، وليس أصلاً ، وهو رُخصة لمن يحتاج إليها.

* الواقع أنَّ ما تطرَّقنا إليه في الصفحات السابقة في كلامنا عن النظام الأسري ، هو توضيح للعلاقة بين الرجل والمرأة في الأسرة ، هذه العلاقة التي تُعدُّ العمود الفقري للنظام الأسري في التصور الإسلامي ، لكن يبقى هناك جانب آخر أعطاه الإسلام الاهتمام الكبير ، ونقصد به تربية الأولاد ، وما يتعلق بهم في إطار الأسرة المتماسكة.

حقوق الأبناء في الإطار الأسري:

إنَّ من مظاهر الاستقرار النفسي في إطار الأسرة: التربية الجيدة للأولاد ، فهم زينةُ الحياة الدنيا كما أخبر المولى سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] قال الشاعر:

وإنما أولادُنا بيننا ... أكبادُنا تمشي على الأرضِ

حقاً إن الأولاد فلذات الأكباد ، وهم بضعة من الآباء ، وكثيراً ما ينظر الوالد إلى الولد على أنه أعز من نفسه وأغلى. ولما كان الأبناء زينة الحياة الدنيا ، فقد رتب الله عز وجل حقوقاً على الآباء للعناية بهم ، ورعايتهم ، وتربيتهم على أكمل وجه ، فهم الذخيرة والعدة ، ومِنْ خير ما يخلف المرء ، قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له»(٢).

---

(١) رواه أبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) والنسائي (٧/ ٧٤) وابن ماجه (١٩٦٩).
(٢) رواه مسلم (١٦٣١) والبخاري في الأدب المفرد (٣٨) وأبو داود (٢٨٨٠).

ومن العناية بالأولاد:

* تسميتهم بأحسن الأسماء، وأحبِّها، فقد كان النبي يغيِّر الاسم القبيح.

* ختانهم: قال رسول الله ﷺ: «الفطرة خمس: الاختتان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط»[1].

* يُستحب أن يؤذِّن في أذن الولد عند ولادته.

* أن يعقَّ عنهم: وقد وردت في العقيقة أحاديث عديدة عن النبيِّ ﷺ.

* أن ينسب المولود إلى أبيه.

* حقوقهم في الرضاع: وهذا أمر مقرَّر شرعاً وعرفاً إلى أن يبلغوا الفطام.

* الحنو عليهم ورحمتهم؛ وقد أثنى النبيُّ ﷺ على صالح نساء قريش بسبب حنوهنَّ على أبنائهن، فقال: «خيرُ نساءٍ ركبن الإبلَ صالحُ نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده»[2].

وقد دخل الأقرعُ بن حابس على النبي ﷺ، فرآه يقبِّل الحسن أو الحسين، فقال: يا رسول الله! إن لي عشرة من الولد ما قبلتُ واحداً منهم، فقال النبي ﷺ: «أَوَ أَمْلِكُ لكَ أنْ نَـزَعَ اللهُ الرحمة من قلبك؟!»[3].

* أن يكون الآباء والأمهات قدوة حسنة لهم في أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم؛ لأن الأولاد يراقبون آباءهم وأمهاتهم، ويقتدون بهم، ومن واجب الأهل أن يعتنوا بأولادهم، ويبعدوهم عن الفساد ومواقع الرذيلة والضلال.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

* تعليمهم القرآن، وهذا حقّ من حقوقهم، قال ﷺ: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه»[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٨٩١) ومسلم (٢٥٧).
(٢) رواه أحمد (٢/٢٦٩) ومسلم (٢٥٢٧/ ٢٠٠ و٢٠١).
(٣) رواه البخاري (٥٩٩٨) ومسلم (٢٣١٧).
(٤) رواه البخاري (٥٠٢٧) وأبو داود (١٤٥٢) والترمذي (٢٩٠٨) وابن ماجه (٢١١).

* تعليمهم الصلاة ، وأمرهم بها ، وضربهم عليها إذا ما بلغوا عشراً ولم يصلّوا؛ قال ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناءُ سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين ، وفرِّقوا بينهم في المضاجع»[(١)].

* النفقة عليهم ، وهذه من حقوق الأبناء على الآباء إلى أن يستطيع الأبناء إعالة أنفسهم ، قال ﷺ: «أفضلُ دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله»[(٢)] وجاء في حديث آخر: «أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»[(٣)].

* تنشئتهم على آداب الإسلام وأخلاقه مع أنفسهم ومع الآخرين ، وأن يُعوَّدوا على الحياة الجادة الخشنة ، ولا يكون هذا إلا بالابتعاد عن الترف والميوعة ، وأن ينأى الآباء بالأبناء عن رفقاء السوء ، فمن واجب الآباء أن يوجِّهوا أبناءهم لاختيار الأصدقاء الصالحين.

* عدم التمييز بين الأولاد ، فقد حدَّث النعمانُ بن بشير رضي الله عنهما: أن أباه أتى به رسول الله ﷺ ـ وكان والده قد أعطاه عطية ـ فقال رسول الله ﷺ: «أكلّ ولدك نحلتَ مثل هذا؟!» فقال: لا ، فقال رسول الله ﷺ: «فأرجعه» وفي رواية: فانطلق أبي إلى النبي ليشهده على صدقتي ، فقال: «أفعلت هذا بولدك كلهم؟» قال: لا . قال: «اتقوا الله ، واعدلوا بين أولادكم» فرجع أبي فردَّ تلك الصدقة[(٤)].

فالتمييز بين الأولاد يوغر صدور بعضهم على بعض ، ويُولِّد العداوات والأحقاد بينهم.

* الإرث ، فمن حق الأبناء أن يرثوا آباءهم وأمهاتهم ، والنصوص الشرعية واضحة قاطعة.

حقوق الوالدين:

بعد أن تحدَّثنا عن حقوق الأبناء نحاول أن نتحدث عن حقوق الوالدين؛ كي يتمَّ الاستقرار في الإطار الأسري ، وجملة هذه الحقوق هي:

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٤) والترمذي (٤٠٧).
(٢) رواه مسلم (٩٩٤) والترمذي (١٩٦٦).
(٣) رواه مسلم (٩٩٥).
(٤) رواه البخاري (٢٥٨٦) ومسلم (١٦٢٣/ ٩ و١٢ و١٣) والنسائي (٦/ ٢٥٨).

١ ـ الإحسان إليهما ، قال تعالى: ﴿ ۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ ﴾ [الإسراء: ٢٣]. فقد قرن الله سبحانه وتعالى الإحسان إلى الوالدين بعبادته ، فهذا أمرٌ وحكم وإلزام.

٢ ـ البر بهما ، وعدم الإساءة إليهما ، ولو بأقل تصرف من كلام أو فعل ، وأقل الإساءة إليهما بالكلام كلمة أفٍّ ، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

٣ ـ التواضع لهما إلى حدِّ الذل ، وهذا ليس عيباً ، بل هو مندوب ومطلوب ، قال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] فإذا توجَّب على المسلم أن يكون ذليلاً لأخيه المسلم ، فمن باب أولى ذلّه لوالديه ، وتواضعه لهما.

٤ ـ وجوب رحمتهما ، والدعاء لهما ، فالمعروف أن الوالد ينتفع بدعاء ولده ، قال ﷺ: «إذا مات الإنسانُ انقطع عملُه إلا من ثلاث: صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له»[١].

٥ ـ وجوب شكرهما ، قال عز وجل: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ٣٤] فقد قرن الله سبحانه وتعالى شكره بشكر الوالدين.

٦ ـ تقديم برِّهما على الجهاد في سبيل الله ، فقد سأل عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه النبيَّ ﷺ: أي العمل أحبّ إلى الله عز وجل؟ قال: «الصلاة على وقتها» قال: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[٢].

هكذا حاول الإسلام أن يعالج كلَّ القضايا التي تواجه الإنسانَ ، فأعطاه الحلَّ الأمثل ليحافظ على كيان الأسرة؛ التي تُعتبر القاعدة الأساسية لبناء المجتمع الإسلامي ، وهذا هو هدفُ الإسلام الأسمى.

العلاقة الزوجية:

ونقصد بها تلك الخصوصية في العلاقة التي يجب أن تسود بين الزوج وزوجه ، فلكي تستمر ينبغي أن يسود التفاهم والوئام ، فقيادة البيت تكون لأحد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٥٢٧) ومسلم (٨٥).

الطرفين ، ويكون الآخر معاوناً له ، فالزوج باعتبار القوامة يجب أن يكون هو ربّ البيت ، وتكون زوجه مساعدة له.

فأول مهمة يجب أن تدركها الزوجة هي أن تتفهم زوجها ، وتتعرف إلى صفاته ، ورغباته ، وما الأشياء التي ينفر منها ، وبعد ذلك تقوم بالتكيف معها ، كما يجب على الزوج أن يتفهَّم ذلك؛ ليتم الاستقرارُ المطلوب في إطار الأسرة.

لكن الزوجة انطلاقاً من طبيعتها وفطرتها الإنسانية تقوم بتهيئة الجو السعيد في البيت ، فإذا استطاعت أن تجعل زوجها يرغبُ في العودة إلى البيت ، ويقضي معها أكثر أوقاته ، تكون قد أفضت على البيت الاستقرار النفسي المطلوب.

قال ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ؛ دخلت الجنة»[1]. وقال أيضاً: «أوّل ما تسأل المرأة يوم القيامة عن صلاتها ، وعن بَعْلها كيف عملتْ إليه»[2].

ولكي يتم الاستقرار المطلوب بين الزوجين يتوجَّب على الزوجة أن تراعي زوجها ، لاسيما في النقاط التالية:

١ ـ الطاعة: فأولى الواجبات التي يجب أن تقدمها الزوجة لزوجها هي طاعته فيما يأمر من غير معصية الله تعالى ، وهي بذلك تكسب قلب زوجها ورضا المولى سبحانه وتعالى؛ ولذلك يقول النبي ﷺ: «لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرتُ المرأة أن تسجدَ لزوجها. والذي نفس محمد بيده ، لا تؤدِّي المرأة حقَّ ربِّها حتى تؤدي حق زوجها»[3].

وهذا التعبير من النبي ﷺ ليس فيه إهانة للمرأة ، بل هو تعبير دقيق لما يجب على الزوجة تجاه زوجها ، فالطاعة هي التي تميز المرأة الصالحة عن المرأة العاصية ، فقد قال ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ألا أخبرك بخير ما يكنز

---

(١) رواه ابن ماجه (١٨٥٤).
(٢) رواه أبو الشيخ في الثواب ، كما في كنز العمال (٤٥٠٩٤).
(٣) رواه أحمد (٤/ ٣٨١) وابن ماجه (١٨٥٣) وابن حبان (٤١٧١) والحاكم (٤/ ١٧٢) والبزار كما في كشف الأستار (١٤٦١).

المرء؟ المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرَّته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته»[1].

٢ ـ التودُّد للزوج : فعلى الزوجة أن تتودَّد لزوجها ، أي: أن تهتم به وبراحته ، فتسارع إلى فعل ما يدخل السُّرور على قلبه قبل أن يأمرها به. قال ﷺ: «إن الله يُحبُّ المرأة الملقة»[2] أي: المتوددة إلى زوجها بشتَّى الوسائل.

يُروى عن القاضي شريح أنه قال لما تزوج: من أول يوم دخلت على امرأتي رأيت فيها حسناً فاتناً ، فقلت في نفسي: أصلي ركعتين شكراً لله ، فلمَّا سلَّمتُ وجدتُ زوجتي تصلِّي بصلاتي ، وتسلِّم بسلامي. فلمَّا مددتُ يدي نحوها قالت: على رسلك ، كما أنت يا أبا أميَّة. ثم قالت: الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأصلي على محمد وآله ، إنّي امرأة غريبة لا عِلْم لي بأخلاقك ، فبيِّن لي ما تحبُّ فآتيه ، وما تكره فأتركه. قال شريح: فقلت: أحمد الله وأستعينه ، وأصلي على النبي وآله وبعد ، أحبُّ كذا وكذا ، وأكره كذا كذا ، وما رأيت من حسنة فانشريها ، وما رأيت من سيئة فاسْتُريها. فقالت: كيف محبَّتك لزيارة أهلي؟ قلت: ما أحب أن يملُّوني. فقالت: من تحب من جيرانك أن يدخلَ دارك فآذن له ، ومَنْ تكره فأكره؟ قلت: بنو فلان قوم صالحون ، وبنو فلان قوم سوء».

هكذا يجبُ أن تكون الزوجة الصالحة مع زوجها.

٣ ـ التزيُّن له: من الوسائل التي تجعل الزوج يحبُّ زوجه: رؤيتها في صورة حسنة ، فالزوجة المسلمة تراعي هذا الجانب المهم في الرجل ، فلا تظهر إلا بالمظهر الحسن؛ لذا نهى النبيُّ ﷺ أن يطرق الرجلُ أهله ليلاً حتى تمتشط الشعثة ، وتستحِدَّ المغيبة[3].

يعني بذلك: أن المرأة في حال غيبة زَوجها مُتبذِّلة ، لا تمتشط ، ولا تدَّهن ،

---

(١) رواه أبو داود (١٦٦٤) والحاكم (٢/ ٣٣٣) وأبو يعلى (٢٤٩٩).

(٢) رواه الديلمي في مسند الفردوس ، كما في كنز العمال (٤٥١٣٠).

(٣) رواه مسلم (٧١٥/ ١٨٢).

«الشعثة»: التي علاها الشَّعث ، وهو الغبار والوسخ في الشعر.

و«تستحد»: تستعمل الحديدة في حلق الشعر. و«المغيبة»: التي غاب عنها زوجُها.

ولا تتنظف بالشكل المطلوب ، فلو بَغَتَها زوجها من سفره ، وهي على تلك الحال ، استقذرها ، ونفرتْ نفسُه منها ، وربما يكون ذلك سبب فراقها ، فإذا قدم نهاراً سمعتْ بخبر قدومه ، فأصلحتْ من شأنها ، وتهيَّـأت له ، فحسنت الحال ، وأمنت النفرة المذكورة.

وفيه من الفقه: أنَّ المرأة ينبغي لها أن تتحسَّن ، وتتزيَّن ، وتتطيَّب ، وتتصنَّع للزوج بما أمكنها ، وتجتهد في ألَّا يرى منها زوجُها ما تنفر نفسُه منها بسببه؛ من الشعث والوسخ ، وغير ذلك[1].

٤ ـ رعاية البيت: لا شكَّ أنَّ مهمة البيت من نصيب المرأة ، فالرجل مهمته أن يكدح خارج البيت من أجل الرزق ، والسهر على مصالح أسرته ، وتأمين متطلِّبات بيته ، لكن رعاية الأولاد ، وتربيتهم ، وإيجاد الجو السعيد في البيت ، والدِّفء والحنان من واجب المرأة.

فلكي تحافظ المرأة على الأسرة عليها أن تقوم بهذه المهمة على أحسن وجه ، قال ﷺ: «والمرأة راعية على بيت بعلها وولده ، وهي مسؤولة عنهم»[2].

٥ ـ حفظها لنفسها: قال ﷺ: «خير النساء امرأةٌ إذا نظرتَ إليها سرَّتْكَ ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبتَ عنها حفظتْك في مالها ونفسها»[3].

وهكذا تسعى المرأةُ للمحافظة على الجو الأسري، وتحقيق الاستقرار الكامل.

● **عوامل قيام الأسرة السعيدة:**

ثمة عوامل عديدة لبناء الأسرة المستقرة ، ومن تلك العوامل:

* أن يسود الحب الحقيقي ربوع الأسرة ، فنجد الإخلاص وإيجاد الأعذار في حال الخطأ.

* احترام الذات ، والثقة بالنفس للوالدين ، والمبادرة لخدمة الأطفال وتقديم كل عون ومساعدة لهم.

---

(١) المفهم (٣/ ٧٣٧).
(٢) رواه البخاري (٥١٨٨) ومسلم (١٨٢٩).
(٣) رواه ابن جرير كما في كنز العمال (٤٤٤٧٧).

* أن تكون قوانين الأسرة مستندة إلى الشرع ، ومبنية على الاحترام المتبادل بين أفراد الأسرة جميعاً.

* وضوح الدور المناط بكل فردٍ في الأسرة ، فالأب هو الموجِّه والقيِّم وكاسب العيش ، والأم تعتني بالأطفال ، وتطيع زوجها ، وتدبر أمور المنزل.

* التخطيط المناسب والجيد للأسرة ، فمثلاً يتم وضع خطط للإنفاق على البيت ، وتوفير قسم من المال للأزمات والطوارىء ، والتخطيط للأثاث واستهلاكه ، وكيفية استقبال طفل جديد. . . الخ.

* أن تكون الأوامر الصادرة للأطفال من جهة واحدة ، إما من الأب أو من الأم ، وإن صدرت من كليهما فيجب ألا تكون متعارضة ، وأن تكون الأوامر واضحة ومفهومة ومصاغة بلغة يفهمها الطفل.

* استخدام الثواب والعقاب في الأسرة بشكل سليم وضمن ضوابط محددة.

* حماية الأسرة من التفكك ، والانفلات ، والطلاق ، ويُعطى كل فرد حقه في التعبير عن رأيه وفكره.

* أن تكون العلاقة بين الوالدين تقوم على الاحترام والتراحم والوفاق والمحبة ، فيشعر الأطفال بالأمن والاستقرار.

* العدل بين الأولاد ، وعدم تفضيل أحد الجنسين على الآخر.

* ضرورة وجود الأم في البيت ، فهي المؤثرة في تكوين الأطفال نفسياً ، وهم بحاجة إلى الشعور بالأمن والطمأنينة ، ولا تُغني الروضة ولا دور الحضانة عن الأم.

* عدم تفضيل طفل على حساب آخر في الأسرة ، فذلك يُوجد الحسد والكره والتوتر النفسي.

* تحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد الأسرة.

* تحديد الحقوق والواجبات ، وهذه المسألة تحدثنا عنها بالتفصيل في فصل سابق.

* حض الأطفال على بر الوالدين ومحبَّتهم.

* إقامة ترابط وثيق بين أفراد الأسرة ، وتشجيع صلة الأرحام.

* المحافظة على الصحة البدنية؛ لأنها شرط من شروط الصحة النفسية ، فالمرض صعب ، وقاسٍ ، ويُضعف العلاقات.

* القدرة على مواجهة المشكلات بصبر وتحمُّل وهدوء ، وإيجاد الحلول المناسبة لها ، دون تسرُّع ، أو انفعال ، وإلاَّ تشوَّه التفكير ، وارتدَّ السلوك نحو الحضيض.

* وَضْع خطة للنشاط في المستقبل ، مع اختيار الذكريات الملائمة التي تبعثُ على السرور وتُلائم الواقع ، وعدم العيش مع الماضي بكل تفاصيله؛ لأنه أوهام وخداع.

* التوفيق بين الراحة والعمل ، فالزوجة التي تزعج زوجها وقت راحته ، وتكون طلباتها التي لا تنتهي كمطارق الحدَّاد ، وضرباته على السندان ، هي زوجة جاهلة ، تدفع زوجها للغضب ، أو الخروج من البيت ، أو اعتبار الزواج جحيماً لا يُطاق. فليكن المنزل راحة للنفس ، وشفاء لها من أورام الحياة ، ومتاعب العمل.

* ثِقْ بنفسك ، وتتكون الثقة بالمحاور التالية:

- الأخذ من الثقافة العامة بنصيب وافر.

- تجاهل السفهاء ، وعدم الالتفات لانتقادات الناس التي لا تنتهي ، فالزوج العَصِيُّ على النقد هو رجل ناجح؛ فتعليقات الناس مستمرة ، وعلى الإنسان أن يتحرر من الجزع إثر كلام الناس ، فالتجاهل دواء ناجع.

* ضرورة تجديد الحياة كل فترة وأخرى:

- فيعيد تنظيم حياته ، فيحاسب نفسه على عيوبها للتخلص منها.

- وضع خطة لمنهج الحياة وتعديلها وفق الأحسن والأسلم.

* ضرورة توافر القناعة والرضا ، لتهدأ النفس ، وتقنع برزق الله ، فالناس درجات.

* التكافؤ بين الزوجين ينشىء الاستقرار ، فلا يرى أحدهما أن له فَضْلاً على صاحبه ، فلا يزدريه.

* تقليد الغرب وذوي الإسراف حماقة وطيش ، ويهزُّ الاستقرار الأسري من أعماقه.

* * *

الخاتمة

لا بُدَّ لنا في ختام هذا البحث أن نحمد اللهَ عز وجل أن وفَّقنا للكتابة في موضوع: «المرأة المسلمة في العالم المعاصر» ، والذي نرجو أن يحوز على القبول والرضا ، وأن ينفع اللهُ تعالى به المسلمين والمسلمات في كلِّ البقاع ، وأن يجعله عملاً صالحاً لنا في دار البقاء ، ويكتب مثلَ ثوابه في صحائف والدينا ، إنه ـ سُبحانه ـ على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

وكلُّنا أملٌ أن يأخذ هذا البحثُ مكانتَه في المكتبة الإسلامية ، وأن تنتشر أفكارُه في أذهان الأمة ، كي تفيق من غفلتها ، وتعي مسؤوليتها تجاه الأسرة ، فتجنِّد لها كل الإمكانات المعنوية والمادية والعلمية ، استشعاراً بعظم المسؤولية الملقاة على كاهل الأسرة ، وخاصَّة في العالم المعاصر .

ولقد برزتْ من خلال البحث عدةُ نتائج ، وهي :

(١) أن المرأة المسلمة مهيأة لتربية الأجيال التربية الفاضلة ، وغرس الفضائل ، وتثبيت القيم ، وإشاعة جوّ من الأمن والمودة والسكينة في الأسرة ، باعتبارها العنصر الأهم لتحقيق الاستقرار .

وفي زمن الشرود عن منهج الله تعالى ، ولُغُوب الفلسفة الغربية ، ورَهَق الآراء الضالة ، لا يَسَعُ الأسرةَ المسلمة إلا التمسُّكُ بالهدي القرآني ، والسنة النبوية؛ لتصحيح المسار ، وتنضير الحياة ، والنهل من المنبع النقي؛ لتعزيز الأمن والسكينة ، وانتشال الحيارى من وهدة الضَّعة ، وتبعية الهوان .

(٢) التحديات التي تواجهها الأسرة المسلمة كبيرة وعنيفة ، إذ يُراد لها أنْ تتآكل ، وتتحلَّل ، وتتقوَّض ، وتهبط إلى المستنقع الآسن ، في وحول النأي عن الحق والصواب والصَّلاح ، إثر ابتعادها عن رباط العقيدة ، ونظام الإسلام ، فأرجاسُ المادية تشرئبُّ هنا وهناك ، تبثّ الشعارات المزرية والشعائر الهابطة ، وتلوِّث المشاعر ، وتشوِّه المفاهيم؛ لذا تبدو رسالةُ الأسرة في العالم المعاصر أشدّ صعوبة ، وأعظم أجراً ، فلكي تطهر القلوب ، وتصفو التصورات ، وتتنظّف المشاعر ، تقوم الأسرةُ بدور تربوي عميق ومستمر ، من أجل تحقيق النقلة القاسية من الابتزاز والغبن والحيف ، إلى غَرْس الفضيلة ، والقيم ، والعضّ عليها بالنواجذ.

(٣) المرأة في الإسلام لها حقوق لا تُنكر ، فلها حق التملك ، والاحترام ، وأهلية التعاقد وتحمُّل الالتزامات ، وإجراء العقود ، ولها شخصية مستقلَّة منذ العهد النبوي ، وهي تشاركُ الرجلَ في العبادات والأنشطة الاجتماعية والسياسية. . .

كما أنَّ عليها واجبات جُلَّى ، وأهمها: طاعة الزوج في غير معصية الخالق ، وتربية الأولاد ، ورعايتهم ، وتنمية أجسادهم وعقولهم وأرواحهم ، وجعلهم يحيون في ظلال مشاعر الحب والرحمة والود والطمأنينة.

ولا يتحقق ذلك على الوجه المطلوب ، والشكل الأمثل؛ إلا في الأسرة؛ التي لا يقوم مقامَها أيُّ جهازٍ آخر ، أو محضن تربوي ، فتكوين الطفل وتربيته لا بُدَّ له من وجود أسرة متماسكة متحابة ، ولا نلتفت إلى هياج أعداء الأسرة التائهين عن النظام الفطري والطبيعي والاجتماعي للإنسان ، فهم منحرفون في تصوُّراتهم ، ومصابون باضطرابات نفسية ، إذ ينأون عن الجادَّة الصحيحة ، ويريدون من الأُسَر أن تُثَلَّ عروشها؛ ليصطادوا في الماء العكر ، ويعلنوا الجحودَ للحقائق والثوابت والمقوِّمات.

(٤) التقاء الزوجين يُمثِّل سكناً للنفس ، وأنساً للروح ، واستقراراً للأطفال ، فينشأ الجيل يحمل أمانة الحياة بطهر ونظافة.

أمَّا خصوم الأسرة ، وأعداء الطفولة ، فيسعون بكلٍّ جهدهم لجعل الزواج نزوةً عابرة ، ولذَّة عارضة ، وتحويل المرأة عن المهمة المقدَّسة ، وجَعْلها عارضةً للأنوثة والفتنة ، تابعةً لخطوات الشيطان ، فالإسلام يحثُّ على النكاح ، والخصوم يريدون التفلُّت من النظام ، والبعد عن الفطرة ، وإغراق الرجل والمرأة في أتون الشهوة ، واقتحام لجج الفواحش.

(٥) الأسرة المسلمة تُمثِّل وحدةَ المجتمع ، ونظامه الذي يقوم عليه ، ومن التحديات التي تواجه الأسرة من قبل أعدائها؛ أنَّهم يريدون غزوَ الفكر لتغيير التصور ، وبالتالي يبتعد المرءُ عن مبادىء دينه ، وتتزعزع العقيدة في قلبه .

ومن ذلك الغزو الفكري: عَقْد المؤتمرات التي تطمح لتحقيق غاية دنيئة؛ تُعطي المرأة مفتاح الهروب من الالتزام ، واللجوء إلى أحضان الانحطاط والسَّفاهة والاضمحلال ، كذلك عمل أولئك الغزاةُ على إلقاء بذور الشك والفتنة في نفوس الناشئة ، والمرأة؛ لإفساد العقيدة ، ونَشْر الريب ، والتَّحلل من الالتزامات الأسرية ، إلى جانب التجارة بالفن ، وإشاعة الأدب الماجن ، وبثّ الأفكار الضالة ، وإغراق الجميع بالنزوات والشهوات.

وكانت حركةُ تحرير المرأة ، والشبهات المثارة حول الطلاق ، وتعدُّد الزوجات ، تشكِّك الناس في أمر دينهم ، وتعزفُ نَغْمةَ النَّشاز في دروب الحياة.

كما أنَّ خصومَ المرأة نادوا بتحطيم نظام الأسرة المسلمة ، وجعلوا المرأةَ تنادي بحقوق تنافي تعاليم الإسلام ، وما ذلك إلا تحطيماً للحقِّ ، وإبعاداً المرأة عن الغاية من وجودها ، وتهديم المحضن الفطري للتربية السليمة لأولئك الأطفال؛ الذين يزعجهم خروجُ المرأة من بيتها ، فعانوا مرارة القلق ، وعنف الإحباط ، والتوتر النفسي ، وبالتالي بلغ خصومُ الأسرة مآربهم ، وحقَّقوا بعضاً من مرامهم.

(٦) قامت الأسرة في الإسلام على قواعد تنظيمية ، ومنها: النهي عن زواج المسلم بمشركة أو زانية أو مرتدّة ، كما نهى الإسلامُ عن زواج المتعة والشغار والمحرمات. . .

وهذا التشريعُ لتنظيم العلاقات ، وبناء المجتمع بناءً سليماً؛ امتثالٌ للنظرية

الإسلامية في التحليل والتحريم ، والمستندة إلى المصدر الرباني.

(٧) إنَّ العلاقات الأسرية مقدَّسة ، تقومُ على مسألة الحق والواجب ، وضرورة كون الأحكام ترتكز على العدالة في التعامل والمعاشرة ، فالعلاقات في الأسرة وسيلة للتطهر الروحي ، والنظافة الشعورية ، وهذا يكفلُ الاستقرار والاستمرار ، ما دام الجميعُ يُحلِّقون في مقام طاعة الله تعالى.

وها هي الحضارةُ الغربية تشهدُ تفكُّكَ الأسرة لبعدها عن الدين الصحيح ، فأصبحت العلاقاتُ الأسرية مجردَ عقودٍ مدنية ، الهدفُ منها تحقيق المتعة ، ونيل المنفعة.

(٨) للأسرة رسالة تربوية رائدة ، ففي ظل العلاقة المقدسة بين الرجل والمرأة يتلقى الطفلُ مشاعر الخير ، ودروس التوحيد ، ويُغرس فيه زَرْعُ الإيمان ، ومن هنا نؤكِّد على دور الوالدين في تربية أبنائهما التربية السليمة ، وتحمُّل متاعب الطفولة؛ حتى يشب الأبناء عن الطوق ، ويأخذوا دورهم في صُنْع المستقبل الرَّغيد.

وختاماً ، نسألُ اللهَ عز وجل أن ينفعَ بهذا البحث ، راجين دعوةً ممن يقرؤه ، ففي ذلك الكفاء والغَناء ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

* * * *

* * *

* *

*

الفهارس العلمية

* فهرس الآيات القرآنية
* فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
* فهرس الأعلام
* فهرس الشعر
* فهرس الأماكن والبلدان والبقاع والمدن والقرى
* فهرس القبائل والطوائف والأمم
* فهرس المصادر والمراجع
* فهرس الموضوعات

فهرس الآيات القرآنية

(٣) سورة آل عمران

(٢) سورة النساء

(٥) سورة المائدة

(١٧) سورة الإسراء

(١٨) سورة الكهف

(٢٠) سورة طه

(٢١) سورة الأنبياء

(٢٢) سورة الحج

(٢٣) سورة المؤمنون

(٢٤) سورة النور

(٢٥) سورة الفرقان

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث	رقم الصفحة

ـ ب ـ

ـ ت ـ

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

* * *

فهرس الأعلام

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

* * *

فهرس الشعر

ـ هـ ـ

* * *

فهرس الأماكن والبلدان والبقاع والمدن والقرى

* * *

فهرس القبائل والطوائف والأمم

* * *

فهرس المصادر والمراجع

(١) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، ليوسف بكار ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧١م.

(٢) الآداب ، للبيهقي ، اعتناء وتعليق أبي عبد الله المندوة ، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨م.

(٣) أجنحة المكر الثلاثة ، لعبد الرحمن حبنكة ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٩٧٥م.

(٤) أحكام القرآن ، لابن العربي ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار المعرفة ، بيروت.

(٥) الأحكام النبوية في الصناعة الطبية ، للكحال ، تحقيق عبد السلام حافظ ، مكتبة البابي الحلبي ، ط١ ، ١٩٥٥م.

(٦) إحياء علوم الدين ، للغزالي ، دار قتيبة ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٢م.

(٧) الأخلاق الإسلامية ، لعبد الرحمن حبنكة ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٩٧٩م.

(٨) الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية ، لمحمد عبد الحكيم خيال ومحمود الجوهري ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ١٩٧٩م.

(٩) أدب الإملاء والاستملاء ، للسمعاني ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٥٢م.

(١٠) الأدب المفرد ، للبخاري ، تخريج محمد فؤاد عبد الباقي ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٩م.

(١١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، لعلي جريشة ومحمد الزيبق ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٨م.

(١٢) **أسباب النزول** ، للواحدي ، تحقيق أحمد صقر ، دار القبلة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٧م.
(١٣) **الأسرة في المجتمع** ، للدكتور محمد زياد حمدان ، دار التربية ، عمان ، ١٩٩٠م.
(١٤) **الأسرة والمجتمع** ، للدكتور علي عبد الواحد وافي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٤٨م.
(١٥) **الإسلام والمشكلة الجنسية** ، للدكتور مصطفى عبد الواحد ، دار الاعتصام ، ١٩٧٧م.
(١٦) **أشعار خارجة على القانون** ، نزار قباني ، منشورات نزار قباني ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٢م.
(١٧) **أشعار الخليع** ، جمعها وحققها عبد الستار أحمد فراج ، دار مجلة شعر ، بيروت ، ١٩٦٠م.
(١٨) **أصول التربية النبوية** ، لعبد الرحمن النحلاوي ، دار الفكر ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٨٣م.
(١٩) **أصول الفكر التربوي في الإسلام** ، للدكتور عباس محجوب ، مؤسسة علوم القرآن بدمشق ، ودار ابن كثير ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧م.
(٢٠) **الأعلام** ، للزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٨ ، ١٩٨٤م.
(٢١) **الإعلام والتغريب الثقافي** ، للدكتور عبد القادر طاش ، مكتبة التراث الإسلامي ، مصر ، ط١ ، ١٩٩١م.
(٢٢) **الأعمال الكاملة** ، لقاسم أمين ، دراسة وتحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية ، بيروت ، ١٩٧٦م.
(٢٣) **أعيان الشيعة** ، لمحسن الأمين ، تحقيق حسن الأمين ، دار التعارف ، بيروت ، ١٩٨٣م.
(٢٤) **الأغاني** ، لأبي الفرج الأصبهاني ، طبعة مصوَّرة عن طبعة دار الكتب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
(٢٥) **أقضية رسول الله ﷺ** ، لابن فرح القرطبي ، دار الوعي ، حلب ، ط١ ، ١٩٧٦م.
(٢٦) **الأم** ، للشافعي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٣م.
(٢٧) **الأنكحة الفاسدة والمنهي عنها في الشريعة الإسلامية** ، للدكتور أمير عبد العزيز ، مكتبة الأقصى عمان ، ط١ ، ١٩٨٢م.

(٢٨) أهداف التربية الإسلامية ، للدكتور ماجد الكيلاني ، مكتبة دار التراث ، المدينة المنورة ، ط٢ ، ١٩٨٨م.
(٢٩) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، للكاساني ، تحقيق محمد عدنان درويش ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٩٧م.
(٣٠) بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، لابن رشد ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٨م.
(٣١) بروتوكولات حكماء صهيون ، ترجمة محمد خليفة التونسي ، قدَّم له عباس محمود العقاد ، المكتب العربي - بيروت ، ط٤.
(٣٢) تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٩٧م.
(٣٣) تاريخ الأمم والملوك ، للطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٧م.
(٣٤) تحفة المودود بأحكام المولود ، لابن قيم الجوزية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٩م.
(٣٥) تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، لرفاعة الطهطاوي ، تحقيق مهدي علام وزملائه ، شركة مصطفى البابي الحلبي ، مصر.
(٣٦) التربية الإسلامية وفلاسفتها ، لمحمد عطية الأبراشي ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٩م.
(٣٧) تفسير التحرير والتنوير ، لمحمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية ، تونس ، ١٩٨٤م.
(٣٨) تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٠م.
(٣٩) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٤م.
(٤٠) تفسير القرطبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
(٤١) تفسير المراغي ، لأحمد مصطفى المراغي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٢م.
(٤٢) التفسير الواضح ، للدكتور محمد محمود حجازي ، دار الجيل ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٦٩م.

(٤٣) **التلفزيون والتغير الاجتماعي في الدول النامية** ، للدكتور سعيد آل زعيتر ، دار الشروق ، جدّة .

(٤٤) **تهذيب الآثار** ، للطبري ، تخريج محمود شاكر ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، الرياض ، ١٩٨٣م .

(٤٥) **تهذيب الأخلاق** ، لابن مسكويه ، تحقيق قسطنطين زريق ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ، ١٩٦٦م .

(٤٦) **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** ، لعبد الرحمن السعدي ، مراجعة علاء السعيد ، مكتبة نزار الباز ، مكة المكرمة ، ١٩٩٥م .

(٤٧) **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** ، للثعالبي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٥م .

(٤٨) **جامع الأمهات** ، لابن الحاجب ، حقّقه أبو عبد الرحمن الأخضري ، دار اليمامة ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٨م .

(٤٩) **جمهرة الأمثال** ، للعسكري ، تحقيق وتعليق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش ، دار الجيل ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٨م .

(٥٠) **حاشية الدسوقي على الشرح الكبير** ، للدردير ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٤٠م .

(٥١) **حديث الأربعاء** ، لطه حسين ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٢م .

(٥٢) **حصوننا مهددة من داخلها** ، للدكتور محمد محمد حسين ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٧م .

(٥٣) **حق الزوجة على الزوج** ، ليوسف علي بديوي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٧م .

(٥٤) **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه** ، للعقاد ، المكتبة العصرية ، بيروت .

(٥٥) **حقوق المرأة في الإسلام** ، لكوثر الميناوي ، دار الأمل ، الرياض ، ط٢ ، ١٩٩٣م .

(٥٦) **الحلال والحرام في الإسلام** ، للدكتور يوسف القرضاوي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط١٥ ، ١٩٩٤م .

(٥٧) **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** ، لأبي نعيم الأصفهاني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٧م .

(٥٨) **حياة الصحابة** ، للكاندهلوي ، بعناية نايف العباس ورفيقه ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٩٦٨م.
(٥٩) **الداء والدواء** ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق يوسف علي بديوي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٨٩م.
(٦٠) **دائرة المعارف** ، للبستاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٦م.
(٦١) **دستور الأسرة** ، لأحمد فايز ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٩٢م.
(٦٢) **دلائل النبوة** ، لأبي نعيم الأصبهاني ، تحقيق محمد رواس قلعجي وعبد البر عباس ، دار التراث ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م.
(٦٣) **دلائل النبوة** ، للبيهقي ، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م.
(٦٤) **ديوان امرىء القيس** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨م.
(٦٥) **ديوان أبي نواس** ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت.
(٦٦) **ديوان أوس بن حجر** ، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠م.
(٦٧) **ديوان ديك الجن** ، جمع وتحقيق مظهر الحجي ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٧م.
(٦٨) **ديوان الزهاوي** ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٢م.
(٦٩) **ديوان المعاني** ، للعسكري ، عالم الكتب ، بيروت.
(٧٠) **ديوان المتنبي** ، وضعه عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٠م.
(٧١) **رد المحتار على الدر المختار** ، لابن عابدين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م.
(٧٢) **رسائل الجاحظ** ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة.
(٧٣) **زاد المعاد** ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٨٤م.

(٧٤) **زهر الآداب** ، للقيرواني ، تحقيق : علي البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر ، ط٢ ، ١٩٧٠ م .

(٧٥) **الزهاوي : دراسات ونصوص** ، جمعها عبد الحميد الرشودي ، قدَّم له الدكتور يوسف عز الدين ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٦م .

(٧٦) **سبل السلام شرح بلوغ المرام** ، للصنعاني ، صحَّحه وعلق عليه وخرج أحاديثه فواز زمرلي وإبراهيم الجمل ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م .

(٧٧) **السعادة** ، لسعدي أبو جيب ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٧م .

(٧٨) **السعادة الزوجية ومقوماتها في ظل الإسلام** ، ليوسف علي بديوي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٩٤م .

(٧٩) **سنن ابن ماجه** ، تحقيق فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٧٥م .

(٨٠) **سنن أبي داود** ، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، دار الحديث ، حمص ، ط١ ، ١٩٧٣م .

(٨١) **سنن الترمذي** ، تحقيق أحمد شاكر وآخرين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٨٢) **سنن الدارقطني** ، علق عليه مجدي الشورى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٦م .

(٨٣) **سنن النسائي** ، بشرح السيوطي وحاشية السندي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٨٤) **السنن الكبرى** ، للبيهقي ، دار الفكر ، بيروت .

(٨٥) **السنن الكبرى** ، للنسائي ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٤م .

(٨٦) **سير أعلام النبلاء** ، للذهبي ، تحقيق جماعة من الأفاضل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٥م .

(٨٧) **السيرة النبوية** ، لابن هشام ، تحقيق السقا ورفيقيه ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، ط٢ ، ١٩٥٥م .

(٨٨) **شرح صحيح مسلم** ، للنووي ، رئاسة البحوث العلمية والإفتاء ، السعودية .

(٨٩) **الشرح الصغير** ، للدردير ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٥م .

(٩٠) **شرح فتح القدير** ، لابن الهمام ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٨٠م.
(٩١) **شرح المعلقات السبع** ، للزوزني ، تحقيق يوسف علي بديوي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩١م.
(٩٢) **الشعر في بغداد** ، لعبد الستار الجواري ، مطابع دار الكشاف ، بيروت ، ١٩٥٦م.
(٩٣) **الشعر والشعراء** ، لابن قتيبة ، تحقيق أحمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٦م.
(٩٤) **شعراء عباسيون** ، لغوستاف غرنباوم ، ترجمة الدكتور محمد يوسف نجم ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٥٩م.
(٩٥) **شهادات ماسونية** ، لحسين حمادة ، دار قتيبة ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٨٣م.
(٩٦) **الشوقيات** ، لأحمد شوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت.
(٩٧) **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان** ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٣م.
(٩٨) **صحيح ابن خزيمة** ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٠م.
(٩٩) **صحيح مسلم** ، تحقيق فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
(١٠٠) **ضعيف الجامع الصغير** ، للألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٠م.
(١٠١) **طبقات الشعراء** ، لابن المعتز ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، مصر ، ط٢ ، ١٩٨١م.
(١٠٢) **الطبقات الكبرى** ، لابن سعد ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت.
(١٠٣) **الطفل العربي ووسائل الإعلام وأجهزة الثقافة** ، لعاطف عدلي العبد ، ١٩٨٨م.
(١٠٤) **الطفل والتلفزيون** ، لميريه شالفون وآخرين ، ترجمة علي وطفة وفاضل حنا ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٦م.
(١٠٥) **طفولة نهد** ، نزار قباني ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٥٥م.

(١٠٦) **طوق الحمامة** ، لابن حزم الأندلسي ، ضبط نصّه وحرر هوامشه الدكتور الطاهر مكي ، دار المعارف ، مصر ، ط٣ ، ١٩٧٧م.

(١٠٧) **العبادة في الإسلام** ، للدكتور يوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢٤ ، ١٩٩٣م.

(١٠٨) **العبودية** ، لابن تيمية ، دار المدني ، جدة ، ١٩٧٨م.

(١٠٩) **عشرة النساء** ، للنسائي ، حققه وعلق عليه عمرو علي عمر ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م.

(١١٠) **العصر العباسي الأول** ، للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط٢ ، ١٩٦٩م.

(١١١) **عظماء على فراش الموت** ، ليوسف علي بديوي ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٣م.

(١١٢) **علل الحديث** ، للرازي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٥م.

(١١٣) **العلم رفعة وخشية** ، ليوسف علي بديوي ، دار الكلم الطيب ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٧م.

(١١٤) **العلم يدعو للإيمان** ، لكريسي موريسون ، ترجمة محمود صالح الفلكي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٥٥م.

(١١٥) **العناية بهامش فتح القدير** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

(١١٦) **الغارة على العالم الإسلامي** ، لشاتليه ، لخّصها ونقلها إلى العربية مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب ، منشورات العصر الحديث ، ط٢ ، ١٣٨٧هـ.

(١١٧) **الغيرة** ، لإبراهيم المصري ، دار المعارف ، مصر ، سلسلة اقرأ رقم (١٥٨) سنة ١٩٥٦م.

(١١٨) **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** ، لابن حجر العسقلاني ، حققه محب الدين الخطيب ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، ط٤ ، ١٤٠٨هـ.

(١١٩) **الفردوس بمأثور الخطاب** ، للديلمي ، تحقيق السعيد زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م.

(١٢٠) **الفقه الإسلامي وأدلته** ، للدكتور وهبة الزحيلي ، دار الفكر ، دمشق ، ط٤ ، ١٩٩٧م.

(١٢١) **في ظلال القرآن** ، لسيد قطب ، دار الشروق ، بيروت والقاهرة ، ط٢٤ ، ١٩٩٥م.
(١٢٢) **فيض القدير** ، للمناوي ، دار المعرفة ، بيروت.
(١٢٣) **قالت لي السمراء** ، نزار قباني ، منشورات نزار قباني ، بيروت. ط١.
(١٢٤) **القاموس المحيط** ، للفيروز آبادي ، دار الفكر للجميع.
(١٢٥) **قصة الحضارة** ، لول ديورانت ، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرين ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٧١م.
(١٢٦) **قصص القرآن** ، لمحمد أحمد جاد المولى ورفاقه ، ضبطه وشرح غريبه وعلق عليه يوسف علي بديوي ، مكتبة التربية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م.
(١٢٧) **قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة** ، لمحمد الغزالي ، دار الشروق ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٩٢م.
(١٢٨) **القوانين الفقهية** ، لابن جزي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٤م.
(١٢٩) **الكشاف** ، للزمخشري ، دار المعرفة ، بيروت.
(١٣٠) **كشاف القناع عن متن الإقناع** ، للبهوتي ، تحقيق محمد أمين الضناوي ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٩٧م.
(١٣١) **كشف الأستار عن زوائد البزار** ، للهيثمي ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٤م.
(١٣٢) **كشف الخفاء ومزيل الإلباس** ، للعجلوني ، بعناية أحمد القلاش ، مكتبة التراث الإسلامي ، حلب.
(١٣٣) **كنز العمال** ، للمتقي الهندي ، بعناية حياني والسقا ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٥م.
(١٣٤) **لسان العرب** ، لابن منظور ، دار صادر ، بيروت.
(١٣٥) **لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها** ، للدكتور محمد أمين المصري ، دار الفكر ، دمشق.
(١٣٦) **ليس من الإسلام** ، لمحمد الغزالي ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٧م.
(١٣٧) **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** ، لأبي الحسن الندوي ، دار القلم ، الكويت ، ط١٤ ، ١٩٩٢م.

(١٣٨) **ماذا عن المرأة** ، للدكتور نور الدين عتر ، دار الفكر ، دمشق ، ط٤ ، ١٩٨١م.
(١٣٩) **مباهج الفلسفة** ، لول ديورانت ، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٢ ، ١٩٥٧م.
(١٤٠) **المبسوط** ، للسرخسي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٦م.
(١٤١) **مجمع الأمثال** ، للميداني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٧م.
(١٤٢) **مجلة حضارة الإسلام** ، دمشق.
(١٤٣) **مجمع الزوائد** ، للهيثمي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٦٧م.
(١٤٤) **المحب والمحبوب والمشموم والمشروب** ، للسري الرفاء ، تحقيق مصباح غلاونجي ، طبع مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٨٦م.
(١٤٥) **مدارج السالكين** ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٩٧م.
(١٤٦) **المدونة الكبرى** ، لمالك بن أنس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٤م.
(١٤٧) **المرأة بين الفقه والقانون** ، للدكتور مصطفى السباعي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٣.
(١٤٨) **المرأة في الإسلام** ، لريم الخياط ، دار اليمامة ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٨م.
(١٤٩) **المرأة في التاريخ والشرائع** ، لمحمد جميل بيهم ، بيروت ، ١٩٢١م.
(١٥٠) **المرأة في مختلف العصور** ، لأحمد خاكي ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٤٧م.
(١٥١) **المرأة المسلمة أمام التحديات** ، لأحمد الحصين ، دار البخاري ، السعودية ، ط٥ ، ١٩٨٦م.
(١٥٢) **المرأة المسلمة المعاصرة** ، للدكتور أحمد بابطين ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ط٣ ، ١٩٩٣م.
(١٥٣) **المرشد الأمين للبنات والبنين** ، للطهطاوي ، ضمن الأعمال الكاملة ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٣م.
(١٥٤) **مساوىء الأخلاق** ، للخرائطي ، تحقيق عبد القادر عطا ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ١٩٩٣م.
(١٥٥) **المستدرك على الصحيحين** ، للحاكم النيسابوري ، دار المعرفة ، بيروت.

(١٥٦) **المستطرف في كل فن مستظرف** ، للأبشيهي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٨٦م.
(١٥٧) **المستقصى في أمثال العرب** ، للزمخشري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٧م.
(١٥٨) **مسند أبي داود الطيالسي** ، دار المعرفة ، بيروت.
(١٥٩) **مسند أبي يعلى الموصلي** ، تحقيق حسين أسد ، دار المأمون ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٤م.
(١٦٠) **مسند الإمام أحمد بن حنبل** ، دار الفكر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٨م.
(١٦١) **مشكلات أسرية وعلاجها** ، للدكتور أحمد الحجي الكردي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٨م.
(١٦٢) **مصارع العشاق** ، لابن السراج ، دار صادر ، بيروت.
(١٦٣) **المطالب العالية** ، لابن حجر العسقلاني ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٩٣م.
(١٦٤) **المعجم الكبير** ، للطبراني ، تحقيق حمدي السلفي ، وزارة الأوقاف ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨١م.
(١٦٥) **مغني المحتاج** ، للإمام النووي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨م.
(١٦٦) **مفتاح السعادة** ، لابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
(١٦٧) **مفردات ألفاظ القرآن** ، للراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوان داودي ، دار القلم ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٩٧م.
(١٦٨) **المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم** ، تحقيق يوسف علي بديوي وآخرين ، دار ابن كثير دمشق ، ودار الكلم الطيب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٦م.
(١٦٩) **المقاصد الحسنة** ، للسخاوي ، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشت ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٦م.
(١٧٠) **مقدمة ابن خلدون** ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت.
(١٧١) **المقتطف من عيون التفاسير** لمصطفى المنصوري ، حققه وخرج أحاديثه محمد علي الصابوني ، دار القلم ، بيروت ، والدار الشامية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٦م.
(١٧٢) **مقتطفات من الأدب الإسلامي والأموي** ، لسليمان الخش ، مطبعة الداودي ، دمشق ، ١٩٨٢م.

(١٧٣) **من روائع حضارتنا** ، للدكتور مصطفى السباعي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٧م.
(١٧٤) **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان** ، حققه وخرج نصوصه حسين أسد وعبده كوشك ، دار الثقافة العربية ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٠م.
(١٧٥) **الموسوعة الفقهية** ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الكويت ، ط١ ، ١٩٩٢م.
(١٧٦) **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم** ، للتهانوي ، تحقيق الدكتور علي دحروج ورفيقيه ، مكتبة لبنان ، ط١ ، ١٩٩٦م.
(١٧٧) **المهذب في فقه الإمام الشافعي** ، للشيرازي ، تحقيق الدكتور محمد الزحيلي ، دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٢م.
(١٧٨) **الموطأ** ، لمالك بن أنس ، صححه ورقّمه محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة.
(١٧٩) **نحو أسرة مستقرة** ، لمحمد السمان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٦م.
(١٨٠) **النظام الدولي الجديد بين الواقع والتصور الإسلامي** ، لياسر أبو شبانة ، دار السلام ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٨م.
(١٨١) **النظافة** ، ليوسف بديوي وأحمد السيد ، دار الكلم الطيب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٦م.
(١٨٢) **النهاية في غريب الحديث والأثر** ، لابن الأثير ، تحقيق محمود الطناحي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
(١٨٣) **نيل الأوطار** ، للشوكاني ، تحقيق أحمد السيد ومحمود بزال ومحمد أديب الموصلي ، قدَّم له وخرج أحاديثه : محيي الدين مستو ويوسف بديوي ، دار الكلم الطيب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩ م.

بالإضافة إلى مصادر ومراجع أخرى

فهرس الموضوعات

هذا الكتاب

دراسة علمية جادة تتحدث عن الأسرة المسلمة، والتحديات المثارة ضدها، مع توضيح الحقائق الإسلامية عن الأسرة ووظائفها، وأهدافها، وقواعد تنظيم بنائها، وإبراز الدور الحضاري، الذي تضطلع به لبناء الفرد، وإشادة صرح المجتمع.

وتم توضيح رسالة الأسرة المسلمة اليوم ، من خلال غرس مفاهيم القرآن الكريم والسنة النبوية في نفوس الأطفال ، علاوة على التصدي للانحلال الخلقي ، وصون الجيل الناشىء من الانحراف.

اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات - ص.ب ٣٧٧ - تلفاكس ٥٩.٢١٢٢.٢١٢٢ - ٢١٢٣٢٤٥
بيروت - ص.ب ٥٤٨٨ / ١١٣ - تلفاكس ٤٧٥٨٥٧ ١. - جوال ٨٥٣٥٨٦ ٣.
البريد الالكتروني: alyamama@scs-net.org